رقصات التيه

رقصات التيه

رقـصـات الـتـيـه

رقصات التيه

سامي معروف

رقصات التيه

رواية

دار الفارابي

الكتاب: رقصات التيه

المؤلف: سامي معروف

samymaaroof@hotmail.com

الغلاف: جاد أبي حنّا

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: آذار 2013

ISBN: 978-9953-71-977-1

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:

www.arabicebook.com

إلى كل سجين:

سجين الجسد وسجين الروح،

سجناء الوطن وسجناء العالم كلهم.

إن الأحداث الواردة في هذه الرواية واقعية وليست حقيقية. وإذا بدا أن هناك تشابهاً ما..

في مكان ما مع الحقيقة.. فهذا من قبيل الصدفة لا أكثر. منعاً للإلتباس اقتضى التنبيه.

رقصات التيه

في الشارع ظلال تركض مسرعةً..
كأفعىً تخلع جلدها.
يوماً ما سأخرج وأحدق في الشمس بقوة،
وأصرخ أنا هنا.. وأركض لأرتمي في حضن نفسي،
وسوف أبكي أيضاً.. ولن يراني بشر.

أحد السجناء

سئل جورج برنارد شو وقد أصبح شيخاً عجوزاً:
هل تحب العودة إلى الحياة؟
أجاب: لا. لئلا يفهم أنـي أضعتها سدىً.

1

من يسد أذنيه عن صراخ المسكين فهو أيضاً يصرخ ولا يستجاب
أمثال 21: 13

لا أحد يحب قيوده ولو كانت من ذهب
أبراهام لنكولن

آب 2009.

حشد وصخب وصياح عند بوابة المدخل.

«يا قضاة الناس لا تكونوا جلاديهم»

«العدل أساس الملك»

«لك يوم يا ظالم»

«السجناء بشر وليسوا كلاباً»

«ذنب البريء أن لا نصير له»

«إرحموا أهلنا وأولادنا يرحمكم الله»

«يا أصحاب النخوة والضمائر الحية.. باسم العدل والرحمة والإنسانية والأخلاق ساعدونا حتى نطعم ونكسي أولادنا المسجونين»

هذه عينة من شعارات كثيرة كانت سابحة فوق مد بشري عملاق في الساحة أمام بوابة مدخل السجن.

مئات من الرجال والنساء توافدوا منذ الصباح إلى الساحة عند المدخل رافعين أصواتهم ولافتاتهم.. وما يميز التظاهرات في ربوعنا الصغيرة هذه ليس البيان الحضاري المهذب.. فالتظاهرة هنا دائماً والسجالات لها نكهتها الخاصة! ولها مازتها من اللعن والسباب والشتائم، كما جلسات الكيف واللذة لا تطيب بغير النكات البذيئة.

رجال أمن منتشرون على حدود الجماهير. صحافيون يقفزون بكاميراتهم من مكان إلى آخر ليتصيدوا حديثاً.. تارةً من متظاهر متحمس وطوراً من ضابط أمن.. أو من سائق عمومي يلعن يومه وسوء طالعه، حديثاً يكون ناراً تلتهم أقلامهم ومقالاتهم، وقد تحرق ألسنة هذه النار أو تدفئ أو تنير! ومهنة الإعلامي يؤرجحها أبداً حبلان: وجع الناس ووجع الراس! أصوات المتظاهرين متشابهة.. لأن الدموع المرة تتدفق دائماً من نبعة واحدة هي الألم. قلوب زاحفة تشدها طلبة واحدة «علة» واحدة، وكذلك الترياق الواحد. سهام الرماة الجائعة تتسابق نحو الطريدة الواحدة، ومرضى المعدة لا يجتمعون إلا عند باب طبيب الجهاز الهضمي. جمّ غفير وآمال كثيرة وعناوين تنشر على حبال الاعلان والاعلام.. أرادوها صرخةً مسموعة.. مدوية! ولكن آذان السامعين هنا تسمع ولا تعي.. وعيونهم ترى ولا تبصر، وقلوبهم كعليقة موسى تلتهب ولا تحترق.

هتافات صياح تدافع بالأيدي مطالب بيانات خطابات.. تلاسن إشكالات رمي حجارة إشعال دواليب قطع طرق.. عيارات نارية في الفضاء صهاريج

مياه كبيرة ضرب بالهراوي الغليظة.. ولا يخلو الأمر من سقوط جرحى أو قتلى... إنها التـتبيلة الشهية التي تلقمها اليوميات لأسماع العامة وعيونهم. والوطن الصغير هذا بات تربةً صالحة لبذار الذات الداخلية الصغرى والذات العالمية الكبرى! كالطفل تغريه قطعة الحلوى وتزجره عبسة الحلواني. لقد أصبح البلد نسيجاً غريباً من ماض غير متفق عليه وحاضر بيع لآت لا يأتي، ومستقبل تهتز تحت قدميه حجارة الموزاييك الداخلي الرك: ماض ممزق وحاضر كسيح ومستقبل مرهون.

جمهور ملتهب كشمس آب اللاهبة! وزحمة السير الخانقة تلهب الأعصاب في صبيحة من صبيحات الصيف الحارة عند المدخل الشمالي للمدينة. بيد أن ناجي كان لاهياً عن حر الصيف بلهيب شوقه لبداية أول يوم عمل له في الجمعية.

لا يدري ناجي كيف رحب به داخل أسرة العاملين في الجمعية.. لم يدرس العلوم الاجتماعية في الجامعة كسواه، ولا خبرة عملية له في هذا المجال. ولكن إلحاحه ورسائله لمدير الجمعية المفعمة بعاطفة غامضة، ومعرفته القديمة بالجمعية ومديرها ومحامييها لعشرين عاماً.. أدت مهمة الإقناع بنجاح فقبل به.

ناجي العرم رجل بلغ الخامسة والأربعين في مسيرة غربته في هذه الدنيا، ولكن سنواته هذه تعب وبلية[1]. ولد في بلدة من بلدات السفوح الغربية المشرفة على البحر، وميزة هذه البلدات أن أهلها لا هم قرويين ولا هم مدنيين! ففي هذه البلدات صفاء وجاذبية القرية وفيها كذلك نكهة الحركة

(1) مزمور 90: 10.

والحذاقة المُدُنية. إنها توليفة رائعة لدروب القرية وشوارع المدينة، بساتين القرية ومتاجر المدينة، أقبية القرية الحجرية العتيقة وأبنية الهندسة المُدُنية الحديثة. وحياة الناس في هذه السفوح حافظت على بعض من عادات وتقاليد القرى.. ودفء العلاقات الإنسانية، ولكنها في الوقت عينه راحت تنهل من الحداثة والتكنولوجيا العصرية الباهرة! ولم لا؟! أمن الضرورة دائماً أن يتحارب التقليد والحداثة؟! ألا يمكن أن يتحابا ويتعايشا في سلام؟! الحداثة لا تريد أن تلغي الذات التقليدية، بل أن تكمل وتزيد. عندما ظهرت السينما نعى بعضهم المسرح.. بيد أن المسرح نما بقوة أكثر وزاد جمهوره واطرد. وعندما ظهر التلفزيون قال بعضهم بنهاية السينما والمسرح معاً. ولكن السينما والمسرح باقيان طائرين يحلقان ويستخدمان أجنحة وأرياش الوسائل العصرية الحديثة. في بلداتنا السفوحية يحب الأحداث «الدبكة» كما يحبون الكمبيوتر.. والأغاني الزجلية كما الأغنية الغربية.. ودق النواقيس ورفع المحادل والأجران كما التراسل عبر الهواتف الخليوية. وكذلك الحب له نكهته الخاصة في هذه البلدات السفوحية: فحيث أن الحب المُدُني يعيش في الأندية وصالات السينما والمقاهي المخملية الدافئة وكابينات الهواتف العمومية، وفي رحاب الجامعات وعلى الشطوط الرملية و«السناسيل» وفي السهرات الصاخبة. وفي الآونة الأخيرة في التظاهرات! والتظاهرات الكبرى فضاآت رائعة لنشوء العلاقات الحميمة بين الأحداث والشبيبة خصوصاً بعد السجال السياسي العنيف و«ما إلك صديق إلا بعد خناقة»[1].

أما في البلدات السفوحية فالحب أعمق لسبب عمق العلاقات الإنسانية

(1) مثل شعبي.

وحرارتها. يولد الحب هنا في باحة الكنيسة يوم الأحد.. ويتغذى في ساحة البلدة وينمو وراء القبو الحجري العتيق.. ويشب تحت قنطرة ويقوى قرب الدكاكين ويضحك على درب المقابر ويبكي في بساتين التين والزيتون.. ويتواعد تحت صفصافة ويتخاصم عند مياه السبيل ويتصالح في «القهوة» ولكنه الحب هو هو جرداً وساحلاً شرقاً وغرباً سهلاً وجبلاً. الحب لا جغرافيا له ولا تاريخ ولا بيئة ولا مجتمع ولا تقليد... إنه فقط باحث عن الحياة.. وحيث الماء والهواء يعيش الحب.

في بيت محافظ أمين على الموروث من القيم وحب الآخر نشأ ناجي. لا شيء يميز طفولته وحداثته عن مجايليه، كبر أمام عيون ذويه عاقلاً رائقاً، قامة ربعة وبشرة حنطية وعينان مشرقتان، أنف دقيق وشفتان زهريتان لامعتان، يعشق الموسيقى وكرة القدم. درس الهندسة المعمارية ونال الشهادة وأحب وتزوج. بيد أن الحقيقة المرة التي يعرفها كل الناس هي أن زواجه من حبه الأول والوحيد أودى به إلى التهلكة. أمضى الشاب ناجي زهاء عشرين عاماً في السجن خبيئاً منسياً. والحياة تعبر أحلاماً تلو أحلام. إنها كالتكنولوجيا سريعة في رحلتها وتعيناتها. الحياة خارج السجن كالزئبق تفر من بين الأصابع.. ولكنها في الداخل دستور معلق إلى أجل غير مسمى. السجين حي وميت في آن معاً! بل السجن هو «بروفا للموت» ومسموح للسجين أن يحيا في أحلامه فقط. إن البناء النفسي للسجين يفتته صدأ كصدأ المحرك الذي لم يستعمل منذ سنوات. توقفت حياة ناجي عشرين عاماً بيد أن حياة الآخرين واصلت مسيرتها.. والمرء الذي تسبقه الحياة تغطيه بغبار عدوها وضجيجها، كفرس جموح يطرح عنه كل من لا يحسن ركوبه.

يذكر ناجي جيداً ذلك اليوم الماطر الذي خرج فيه إلى الحرية. كان يوماً عاصفاً من أيام كانون الثـاني 2003. عناصر أمن قلائل بلباس النايلون، وسائقون عموميون لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد، ومبنى الجمعية كأن لا حياة فيه، والأمطار الغزيرة تصده أن يرجع أدراجه إلى ظلمة السجن وممراته العفنة الكئيبة. لا أحد في انتظاره عند البوابة.. وثب بسرعة تحت المطر إلى الردهة الزجاجية المسقوفة بالقرميد عند مدخل بناء الجمعية (عطاء بسرور)[1]. نفض الرذاذ عنه وفرك راحتيه ثم أشعل لفافة. (عطاء بسرور) هو اسم الجمعية التي تعنى بشؤون السجناء وتأهيلهم ومساعدتهم قضائياً. عبر ناجي الردهة إلى الداخل واقترب من شباك الاستعلامات الزجاجي.. عرفته عايده موظفة الاستعلامات:

– مبروك يا ناجي على إخلاء السبيل! حمداً لله على السلامة.

فأجاب ناجي بنبرة لا بهجة فيها ولا حياة:

– شكراً لك يا عايده.. أنت عايده أليس كذلك؟

– أجل أنا عايده يا ناجي، قل ماذا تريد؟ بم أستطيع أن أخدمك؟

قال ناجي بهدوء ينم عن عدم وجود أي عجلة من أمره.. وكأن السجن عطل فيه جهاز استشعار الزمن.. أو أن ما فات مات بالنسبة إليه.. ولا أهمية الآن لعدّ الدقائق والأيام.. ولا حتى السنين.

– هل السيد كميل موجود؟

فأجابت عايده من وراء الزجاج بلطف واهتمام:

– ليس موجوداً.. ولكنه سيكون هنا في غضون نصف ساعة. إجلس وانتظر سأطلب لك فنجان إسبريسو.

---

(1) الرسالة الثانية للرسول بولس 7:9.

- شكراً لك أنت لطيفة.. أفضل القهوة لو سمحت.

مر نصف الساعة وناجي جالس في زاوية الردهة لا حس ولا حركة في المكان. ألفى ناجي نفسه أيضاً ينتظر.. فكأنه انتقل من سجن صغير إلى سجن أرحب. وهل السجن غير الانتظار؟ نحن سجناء ما ننتظر. إذا كان المرء راهباً في هيكل ذكرياته فهو حبيس ماضيه، والحاضر دائماً حالة انتظار إلى أن يبدأ المستقبل، والمستقبل بدوره سجن لما يليه. إذا كان الانسان ينتظر السعادة هو سجين الكآبة، وإذا كان ينتظر النجاح فهو سجين الجهاد، وإذا كان ينتظر الثروة فهو سجين الفقر، وإذا كان ينتظر الحب فهو سجين الوحدة، وإذا كان ينتظر الحقيقة فهو سجين الوهم، وإذا كان ينتظر الموت فهو سجين الحياة! هكذا الحياة تمرحل وصيرورة من سجن إلى آخر حتى يصل المرء إلى الحرية الكاملة الحقيقية عند انحلاله من ثوبه المائت! ولكن إلى أين؟

دخل السيد كميل ورأى ناجي جالساً.. فاقترب وعانقه بحرارة:

- ناجي!! ألف مبروك على إخلاء سبيلك. الحمد لله على السلامة يا حبيبي.

- شكراً لك يا سيد كميل.. الله يسلمك. أنا مديون لك بحياتي، وقوفكم إلى جانبي كان دائماً سبب عزاء لي.

- لا شكر على واجب يا ناجي هذه رسالتنا.. وواجبنا. تعال ادخل لنحسو القهوة.

فقال ناجي بارتياح:

- لقد شربت لتوي فنجاني الثالث.

وعندما جلسا في مكتب السيد كميل سأل هذا الأخير:

- إلى أين أنت ذاهب؟ ما هي توجهاتك بعد إخلاء السبيل الرائع هذا؟

فأجاب ناجي بلطف مقتضباً:

- كما تعلم يا سيد كميل لا إنسان لي. أختي في أميركا هي وعائلتها من أوائل التسعينات ولم تزرني قط في السجن، ووالداي توفاهما الله منذ زمن.. أنتم عائلتي يا سيد كميل. أحتاج لمأوى ريثما أجد عملاً.

فضحك السيد كميل ثم قال:

- بسيطة يا أخي، أنت مهندس ولديَّ أصدقاء مهندسون.. ستعمل عما قريب إن شاء الله. وفي الوقت الحاضر سأخلي لك غرفة في هذا البناء إلى أن تتدبر أمرك.

أشرقت عينا ناجي الحادتان وضاءت ملامحه.. وبدا أن الحياة تريد أن تبتسم له في يوم الحرية هذا. عاد فسأل:

- ولكني لا أحسن استخدام الكمبيوتر يا سيد كميل.. والرسم الهندسي اليوم كله على أجهزة الكمبيوتر!

فقال المدير:

- أنت مهندس ذكي.. أشهر قليلة وتصبح سواقاً ماهراً على الكمبيوتر.

كان هذا منذ سنوات.. ولكنه اليوم وفي هذا الصباح الحار عاد ناجي إلى الجمعية بعد غياب سنتين.. ليبدأ عمله كمساعد اجتماعي إلى جانب ثلة من العاملين في الجمعية. لقد بات راسخاً في وجدانه أن روزنامة الأيام برمجت له جدولاً لا يقدر أن ينهج سواه.

لم تكن هذه السنوات الأربع من الحرية جيدة بالنسبة له.. فهو لم يشعر أثناءها بأنه حر قط. ولج المجتمع كأنه مهاجر جاء إلى بلد غريب! وجوه غابت

ووجوه تغيرت ووجوه تشرئب.. الرجال والنساء.. القيم والعادات.. الأشغال والمشاريع.. الرؤى والأهداف.. القرى والمدن.. الشوارع والأبنية.. الطيور والأشجار.. البحر والجبل.. تغير وتحول في كل مكان! أين هو من هذه الرموز والأحاجي؟! أين هي بقعة طفولته وحداثته؟! أين هو مرسح حياته؟! لقد هُدم!! سحقته محدلة سنوات الأسر الثقيلة! لاح لناجي أن عليه أن يبني مرسحاً آخر.. ولكن بأدوات جديدة قد لا يحسن استخدامها.

ممحاة السجن كانت كافيةً لمحو ما بقي في عقله من الهندسة المعمارية.. مهما تقدم يبق رساماً..! والعمر قصير لانطلاقة جديدة. عيون الناس لا زالت تحدق إلى العشرين سنة.. الأيام حررته والعيون لا زالت في كل رمقة ترميه في الغرف المعتمة. التحفظ والتردد وانعدام الثقة والتجاهل والشفقة والحيرة أقزام سبعة تسير به أنى ذهب. خرج جسده من الأسر بيد أن الحياة والناس لم يحلوه من خطيئة ماضيه. وألم الروح غير ألم الجسد وغربة النفس غيرها في الجسد. عمل رساماً لسنتين ولم يتغير شيء.. وحدة ووحشة وفراغ وغربة وحنين يبحث عن لا شيء.. كأن أثقال السجن أخف من أثقال الحرية.. وبنيته النفسية بدأت تشيخ إزاء الأثقال.. هو نفسه بات ثقلاً على الحياة. عنَّ له ذات يوم أن يعود إلى السجن! أن يهرب من السجون الكثيرة المتناثرة في كل ناحية.. إلى غرفة واحدة في سجن (بريحان). تراه يعود بواسطة الجريمة أيضاً؟! كل ما حوله يطارده ويسخر منه ويتنكر له ويصيح به كما يصيح الصبيان بشحاذ مجنون: «أخذت الأجيال مكانك فلا مكان لك هنا».. كأن الحياة طابور من الناس.. إذا خرج واحد من مكانه لا يسمح له بالعودة ثانية.

فكر كثيراً.. كثيراً جداً.. لوحده.. والوحدة مشيره الوحيد. فرأى أن يدرس

شيئاً في العلوم الاجتماعية لبضعة أشهر في أحد المعاهد تعينه في العمل. لقد أرخت المرحلة بظلالها القاتمة في نفسه.. وأبصر من بعيد رسالته الآتية في بريد العزلة والغربة تقول: « أدّ دورك.. واعمل عملاً في حياة السجناء الذين شاركتهم عتمة الغرف وشحوب الجدران وبكاء النوافذ الحديدية وسخرية الممرات الراشحة.. قطعةً كبيرةً من عمر».

★★★★★★

يقع سجن «بريحان» على سفح جنوبي شرقي ساحر من إحدى التلال المحيطة بالمدينة. يجثم على كتف بلدة «بريحان» كشيخ جليل مهيب.. تمتد إزاءه البلدة مثل قبيلة تخشى غضب شيخها وزعيمها. وترتفع أبراجه الخمسة بهندسة كلاسيكية لا تعديل فيها ولا زيادة، ديراً تترهب في رحابه روح الشر وتصلي حتى تطلقها البعول[1] من أسرها المؤقت. والحورات السامقات خارج السور دائرياً يشبهن ملائكة السماء وهن يحجزن هذه الروح من الانفلات أكثر مما يفعله رجال الأمن! الروح المريضة لها ديورها.. والروح النقية.. وكذلك الروح النزاعة إلى فعل الشر. الروح الشريرة في السجن بعض منها تائب.. والبعض الآخر يذخر في جرار الانتقام حقداً وضغينة.. وبعض آخر ثائر عاجز إزاء عناد القضبان الحديدية وجبروت الجدر العالية حيث جافى الهرب حتى الأحلام. السور الرهيب من الباطون المسلح تعلوه أسلاك شائكة مكهربة. والطريق الإسفلتي يدور حول الأبراج كالافعوان الساخن.. يتمشى على جنباته العساكر ببنادقهم وكلابهم التي تضحك السجناء أحياناً ولا تخيفهم! والمدخل العريض.. ببواباته وكابيناته الخشبية الملونة وحشود

---

(1) جمع بعل إله وثني.

الزائرين.. والسنديانة العملاقة التي تأوي الكائنات في الحر الشديد والمطر الغزير.. هو منتجع يروده الناس مرغمين.. ويرحلون وفي قلوبهم حزن ومرارة لا بهجة وحبور. ووراء واجهة المدخل هذه تمتد سدوم[1]..! المدينة الشريرة وقد حشرت في أقبيتها المعتمة الأيدي الآثمة لتنال العقاب الذي تستحق.

للجهة الشرقية تتدرج حقول اللـوز والليمون بحجارة جدرها الصخرية العتيقة نحو الهضبة حيث تقوم بضعة مبان حديثة التصميم.. تنتصب إزاءها أجمات متباعدة من حور ونخيل وزان بري وعرعر. الطريق عبدت حديثاً تذبح المشهد الجميل بوقاحة مخيفة في سيرها إلى البقاع الشرقية. وإلى الجنوب مبنى الجمعية بطبقاته الأربع، ودكاكين قليلة متناثرة ذات اليمين وذات اليسار كأنها جموع الناس البؤساء تواكب نبياً قوياً مقداماً. وثمة محطة للوقود.. وموقف السائقين العموميين لنقل الناس بين المدينة وبلدة «بريحان».

لم يقدر ناجي في ذلك الصباح الحار من شهر آب أن يصل إلى مركز عمله في مبنى الجمعية. أنزله السائق عند منعطف بعيد ثم تابع مشياً ناحية الحشود.. وشق زحمة الناس الثائرة بصعوبة إلى أن وصل إلى مدخل مبنى الجمعية. كانت الأصوات تثور وتعلو.. وقبضات وأكف تترنح بغضب في الهواء. ثم فجأةً! سقطت حصاة أمامه وتلتها أخرى.. فخفض رأسه.. وإذا بصبية تشده بساعده إلى الداخل وهي تقول:

- نحن تلفزيون (NRCC) أريد أن آخذ منك حديثاً لو سمحت.

-...!

- هل أنت تعمل في الجمعية أم أنك رجل أمن أم متظاهر؟

---

(1) المدينة الشريرة في سفر التكوين إصحاح 19.

نظر ناجي في عينين عسليتين حلوتين.. فأحس بشيء غامض مريح يطلب المزيد من الكلام. ويتوهج عسل العينين توهج ذكاء وحزن في آن معاً.. حزن عميق لا يراه إلا من نهل من الشقاء حتى الثمالة. سافر في سنوات عينيها الناعستين وظن أنه عاد بشيء ما في رحلته هذه. ثم راح يتأمل لجين جبهتها وخديها وقد لوحتهم شمس الصيف، وشعرها الكستنائي اللماع مشدوداً وراء رأسها. جاذبية مشكلة من صوت رخيم وسرعة خاطر وملامح ناعمة. أجاب ناجي بعفوية وقد نسي ما سألته:

- في عينيك حزن عميق.

فقالت بدهشة:

- عفواً سيدي..! ألديك قليل من الوقت لبضعة أسئلة؟

-...!

- سيدي.. هل أستطيع أن آخذ منك حديثاً؟!

- نعم.. نعم.. تفضلي. قالها بسرور.

فعادت وسألت:

- هل أنت من المتظاهرين أم تعمل في الجمعية؟

أجاب:

- أنا هنا يا آنستي أبدأ يومي الأول في عملي في هذه الجمعية.

وتوقف عن الكلام.. وفكر بسرعة في قلبه: هل يقول لها إنه سجين سابق في سجن (بريحان) فتفيض شهيتها لمزيد من الأسئلة، ويقدم لها مادةً دسمة لتحقيقها الصحفي أو مقالها؟ وقالها:

- أنا سجين قديم في هذا السجن يا آنستي وقد خرجت منذ أربع سنوات.

هلت أساريرها وأشرقت عيناها! فسألته بشوق:

- أنت سجين سابق في سجن (بريحان)؟! ما رأيك إذاً في مطالب المتظاهرين.. أهي محقة؟ هل تثنّي على احتجاجاتهم؟!

- وما هي هذه المطالب؟

قالها قولة تجاهل العارف. ومن غيره عارف بحاجات وظروف السجناء؟

أجابت الشابة:

- الظروف الإنسانية والنفسية السيئة للسجناء!

فابتسم ناجي بسمةً شاحبة، وهز رأسه وسكت.

ثم عادت وسألت:

- ما رأيك أنت كسجين سابق.. أتؤيد هذه التنديدات؟ هل الحالة فعلاً مزرية؟ ومن المسؤول عن هذا الوضع؟! أنت سجين سابق وعانيت ما يعانيه الإنسان داخل السجن. ثم نظرت إلى «الكاميرامان» وقالت:

- لقد بدأت التصوير أليس كذلك؟ وأومأ هذا برأسه إيجاباً.

قال ناجي:

- بلى.. ولسنوات طويلة.. وقد قمنا باعتصامات عديدة داخل السجن، والحالة هي هي.. ثابتة ثبوت البديهيات والحتميات. حتى الآن ولا قبس رجاء.

- مم يعاني السجين في الداخل.. ما هي حاجاته؟

- حاجة السجين هي حاجة الإنسان إلى إنسانيته والحياة إلى الوجود! السجن للتأديب يا آنستي من حيث المبدأ. ولكنه ههنا الجحيم بعينه. أقول لك إن أمراض مجتمعنا كلها كبست بالخل والفلفل والحامض داخل جدران

هذا المكان! إنه مجسم آفاتنا وعيوبنا. إذا كان المرء مجرماً أنعمل على قتله هو الآخر، وتدمير حياته في هذه الهاوية المرعبة التي هي السجن؟! إن المجرم يا آنستي مريض ويحتاج للعلاج لا التأديب، والسجن لا يعالج بل يجهز على بقايا حطام الإنسان. السجن لا يفيد المجتمع بل يؤذيه ويهدمه.. وأتجرأ وأقول إنه شريك في تصنيع الجريمة وإنتاجها باستمرار.

فسألت الصحافية بدهشة وانجذاب لكلام ناجي الغريب والجريء. ولاح في عينيها أنها تريد أن توقف المقابلة لتتابع الحديث بلا قيود:

– ولكن ألا نعاقب المجرم؟! ألا يستحق المجرم قصاصه؟! ألا ينفلت المجتمع بلا قوة رادعة للجريمة؟!

أجاب ناجي بهدوء:

– العقاب يزيد الجريمة ولا يمنعها..! الضغط العنيف ينشئ ردة فعل عنيفة. لذا يجب التفتيش عن وسائل وبدائل أخرى لمحاربة الإجرام. وسؤالك هذا يا آنستي يحتاج لمحاضرة على حدة. ولكن بالاختصار أنا أؤيد المطالب لدى المتظاهرين في الساحة.

فقالت الصحافية مازحةً:

– أنت محامي دفاع يا سيدي كما يظهر ولست سجيناً سابقاً.

فابتسم بلطف هازاً رأسه هزة من خمَّرته التجربة..

وعادت فسألت:

– من المسؤول عن هذه الحالة المزرية للسجناء؟

– سجانهم بلا شك. وأعني بالسجان ليس القاضي ولا آمر السجن ولا الذي يمسك بالسلطة.. بل المجتمع بكامله من رأس الهرم حتى القاعدة. إن

المجرمين الحقيقيين لا زالوا أحراراً يحلقون عالياً ولا تطالهم أصفاد القانون. وهم أيضاً شركاء كبار في توليد الجريمة وتسويقها.

كانت كلمات ناجي السجين السابق تطبع دهشةً وحيرةً في ملامح الصحافية الشابة. وهمت بأن تبدأ حديثاً خاصاً حول الموضوع.. وتسأل.. وتسأل.. بيد أن وظيفتها توجب إيقاف الحديث عند حدود. سألت أسئلتها الباقية وأجاب ناجي بعمق وصراحة إجابات مثقلة بألم راسخ يأبى أن ينزاح عن قلبه.

ثم قالت لـ «الكاميرامان»:

- أوقف التصوير سنأخذ حديثاً من شخص آخر.. هناك..

ولا يدري كيف زحلت كلمة عن شفتيه بغير قصد. فسأل بلطف:

- عفواً.. ما اسمك يا آنستي الحلوة؟

- أنا سحر.

واضطربت أحشاؤه للأحرف الثلاثة تسكب برقة في مسمعيه.. ولامست جزءاً خبيئاً في ذاته. كانت ثالوثه المقدس أيام زمان.. أيام الحب. هي نوتات موسيقية وليست أحرفاً: س ح ر! إنها تحتل حيزاً هاماً في ماض ظن أنه غاب إلى غير رجعة.

ثم أجاب هو الآخر:

- عاشت الأسامي يا سحر. وأنا ناجي، تشرفت بمعرفتك.

ووثبت هي والـ «كاميرامان» إلى ناحية أخرى.

ثم شرع المذياع يصدح بصوت امرأة كانت تلقي خطاباً من على منصة عملت لها من أحجار الخفان. وكانت النبرة رجولية الإيقاع صادقة المضمون جياشة العاطفة:

«... يا أصحاب الضمائر الحية والوجدان الإنساني، يا من جعلتكم السماء حكام هذا الشعب وقضاته.. لا تكونوا جلاديه أو ذابحيه! أولادنا وذوونا السجناء آثمون ولكنهم بشر.. مرتكبون معاصي ولكنهم عثروا وسقطوا.. مخطئون وجلّ من لا يخطئ! منحرفون والرحمة فرصة للتوبة.. ثائرون والأناة حبل الترويض.. عاصون ومن رد عاصياً عن غيّه وضلاله له من عند الله الثواب. هل التأديب رمي المسجون في الزرائب؟ وهل العقاب أسر آخر داخل السجن؟ هل القصاص إطعامه ما ترفضه البهائم مأكلاً لها؟ والغرم حرمانه من عناق الأهل والأولاد عند اللقاء. أمن العدل أن يسجن البريء سنوات لتظهر في النهاية البراءة ويخرج بلا حقوق؟! أمن العدل أن يوضع بريء مع نفر من المجرمين المحترفين القدامى ثم يخرج بعد أشهر وقد تتلمذ على يد هؤلاء في الجريمة؟ أمن العدل أن يموت سجين تعاطي المخدر في السجن بالجرعة الزائدة؟! أمن العدل أن يخرج المظلوم «المدعوم».. ويبقى المظلوم الضعيف إلى ما شاء الله؟ أمن العدل أن يخرج مجرم بعد عشر سنوات ليقتل القاضي الذي حكم بسجنه؟ السجن أيها السادة بات أداةً لتدمير حياة الناس وتخريج المجرمين.. وَهَمّ القضاء يا قوم تطبيق كتب القانون وليس إيقاف الجريمة وبناء الإنسان. وقوانين البشر ليست قرآناً ولا إنجيلاً.. إنها كصانعيها ناقصة وضعيفة.

نناشد كل مسؤول وكل من هو في منصب:

رحمةً يا معالي الوزير.

رحمةً يا أئمة القانون.

رحمةً يا حراس السجون. رحمةً أيتها القلوب الرحيمة.. فقد قالت الأمثال والأنبياء قديماً: «إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

إرحم من دونك يرحمك من فوقك» ويقول الإنجيل: «طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون[1]».

أيتها السماء امطري رأفتك وحنانك على القلوب والعقول في هذا البلد الذي باتت أرضه اليابسة عطشى إلى مطر الرحمة والأناة والتسامح».

وعلت الصيحات والقبضات بغضب.

كان ناجي أثناءها قد صعد إلى الطبقة الثالثة.. وأخذ فنجان قهوة وأشعل لفافة.. وراح يستمع الى الخطبة المؤثرة تقولها قريبة لأحد السجناء بلا شك.. وينظر من وراء الزجاج في حجرة مكيفة إلى الصحافية سحر.. وهي تثب من غاضب لناقم لثائر وتحادثهم.. كانت لطيفة كالموسيقى، جريئة كالحلم، جذابة كالشهوة، واثقةً كالكبرياء. وعند الكلمة الأخيرة للخطبة همس لنفسه وهو ينفث الدخان في الهواء: متى.. متى ينجلي الليل ويطلع الفجر؟

******

أمضى ناجي ما بقي من ساعات يومه في الجمعية يُعرّف على الموظفين: من المحاسب إلى المساعد الاجتماعي إلى عالم النفس والمحامي ثم المدرّس فمسؤول العلاقات العامة وأمانة السر... إلخ. ويخبره الموظفون بسرور عن مبادئ العمل، ويشرحون له الوظيفة المنوطة به.

بعد التظاهرة فرت الدقائق والساعات من قبضة وعيه. كان وجه الشابة الصحافية سحر يطفو فوق صفحة الصور المتماوجة في مخيلته. وشريط حياته يشد ذاكرته بسرعة أمام عينيه، الدقائق في السجن كالدهور وخارجه تمضي الدهور كالدقائق.

(1) متى 5: 7.

قال له مساعد المدير وهو أستاذ جامعي شارحاً تفاصيل عمله:

– أيام قليلة وتتعود العمل هنا.. مع مرور الوقت ستكتسب الخبرة وأشياء كثيرة قد لا تحظى بها في بطون الكتب والمراجع.

كنت من السجناء الطيبي السيرة وصاحب أداء لافت. نحن مسرورون بك بيننا.. أنت صديق قديم لنا وللسجناء أيضاً.

ثم عاد عصراً إلى شقته الصغيرة في ذلك الشارع الشعبي المكتظ.. إنه حي من الأحياء الفقيرة المزدحمة بالمتاجر والمارة والسيارات المركونة طوابير أمام هذه الدكاكين والمحال. ولج منزله لا يشعر بالتعب.. سكب لنفسه كوباً من المشروب الغازي البارد وجلس على الشرفة. والهدوء عادةً يسرق الأفكار.. بيد أنه اعتاد ضجة السجن وكان بمقدوره أن يغوص في خيالاته فتصبح الحركات والأشكال والأصوات... موسيقىً تواكب شريط ذكرياته.

أخذته الأفكار إلى حبه الأول والوحيد.. كيف ذُبح وهو في بواكيره! فهو بالكاد ابتهج بهذا الحب كما ابتهج يوسف بقميص والده الملون[1].. فوثبت أشباح الزمن الحاسدة تخطف من ذاته صندوقة عواطف ومشاعر سامية كانت كل ثروته في هذه الحياة. لم يعد في جعبته بقيا حب.. ما عاد قادراً على الحب! غابت سحر..! وسرقت معها جوهرة عواطفه إلى غير رجعة. لا زال وجه زوجته سحر.. موسيقاه المفضلة.. وقدها اللذن يزوران خياله من حين لآخر طوال سنوات السجن، بيد أن رياح الغدرات اقتلعت الحب إلى مكان قصي... وامتدت أصابع النسيان تضم سحر إلى صدره الرحيب.

في السنوات الأولى كتب فيها قصائد ورسم رسومات وما لبث أن أتلفها

(1) سفر التكوين إصحاح 37.

كلها. وراح يقرأ بنهم.. ويلتهم الكتب بالعشرات والمئات حتى باتت مكتبة السجن واحة عزاء في محنته الطويلة.

ولكنه اليوم عندما نظر في تينك العينين العسليتين الحلوتين شعر بقلبه يستيقظ كأهل الكهف بعد سنوات نوم طويلة.

******

2

إستلقى ناجي فوق الوسادة مقابل جهاز التلفزيون، وراح ينقل من قناة إلى أخرى حتى وقف على واحدة تبث أغاني قديمة، فارتخت أعصابه واستغرق في نومة عميقة، والتلفاز يغني على ليلاه. ومرت ساعتان ناجي نائم والتلفاز يبث ما يبث. إلى أن صحا فجأةً على صوت مذيع الأخبار يتحدث عن مظاهرة حاشدة أمام سجن «بريحان»، جحظت عيناه! وسمع جلبة المتظاهرين القريبين من الكاميرا.. وسمع أيضاً صوت الطلقات النارية.. ورأى رجال الأمن ونسوةً يشتمن العساكر والدولة. وهو عندما انتهت المظاهرة نساها من فوره إلا سحر.. هذا الاسم الجميل الذي بُعث حياً من رمسه. وعيناه مشدودتان إلى الشاشة كبروجكتورات السجن في الليل! تبحثان عن الوجه ذي العينين العسليتين. سأل نفسه «أين أنت يا ناجي تحادثك سحر؟».

وأجابت الشاشة الصغيرة عن سؤاله.. شاهد نفسه يتحدث بكلماته التي قالها للصحافية سحر. لم يعبأ بنفسه كيف بدا! بل كان يتوق لرؤية وجه سحر وسحر عينيها.. وظهرت سحر.. تطرح الأسئلة.. تتكلم.. تسأل.. تضج بالحياة.. تطير وتحط كالفراش.. تعجب بإجابات ناجي! وما رآه في وجهها

من اهتمام به لم يلحظه أثناء المظاهرة. سألت أسئلتها ثم ما لبثت أن أنهت الكلام:

«كما ترون أعزائي المشاهدين.. سجين سابق يزيح النقاب عن الخفايا والخبايا.. ويعلن الحقيقة المعيبة في الداخل. سجين سابق وهو الآن حر خارج السجن.. يثنّي على مطالب المتظاهرين ويزيد بالعبارة الصادقة والصارخة. أوضاع المساجين الإنسانية في الداخل سيئة للغاية. وكما وصف المتظاهرون حياة السجناء «كالبهائم».

لماذا وصلت الحالة إلى ما هي عليه الآن؟

أين عيون المسؤولين وآذانهم مما يجري؟

ألا يحتاج السجين فعلاً إلى ظروف إنسانية جيّدة لكي يمضي مدة حكمه بسلام؟ أم حكم عليه بالموت حياً في السجن مهما كان جرمه؟

من المسؤول عن هذه الفوضى العارمة: إدارة السجن.. الأمن.. القضاء.. أم السلطة التنفيذية في البلاد؟ ترى هل تصل صرخات المتظاهرين إلى حيث أرادوها؟ هل لا زال في هذه البلاد من يسمع أو يهتم؟ هل عند المسؤول وقت أصلاً ليرى أوجاع الناس وهمومهم؟! كلها صرخات برسم السمع، وأسئلة برسم الإجابة».

فقال ناجي في سره «المعزوفة نفسها.. هي هي».

ثم فجأةً يشد حواس ناجي كلها أذناً وقلباً:

«سحر سالم.. سجن «بريحان».. قناة (NRCC)»

سحر سالم؟!! وراح يستعيد صدى ما سمع في قلبه: سحر سالم.. سحر سالم... س ح ر... س ا ل م، هو اسم زوجته بالكامل! نعم أذناه لا تكذبان.

غريب! غريب أن يكون اسم هذه الفتاة كاسم حبيبة أيام زمان.. يا إلهي.. أي صدفة غامضة هذه؟! تراها تنتمي لعائلة من الأقارب.. من المعارف القدامى.. من بلدته ربما..؟! لا.. حتماً لا. هذا التطابق هو محض مصادفة لا أكثر، هي من بقعة ما في هذه البلاد وهو من بقعة أخرى. ما أصغر هذه الدنيا!

تناول من عشائه القليل وخرج إلى الشارع يتمشى.. وكائن وحيد غريب جميل يرافقه.. سحر سالم.. لغز ولج قلبه وأفكاره بغير إذن. بيت من مطلع قصيدة يجهل عنوانها ومضمونها. حل لعقدة رياضية لا يعرف معطياتها. ترى ماذا وراء سحر من خبر؟ أين منه تلك الشابة الصغيرة وهو في بحر أربعينات عمره؟ المشي في ليالي آب يرد الروح.. دخل الحانة وابتاع له شيئاً من المثلجات وتابع السير نحو الحديقة.. جلس زهاء نصف ساعة وعاد ليلهو قليلاً على الكمبيوتر ثم أوى إلى فراشه.

******

عبر ناجي الردهة متجهاً إلى مكتبه فاستوقفته سكرتيرة الاستعلامات عايده بوجه مشرق:

- لقد اتصلت بك سحر سالم من الـ (NRCC) تركت رقم هاتفها وأخذت رقمك. بالمناسبة كنت البارحة مذهلاً على التلفزيون يا ناجي.

فأشرقت عينا ناجي ليس للإطراء بل للنبأ.. ويبدو أن الأسئلة والمفاجآت في الآونة الأخيرة تقف طابوراً أمام باب ذاته لا يقوى على استيعابها في آن معاً. وراح يسأل نفسه «ترى من هي هذه الفتاة وضعتها الأقدار في طريقي بعد هذا العمر؟! لماذا لم أعثر على سحر ما.. في مكان ما.. منذ أربعة أعوام حرية؟! من هي سحر سالم؟! أهي صحافية فقط؟ هل هي زنزانة من نوع

جديد؟ هل هي حكم آخر مع وقف التنفيذ.. أم ملاك من السماء أرسل لكي يقودني في مفازات الحياة؟! ماذا تحوك الأيام لي أو لها أو لكلينا معاً؟ صبرك يا ناجي.. إن غداً لناظره قريب».

وسأل السكرتيرة:

- ألم تقل شيئاً إضافياً؟

- لا.. ولكن الاهتمام كان واضحاً في نبرة صوتها. تفضل هذا رقم هاتفها.

أخذ الرقم واتصل بها من فوره.. وسمع نغمات صوتها الدافئ يعزف على أوتار مشاعره:

- آلو.. آلو..

وأجاب:

- صباح الخير آنسة سحر.

- صباح النور يا ناجي عرفتك من الرقم.

- يعطيكي العافية.. كيف أنت اليوم؟

- بأحسن حال.. وأنت؟! هل شاهدت نفسك البارحة في نشرة الأخبار؟!

- أجل.. ورأيتك أنت أيضاً. إنك موهوبة حقاً.

- سيد ناجي هل بالامكان أن نتقابل؟ من الحديث معك البارحة وجدت أنك تفكر بطريقة تشبه طريقة تفكيري. وفي ذاتك ثورة تشبه التي في ذاتي.

- وهل أنت ثائرة؟!

- أنا ثائرة ولكن بوداعة، كثورة غاندي.. أو ثورة يوحنا المعمدان.

فقال ناجي:

- لا أظن أن هناك ثورة وديعة وثورة عنيفة. الثورة ثورة. الثورة تغيير. إنها

جراحة والجراحة عنف ودماء. ولا ثورة في التاريخ لم تكن عنفية في وجه من الوجوه. لا تأخذي فكرة خاطئة عني أنا لست شخصية عنيفة ولا أؤيد العنف.. ولكن التغيير ليس بالأمر السهل، إنه يشبه خلع ضرس كبير مهترئ.

- التغيير ممكن وليس مستحيلاً. والتاريخ مليء أيضاً بالمتغيرات الكثيرة والصعبة.

- صحيح.. وأنا مقتنع بضرورة التغيير.. ولا بد من التغيير.

- هذا أول توافق بيننا.. ضرورة التغيير، أليس كذلك؟

- بلى نحن متفقان في هذه. ولكن ما هي التغييرات التي يجب أن تحدث؟

- كل شيء في بلادنا المتأخرة يجب أن يتغير.. لا ليس كل شيء بالمطلق.. ما يدمرنا ويشدنا إلى الوراء وهو سبب بلائنا وانحطاطنا. وأما موروثات قيمنا وأخلاقنا وتراثنا وتاريخنا وما يميزنا كذات متفردة عن سوانا.. فهذا لوننا وهذه قماشتنا، وهذا يجب أن يكون مدعاة فخر واعتزاز.

- ما هذا أرى أنك تقدمية التفكير. أأنت محازبة؟

-لا.. أنا صحافية. ولكني إنسانة متألمة.

- عرفت ذلك من عينيك. في هذه أيضاً نحن متفقان. الألم والتغيير. ألا يدعو هذا للعجب؟

فقالت الصحافية الشابة باندفاع:

- لهذا لا بد أن نلتقي ونتحادث وربما نتعاون..عندي الكثير أقوله لك... وعندك الكثير تخبرني إياه.

كانت فرحة ناجي لا توصف. في كل كلمة كانت تفوه بها كان يهمس في قلبه (نعم.. أين؟ متى؟ كيف؟) وخرجت هذه الكلمات من سره إلى شفتيه فقال:

- ومتى نلتقي يا سحر؟

أجابت الشابة بثقة:

- عندي رقم هاتفك. سأتصل بك ونتفق على الزمان والمكان. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

وذهب ليعمل لنفسه فنجان قهوة.. فجاءت إليه إحدى الزميلات وقالت:

- على الأرجح أنه لن يسمح لنا بالدخول إلى السجن اليوم.. فهناك إجراءات أمنية استثنائية بسبب مظاهرة البارحة.

فقال ناجي:

- لا بأس أتعرف اليوم على بقية الأسرة.. وقليلاً قليلاً أدخل في الأجواء.

فقالت مازحة:

- في حديثك البارحة للتلفزيون بدا أنك لم تدخل في الأجواء فقط! بل حلقت في الأجواء عالياً.. وعالياً جداً.

فقال مبتسماً بجدية:

- شكراً. أنت لطيفة. ولكني لا أحب المبالغة في الإطراء ولو كان مزاحاً.

وهكذا أمضى ناجي يومه الثاني في الجمعية يتعرف بأشخاص جدد ووظائف متنوعة تقوم بها الجمعية، ومهمات أنجزت وتنجزها: تأمين مواد غذائية، أكسية، أدوية.. متابعات قانونية لسُجناء، تدريس المساجين لغات وفنوناً ورياضة ومسرحاً وكمبيوتر وأشغالاً حرفية ومهناً، وتقديم تأهيل نفسي اجتماعي على يد ذوي الاختصاص...إلخ. كان يوماً ممتعاً. وناجي يعرف الكثير من هذه الانجازات أيام السجن. بيد أنه الآن داخل المؤسسة يرى الأمور عن كثب.. كيف تدار وتنظم.. وكم هي بحاجة لوقت وتعب وموهبة

وتجدد. أدرك عميقاً بأن عدداً كبيراً من السجناء مديون بالكثير الكثير لهذه المؤسسة.

في اليوم الثالث دخل ناجي إلى السجن مع زميلة مساعدة اجتماعية. ولكنه ما إن وطأت قدماه أرض الباحة داخل البوابة الحديدية أمام البرج الثاني.. حتى شعر ببرودة في أصابعه والحر شديد! ورجفة ضئيلة في قلبه. داخله خوف غامض في المكان الذي طالما تمنى الخروج منه إلى الحرية، تراه الآن عائد بإرادته إليه؟! قالت له المساعدة: كان سلوكك مثالياً.. لم تتعبنا في شيء عندما كنت سجيناً. وراحت تشرح له ما يقال وكيف يقال.. وكيف يجب التقرب بحكمة من السجناء. ثم أمضيا النهار وقد تحدثا إلى خمسة من السجناء: إثنان منهم في حاجة قضائية وثلاثة في حاجة إنسانية. وخرجا بعد ذلك ليتناولا وجبة الغداء مع الزملاء في الكافيتيريا. ثم رن هاتف ناجي الخليوي.. وكانت الصحافية سحر على الخط:

- آلو ناجي.
- أهلاً سحر.
- بإمكاننا أن نلتقي الجمعة مساءً لو شئت. هل أنت حر في هذا الوقت؟
- حسناً.. سنلتقي الجمعة مساءً إن شاء الله.

قالها وتعمد عدم إخفاء شوقه لهذا اللقاء.

وراح يحلم بهذا اللقاء الغريب والسريع بفتاة ألقتها أجنحة الزمن في دربه الشائك بعد أربعة أعوام من خروجه. ترى ماذا ستقول له الفتاة الصحافية سحر؟

وجاءت السكرتيرة عايده وقالت لناجي:

- السيد كميل ينتظرك في مكتبه.

- حسناً.. شكراً لك يا عايده.

السيد كميل رجل في خمسينيات عمره، ولكنه حيوي المظهر متفائل مرن التفكير.. ليس مثالياً ولكن الإيجابيات طغت على سلبيات مزاج شخصيته. وفي جعبة رؤاه الكثير الكثير من المشاريع والأحلام. متوسط القامة كثيف الشعر أبيضه، بشرة بيضاء ذات مسحات حمراء فوق الأنف والخدين. ملامح مريحة لا تخلو من بعض الهيبة.. وعند عبسة العينين أحياناً.

وبادر السيد كميل إلى ناجي عندما رآه يدخل:

- أهلاً يا ناجي.. صباح الخير. إجلس عندي لك شيء هام.

فقال ناجي:

- خير إن شاء الله. ماذا هناك؟

- خير خير.

ثم أخذ ظرفاً ورقياً فيه دفتر سميك قديم دفعه إليه، وقال:

- هذا نوع من المذكرات.. سيرة ذاتية أو ما شابه. إنه للسجين وليم. هل تعرف وليم؟

- أعرف وليم عامر.

- هو نفسه. إنه سجين هنا منذ اثني عشر عاماً. أتعرفه جيداً.

- لا. لقد سمعت عنه، ولكني لم أره أو أتعرف به قط. سمّي بـ(الحبيس)[1] كان يلازم زنزانته ولم يخرج منها قط. ولم ينقل كذلك إلى المكان الذي كنت أنا فيه.

(1) أي راهب متوحد.

فقال السيد كميل:

- ما تقوله صحيح.. وليم عامر الحبيس، سجين في جريمة قتل. هذا الحبيس انتحر منذ ثلاثة أسابيع في زنزانته لقد ذبح وريد ساعده.

- إنتحر!

- أجل.

- هكذا بصمت.. لا احتجاج لا ضجة؟!

- نعم. الخبر يعرفه الكثيرون، ولكنه حجب عن الإعلام.

- الأسباب والخلفيات؟

- لا أدري.. قد تجد في الدفتر ما يجيب عن هذا السؤال.

توقـف السيد كميل قليلاً.. ثم أضاف وناجي يتصفح أوراق الدفتر:

- على ما يظهر حتى الآن أن السبب المباشر هو اليأس!

- كيف؟

- لقد سجن وليم في جريمة قتل عملها ولم يرتكبها. وقد ظهر أخيراً أن الجريمة لا قتيل فيها.. أي لا جثـة!

- كيف لم أفهم؟! قالها ناجي وإمارات الدهشة بادية في عينيه.

- بعد سنوات سجنه الاثنتي عشرة هنا.. برز القتيل الضحية وهو حي يرزق.. وكان مختفياً كل هذا العمر.

- يا إلهي..! لغز مخيف هذا! مأساة وملهاة هي. أي يد تلعب بحياة الناس هكذا؟!

- وعلم وليم بظهور «قتيله» أنه حي.. فكان وقع الخبر عليه وقوع الكارثة.

فسأل ناجي وعيناه تلتهمان ما يقوله السيد كميل:

- ولكن كيف حصلتم على هذا الدفتر؟

- لقد مرره لي ضابط متعاطف.. إنه حقاً رسول محبة. قال لي «لا أدري إذا كان فيه ما يفيد».

وتابع السيد كميل حديثه وأضاف:

- سأعمل لك نسخة عن هذا الدفتر. لا وقت لدي لقراءته، إقرأه أنت وأعده إليّ بسرعة. أنا أثق بك جيداً وحسن أدائك. إبق أمر هذا الدفتر سراً. لقد رأيتك بالأمس في نشرة الأخبار وكنت رائعاً، وها أنا أطلب منك أن تكون صلة وصل بيننا وبين الإعلام. ولكن خبرني عن كل خطوة تقوم بها.

- شكراً لك يا سيد كميل لجميل الثقة وحسن التقدير.

يبدو أنه جاءت ترقيتي منذ أيامي الأولى. ألا يحق لي الاستعفاء من هذه المهمة؟

- لقد أخذت قراري.

- أرجو أن أكون عند حسن الظن.

- أنت عانيت كثيراً يا ناجي.

- متى أحصل على نسختي؟ أفضل أن تعطيني المخطوط الأصلي وتبقي معك النسخة.

- لا بأس. في غضون أيام أعطيك إياه، ولا تنس الاتفاق السري بيننا.

- أنت اختبرتني يا سيد كميل.. وتعرف جيداً أني بئر أسرار.

- حسناً.. هيا إلى عملك الآن.

******

معانقة هادئة بين الأمواج والصخور.. تماماً كلقاء ناجي وسحر. ولوحة

الغروب في مساءات آب تنعش الروح والجسد معاً. نصف الشمس البرتقالي مختبئ وراء الأفق يمتد ظله فوق صفحة الماء كما يمتد ذيل طائرة الورق الملون الطويل بهدوء وسكينة في سماء زرقاء صافية. كان الهدوء رومنسياً. زورقا صيد بعيدان صامتان كعاشقين.. وذيلاهما الشعاعيان «قبوعان»[1] يسبحان إلى جانب طائرة الورق البرتقالية. الباحة الترابية فسيحة مشرفة على عناق حميم بين البحر والبر.. تفوح من هذا العناق رائحة المياه الجذابة. أعمدة الفسطاط[2] من خشب الجوز المطلي بالفرنيش، والسقف من ورق النخيل والمقاعد من جذوع الشجر. صبية قلائل يلعبون بعيداً.. ورائحة البيرة والسكاير و«الأراكيل» تمتزج بالأحاديث الخافتة والتهامس والأفواه التي تنفث الدخان في زوايا المكان. إنه مكان الكلام القلبي اللطيف، المفتوح تارة والسري طوراً. لا هو مقهىً ولا بالمطعم حيث السجالات والجدالات... هنا محراب الوشوشات.. هنا كعبة الشاعرية. هنا تأتي أسرة هاربة من أسبوع عمل مرهق، أو عاشقان دالهان في الغرام.. أو صديقان يطربان للشعر والأدب.. أو ذوو الأصوات الجميلة لكي يرنموا تلاحينهم وهم يبلـون الريق بأقداح العرق.

كان ناجي هنا قبل الموعد بنصف ساعة. شرب كأسين من البيرة.. وأشعل بعض السكاير. ثم راح يتمشى قرب الصخور يتأمل الغروب والمدى، متضجراً من الأغاني الشعبية الجديدة يصدح بها الستيريو. فجأةً! ينتفض من بين ركام الفن الجديد هذا صوت فريد الأطرش عذباً.. رخيماً.. عميقاً.. وموسيقاه تغوص في وجدان الإنسان حتى قعر ماضيه وتأتي بما طمرته رفوش الأيام والنسيان. كانت زوجته سحر تحب فريد الأطرش وأغاني

(1) القبوع نوع من أنواع الطائرات الورقية.
(2) خيمة كبيرة كانت تعمل من جلود الحيوانات أو النبات.

الطرب.. وتعشق الأركيلة والطبيعة والزهور.. والبليار والرقص الغربي.. ومرات عديدة أخرجها الرقص عن طورها فباتت تترنح كالسكران في حلبات الموسيقى الصاخبة. كانت تشبه البيرة حين تسكب في الكأس.. تفيض الحياة بها كالرغوة البيضاء وقطع الثلج.

شاهد الهوندا الشمبانية اللون من بعيد عبر الطريق شبه المقفر في ذلك المساء، دخلت باحة المقهى واستقرت في ناحية قريبة من الإسفلت. وخرجت سحر منها.. الله يا زمن.. «لقد عدت شاباً يا ناجي» قال في قلبه «هنا التاريخ يعيد نفسه»، ما تغير شيء كأنه استفاق لتوه من كابوس طويل هو أعوام السجن. الشوق ذاته.. إنتظارات الحب.. و«سحر» ذاتها.. مواعيد ولقاءات.. وأمكنة حميمة. مع فارق بسيط: سحر لا زالت واقفة عند عتبة الشباب وهو عند عتبة الشيخوخة. «لا!» قال لنفسه ثانيةً «لا زلت زين الشباب يا ناجي.. وجذاباً أيضاً، والدليل مجيء هذه الصبية الشابة للقائك»-«ولكنّ جبلاً من السنين قائم بيني وبينها.. إنها تكاد تكون في عمر ابنتي لو كان لي ابنة»-«الحب لا زمن له يا ناجي ولا عمر، لأنه شوق الكائنات الدائم إلى الوجود والربيع والاثمار. ألم تحب الأديبة الفرنسية جورج ساند الموسيقي العبقري الشاب شوبان وهي تكبره بعشرة أعوام؟! وكذلك ماري هاسكل وجبران؟ وأغاتا كريستي وماكس مالون؟ -«أنت سجين سابق يا ناجي لا جاه ولا مال ولا جمال! والصبية جميلة ذكية وهي في بداية بحثها عن المستقبل.. أتكون أنت مفاجأة مستقبلها؟! ليس هناك من افتتان للمرة الأولى.. هي الصدفة وحدها شاءت التلاقي. والرغبة في الحديث سببها شيء آخر»-«ولكنّ الذكاء..! الشخصية المحببة والظرف والطيبة والوفاء والصدق والتضحية والموهبة...

ألا تؤلف هذه إكسيراً يلهب قلب المرأة؟ ألا يجذب النساء غير المال والجاه والمظهر؟؟»-«إمرأتك لم يعد لها وجود في أواخر الأيام يا ناجي.. الحياة باتت سريعة.. وقد سحقت بسرعتها قيم أيام زمان. القيمة الآن للقوة والمال والجمال.. أما التضحية فهي الآن جبن والوفاء غباء والقناعة تخلف.. ثم الذكاء والموهبة والثقافة عقبان مخالبها ومناقيدها دائماً المال والجمال. لقد ماتت القيم الداخلية اليوم وعاشت القيم الخارجية»-«لا يا ناجي إذا ماتت القيم الداخلية مات الإنسان.. إنها فقط طفرة مرحلية للخارج يعود بعدها الإنسان إلى الداخل. الشيء الأصيل والجوهري لا يموت ولا بدا ظاهرياً أن الغلبة للخارج. تماماً كما حدث في زمن ما بين الحربين العالميتين.. قرنان من الزمن ألها العقل ووثباته المذهلة! فكانت النتيجة حرباً مدمرة. وبعد الحرب كان هروب جماعي من الطفرات الخارجية إلى الداخل.. من العقل إلى العاطفة.. ومن العلم إلى الإنسانية.. إلى الجوهر.. إلى الأصيل. أعظم قصص الحب في التاريخ هي التي أقامتها عناصر داخلية لا خارجية: اثنان تحابا بالتراسل لا بالوصال.. إمرأة أحبت رجلاً أعمىً.. مثقفة جامعية أحبت سمكرياً.. محام أحب غانيةً..! والأمثلة كثيرة». عاصف عنيف في ذات ناجي عندما اقتربت سحر تحييه معتذرة عن التأخر. صراع محموم لا ينتهي كتناقض الحتميات، كسجال البديهيات! هبة ساخنة وهبة باردة، ريح ثم نسيم، أمل ثم يأس، نور ثم ظلمة. تراه سلم نفسه للمجهول أو المحظور؟ رمى بنفسه في مستنقع اللامعقول؟ أم هي الحياة أبقت على رمق حب ينبض في وجدانه.. وأهدته كأساً يسكب فيها الخمرة المشبوبة في عواطفه؟

لم تكن سحر مختلفة كثيراً عما كانت عليه أثناء المظاهرة، أو على

التلفزيون. هي هي بعفويتها وصدق سلوكها البعيد عن التكلف والدبلوماسية. وهذا له دلالته بالنسبة للرجل، لأن المرأة المنجذبة لرجل ما.. تهتم لمظهرها اللائق والجذاب. ولكن سحر لها من فيض أنوثتها الداخلية ما يغنيها عن التأنق والتبرج. بيد أن نضج مظهرها وهيبة ملامحها تخفيان حقيقة عمرها.

- أعتذر منك يا ناجي على التأخر. خرجت من عملي اليوم متأخرة.

قالتها ونزعت نظارتيها ومدت يدها إليه للمصافحة. جزدانها تحت إبطها.. قميص وجينز وحذاء رياضي لا أكثر.

- لا داعي للاعتذار يا سحر.

ومد يده مصافحاً. نظرت هي إلى «السنسول» البعيد وقالت مبتسمةً:

- أتحب المشي؟

- لا أحب غيره.

- المساء ساحر.. ما رأيك لو نتمشى إلى «السنسول» هناك؟

- بكل سرور. ولكن دعيني أضيفك شيئاً بارداً.

- لا بأس.

أخذا عصير الفواكه وراحا يتمشيان.

- ألا زلت في الجامعة؟ سأل ناجي.

- نعم. أنا أعمل.. وأتابع دراستي أيضاً.

صمتت قليلاً ثم سألت:

- قل لي يا ناجي كم سنة بقيت في السجن؟

- عشرين عاماً.

- عذراً للسؤال يا ناجي.. أهي جريمة قتل؟

- من حيث المبدأ. وبدا الجواب غامضاً.

-...!

- سؤال عن الماضي؟ هل أشكّل مادة غنية لقلمك؟

- لا يا ناجي لا تخطئ في التفكير! أنت إنسان صاحب قضية، وأنا أيضاً لدي قضيتي.. فإذا كانت قضيتنا واحدة فطريقنا واحد لا محالة. وأنا أرى أنه سوف نؤلف فريقاً.

- تريدين أن نتعاون في قضيتي (الألم والتغيير)؟ قالها باهتمام وجدية.

- قضية السجن. أجابت بثقة.

- أنت متفائلة زيادة عن اللزوم.

- الانجازات والمشاريع الكبرى كانت أولاً أحلاماً يا ناجي.

- أنا لست ضد الأحلام.. ولكن تحويل الحلم إلى حقيقة يحتاج لإمكانات معقولة.

- التصميم والجهاد كفيلان بذلك.

- أنت لا زلت صغيرة وقليلة الخبرة في الحياة. ولكن العزم فيك والأمل جميلان! هناك صراع دائم بين الحلم والواقع. الواقع أقوى لأنه يقف على قدمين ثابتتين.. والحلم أحياناً كالضباب لا شكل له ولا حدود ويتحول سريعاً. ما هو مشروعك؟ ما هو هدفك يا سحر؟

- السجن! مشروعي هو السجن يا ناجي. السجن مشكلة إجتماعية من جملة المشاكل الكثيرة في مجتمعاتنا الشرقية.. السجن فشل في دوره كرادع أو مانع أو حتى مقلل لحدوث الجريمة! بل السجن يزيدها.. يروج لها.. يصنع المجرمين. وإذا كان السجن فاشلاً في تأدية دوره فالأفضل الاستغناء عن خدماته الهادمة.. وإبدالـه بما يحقق ما عجز عنه هو...

قطع ناجي كلام سحر:

- جميل هذا التحليل والتوصيف. ولكن سبب فشل السجن سوء استخدامه وإدارته في كثير من الأحيان.. هل فكرت في هذه النقطة؟ أنا سجين قديم.. و«أهل البيت أدرى به».

- ألا ترى؟ هنا تكمن حاجتي إليك.. لأنك «من أهل البيت». سوء استخدام السجن يا ناجي هو جزء قليل من المشكلة الكبيرة.

- نقطة أخرى هامة سحر وهي طبيعتنا نحن كبشر. نحن ميالون إلى الشر.. الإنسان شرير يا سحر، والجريمة موجودة في كل المجتمعات. من غير المنطق أن تـلقى تبعات الإجرام كلـه على السجن.

- أنا لم أتكلم عن إيقاف الجريمة بالكامل.. بل عن لجمها. كلنا ميالون للشر بلى.. ولكن لسنا كلنا مجرمين! حقيقة ثابتة في قلبي أن الذي يدفع بالإنسان إلى الإجرام شيء خارج عنه.. وهذا الشيء الخارجي يستفيد من الاستعدادات العنفية المفطور عليها المرء: مزاجه طباعه أخلاقه. وهنا أيضاً نقطة ثالثة أنت وأنا متفقان عليها وهي أن المجرم مريض ويحتاج للعلاج لا العقاب.

فقال ناجي مأخوذاً بتفكير سحر الجريء والأصيل في آن معاً:

- جيد، أنا معك في كل ما تقولين. أنا يا سحر مثلاً لست ذا شخصية عنيفة.. ولكن هذا الشيء الخارجي الذي تتحدثين عنه كثيراً ما حثني ليدفع بي إلى الجريمة. ولكن ألا تظنين أن الفطرة العنيفة والعامل الخارجي هما العنصران اللذان يصنعان المجرم بالتساوي؟

- هذا صحيح. ولذا فالمجرم ضحية دائماً! واقع بين السندان والمطرقة:

طبيعته الشريرة والظروف الخارجية. إنهما شيطانان يسيران به إلى الهلاك. ودور السجن تحريره من ملاكيه الشريرين.. وهنا يكمن عجز السجن وفشله المريع.

– أتجلسين؟ ألمكان مريح هنا.. وصوت الأمواج ينعشني.

وأشار بيده إلى حافة من الحجارة الرملية مشرفة على المياه. قعدا.

سألت سحر:

– ما هي مشاريعك الحالية؟ أعني ما هو المشروع القضية؟

أجاب:

– ما أقوم به الآن يشبه.. ربما.. رؤياك بشكل أو بآخر.. ولكن الإسلوب مختلف.

– كيف؟

– ما فشل فيه السجن أحاول أن أعمله في داخله. نقطة أخرى يجب أن تأخذيها بعين الاعتبار.

وجود الجمعيات الإنسانية التي تنجز الكثير في داخل السجن.

– ولكني علمت أيضاً أن هنالك معوقات كثيرةً أمامها.. ولا تستطيع التحرك بسوى فسحة ضيقة جداً.

– ما هذا أرى أنك تدرسين مشروعك جيداً!

– ألا تراني جادة؟

– بلى.. بلى. ولكن ما هو البديل عن السجن؟

– مدرسة التأهيل النفسي والاجتماعي والأخلاقي. وأحكامها سبع سنوات لا أكثر! ممنوع الإعدام وممنوع المؤبد. هناك في أوروبا السجن الإصلاحي مثلاً..

- هذا التأهيل الذي تتحدثين عنه تقوم به الجمعيات الإنسانية داخل السجن.

- السجين يا ناجي مقيد مأسور نصف حي.. تنهشه الأفكار والتوترات العصبية على مدار الساعة.. هذا عائق كبير أمام التفاعل واستيعاب ما تقدمه الجمعيات. وقد علمت أن السجناء لا يعبأون بهذه الجمعيات.. بل ومنزعجون أيضاً!

- المحكومون عشر سنوات وما فوق لا يحبون الجمعيات، إنهم شبه يائسين. ولكن الذين أحكامهم سنوات قليلة يتجاوبون مع الجمعيات، وهم متفائلون.

فقالت سحر عندها وقد بدا أنها على شيء من بعض عناد.

- لقد أثبت التاريخ أن الإصلاح من الداخل لا يؤتي ثمراً.

الانشقاق حتمي لا محالة. والانشقاق جزء من ديناميكية التغيير. ترميم البناء المتهدم لا يفيد هو بحاجة للهدم والبناء من جديد.

سأل ناجي وقد لاح في ناظريه شبه يأس:

- هذا تفكير ثوري بامتياز. ستواجهين الكثير من المشاكل يا سحر. ولكن إلى أين يمكن أن يصل هذا السعي والإمكانيات ضئيلة؟ هل عندك من يؤازرك؟

- عندي ثوابتي المقدسة: الإيمان والتصميم والمثابرة و...

وفجأةً صفقت موجة قوية صخور الشاطئ القريبة ووصلت قطرات الماء إليهما.. كأنها أصابع كائن ما من عالم الغيب تلكزهما أن يوقفا اتجاه الحديث هذا إلى أشياء أخرى. ونشطت ذاكرة ناجي عندما لامسه الماء:

- بالمناسبة لقد نسيت أن أخبرك أن اسمك هو ذاته اسم زوجتي بالكامل (سحر سالم). أرأيت توافق آخر بيننا.. يا للصدفة!

- إسم زوجتك سحر وعائلتها سالم؟! غريب.. مصادفة غريبة فعلاً! هل لك أولاد؟

- لا.

- هل تسكنان أنت وزوجتك وحدكما؟

- أقيم وحدي..

- وزوجتك؟

- أعطتك عمرها من زمان..

- آه.. آسفة. يبدو أن أسئلتي في غير محلها. إذاً أنت الآن وحيد؟!

- يكفيني الله معي.

- أنا آسفة حقاً لسؤالي عن ماضيك المؤلم.

- لا بأس. أنبقى جالسين هنا..؟ تعالي نتناول شيئاً من المثلجات.

وعادا باتجاه حانة الفسطاط وتناولا المثلجات وتسامرا بعض الوقت.

قالت سحر:

- لا تظن أن الطموح هو الذي يقودني في معركتي هذه. قد لا أصل إلى مبتغاي.. وإنما بلا شك سنضع نحن حجر أساس.. ويأتي غيرنا مؤازراً أو مكملاً.

- طموحك كبير.. ولديك قضية إنسانية رائعة. سأساعدك يا سحر وأقدم لك العون في ما أقدر عليه. ولا أدري إذا كنت أفيدك في شيء. لن يكون لدي عمل أعظم وأسمى من هذا. عملي الآن مواز لعملك ولو كانا خطين منفصلين..! بيد أن سهمين خارقان أكثر من سهم واحد، وخيطين أقوى من خيط واحد.

صمتا ثواني.. ثم قالت سحر بهدوء وقد خفضت عينيها:

- رؤياي لم تولد من العدم يا ناجي، فأنا لدي قصتي.. ولدي ماض..! ولدي معاناتي التي تفرض علي واجباً كهذا.

فقال ناجي وقد شعر أنه لا يخاطب فتاةً عادية... لأن الذي يكلمه الآن تاريخ مليء بأشياء وأشياء... يبدو أن الفتاة أثقلها ماضيها أيضاً. وتملك تجربةً عميقةً مع صغر سنها.

وصغار السن الذين يقذفون حمماً من رؤىً سامية غالباً ما يكون السبب ما في جوف ماضيهم من اضطرام وحرمان ودينامية صاخبة.

قال ناجي بشوق هادئ.. مدركاً أن لهذه الفتاة الشابة حكاية.. وعندها الكنز الذي يستحق المغامرة لأجله. عندها جزيرة أحلام تريد أن تركب بحر العواصف إليها.

- ألن تخبريني قصتك يا سحر..؟ أنت وأنا نسير طريقاً واحداً.. من زمان.. ولكن واحداً منا كان يسبق الآخر. والآن تقاربنا.. وصرنا جنباً إلى جنب.. وتوافقنا كذلك في أشياء عديدة.

- كلانا له حكاية.. أم تراها حكاية واحدة في فصلين متباينين؟! يقال إن ماضي الناس نقطة واحدة.. ولكن ألا يكفي الآن أننا حبتا حنطة رمتنا يد الزارع في حقلة واحدة؟

- لن أسألك عن ماضيك يا سحر.. كما أني لست متشوقاً لأن أخبرك عن ماضي.. لننس قصة الماضي.. ولنحمل قنديل الأمل ونبحث عن الفرح الضائع في عتمة الآتي.

******

كانت الحرارة مرتفعةً ذات ليلة من ليالي هذا الصيف الطويلة. إنها الثانية عشرة وعينا ناجي مطبقتان فقط.. وكل ما فيه سواهما يقظ. مسامراه اثنان: وليم عامر وسحر سالم.. ولكل منهما حكاية. حكايته هو تشبه حكاية وليم.. وتشبه أيضاً حكاية سحر في وجه من الوجوه. هو مشكول بعامر بخيط السجن.. ومشكول بسحر بخيط الحب. لا يقدر أن ينام.. مصابيح سهر خافتة.. وضحكات على الشرفات وموسيقىً هادئة بعيدة.. أحاديث وسمر.. ورائحة التبغ والأراكيل يسافر بها النسيم عبر الشارع الطويل. لا شيء جذبه على التلفاز. عمل له كوب شراب بارد وجلس على الشرفة بعض الوقت. ثم أحضر حاسوبه ودخل على الـ FACEBOOK وحدث نفسه «ماذا أنت فاعل يا ناجي؟ تتصرف كالمراهقين». كتب (سحر سالم) وضغط ENTER وظهرت صورة سحر على شاشة الكمبيوتر. فابتهج للاكتشاف! ثم ضغط على مفتاح حاوية الصور لتظهر أمامه صور سحر هي والمعارف والأصدقاء. وراح ينظر في هذه الصور. وفجأةً اضطربت أحشاؤه! جمد الدم في عروقه وراح يندى جبينه. رأى سحر في إحدى الصور تقف إلى جانب رجل.. متعانقين.. ضاحكين.. يبدو كأبيها.. لكن ناجي عرفه! عرفه جيداً... مع شيبة السنين تلون شعره.. وبوضوح تام. إنه أنور سالم أخو زوجته وحبيبة زمان سحر سالم.

******

3

سأل الممكنُ المستحيل: أين تقيم؟ فأجابه: في أحلام الإنسان العاجز
طاغور

فجرت مفاجأة أنور في كيان ناجي خوفاً كبيراً. مخبآت الأيام أحياناً تشبه صوت وحركات الكلاون.. حقيقية وساخرة! بدا له أن سحر الجديدة هذه كالكواليس التي تخبئ الأحداث وشخوصها قبل العرض المسرحي، بل هي القمقم الذي يخفي مارداً! هي حكم مبرم على ورق لم يخرج بعد إلى العلن. إنها الفيلم الذي لا زال في غرفة التحميض. ماذا في صندوقتك بعد يا سحر جونيور؟ سأل ناجي نفسه.. وكلما اكتشف شيئاً جديداً في هذه الفتاة الوامضة في سماء يومياته انجذب إليها أكثر. اللغز جذاب لغموضه. حقيقة كونها تنتمي إلى المعارف بل الأقارب.. أقارب أيام زمان جعل قلبه يفكر.. والعقل يدق! وملاك الحب يهمس في أذنيه.. يحثه ويدفعه نحو حب قد يعوض عليه حرمان سنوات الشقاء.. لكن ثقل أقدام هذه السنوات داس بقوة حبات الحب

الصغيرة النابتة.. قوي العقل فيه على العاطفة. مراحل السجن الطويلة صعدت ضباباً كثيفاً من وادي ماضيه ليحجب الرؤية الواقعية، ويصعّب عليه التمييز بين الشهوة والعاطفة. وبينا هو يتقاذفه تياران: تيار الحب وتيار الواقع المر الذي وقف جلاداً مستعداً لذبح هذا الحب الجديد المشبوب.. جاءت هذه المفاجأة لترسخ في ذاته حقيقة أن الفتاة في منزلة ابنته.. أو هي ابنة قريب.. عدو.. صديق.. لا يريد أن يتذكر! الحقائق تتوالى وتزيد من حيرته وقلقه. كان قد عزم على الدخول في مشروع الفتاة وطموحها.. ولكنه الآن يشده خوف حذر إلى الوراء، ويتيقن من أن ملاطفة الفتاة باتت خطاً أحمر.. والدنو منها لعب بالأرقام الصعبة.

راح ناجي يفكر في حيثيات المرحلة المقبلة: خريطة طريقها وجدولتها.. أينهي كل شيء مع الفتاة؟ ما هو العذر الذي يقدمه في حال انسحابه؟ أية حجة تقنع هذه الفتاة النابهة؟ ولو هو تابع سينتهي به المطاف لاصطدام بوالدها أنور سالم.. وستعرف كل شيء.. لا! ليس كل شيء. هو وحده يعرف كل شيء. والذي ستعرفه عنه قد يرمي به ثانيةً في سجن نفسي هو سجن الوحشة والغربة. هو نفسه بدأ النفور «يصادر» قلبه. راح يبحث عن حبل نجاة يشيله من المزيد من الغرق. وفكر أيضاً بأمر آخر: سحر سالم! أترى سماها بهذا الاسم إبقاءً لذكرى شقيقته؟! ربما.. بل حتماً هكذا. ولكن سحر الجديدة فاقت سحر القديمة جاذبية وثقافة.. إنها ألطف وأعذب. حنين إلى الماضي.. كأنه.. ما يحرك قلب ناجي في سحر الصغيرة. أهو حب حقيقي؟ أم صنف عميق من النوستالجيا تنتهي بعد أن تلامس كل امتداداتها؟! كان يفكر.. ويفكر.. ويحدث نفسه وهو منحن فوق ورقة وقلم رصاص يرسم الأحجام المظللة

والقناطر ذات الهندسة التقليدية.. أحياناً يرسم شفاهاً وعيوناً أنثوية ساحرة.. القلم بيمينه والسيكاره بالشمال.. وقربه القهوة ومنفضة مليئة بالسكائر وسحابة الدخان كعمامة فوق رأسه. وبينما هو في لجة خواطره هذه.. قرع الباب فجأةً عصر ذلك السبت. قام بهدوء وفتح. وليس من العادة أن يزوره أحد، فإذا الصحافية ذات العينين العسليتين منتصبة بقامتها الهيفاء في الباب. مفاجأة ليست بالحسبان!

– مساء الخير! قالت سحر والبسمة الساحرة تضوّئ وجهها.

أجاب ناجي مرتبكاً.. وقد أنسته المفاجأة مخاوفه:

– س.. س.. سحر! يا ألف أهلاً وسهلاً.. تفضلي. أي مساء بهي هذا!

– لا تسأل كيف حصلت على العنوان.. الجمعية هي المصدر الوحيد للوصول إليك. قالت سحر وهي تخطو خطوتين داخل العتبة وعيناها تجولان في أرجاء المكان متفحصتين تارةً.. وباحثتين طوراً عن غرفة الجلوس.

قال ناجي بلطف وهو يتأمل حركات الرأس واليدين ورقة الخصر كما يتأمل الفنان لوحةً جميلة:

– أية مفاجأة سارة هذه! آخر شيء فكرت فيه أن تأتي سحر سالم لزيارتي في بيتي المتواضع.

– لا تأخذ فكرةً خاطئة عني يا ناجي، أنا لست من الفتيات اللواتي تغويهن المظاهر.. كنت ولا زلت أحب البساطة والعفوية. بيتك مرتب ونظيف!

– نجمة تلفزيون الـNRCC في دارنا تعطينا شهادة في الترتيب والنظافة. قال مازحاً.

– أنا لست باحثة عن الشهرة يا ناجي.أنا أحب الحقيقة. وأنا أفتش عن العدالة والسعادة. قالتها وهي تجلس فوق مقعد مريح في الصالون.

قال ناجي:

- العدالة والسعادة!! واضح يا عزيزتي أنك تسلكين الدروب الصعبة. أنت شخصية مغامرة.

- لو لم أكن مغامرة لما اخترت الصحافة مهنةً لي.

- وعنيدة أيضاً. قال وهو يتابع النبرة المازحة.

- عنيدة ليس عن جهل وتعصب، عنيدة في بحثي عن الحقيقة.. عنيدة في تصميمي.. عنيدة في تمسكي بالحق والخير. بيد أني لست متكبرة كما ترى.. الجمال لا أبالي به، والمال لا أؤخذ به. يعجبي الانسان القوي بذاته، الذي يكافح بشجاعة لأجل قيمه ومبادئه.

- إنتبهي يا سحر.. إنتبهي جيداً، إن شخصية مثل شخصيتك تـغري.. تغري الساسة طبعاً! والسياسة بحاجة دائماً لصحافية جميلة.. ذكية وطموحة.

- السياسة تعنيني من جانبها التدبيري لقضايا الناس فقط.. وأما من جانبها العقائدي والتحزبي فأنا صحافية مواكبة وناقلة للحدث لا أكثر. أكره نفاق السياسة وألاعيبها، ولا أحب المال فلا يشكل فخاً لي. أنا ثابتة في قناعاتي، لا خوف علي.

كلمات واثقة وحازمة. ويزداد ناجي إعجاباً بالشخصية الفذة وقوة العزيمة.

- نعم.. يبدو لي جلياً أن لا خوف عليك البتة.

كان ناجي أثناء هذا الحديث قد عزم في قلبه ألا يبوح لها باكتشافه الهام على الـ FACEBOOK أو أن علاقة قديمة تربطه بوالدها أنور. لماذا كتمان هذا الأمر؟ هل هو موقف اجتماعي طبيعي لتحاشي الاصطدام؟ هل هي جاذبية شخصية وجمال من النوع الذي يهوى؟ والآن يغرق في الرمال المتحركة؟

أم لأنه فعلاً لا زال مصمماً على الوقوف إلى جانبها.. والمسكينة لا علاقة لها البتة في الذي حدث منذ عشرين عاماً. قد تكون هذه كلها مجتمعةً دفعت به أن يُبقي الأمر طي الكتمان.. وبحكمة.. فرضت نفسها الآن.. ترك لافتة الأقدار عند مفرق ما.. أو منعطف ما.. تلهم قلبه وتدله نحو الطريق الذي يجب أن يختار.

- كيف أنت يا سحر؟ كيف العمل؟

- جيد والحمد لله. ألم تقرأ مقالي في الصحيفة عن السجون الإصلاحية في أوروبا؟

- للأسف لا. ألديك نسخة عن العدد؟

- إن المقال لازال عندي على الكمبيوتر سأعطيك نسخة على CD. كيف عملك أنت؟

- حسناً، شكراً. عملي جيد! إنه يأخذ وقتي في الجمعية وهو ممتع وأحبه. يبدو أن رسالتي في هذه الحياة هي في الجمعية.

قالت سحر بنبرة ملحة:

حدثني عن السجن يا ناجي.

- حسناً.. ماذا تشربين؟

- القهوة أحب شيء إلي الآن. ثم تابعت وهي تنظر إلى ركوة القهوة وفنجان فارغ ومنفضة مليئة بالسكاير وقلم رصاص ورسومات على الطاولة: سأحضرها بنفسي، أين المطبخ؟

أجاب ناجي ممانعاً:

- عفواً آنستي.. لا أقبل.. أنت ضيفتي وأنا الأولى بواجب الخدمة.

ودخل إلى المطبخ ليعد القهوة.

- ألقت سحر نظرةً نحو مكتبة ناجي المتواضعة، فرأت كتباً في السياسة والاجتماع وعلم النفس والتاريخ وكتاباً عن العمارة، ورأت أيضاً نسخةً من القرآن وإلى جنبه نسخة من الإنجيل.

سألت سحر بصوت عال:

- هل تقرأ القرآن والإنجيل يا ناجي؟!

- أجل. وهل هذا غريب؟ أجاب.

- لا! بالعكس. أبي مؤمن مسيحي ملتزم يا ناجي. وأنا كنت أتردد إلى الكنيسة في مرحلة ما.. ما رأيك أنت في الدين؟

- أبوك مسيحي ملتزم! هذا جيد. قال هذا وهو يكتم وقع المفاجأة في نفسه.. هي حقاً مفاجأة! لقد عرف أنور سالم جيداً. ولكن أنور سالم اليوم غيره بالأمس!

- نعم. وقد أقنعته منذ مدة أن ينضم إلى لجنة الكرازة للسجناء في الكنيسة. هناك فريق مسيحي يدخل السجن بهدف الإرشاد والوعظ الديني.

- بلى. كثيراً ما كانوا يجيئون إلينا. وتحادثت كثيراً معهم. إنهم أناس لطيفون. وأنا يا سحر عقلي بعيد عن الفكرة الدينية. هل أنت ملتزمة دينياً في الكنيسة أيضاً؟

- لا.. والدي فقط. كنت أتردد إلى الكنيسة لمدة. ولكني متأثرة بالكثير من مبادئ والدي المحافظة.

- هل والدك عضو مسؤول في الكنيسة؟

- إنه مبشر.. ويلقي المواعظ من وقت لآخر.

أنور سالم مبشر وواعظ! هذه حقيقة أخرى تضاف إلى رزمة الحقائق عن آل سالم. «عاد الماضي ليقلقني.. دخل حياتي بقوة غاصبة آسرة». كان ناجي يهمس في سره وهو يحضر القهوة. ثم خرج إليها.

- تفضلي.. كيف تحبين القهوة؟ سأل ناجي وهو يسكبها في الفنجان.

- حلوة. والآن اجلس وحدثني عن السجن والسجناء في «بريحان».

فقال ناجي:

- أأنت مهووسة بالسجن؟! ألا يشغل بالك شيء غير السجن؟

فأجابت بهدوء:

- وهل تقدر السلحفاة أن تهرب من سجنها الذي تحمله على ظهرها حيثما ذهبت؟ لقد خلق الله بعض الناس كالاسفنجة يا ناجي لامتصاص آلام الآخرين لا أكثر. هات ما عندك هيا.

- آه.. من أين أبدأ يا آنستي الجميلة. قال ناجي متنحنحاً، وفي نيته أن يكون واضحاً في ما يقول. رشف رشفةً من فنجانه وقال:

- عندما دخلت السجن منذ عشرين عاماً تعرفت على سجين شاب ذكي.. لم يكن رساماً.. لكن السجناء يحاولون أي شيء يحاربون به الوقت. أراني رسماً من صنعه يمثل رجلاً وحيداً في الصحراء حاملاً مكنسة يكنس الصحراء! الصورة غريبة.. ولكن ألوانها جميلة، جذبتني. سألته: «ماذا يعني هذا الرسم؟» أجابني: «سميتها (اللعب في الوقت الضائع). أتظن أن هذا الكناس جاد في كناسته للصحراء؟ هل بإمكانه أن ينهي عمله؟ حتماً لا! ولكنه يتسلى.. التسلية وحدها عزاء السجين». إن الشعور بالوحدة يا سحر داخل السجن يجعل الزمن لا نهاية له. صعب على الإنسان أن يعيش وحيداً في زمن

بلا حدود. إن السجين يخلق لنفسه أشياء لكي يسمع وقع أقدام الزمن..! أشياء لها بداية ونهاية، إنه يخلق أشياءه التافهة وزمنه الخاص به. الزمن وحده حر خارجاً، وكل شيء آخر سجين في معنى من المعاني. والزمن الذي نلهو به يلهو بنا. كم تمنيت يا سحر أن أكون كالزمن.. الزمن شيخ لا يموت.. قلبه شباب يتجدد أبداً. إنه حدود كل موجود ولا أحد يقدر أن يحده. إقترب مني يومها شاب وأراني عقب سيكارة وقال لي: جسّها إنها إسفنجة. ثم مررها قليلاً على نار قداحته ومسدها حتى صارت مبسطة ملساء، ثم بللها بقطرات ماء ومسدها ثانيةً. أصبحت صلبة! أخذ قطعة قماش ومزقها بها كأنها شفرة حادة. قال لي بنبرة هجومية وقد جحظت عيناه: أستطيع أن أمزقك هكذا بسلاحي الصغير هذا.

سألت سحر بشوق وهي تسمع بأذنها وقلبها معاً:

– هل أخافك هذا؟ ألم تستخدم السلاح أنت يوماً؟

– لا يا صديقتي أنا لست مجرماً.. سجنت لسنين طويلة.. قصتي قصة. وماذا قال لي بعد أن صنع سلاحه هذا؟

– ماذا قال؟

– قال لي: أتحسبنا قديسين في دير هنا؟ عندنا هنا كل شيء.. أسلحة فردية سواطير سكاكين مخدرات أفلام موبايلات.. ووسائل تسلية متنوعة.. ولا ينقصنا إلا النساء.

سألت سحر بدهشة:

– أسجن هذا أم معسكر مجرمين؟

– سألت السؤال نفسه في حينها.

- ألم تقل لي إن السجين يشعر بالوحدة القاتلة! فكيف ذلك ووسائل التسلية المتنوعة متوفـرة بهذا الشكل؟

أجاب ناجي سائلاً:

- أتعلمين من من الناس يشعر بالوحدة؟

- من؟

- الأغنياء! الأغنياء يشعرون بالوحدة. حولهم ناس كثيرون وهم لا يثقون بأحد. ينظرون إلى الناس كذوي مصالح يحبونهم لأجل المصلحة لا أكثر. من ثقوب الشكوك تنبت أشواك الوحدة والعزلة. السجين كالغني لا يثق بمجرم آخر نظيره لأنه يخاف منه. الذي ينشئ العلاقات فقط هو المصلحة، وتتبخر العلاقة باختفاء المصلحة. وعندما تتغذى العلاقة من المصلحة لا سعادة فيها البتة. السعادة الحقيقية في العلاقة الصادقة، وحيث لا ثقة هناك الوحشة القاتلة. لا أدري يا سحر لماذا يسعى الناس إلى المصالح.. المصلحة عدوة السعادة اللدود! مجتمع السجن مجتمع مصالح (حكلي تا حكلك[1]) والسجناء يشكلون داخل السجن العصابات والمافيات والزمر.. يتحاربون.. يتنافسون.. وجميعهم يشعرون بالوحدة وانعدام الزمن. مهما زاد عدد الناس يا سحر قرب الإنسان فلن يشعر بالراحة والاطمئنان ما لم توجد الثقة الكاملة. الثقة خجولة لا تحب الجماهير.

صمت قليلاً يلتقط أنفاسه.. فقالت سحر بعد رشفة من فنجانها:

- كلامك يشبه الفلسفة. تتحدث بأسلوب مميز وتهندس العبارات. وأضافت بسؤال:

(1) قول عامي مأثور يقصد به المصلحة المتبادلة.

– كيف يعيش السجين يومياته؟ كيف يأكل، كيف يشرب، كيف ينام؟ اللباس.. المرض...إلخ؟

أجاب ناجي:

– ما يأكله السجين في سجن «بريحان» لا تقبله نفس. صنفان أو ثلاثة يتكرران أسبوعياً. مآكل غير ناضجة. وأما النظافة.. لا أريدك أن تتقيأي قهوتك الآن. الجزء الكبير من طعام السجناء يصنعونه بأنفسهم، لولا المآكل التي يأتي بها ذووهم غير مرة في الأسبوع لكان السجين يموت جوعاً. إن السجين الداخل حديثاً إلى السجن يعاني لشهور من الزنطاري لسبب اضطراب أمعائه من خلل نظام الأكل. والأمراض الموسمية، الجرب والحكة، صديقة حميمة للأوساخ! إن السجون هنا في شرقنا هذا تربة خصبة للأمراض الجسدية كما الأمراض العنفية بالسواء. إن سجن «بريحان» هو سجن رجال.. وفهمك كاف في ما يخص موهبة التـنظيف عند الرجل. إن الزنزانة بحاجة لعناية ونظافة.. والحمام كذلك والسجناء يقومون بهذا مداورةً. إن السجن الانفرادي أكثر نظافة من الزنزانات لأن شخصاً واحداً يستخدمه. أما النظارات فهي عبارة عن غرف فسيحة يسكنها عدد من السجناء: أربعة ستة ثمانية عشرة خمسة عشر.. عشرات... وأحياناً مئات، وهؤلاء يعين لهم «عريف» أو «شاويش» من بينهم يهتم بتنظيم الخدمة اللوجستية والحاجات التي يؤتى بها من الخارج أو من خلال الجمعيات (صابون، مساحيق تنظيف، كبريت، ماء، مبيد الحشرات، خبز، معلبات، أكسية وأغطية.. وغير ذلك من اللوازم...) وهو مسؤول عن عملية تنقل سجناء نظارته من مكان لآخر داخل السجن.

– ولماذا يتنقلون داخل السجن؟ سألت سحر وهي مأخوذة بالحديث.

أجاب ناجي:

- في أوقات المشي والرياضة والمقابلات والزيارات.. وحصص الترفيه والتثقيف التي تقيمها الجمعيات.. والخروج إلى جلسات المحكمة.. ثم العمل في مشغل الفنون الحرفية... إلخ. وسجناء يحق لهم الخروج إلى الباحة ساعة يشاؤون في حين أن بعضاً منهم في أوقات معينة! هي «المساواة» ولا مقياس مفهوماً لها. دائماً هناك التمييز الغامض الغريب بين السجناء. وهذا مصدر هام للشغب.

- إذاً هناك أشياء كثيرة يلهو ويتسلى بها السجين؟! سألت سحر.

- إن السجين يا سحر يحارب أفكاره في ما يقوم به من أعمال داخل السجن. بيد أن الأفكار.. والواقع الصعب المر أقوى منه. أحياناً كثيرة يكون عاجزاً عن القيام بأي عمل لأن موجات التوتر والوحشة تشله. الأفكار تتآكله وتخطف منه جسده. هو يحاول النسيان ولكن أنى له ذلك؟ إن السجين الذي طالت مدة سجنه وله زوجة وأولاد.. ألمه مضاعف.. التفكير بالعائلة يهد عزيمته.

رشف ناجي رشفتين من قهوته وقال لسحر:

- أنت مثلي شرّيبة[1] قهوة. نقطة تلاقي أخرى.

- ليس لهذه الدرجة.. إني متشوقة لسماع ما تقول.

وتابع ناجي كلامه ناسياً نفسه.. وناسياً أيضاً أن التي يحدثها أصبحت الآن قريبته والمسكينة لا تعرف شيئاً:

- إن السجن يا سحر مجسم لآفات مجتمعنا. كل أمراض المجتمع

---

(1) تحب القهوة وتشربها بكثرة.

موجودة في سجن «بريحان». والسجن يا سحر لا يشفي الإنسان من فايرس الجريمة.. هو بالحري ناقل لها.

إنه كالسلك المعدني الذي يجتازه التيار الكهربائي بسرعة. روح الشر معدية وفتاكة في رحاب السجون. السجن يروج للإجرام، يعدي عنفاً، يدرب على العنفية، «يفبرك» إجراماً، يخرّج المحترفين.. والمحترفون يزيدهم خبرةً واحترافاً. في السجن يا سحر قلة هم التائبون.. وقلة جداً.

سألت سحر بدهشة:

- لماذا؟! أين هي الإدارة؟! ألا رقيب يرى ويوقف كل هذا؟!

أجاب ناجي مبتسماً:

- الإدارة..! إن الإدارة في سجون الشرق أمنية مخابراتية.. وآخر شيء تهتم له الإدارة هو الحالة الانسانية للسجين. والضابط الآمر للسجن سرعان ما يشكل ليؤتى بآخر مكانه، ودائماً هناك عملية تشكيل. والتصحيح يحتاج إلى استقرار وثبات في الإدارة.. يحتاج إلى تخطيط ورؤيا. هذه مشكلة حقيقية! يدفع السجين الثمن دائماً.

- الجمعيات طبعاً هي التي تقوم بالاهتمام بالجانب النفسي والانساني.. صحيح؟

- أجل. وهناك من يعيق عملها في الداخل أيضاً.

- من؟

- بعض القادة الذين لا يحبون الجمعيات الانسانية. هي عصابات مال يقولون.

- وهل هذا صحيح؟

- ربما هناك جمعيات هكذا لسان حالها.. ولكن ليس كلها! أنا كنت سجيناً واختبرت الكثير من الجمعيات الإنسانية الجيدة منها والكاذبة. كان هناك شاب (خمسة وعشرون عاماً) حكم عشر سنوات لجرم اقترفه فاتصلت (عطاء بسرور) بالجامعة التي كان يدرس فيها ووفرت له متابعة الدراسة في السجن.. فدرس وتفوق ونال شهادة الدكتوراه في السجن.. وسلمه الوزير الشهادة يداً بيد في احتفال التخرج في الجامعة.

- ممتاز!

تابع ناجي:

- سجناء أبرياء سجنوا ثم خرجوا من السجن لثبوت براءتهم.. ولكن (عطاء بسرور) سعت حتى لا يسجنوا مع المجرمين المحترفين بل في ظروف ملائمة لنفسيتهم وشخصيتهم. وهذا عمل جيد قامت به الجمعية.

- هذا جيد جداً! حدثني أيضاً، ماذا بعد؟

وتابع ناجي الكلام وهو يشعل لفافة:

- في السجن مظاليم.. وما أكثرهم! لا تتعجبي. إنهم مجرمون. مجرمون مظلومون. عندما يحكم إنسان في جرم ما خمس سنوات ويحكم آخر بالجرم نفسه سنتين فقط لأنه مدعوم من جهة ما.. هذه ليست عدالة. السجين موعود بتخفيض سنة السجن إلى تسعة أشهر الأمر الذي تحدث عنه منذ عشرات السنين، وإلى الآن لا شيء. خذي هذه مثلاً، لا يسمح للسجين أن يعانق زوجته وأولاده عند الزيارات حتى ولا سلام اليد.. ولو أمام أعين العساكر.. ولو مرة في السنة. ورجال الأمن أنفسهم يغضون الطرف عن المخدرات والمدى والهواتف الخليوية والإباحيّات في الداخل!

قالت سحر بانزعاج:

- الحالة سيئة للغاية. وتابع ناجي:

- المريض في السجن يعاني ما يعاني من مرضه.. لأن أحداً لا يصدقه أنه مريض. كثيرون هم الذين يتحايلون ويتمارضون. هم يفعلون هذا لكي يحصلوا على امتيازات معينة أو عناية أفضل. إن المريض في السجن يشبه المريض في الغربة يقاوم وجعه لوحده.. وإن عطف عليه أحدهم فهذا لا يخفف عنه. إن وطأة المرض مضاعفة في السجن. ناهيك عن الذين يعانون من الأمراض المزمنة (آلام الظهر، آلام الرأس، آلام المعدة، الأعصاب، الربو، المفاصل..إلخ) لهذه الآلام في السجن نكهة مختلفة بسبب الضغط النفسي. وأما الآلية المعقدة التي يحصل بها السجين على دوائه فهي دوامة مضحكة! ماذا أقول يا سحر.. الكلام يطول ويطول. المأساة تبدو إلى الآن بحراً لا نهاية له.

صمت قليلاً وهو ينفث الدخان في الهواء. وأضاف:

- هذا ولم أحدثك عن الطبقيات والمحسوبيات والعنصريات والصراعات اليومية كما خارج السجن. مجتمع السجن صورة مصغرة عن المجتمع في الخارج. لم أحدثك عن الجدران الهرمة التي اسود لونها وقشر دهانها فتجري فوقها الأنهار إلى الداخل لتشكل بحيرات الماء في الردهات والممرات.. ورائحة العفونة والمجارير الفائضة تعطر الممرات والغرف والأقبية والنظارات، ولا هم للإدارة سوى صيانة الأبواب الحديدية القوية لمنع الفرار. لا شيء غير ذلك.

قاطعت سحر حديث ناجي متنهدة:

- أنا يا ناجي متفائلة بمستقبل أفضل للسجون عندنا في هذا الشرق البائس، إذا كان هناك حراك جدي مثابر نحو الهدف. إننا في زمن السرعة والمستحيلات.. سنكون أنت وأنا البادئين في التغيير إذا لم يحدث هذا التغيير في أيامنا. يكفي اليوم يا ناجي، لقد ثقل رأسي من هذه المأساة الملهاة. أفكر في كتابة مقال عن كل ما تحدثني به الآن.

- لم لا. بإمكانك أن تكتبي.

- إن الإعلام في زمننا هذا يصنع المعجزات يا ناجي. إنه يحدث الثورات ويقلب الأنظمة.

- الكلمة المكتوبة والمدروسة سلاح فعال في هذا المجال.

- سلاح فعال؟! تتكلم كمن يشكو لا كمن يريد أن يهاجم! هنالك نغمة يائسة في الكلام. هل أنا مخطئة؟

- أقول الصدق يا سحر. أرى الأمل ضئيلاً. ولكن لن أبقى مكتوف اليدين، سنحاول معاً ونستخدم السلاح الأول الإعلام. ولكن الرؤيا غير واضحة عندي، لا بد من تحديد الأهداف. إلى أين سينتهي هذا الجهاد؟ كيف نريد التغيير؟ نوعيته كميته؟ يجب أن نحدد أهدافنا.

- كل هذا الذي حدثتني عنه يجب أن يتغير يا ناجي، هذا هو الهدف. وأنا الآن أعد دراسة جيدة متأنية للموضوع، وستتكون الرؤيا والأهداف عما قريب إن شاء الله.

واستمرا بالطريقة ذاتها، سحر تسأل وناجي يجيب. سرت سحر كثيراً بالمواضيع المطروقة في الكلام.. بدا لها يتكلم بالنيابة عنها. إنه صنوها! لقد ارتاحت له روحها منذ اللحظة الأولى. وهذا اللقاء زادها ثقة به وطمأنينة.

عزتهـا المبادئ والأخلاق في زمن باتت القيم موضةً عتيقة تمجهـا الحداثة.

رشفت سحر رشفتها الأخيرة ووضعت الفنجان في صحنه، وقالت وهي تقف منتصبة:

– قهوتك طيبة يا ناجي.. شكراً لك. سررت جداً بهذا اللقاء.

– أهلاً وسهلاً.. شرّفت. ألن تبقي قليلاً بعد؟

– يشوقني الحديث معك يا ناجي. أنت إنسان مميز. لكن الحظ لم يحالفك في الحياة.. حتى الآن.

ودعها عند الباب ملحاً أن تكررها. ثم غادرت بجسدها.. وأما عقلها وقلبها فقد خلتهما طائرين سعيدين في قفص ناجي العرم. ولكن ناجي شعر عميقاً في قلبه أن أصفاد القدر أوثقت معصميه ليدفعه القدر دفعاً سريعاً إلى داخل «السجن»!

قادت الهوندا في الشارع المكتظ.. الزحمة خانقة والحر شديد. وسخونة هذا الصيف جاوزت المألوف إلى درجة حرارة 37. أدارت مكيف السيارة وراحت تفكر في كل ما سمعت لتوها. لقد سجلت ذاكرتها النـشيطة كل تفاصيل الحوار. فاستعادت الكلام فكرة فكرة، وشرعت تدبج مقالتها المقبلة. ناجي محدث لبق، وقد لا يجذبها الكلام لو أن غير ناجي يقوله. فكرت عميقاً بناجي.. وبها أيضاً. فجرف تسونامي الأفكار خواطرها القلقة: «هل أنا أحتاج إلى هذا الرجل الطيب الذكي ذي الخبرة؟ مهندس معماري.. مظهره لائق لطيف.. ذكي.. عاقل.. لولا أنه فقط كان سجيناً سابقاً. كيف يمكن لهكذا إنسان ذكي مثقف أن يسجن في جريمة كبيرة! ترى ما حكاية هذا الإنسان؟! رجل نابه في العقد الرابع.. كان متزوجاً لا أولاد له.. يعيش وحيداً قليل

العلاقات؟! شبه مكرس للسجناء! هل يمكن أن تخفي هذه الملامح اللطيفة المسالمة طباعاً شريرة؟! أهو رجل أمن؟! لا. ناجي إنسان.. إنسان ذاق آلاماً وخبر الحياة بحلوها ومرها.. وبعدها وعمقها وارتفاعها ولو بدا في وحدته هذه بئر أسرار. ما بك يا فتاة؟ ما هذا الشيء الغامض يتحرك في داخلك؟ قالت لنفسها، ألا تفكرين به زيادة عن اللـزوم؟ لا.. إنه فقط مجرد ارتياح.. ربما الشفقة على وحدته وحظه العاثر في الحياة. بيد أن هذا الارتياح له نكهة خاصة؟ هو أيضاً مجرم! ولن تسمحي لعواطفك بالانقياد في اتجاه سجين سابق.. ولكن شخصيته صنو شخصيتك، المزاج والطباع وطريقة التفكير... المتشابهات كثيرة. هل يذهب الأمر بعيداً عن دائرة العمل؟ أترى يكون هو؟! إنه يوحي لي بطمأنينة لم ألمسها في إنسان. وهل تثقين يا سحر في سجين سابق؟! ولكن.. لا أدري.. أشعر بحدسي العميق.. وما خذلني حدسي يوماً، أن ناجي ليس مجرماً.. إن لهذا الإنسان لغزاً. هذا الإنسان ليس ذا طبيعة عنفية. ولكن المجرمين ممثلون بارعون.. يتظاهرون بالوداعة والمسكنة... لن أكون سريعة الحكم.. سأنتظر.. أراقب.. لن أرمي بنفسي في لجة التيار. أنت شابة وألف من يرغب بك من شباب جيلك. كومة السنين هذه بيني وبينه ليست جبلاً.. إنها دروب الخبرة تقود دائماً إلى قمة اكتمال الرجولة والنضج».

أفكار وسجال داخلي قوي يجتاح الفتاة العزباء كلما صادفت رجلاً مثيراً للاهتمام. وسجال شبيه أيضاً كان قد سبق وناطح رأس ناجي. ظلـت سحر في لجة ريبتها هذه حتى وصلت إلى البيت. أعدت العصير البارد ودخلت غرفتها وجلست إلى حاسوبها وبدأت تنقر مقالتها:

«أخي القارئ، أين كنت.. في البيت.. في الشارع.. في العمل في السيارة

أو في المقهى، أو كنت وراء مكتبك أو في الكافيتيريا أو كنت جالساً في صالون الانتظار.. مهلاً! يمكنك أن تلتقط أنفاسك لدقائق وتستريح قليلاً.. نفخ سيكارة يا أخي.. واسمعني.. أرجوك.. فعندي ما أقوله لك في هذا الصباح: هل اتفق لك صدفةً أن دخلت السجن مرة؟ هل فكرت بالسجن يوماً ما؟ هل فكرت بالسجين مثلاً.. مجرماً كان أم مظلوماً؟ هل فكرت في حاجته وحالته داخل السجن؟ محكوماً لشهر كان.. أو سنة أو سنوات أو ربما المؤبد؟! إنسان مأسور الحرية.. لا يحيا بسوى أفكاره وخيالاته. إنه يعيش في الحجرة ليل نهار يأكل وينام ويتحرك فيها.. وجدرانها هي أبعاد عالمه وأحلامه الأربعة. لا يعمل ليثمر.. ولا يخرج ليرى جمال الطبيعة والحياة اليومية العادية. إنه تحت العقاب والتأديب. يعاقب على الـ «خطيئة» التي عملها. ومع ذلك هو يستحق ظروفاً إنسانية ونفسية وجسدية جيدة لكي يمضي زمن عقوبته بسلام. نعم. توافقني الرأي يا من أنت تعيش في الحرية والحرية تاج على رأس الأحرار لا يراه غير السجناء. بلى! هو بحاجة لأوضاع جيدة يستطيع بها أن يمضي مدة تنفيذ حكمه. هل خطر في بالك أن السجن لا يوفر له الطعام الصالح ولا النوم السليم الصحيح ولا الطبابة الجيدة؟ وهو يعيش في مكان غير نظيف تسرح فيه الأمراض كما تسرح الحشرات السامة، والشرور كما الجرذان. هل خطر لبالك أنه بريء مظلوم وهو وراء الأبواب الحديدية لشهور.. وسنوات.. زوجته وأولاده يعانون الأمّرين لفقده وغيابه؟ هل خطر لبالك مدى تأثير حرمانه من معانقة عائلته عند زيارتهم له؟ هل خطر لبالك أنه ربما كان بريئاً والسجن يلقنه الجريمة؟ هل خطر في بالك أنه لو كان سلوكه مثالياً في السجن فبعناية إلهية ربما قد يعطى حق تخفيض الحكم؟ هل خطر لبالك

أن تكون الظروف الاجتماعية الصعبة المحيطة ربما هي التي دفعت به إلى الانحراف؟ هل خطر في بالك أن رجال فكر وسياسة وأدب وعلم مسجونون لسبب فكرهم مع مختلسين ومحتالين ومزوّرين وقتلة في زنزانة واحدة؟ هل خطر لبالك أن المآكل التي يأتي بها الذوون لمسجونيهم تفتح مرات ومرات وتحكش بالأدوات المعدنية للتحقق أن لا ممنوعات تهرب فيها؟ هل خطر لبالك أن فصل الشتاء داخل السجن يخلف تواقيعه بركاً وبحيرات ماء خصوصاً في ردهات الطوابق السفلية؟ هل خطر لبالك أن السجناء ناقمون وثائرون.. وليس فيهم تائب عن شره.. وهم ينتظرون خروجهم بفارغ الصبر.. ليس لحياة كريمة شريفة! بل ليعودوا بقوة أكثر إلى حياة الجريمة انتقاماً من الحياة الكريمة؟ هل خطر لبالك أن الجمعيات الإنسانية التي تعمل على الجانب الإنساني في شخصية المجرم تحارب.. ويعوّق عملها من عالم الغيب؟ للسجين يا أخي حق.. كحق أي إنسان في الغذاء والأمان والمعرفة، كبا به السير فلا يجهز السجن على ما بقي من حياته؟ إن السجن في شرقنا المتوسط يشبه الدوائر العقارية يا ناس.. الحالة مهترئة.. إنه مجسم لبكتيريات وجراثيم مجتمعاتنا بكل ما فيها من متناقضات وانحرافات.. إنه التعويذة التي تحوي اللعنة السوداء. إنه القمقم الذي سجن في داخله أمير شرير عاقبه ملك الزمان.. ولكنه سيخرج بعد ألف عام.. ليعوض عن أعوام سجنه شراً وفساداً. ربما فكرت بكل هذا؟ وربما لا.. بيد أن هذه جميعها حقائق.. حقائق كالصخور! أريدك عزيزي القارئ أن تقول معي بجرأة وبطولة وعالياً «كفى!» كفى استهتاراً بالانسانية. كفى احتقاراً للإنسان وعقله ووجدانه. كفى استخفافاً بقيمته ووجوده ودوره في الحياة. المجرم يا قوم مريض يحتاج إلى علاج أكثر

منه إلى العقاب. المجرم بناء نصفه مهدوم ونصف يتداعى. العقاب بالسجن المؤبد هو جريمة أخرى بحق الإنسانية تهدم ما بقي في الانسان من إنسان. قل معي يا أخي المواطن: لا! بشجاعة، لا للظلم لا للقهر لا للتعذيب لا للحرمان لا للاذلال... نعم لكرامة الانسان، نعم للاصلاح، نعم لبناء الإنسانية المعذبة، نعم للمحبة والرحمة والعدل والتسامح، نعم للفرصة الثانية للإنسان الذي أخطأ مرةً.. وعوامل عديدة شاركت في صنع جريمته منها التربية والبيئة والأهل.. ومنها القيم والعادات التي نشأ عليها في بيئة تحتاج لتنمية، لأن الخطيئة الثانية يدان عليها.. وأما الخطيئة الأولى فربما نحن المسؤولون عنها...»

كانت سحر تكتب وتنظر كلماتها تتراقص على شاشة الكمبيوتر كما تتراقص الانفعالات في ذاتها، وتشد عقلها ومخيلتها إلى مكان آخر. كانت تتخيل نفسها تقود تظاهرةً أمام المجلس النيابي.. ثم اعتلت المنصة لتلقي خطبتها. وتخيلت أن عدداً من الساسة واقفون ينظرونها ويسمعونها باهتمام.. يتأثرون بما تقول ويقتنعون. وتخيلت أنه في اليوم التالي كانت جلسة حكومية طارئة لأخذ قرار تاريخي بالنسبة لموضوع السجن. هي أحلام يقظة.. ولكن الحقيقة نصفها خيال.. والتغيير يبدأ بحلم.. والطيران كان أولاً جنوناً.

أمضت نصف ليلها وهي تنقح وتشطب وتغير وتزيد في مقالتها حتى باتت جاهزة للمطبعة. وأوت إلى فراشها. ولكنها لم تذق طعم النوم في تلك الليلة. أفكارها في ناجي والسجن والسجناء. لقد بات السجن وناجي القضية الواحدة، هي الفتاة الشابة الجميلة ولها الحق في عيش حياة فرح الشباب وهو يمضي بسرعة.. بيد أن قضية السجن أصبحت هاجسها الوحيد. كابوس جميل! وجهاد ممتع ملك عليها فؤادها يقودها في رحلتها في هذه الدنيا. إنها

الآن تجد من يحمل معها همها وقضيتها.. ناجي.. هذا الشاب ذو الجاذبية الغامضة يخرج من عتمة السجون كالسحر من عباءة ساحر ليبوح لها بالخفايا والأسرار. أتراها عاشقة سجن أو عاشقة سجناء؟! أم أن للأمر شيئاً يتعلق بماضي حياتها؟ لماذا هذا الحماس للسجن وموضوع السجن ليس بشيق؟ أليس هناك قضايا ومشاكل في المجتمع غير السجن لتعالجها.. لماذا السجن؟! إن لسحر حكاية مع السجن ولو كانت هي نفسها تجهل أصولها وامتداداتها. هناك حتماً تعويذة ما تربطها بالسجن.. هناك عقدة ما تشد حبل ماضيها إلى قضبان السجن. ما هي قصة سحر وما هو ماضيها؟ ما هو هذا الألم الذي رآه ناجي في عينيها العسليتين بوضوح؟ ما سر هذا الانجذاب الغريب بين الاثنين منذ اللحظة الأولى؟! هل للقدر يد في جمع روحين متناقضين متباعدين زمنياً ومنسجمين روحياً؟! نقيضان واقعياً واجتماعياً بيد أنهما صنوان متناغمان في الجوانب الفكرية، تماماً كعمودي الهيكل متباعدان ولكنهما يحملان هيكلاً واحداً.. كوترين في قيثارة واحدة متباعدين ولكنهما يخرجان نغماً واحداً.. كجناحين متباعدين ولكنهما يرفعان نسراً واحداً.

في الصباح قامت سحر وخرجت إلى الصحيفة لكي تحضر مقالها للمطبعة وهي متشوقة أن تراه منشوراً، كشوق الكاتب المبتدئ الذي يظن أن كتابه الأول سوف يحقق أرقاماً قياسية. كان يومها حافلاً بأشياء كثيرة متنوعة كعادة يومياتها: كتابة، مقابلات، مواجهات، اجتماعات، اتصالات، مواكبة أحداث، مونتاج، تظهير أفلام...إلخ والصحافة مهنة فيها ضغوطات باستمرار. ولكن سحر تحب مهنتها وهي سعيدة بعملها خصوصاً إذا كان لديها شيء جديد تتحرى عنه أو تحقيق مثير أو طلة تلفزيونية.. إنها تنسى الدنيا وما فيها وهي

منهمكة بالتحضير. كانت لها بعض الإطلالات الإعلامية التلفزيونية في مواضيع اجتماعية وفنية.. الأولى كانت حول الفن الغنائي الحديث، والثانية حول مقال كتبته عن رجال الأعمال في المهجر.. والثالثة عن الكتّاب الوطنيين الذين يكتبون بالإنكليزية والفرنسية في لندن وباريس... كانت تحقيقاتها غنية موثقة وطريفة جعلت منها وجهاً محبوباً في الإعلام التلفزيوني.

وعادت مساءً إلى البيت منهكة.. تفيض ملامحها بالبهجة.. واستلقت فوق مضجعها بعض الوقت.

سأل السيد أنور سحر ابنته:

- أين صرت يا سحر في بحثك عن السجون. هل كل شيء على ما يرام؟

أجابت سحر بوجه مشرق:

- أتعلم يا أبي؟ لقد أرسلت إلي السماء شخصاً كان قد سجن من زمان، ليخبرني عن حالة السجن.

- جيد! لديك الآن صورة أوضح عما كنت تسعين إليه.

- إنه شاب جذاب هادئ. لا يبدو عليه أن له «سوابق»[1] من ناحية ثقافته وأخلاقه.. لا أدري كيف دخل السجن.. فناجي العرم مهندس معماري يعمل الآن في جمعية (عطاء بسرور) وعمله المساعدة الاجتماعية للسجناء داخل السجن.

وما إن سمع السيد أنور سالم ابنته تلفظ «ناجي العرم مهندس معماري» حتى اضطربت أحشاؤه واكمد وجهه.. وبقي صامتاً لا يفوه بكلمة.

★★★★★★

(1) أي أعمال جرمية سابقة.

4

خرجت الصحافية الشابة غرفة تظهير الأفلام وبادر إليها أحد زملائها في العمل يميل إليها. واهتمامه هذا يتأرجح بين الإعجاب والحب. لم يصارحها بشيء، ولكنه يحوّم غامزاً لامزاً لأمر واحد. قصد فايز شريف وهو بلا شك لا يعبث معها. صحافيّ لامع.. أقدم منها في المهنة، له كتاب يعالج موضوع التكنولوجيا والإنترنيت وتأثيره على جيل الشباب والحياة الاجتماعية. له كذلك ذخيرة من التحقيقات الناجحة الواعدة بمستقبل جيد. حسن الطلعة وقلمه سلس جميل. سحر لا تشعر بشيء نحوه! تحترمه وتقدر مواهبه، وتأخذ برأيه في أشياء كثيرة، بيد أنه طائر غريب عن اللفيف الذي تشتاقه أغصانها.

– أين أنت يا سحر؟ لم أرك منذ أسبوعين، لولا طلاتك الساحرة في نشرة الأخبار!

كانت هذه بادئة كلام فايز، فأجابت سحر:

– أنت أدرى بمشاغل المهنة ومتاعبها يا فايز. لا وقت عندي لغير العمل. كلمات حازمة تتوخى الإيجاز.

– «تقبر الشغل وصحابو» إذا كان يحرمنا من حضورك اللطيف هنا في الصحيفة. مزاح هادئ ينم عن شوق. فقالت سحر:

- شكراً لك على الاطراء يا فايز. أنت تكثر من إطراءاتك.. ألا تلاحظ؟
- ألا تعلمين أن العيون الحلوة تجعل القلب يدق.. والعطر الساحر يشقه؟
- أشكرك على الاهتمام وحسن الوقع عندك، ولكني منهمكة كثيراً بعملي. وأهدافي هي الآن عندي قبل كل شيء.
- إلى أين سينتهي بك هذا التعب الزائد عن الحد؟ أنت ترهقين نفسك. ألا زلت عازمة على موضوعك عن السجن؟ أخشى أن تكوني قد صرت سجينة بحثك هذا؟
- لا تخف.. فالأمور تسير على ما يرام.. ولدي تطورات هامة في بحثي.
- تطورات! من أي نوع؟
- هل شاهدتني على التلفاز يوم التظاهرة الحاشدة في سجن «بريحان»؟
- بلى.
- إذا انتبهت لقد أخذت حديثاً من سجين سابق.
- نعم.. نعم أذكر ذلك.
- هذا سجين مميز! سجن عشرين عاماً وخرج منذ أربع سنوات. وهو صلة الوصل بيني وبين تلك الأسرار الثمينة المختبئة في السجن.
- تطور مثير فعلاً. أهنئك يا سحر، وأتمنى لك النجاح من كل قلبي. هل أنت تسعين إلى تحقيق متلفز أم كتاب أم موضوع صحفي؟

ابتسمت وقالت في سرها (أين أنت وأين أنا يا فايز؟) وأجابت:
- على الأرجح تحقيق تلفزيوني في حلقات.
- جيد، إلى الأمام يا سحر. أنا حاضر للمساعدة في أي وقت.
- شكراً لك يا فايز. وأنت لم تقل لي.. ماذا ستفعل برسائل الرئيس الراحل

بشير الجميل لبرباره نيومن؟ ألن تقابل ذلك الصحافيّ الأميركي. سألت سحر عن مشروع إعلامي جديد كان قد أطلعها عليه فايز.

– لا أدري يا سحر. أشعر أن المسألة ليست جدية. قد تكون مجرد لعبة من هذا الصحافيّ المتقلقل.

– ولكن قصة حب بشير الجميل مع الصحافية الأميركية برباره نيومن موضوع يستحق المجازفة.. خصوصاً وجود رسائل غرام بينهما! أجابت سحر مظهرةً ترحيباً حاراً للمشروع.

– أجل. ولكنه في البداية قال إن الرسائل مسروقة من ابنة برباره نيومن التي كانت تحتفظ بها كأنها تحفة فينيقية نادرة! وقد باعه السارق إياها بمبلغ «مرقوم». وقال أيضاً إنه يريد أن يبيعها بدوره لناشر كبير أو صحيفة عربية كبيرة. وأكد لي أن المضمون صالح للنشر.. وليس فيها ما يؤذي آل الجميل. وهي كذلك شاهدة على بعض الأحداث السياسية في نهاية السبعينات من القرن الماضي في لبنان. ثم عدل عن تصميمه ورفض مقابلتي لأنه رأى أن يبقى في الكواليس خوفاً من ملاحقة قانونية من ابنة باربره نيومن، وفضل وجود وسيط بيننا.

– وهل تنوي شراء هذه الرسائل؟

– لم يأت على ذكر السعر الذي يريد البتة، ولم يقل لي إنه ينوي أن يبيعها لي.. وأنا لم أفكر بشيء جدّي بعد بشأنها. إني أنتظر منه وضوحاً. ولن أشتريها أنا بالتأكيد.. سأعلم إدارة الـ NRCC بالأمر. بالمناسبة ألن تكوني معنا السبت القادم مساءً؟

– إلى أين ستذهبون هذا السبت؟

- أي مكان.. لم نحدد بعد.. قد لا نبتعد خارج المدينة.
- في الحقيقة أنا متعبة.. سأحاول.. وسأتصل في حال قررت الذهاب.
- حسناً.. الوداع.
- الوداع فايز.

سحر من النوع العصامي النشيط. قوية الإرادة. وهي أكبر من عمرها شكلاً وعقلاً. حيوية وليست متكبرة. تحب كل الناس قريبة جداً من المتألمين.. ربما لأنها ذخرت تشكيلةً من الآلام في صندوقة ماضيها. هي متعاطفة جداً مع كل مظلوم ومستضعف مهمش في المجتمع. وسر ألم سحر جوهرة مختبئة في صدفة طفولتها الخالية من حنان الأم.. إنها يتيمة الأمومة! نشأت في كنف أبيها الذي قدم لها المحبة والرعاية.. بيد أن مادة بنائها النفسي كانت تنقصها لمسات الحنان الأنثوي. الطفولة المحرومة تؤدي إما إلى شخصية منكفئة وإما إلى شخصية هجومية! كانت شخصية سحر قوية عصامية مقبلة على الحياة بكل عزم وتفاؤل. حرمانها عاطفة الأم لم يكن نقصاً في بنية شخصيتها.. لأنه ولد فيها طاقات عوضت عن نواح أخرى عندها. أرضعتها خالتها منذ كانت طفلة، واعتنت بتربيتها جدتها لأبيها حتى العاشرة من عمرها، ومن حينها ألقيت تبعة الاهتمام بالبيت عليها وحدها. فصارت هي الأم والأخت والمؤاسية والمشيرة، وأكسبتها المسؤولية المبكرة حكمة وصلابة معدن. فاتحة مسلسل النكبات هي وفاة الوالدة في حادث غريب. والمحنة الثانية المتواصلة هي مسؤوليات البيت ومشاكله. ثم وثبت المفاجأة الكبرى كأنها جن ظهر من ظلمة العدم! في الخامسة عشرة باح لها والدها أنور بسر كتمه منذ طفولتها.. وهو أنها ابنته بالتبني! والدتها هي أخته.. قتلها زوجها وقضى

الحكم بسجنه عشرين عاماً. وقال لها أنور أيضاً إنه تبناها وسماها باسم أمها حفاظاً على ذكراها.. وأحبها كأخويها. بيد أنه لم يقل لها من هو والدها.. ولا ما هي الظروف التي أدت الى الحادثة السوداء. لقد أخبرها الحقيقة بحكمة وروية حتى لا تكتشف الحقيقة يوماً ما بنفسها من سواه فتكون الطامة الكبرى.. وتنقلب غاضبةً عليه حاقدة. بهذا أراح ضميره المثقل من كذبة مزمنة يمثلها.. يعيشها.. ويكاد يصدقها.. والمسكينة لا تدري. إخفاء الحقيقة هو نصف الكذب.. والكذب خطيئة! الساكت عن الحق شيطان أخرس. مبادئ وأخلاقيات آمن بها السيد أنور سالم منذ زمن.. منذ أن التحق والتزم بإحدى الكنائس المحافظة في المدينة.. واتخذ من تعاليم الإنجيل نهجاً لحياته، فانقلبت حياته من حينها رأساً على عقب.

لم تهضم فتاة الخامسة عشرة حقيقة أنها تعيش في كذبة.. لا أم لها ولا أب.. أبوها قاتل أمها وهو سجين مزمن! وما شجع أنور على البوح بهذا السر ثقته بنضج الفتاة ورباطة جأشها. لم تصدق المسكينة هذه الحقائق في بادئ الأمر، وذهب فكرها إلى أنها كذبة من أنور سالم حتى لا يجرحها بحقيقة أمرّ وأصعب.. ككونها ابنة غير شرعية.. ابنة زنى مثلاً؟! تشوشت أفكار الصبية المراهقة.. وعصف في ذاتها حقد كئيب حائر.. على أشباح..! على سوء الطالع..! على الدنيا التي اختارتها هي لتحرمها الأمومة والأبوة. والنبعة التي أخرجت مياهها لتوها تسكب الماء في كل اتجاه حتى يُشق لها مجرى واحد.. وأنور سالم يحاول أن يصنع هذا المجرى للألم المتفجر من قلب سحر. وشد ما كان ندمه كبيراً على ما باح به. تداعت ذاكرتها... فهامت على وجهها في كل مكان.. وراحت كالمتسولة المجنونة تقفز من مدينة لأخرى باحثة عن أبيها

علـها تجده في بقعة ما.. وهي لا تعرف ما اسمه ولا في أي سجن يمكن أن يكون إذا كان لا زال سجيناً! عُثر عليها بعد أسبوعين في ليلة ليلاء.. مكومة عند مدخل أحد الأبنية.. شاحبة مجرحة وفي يدها بضع ورقات نقدية. أعيدت إلى البيت. ومع الوقت أذعنت للحقيقة. لقد أقنعها أنور سالم بأنه هو خير لها من أب غير جدير بها تخلـى عنها وعن أمها، وقد عوض هو عليها أضعاف أضعاف ما نقص عنها من العناية والحماية.

وبعد هذه ذاقت سحر تجربة من نوع آخر.. التـجربة العاطفية. في الثامنة عشرة وكما فتيات جيلها وقعت في الحب الأول. وأحبت شاباً اسمه منير كان فنـاناً لديه مشغل للفن. بادلها منير الحب. وسبحت قصتهما على كل لسان. لا والد منير كان موافقاً ولا أنور سالم راضياً. فكـرا في «الخطيفة»! وقبل أسابيع من تنفيذ خطة الهرب أصيب منير برصاص طائش في أحداث شغب وعنف في إحدى التـظاهرات المجنونة. فاسودت الدنيا في عينيها وغرق مزاجها في لجة الكآبة الدائمة. ولكنها عادت كما دائماً واستعادت القوة.. لم تيأس.. وكان قرارها عاصفاً في وجه عواصف الحياة. فانحنت كالقصبة ولامست الأرض حتى عبرت الرياح ثم عادت وانتصبت صامدةً صلبة قوية. لن تستسلم لأي شدة بعد الآن.. من حقـها أن تتفاءل.. من حقـها أن تحيا.. ومن حقـها أن يكون لها قسط من السعادة كالآخرين. وهل هناك سعادة في هذه الأرض؟! ولكنها ستكافح وتجاهد لأجل هذه الحياة الأفضل بأي ثمن. وكانت لامعة في دراستها، وراحت تحلم في أن تكون حقوقية تدافع عن المقهورين.. بيد أنها سرعان ما أدركت مواهبها الصحافية ومهاراتها اللغوية فاختارت الإعلام.

ولكن نصيب سحر من محن الحياة لم ينته بعد، فما إن بلغت العشرين حتى هبت عاصفة جديدة في رحلة آلامها الطويلة. ذات يوم حاصر البيت

رجال أمن الدولة وعساكر أقوياء لاعتقال أخيها هاني، للاشتباه بضلوعه في عملية تفجير قنبلتين في أحد شوارع المدينة ليلاً. ويُرمى هاني ظلماً في السجن لأشهر في نظارة تحوي شياطين البشر. ذاق من الضرب والتعذيب الأمرّين. كانت سحر تأتي ثلاث مرات في الأسبوع بالأغذية والثياب الجديدة المغسولة لأخيها في السجن. وأخيراً وبعد دعاوي ومحامين يأخذون من المال ما يأخذون تمكن أحدهم من إخراجه بدفع كفالة مالية وانتهت محنة مرهقة أخرى من مسلسل محن هذا البيت. بيد أن الناس في أفكارهم لم يبرئوا هاني مما كان. خرج حاقداً ثائراً لأنه سجن ظلماً.. وعذب ظلماً.. وترك التعذيب فوق جسده تواقيعه البشعة كوصمة عار. والجسد المشوه بالتعذيب «تشريح» دائم لطاقة الانتقام والممارسة العنفية. كان مسجوناً في غرفة فيها عشرة سجناء محترفين شرسين.. لقنوه أسرار الجريمة وفنونها. أقنعوه بظلم الدولة وعبث الحياة وهشاشة قيمة الإنسان، والقوي قوي بنفسه والغلبة للأقوى في نهاية المطاف. وشريعة الناس كشريعة الغاب. وإن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب. أظهر أنيابك يهبك الآخرون. ليس الحق هو القوة بل القوة هي الحق. المجرم الضعيف يسحق والمجرم القوي الذكي لا يطاله القانون هو السيد وهو القانون، قادة البلاد مجرمون ولكنهم كواسر تحلق عالياً بعيداً جداً عن نيران بنادق القانون. خرج هاني حاملاً رزمةً من مثل هذه القيم والأفكار، وفي قلبه عزم ثابت للانتقام من عدو يجهله! عدو لا لون له ولا شكل! ترى من هو العدو الحقيقي.. الدولة؟ التربية؟ المجتمع؟ الظروف؟ الاهمال؟ أم ضعف وتخلف الأجهزة الأمنية؟ العدو مجهول الهوية! والحقد الذي يجهل طريدته مدمر! هو يريد أن يثأر.. ويده لا تطال سوى الأشياء الصغيرة. يتجرأ ذات يوم وينفذ عملية سرقة كبيرة مطبقاً ما تعلمه من إرشادات المحترفين في

السجن. وسريعاً ما يكشف أمره ويدخل السجن لسنوات. ولكن هاني صار شخصاً آخر! نفسية عنفية غاضبة مجرمة رافضة للتـوبة. وذاقت سحر ما ذاقت من زياراتها الاسبوعية المرهقة للسجن. تنتظر هي وأنور سالم في طابور من البشر.. مئات من البشر من الصباح إلى المساء لتحادث هاني لدقائق. وإذا أحضرت الأكل له في علب بلاستيكية فإنه يفتح مرات عديدة وينقـب فيه بالمدى بحثاً عن الممنوعات قبل أن يصل إليه ويأكله. كانت سحر ترى عذاب الناس الواقفين ينتظرون رؤية ذويهم المسجونين.. ولكل قصته.. ولكل مأساته. كانت تتحادث معهم وكانت كثيراً ما تتعزى بمصائبهم عن مصيبتها. وعندما تتحدث مع هاني من وراء الشباك الحديدي عبر جهاز سلكي.. كانت تدرك عميقاً أنه أصبح في مسافات بعيدة داخل عالم الجريمة، وبات صعباً عليه الرجوع.

كانت سحر أثناءها تواظب على دراستها الجامعية. وكانت ملتزمة بمسؤولية البيت التزاماً كاملاً، وجهادها موزعاً على ثلاث جبهات: الدراسة والبيت وأخيها في السجن.

وأثناء سجن هاني تعرض أنور سالم لحادث قلب سريعاً ما تعافى منه. فبدت حياة سحر كأنها فصول من الشقاء ليس لها نهاية.. ومحظور عليها أن تنعم بهناء العيش. كانت صابرة على محنها وآلامها وبقيت تحلم بغد مشرق. لم تستسلم لليأس قط. كانت تجاهد جهاد الأبطال والجبابرة.. وبعناد ذكي حكيم كانت تستخدم ما لديها من الأسلحة تواجه بها غدرات الحياة: الصبر الحكمة الثقافة الجمال وقوة العزيمة.

★★★★★★

لم يكن السيد أنور سالم ثرياً. هو موظف متواضع في الجمارك. كان يأخذ الرشوة قبلاً، ولكن بعد هذا التغير المفاجئ والغريب في حياته، والتحاقه بكنيسة محافظة في المدينة توقف عن أخذ الرشاوي.. وبدأ حياة دينية مسيحية ملتزمة. أدخل سحر إلى مدرسة ذات القسط المدرسي المنخفض، وسحر تفوقت بدراستها وأظهرت نبوغاً، وفاقت في تحصيلها العلمي أخويها هاني ووائل. هاني انتهى به المطاف إلى الجريمة. وائل تعلـم النجارة في مصنع الأخشاب عند عمه، وهي درست الصحافة والتـوثيق. وكانت في كل مراحلها خادمة لأخويها ساهرة على راحتهما.

كانت في بداية تعلـمها قيادة السيارات. ولن تنسى هذه الحادثة أبداً! صدمت رجلاً هرماً على الأوتوستراد كان يحاول العبور من الشمال إلى اليمين.. ذعرت! ولكنها أدهشت الجمع المحتشد برباطة جأشها، والكيفية التي تدبرت بها أمرها، فبدت بحق أخت الرجال. كانت الحادثة هذه امتحاناً أثبتت فيه مرةً أخرى أنها قوية لا تكسرها الشدائد. طار الرجل فوق السيارة وحط على كومة الأتربة وحجارة الخفان المكسورة على جانب الطريق.. الدماء تغطي وجهه.. وأنينه يقطع القلب.. كومة أخرى من الدماء والأنين! مسحت وجهه بمنديلها.. ساعدها أحدهم على وضعه في سيارتها وغطته بسترتها.. وهرعت إلى الطوارئ في إحدى المستشفيات القريبة واتـصلت بذوي الرجل الجريح وانتظرت لحين مجيئهم، واطمأنـت على سلامته وغادرت.. غسلت سيارتها في المحطة جيداً.. ولم تخبر أحداً بالحادثة. فقد أصبحت على يقين تام أن مصائبها في هذه الدنيا صليب عمل على قدها وقياسها هي وحدها.. ولا شأن للآخرين بهذا الصليب.

ذات يوم اقتربت سحر من أنور سالم وسألت بهدوء:

- ألن تخبرني شيئاً عن والدي ووالدتي.. يا أبي؟

أجاب أنور بلطف وحنان:

- لماذا يا سحر؟ أهناك حاجة لهذا؟ ألا يكفي ما نحن فيه؟ لقد تألمت كثيراً يا ابنتي.. حاولي أن تنسي وثابري على دراستك الآن فقط.

- لا خوف على دراستي يا أبي. أنت تعرف أني ناجحة إن شاء الله. ولكن ألا يحق لي أن أعرف شيئاً عنهما؟

- كان بإمكاني يا سحر أن أبقى صامتاً إلى الأبد. ضميري أنبني كثيراً. ماذا لو عرفت الحقيقة يوماً ما من سواي؟ كيف تنظرين عندها إلي؟

- قل لي فقط لماذا قتل أبي أمي؟ هل هي الخيانة، أم شيء آخر؟

- سأجيبك عن هذا السؤال فقط. نعم.. الخيانة هي السبب. أما عن اسم والدك فلن أبوح به. أتعلمين لماذا؟ لأني أحبك يا سحر، وأنت تعرفين أني أحبك أكثر من هاني ووائل. «البي اللي ربى مش اللي خلف». أخشى إذا قلت لك أن تهجري هذا البيت وتبحثي عنه، وقد تجدينه... ولا أريده أن يخطفك مني. إذا شاء الرب يجمعك به هو بنفسه بطريقة ما وظرف ما. أنا لم يكرمني الله ببنت، ماتت زوجتي باكراً فأخذت أنت مقام ابنتي. أنت زهرة هذا البيت يا سحر.. أنت ملاكه وبهجته. بلاك تموت الحياة هنا. كائناً من كان والدك فهو غير جدير بك.. لقد تخلى عنك. أما أنا فلم أتخل عنك قط. ربيتك بيدي وعقلي ودمعي وسهري حتى صرت صحافية رائعة. أتراك تتخلين عني يوماً ما وأنا في خريف حياتي؟

قال هذه الكلمة وترقرقت عيناه.. وهو يمرر نظراته فوق خدها وجبينها

وشعرها الغض. وضع أنامله على أذنها ومسد خصلات شعرها برفق وحنان. فارتمت فوق صدره باكية وهي تتمتم:

- لن أتخلى عنك يا أبي.. أنت أبي وأمي وصديقي وكل شيء في حياتي. ولا أحد سواي يقف إلى جانبك ويعتني بك في شيخوختك يا زين الشباب. لا تخف.. لا تخف يا أبي اطمئن.. لا تخف.

ومن حينها لم تفاتح سحر أنور سالم بموضوع أبيها وأمها ثانية.

******

رن الموبايل عصر السبت وكان المتكلم فايز:

- لن تذهبي هذا المساء في سيارتك لوحدك يا سحر.. سآتي إليك أنا بسيارتي والرفض ممنوع.

لم يكن أمام سحر أن تمانع فأذعنت. وفي المساء قال لها فايز وهما في السيارة:

- لقد تغيرت كثيراً يا سحر.. ما بك؟ لست على ما يرام في الآونة الأخيرة؟!

أجابت سحر:

- وهل يحيا أصحاب القضية حياةً طبيعية يا فايز؟

- أنت رومنسية بعض الشيء. يبدو أن ظروف حياتك جعلتك تبتعدين عن الواقع.

فابتسمت سحر وقالت:

- بل أنا جد واقعية يا فايز. أنا الآن واقعية أكثر من أي وقت مضى.

- لقد نسيت يا سحر أنك فتاة شابة.. جميلة مثقفة.

- قلت لك أنا صاحبة قضية. وصاحب القضية.. القضية رأس أولوياته.

- وهل جعلت من السجن قضيتك يا سحر؟!

- السجن جعل من أخي هاني مجرماً خارجاً على القانون.. إرهابياً!

-...!

- السجن مأساة بشرية يا فايز. مأساة بكل ما في الكلمة من معنى.

- تقصدين أن في السجون مآسي كثيرة؟

أجابت بنبرة حادة:

- بل السجن بحد ذاته هو المأساة.

فقال فايز بهدوء محاولاً تلطيف الجو:

- أحتاج منك توضيحاً.

- هل تدري يا فايز أن عدوى الإجرام تجد في السجن تربة خصبة للنمو والتكاثر؟ السجن يرمي الانسان في قفص حديدي ويحقنه بفايرس الجريمة بدل أن يغسل دمه من بكتيريا الشر.

- إذا كان هناك أخطاء في إدارة السجون كما في سائر إدارات الدولة فلا تكبريها يا ستي كثيراً.. كيف تفسرين هذه المظاهرات والتمردات التي نشهدها فقط في سجن «بريحان».. لم نسمع عن مظاهرات في سجون أخرى؟

- ومن قال إن العصيان هو فقط في سجن «بريحان»؟ سجن «بريحان» هو الأكبر ولذلك تمرداته هي الأبرز، والسجون الأخرى تمرداتها صغيرة سرعان ما تنتهي ولا ضجة إعلامية لها.

- صدقيني أرى فيك مصلحة اجتماعية لا صحافية. ألم تفكري يوماً في دراسة العلوم الاجتماعية؟

- مدرستي الحياة والتجربة.

فقال فايز منزعجاً من طريقة تفكيرها:

- لماذا تفكـرين كالفلاسفة يا سحر؟ كوني بسيطة.. أحبي الحياة وهي أمامك لتبتهجي بها وتأخذي منها ما شئت. لماذا مسحة النوستالجيا هذه في شخصيتك؟! إذا عانيت من ألم ما في الماضي فانتظري أن تعوض الحياة عليك.. لا تلومي أحداً إن الحياة كريمة. موضوعك جميل ومثير للاهتمام وسينجح.. ولكن أنت ألا تريدين أن تكوني سعيدة؟

- صدقني يا فايز.. إنـني أشعر بسعادة كبيرة عندما أكون سبب سعادة للآخرين، سعادتي من سعادة الآخرين.. هذه موهبة من الله! لماذا ينزعج بعض النـاس عندما لا نشاركهم طريقة التـفكير ذاتها؟ لكل منـا شخصيته وذاته والطـريقة التي يحزن بها ويسعد.

- دائماً تغلبينني في الحوار.. وبأسلوب غامض قوي. لقد ربحت الآن أيضاً.

- فايز أنت شاب جيد والصبايا كثيرات من يردنك.. فاختر الموافقة لك في الذات والشخصية والمزاج.. والكيمياء يا أخي.. لكي تقف وإياها على أرض واحدة، وإلا لن تكون العلاقة ناجحة. أنا وأنت يا فايز كالزيت والماء لا يمتزجان ولا يتـحدان.

- حاضر يا أختي.. أنت الآن تعيدين قول الأشياء نفسها ولكن بطريقة جديدة. أنت مبدعة خلاقة. نعم، لقد حفظت الدرس ولن أكرر الكلام في هذه النـقطة ثانية. آ.. تذكرت! لقد حدثت الإدارة عن موضوع رسائل بشير.

- حقاً! وما رأيهم؟

- قالوا لي أن أفاوضه. ولكن تحت حدود الـ 3000 آلاف دولار إذا كان الأمر جدياً.

- بداية مشجعة. هيا انطلق.

وتبادلا الكلام في العمل والصحافة وآخر المستجدات إلى أن وصلا إلى الملهى الليلي.

لم تكن الموسيقى في ذلك المساء كما يهوى قلب سحر: النوستالجيات. كانت الألحان ضاجة صاخبة.. وأجبرت على الابتسام والتحادث مع هذا وذاك وتلك وهاتيك. سحر من جيل تسعينات القرن الماضي.. والموسيقى الرائجة هي الراب والروك أند رول الحديث. كانا جالسين على طاولة فايز يحسو الويسكي وهي المشروب الغازي.

أمسك فايز يدها وقال: قومي وانسي مشاريعك قليلاً.. «قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان». قامت سحر وراحت ترقص مع فايز في حلبة الرقص تحت رقص الأضواء الملونة. حركة الكتفين فيها غنج ودلع.. ورقة الخصر.. وخطواتها الموقعة بخفة.. ونظراتها الجانبية نحو مراقصها أسرته. روائح المشروب والعطور تخدر الرؤوس.

الجو كله يجعل المرء ينسى.. يبتهج.. ولكن إلى حين! هذه المؤثرات والمبهجات تنتهي عندما يطأ المرء بلاط الشارع.. فيعود إلى دوامة حياته اليومية التي لا تنتهي. وفجأةً بدأت الموسيقى الهادئة. وشعرت سحر بشبح يقترب من خلفها ويهمس:

- إذا أتعبك فايز فأنا بانتظارك لأريحك في هذه الموسيقى التي تشبهك يا سحر!

فأجاب فايز مازحاً:

- سأتعبها أكثر حتى لن يكون بمقدورها أن تراقص أحداً.

وفجأة رن الموبايل.. إنـه ناجي العرم! ونست سحر كل ما حولها وتنحت عن مكانها لتحادث ناجي:

- أين أنت يا سحر ألم تشاهدي الأخبار هذا المساء؟!

- ماذا هناك هات ما عندك بسرعة؟ قالت سحر بشوق.

- هناك تمرد عنيف داخل سجن «بريحان» وهناك تنبؤات بالأسوأ. يجب متابعة الحدث عن كثب.

- هل نتلاقى غداً الأحد.. العاشرة قبل الظـهر في «بريحان»؟

- حتماً يجب أن نحضر. هناك تظاهرة نسائية حاشدة أعلنت عنها لجنة أهالي السجناء.

- حسناً يا ناجي إلى الغد.. وسيكون معي الكاميرامان. سأتـصل به الآن.

وفي نهاية اللهو والصخب في ذلك المربع الليلي خرج فايز وسحر ليعيدها إلى البيت. كانت الشوارع خالية هادئة.. وموسيقى الحانات هنا وهناك خافتة حيناً وصاخبة أحياناً. أنوار الأماكن المضيئة في الليل نوافذ بهجة تمد النـاس بالطاقة لمواجهة عراك اليوميات. وأصوات الكعوب النسائية العالية على الأرصفة له إيقاع يواكب موسيقى الليل. قالت سحر:

- كانت السهرة لطيفة شكراً لك يا فايز.

- إذا أنت شعرت بهذا فهي كذلك.

الجميل مقياس الجمال كلـه. أجاب فايز.

وتحادثا قليلاً عن تلك الأمسية والعمل وحادثة التمرد الجديدة في «بريحان». وقالت سحر:

- عندي مشاريع مقابلات مع قانونيين وضباط إدارة السجن.. ولا بد

أيضاً مع الوزير نفسه! ولدي لائحة من المقالات والمراجع والكتب والوثائق الأجنبية على الإنترنيت «السجون الإصلاحية في فرنسا» «الإصلاحيات في سويسرا» «إدارة السجون» «علم النفس الإجرامي» «الدافع الإجرامي».. إلخ. هذا كله سوف يغني بحثي.

– وفقك الله يا سحر.. أنت تستأهلين كل خير. أتمنى لك النجاح من كل قلبي.

كانت هذه الكلمات نهاية أمسية فايز وسحر بعد أن أوقف سيارته عند مدخل المبنى.. نزلت هي من السيارة وغادر هو.

صباح اليوم التالي قبل الظهر كان الحشد النسائي كبيراً. قالت سحر للكاميرامان: هذا ناجي الذي حدثتك عنه.. سيساعدنا. وتعارف الكاميرامان وناجي. يعرف المتظاهرون جيداً أن يوم الأحد ليس يوم الزيارات.. ولكنهم جاؤوا ليطلقوا صرخةً كالصرخات التي أطلقوها سابقاً وذهبت أدراج الرياح. كان هناك تهامس عن اعتصامات وتظاهرات مفتوحة حتى تحقيق المطالب. لم يكن هناك لافتات ولا خطابات فقط صيحات وتنديدات. كان عديد الحراس ورجال الأمن كبيراً لتهدئة الوضع داخل السجن ومسكه خارجه. بدا أن الاحتجاج النسائي في الخارج حرك السجناء للقيام بعصيان مماثل في الداخل. كانت سحر تنتقل من امرأة متظاهرة إلى أخرى وتسأل.. والكاميرامان يلاحقها وناجي يحادث بعض النسوة ويأتي بمن لها قدرة على الكلام وإيصال الأفكار، بوضوح وقوة.. لتقول شيئاً أمام الكاميرا. وهكذا انتهى النهار والتظاهرة عبرت بسلام.

وكانت سحر تتابع الحدث في نشرة الأخبار مساءً.. فإذا إعلان عاجل عن

استمرار العصيان ليلاً داخل السجن. وفي صباح اليوم التـالي أي الإثنين.. قامت سحر باكراً إلى الإنترنيت وراحت تبحث عن وثائق ومراجع تريدها. مر الوقت ولم تشعر به. دخلت والدتها إليها تذكـرها بالفطور وذهابها إلى العمل. أخذت السندويش من يد أمها بيمينها وملف أوراقها بشمالها ووثبت إلى سيارتها وانطلقت إلى الصحيفة. هاتفت ناجي في الطريق وطلبت منه أن يوافيها إلى «بريحان»، إلى أن تلحق به بعد أن تـنهي أمراً في الصحيفة. وكانا أمام سجن «بريحان» في الحادية عشرة. كانت النـساء يحتشدن وأغراضهن من الأكسية والأغذية يردن أن يدخـلن لزيارة السجناء. والأوامر كانت بمنع الزيارات في ذلك اليوم لأن الأمور لم تهدأ طوال الليل في الداخل. فما كان من النساء إلا أن قعدن في وسط الطـريق قاطعات حركة السير جيئةً وذهاباً.. وهن يهددن باعتصامات وتظاهرات مفتوحة، ويهتفن: «الشعب يريد العفو العام» «الشعب يريد العفو العام...» إنها تظاهرة ارتجالية لا شعار لها ولا هدف. جاءت النساء من أقصى شمال البلاد وجنوبها.. وكابدن مشاق السفر لزيارة سجنائهن فإذا الزيارة ممنوعة! أردن الزيارات فإذا هتافاتهن بالعفو العام. وكان تلاسن وتدافع بالأيدي.. ووثبت بعضهن من القويات على العساكر باليدين والأسنان. وازداد الصياح والسباب. وتوافد الوسطاء بين لجنة أهالي السجناء وآمري السجن لحل قضية الزيارات. وما كادت الأمور تهدأ خارج السجن ساعات قليلة حتـى اشتعل السجن من الداخل، وثار السجناء وهاجوا.. وأضرموا النـار في المكتبات ومطابخ السجن وكل ما طالت أيديهم.. ورموا القنابل الصوتية وأقدم بعض منهم على تجريح وتشطيب جسده. وعاثوا فساداً في كل مكان حتى بات السجن كأرض معركة. وعندما يحدث السجين شغباً

يصبح مارداً في قوته! إنـه يخيف الجنود. كان صعباً على العناصر الأمنية القليلة مواجهة هذا التـمرد العنيف.. فاستقدم آمرو السجن فرقاً عسكرية ووحدات خاصة مدربة. واستـعمل الرصاص الحي، وسقط قتيل من رجال الأمن وقتيل من السجناء. ووصلت النيران إلى مكاتب الضباط فجيء بالصهاريج لإطفاء الحرائق. كانت المتمردات النسوة في الخارج كأنهن ينسّقن التحركات مع الرجال السجناء في الداخل على أجهزة الموبايل. فاستُقدمت أيضاً ماكينات حديثة للتـشويش على هذه الاتصالات.

كان لـ (عطاء بسرور) غرف داخل السجن ومراكز عمل.. يخدمون ويعملون من خلالها.. وفيها وسائلـهم وأدواتهم: كتب قرطاسية ملفـات طاولات أدوات الرياضة والموسيقى والرسم برادات وأجهزة كمبيوتر وغيرها.. فأتى حريق التـمرد على كل هذه الأشياء. وكان مبنى الجمعية قرب السجن يضج بالحركة غير الطـبيعية كأنه خلية النحل: صحافة محامون ضباط ونساء.. وسائر العاملين في الجمعية. وكانت الجمعية قد عملت مؤتمراً صحفياً لبعض السجناء القدامى الذين أخلي سبيلـهم. فتركت الصحافة مؤتمرها وخرجت إلى الشارع حيث كانت المعمعة في ذروتها. ثم وعدت الجمعية الأهالي بأنها سوف تساعد في إدخال الأغذية والثياب إلى سجنائهم داخل السجن في أسرع وقت ممكن.

كان ناجي وسحر في قلب هذه المعمعة.. فولجا العمل بمسؤولية: أحاديث صحفية، تسهيل أمور بعض أهالي السجناء، وساطات واتـصالات بين الأهالي والضباط أو المحامين، تهدئة ووعود باستجابة المطالب، توزيع السندويشات والمرطـبات على الأهالي... كان يوماً «ماراتونياً» عصيباً. وكان

ناجي فاهماً اللعبة جيداً. كان قريباً من الأهالي يهتم بحاجاتهم، ويبحث عمن يحسن الكلام أمام الكاميرا. وهو نفسه تحدث أمام الكاميرا. كان عمل سحر وناجي وجهان لعملة واحدة. يكمل واحدهما الآخر، بل هو عمل واحد في اتـجاهين. كانت سحر سعيدة وناجي كذلك. كان العمل شاقاً وممتعاً في آن معاً. واقترب ناجي من سحر حاملاً كيس سندويشات وقال:

– يعطيك العافية. خذي كلي شيئاً.. واستريحي.

– شكراً لك يا ناجي. قالت بلطف. ونادت الكاميرامان ليأكل شيئاً.

جلس الثـلاثة يأكلون تحت السنديانة العملاقة مقابل مبنى الجمعية.. وهم ينظرون إلى الحضور الإعلامي الكثيف وسط الهرج والمرج. سأل ناجي:

– ما كنت أدري أن مهنة الصحافة تحتاج الى هذا التـعب والموهبة. أترتجلين أسئلتك يا سحر أم تحضرينها؟

أجابت سحر:

– في البداية كنـا نحضر كثيراً. ولكن مع الوقت والخبرة بتنا نحضر في رؤوسنا قبل الحدث مباشرة. وأحياناً نؤخذ بالحدث حتى أنه لا نحتاج لتحضير. الذي يتعب في الصحافة كثرة المستجدات.. ويجب مواكبتها كلـها.

سأل ناجي:

– ألن تأخذي حديثاً من أحد العاملين في الجمعية؟

– بالتأكيد. ومن أحد ضباط الأمن أيضاً.

******

– هل مطالب أهالي السجناء محقـة؟ سألت سحر بعد مرور بعض الوقت.

– بكل تأكيد. أجابت سوسن مسؤولة العلاقات الاجتماعية في الجمعية.

- لماذا منع الأمنيون اليوم اللـقاء بين الأهالي والسجناء؟

- السجناء في حالة تمرد في الداخل.. هناك شغب عنيف.

- التمرد يزداد في الآونة الأخيرة في السجن، ولا استجابة للمطالب. أين تكمن المشكلة برأيك؟

- المشكلة واضحة.. هناك اكتظاظ سجناء أكبر مما يستوعب السجن، مما يؤدي الى حياة صعبة في الغرف والزنزانات. وكلـما حدث تمرد أو هروب لسجناء تزداد التـضييقات على السجناء وأهالي السجناء. هرب سجين منذ أشهر والإجراءات الاستثنائية مرهقة للأهالي. طالما هناك اضطراب في الداخل لن يسمح بالزيارات.

- لماذا يأتي الأهالي بالأكل أسبوعياً.. وربما يومياً إلى سجنائهم؟

- في أوقات الزيارات فقط. الأكل في الداخل ليس على المستوى المطلوب. ونحن نحاول المساعدة في توفير الكثير من المواد الغذائية.

- كيف يسمح لكم بإدخال هذه المواد الغذائية؟

- لا نستطيع أن نعمل شيئاً بعيداً عن عين الدولة. نشكر الله أن هناك مسؤولين متعاطفين.. وهم خير عون لنا.

- ما رأيك بطلب المتظاهرين بالعفو العام؟

- هذا أمر تقرره الدولة ومجلس الوزراء لا نحن.

ثم سألت أسئلتها الأخرى وشكرتها على هذا الحديث. وحاولت سحر أن تأخذ حديثاً من ضابط في غرفة مجاورة، بيد أن ضغط العمل وكثافة الحركة داخل الجمعية حال دون تحقيق ذلك.

******

وعصر ذلك اليوم وبينما كانت سحر توصل ناجي إلى بيته بسيارتها. سألته بحماسة:

- هل تأتي وتتعشى عندنا هذا المساء يا ناجي.. فأعرفك بوالدي؟

فارتجت أعصابه للسؤال.. وصار قلبه ناراً مضطرمة.. ولكنه جاهد وأخفى كل اضطرابه أمام سحر. وأجاب بهدوء:

- لا يا سحر، أرجوك ليس اليوم.. في غير مناسبة إن شاء الله. لقد تعبنا بما فيه الكفاية اليوم أليس كذلك؟

- ولكنها مناسبة جيدة الآن!

- لا.. اسمحي لي أرجوك.

فقالت بنغمة فيها دلال مقصود:

- أترفض «عزيمة»[1] سحر يا ناجي؟! نحن ثنائي منسجم... صمتت لثوان وأضافت: في القضية التي نناضل من أجلها بلا شك. ثم سألت:

- أتدري يا ناجي؟

- ماذا؟

- أشعر بارتياحٍ غريب في العمل معك. أنا سعيدة جداً لأننا شكلنا ثنائي عمل.

فرقصت عواطفه طرباً لهذا الإطراء والتحبب من سحر، وود لو كان بإمكانه أن يبوح لها بالكثير.. فاكتفى بأن قال:

- وأنا أيضاً مسرور جداً بعملنا سوية.

- إسمع سأخبرك الآن سراً يكون ختماً مني على سند ثقتي بك.. سراً هو

---

(1) كلمة عامية تعني (دعوة).

أول وأساس مأساتي التي سأخبرك بتفاصيلها يوماً ما. عدني بأنك ستخبرني حكايتك يا ناجي.. لا يقوي العلاقة إلا التشارك بالأسرار والآلام.

- أعدك بذلك يا سحر. وتابع بنغمة فيها معان متعمدة.. ومن غيرك أشاركه همي وأسراري؟

- كنت أظن بأني يتيمة الأم فقط يا ناجي..

فذعر ناجي جداً لما يسمع..! وسأل بدهشة: وهل أنت يتيمة الأم؟!

- أجل.. بيد أني اكتشفت أني يتيمة الأم والأب أيضاً!!

فارتعدت فرائص ناجي.. دق قلبه بشدة.. جحظت عيناه وسأل غير منتبه لما يفوه به:

- أليس أنور سالم أباك؟!

- وكيف عرفت أن اسم والدي أنور؟! سألت بدهشة.

فارتبك ناجي وعلم أنه فرط بشفتيه.. وحاول إخفاء ارتباكه ولم يكن أمامه إلا أن يخبرها كيف. فقال:

- من.. من الـ FACEBOOK طبعاً.

فلم تنتبه سحر لارتباكه لأنها ابتهجت بما قال، وبادرت بإيجابية.

- دخلت إلى الـ FACEBOOK يا محتال ولم تضمني كصديقة؟! أنا سأفعل.

- لا. أرجوك.

- لماذا؟ نتحادث على الـ FACEBOOK.

فقال محاولاً إيجاد عذر:

- الـ FACEBOOK ليس لإنسان في عمري. إنه لجيل الشباب. لا تفعلي يا سحر أرجوك.

فقالت سحر مازحةً:

- وهل أنت عجوز؟! إنك لا زلت شاباً يا ناجي. حسناً.. كما تريد لن أفعل إذا كانت هذه مشيئتك.

******

5

والماكر آلاتـه رديئة هو يتآمر بالخبائث ليهلك البائسين بأقوال الكذب...

أشعياء 32: 7

المتشابهون يتصادقون

هوميروس

أخي القارئ.. أنذرك قبل قراءتك لهذا الفصل! هذا الفصل والفصل التاسع.. إنهما يحويان مشاهد عنفية دموية قوية. فإذا كنت ذا شخصية رقيقة وأعصاب ضعيفة تروى قبل القراءة. والذي دفعني لكتابة هذه الأشياء هو رغبتي في أن أقول لك إلى أي درجة من الشر بلغ الانسان.. تجاه نفسه وتجاه أخيه الانسان وتجاه الله الذي أعطاه نعمة الوجود في هذا العالم.

أمسك ناجي دفتر مخطوط[1] وليم عامر السجين الذي انتحر في سجن «بريحان»، وقرأ في رأس الصفحة الأولى «إلى من لا يهمه الأمر..!» ثم تابع

(1) هذا المخطوط من صنع مخيلة الكاتب، ولا وجود له البتة في عالم الواقع.

وقرأ أيضاً «من يكتب عادةً لديه ما يقوله لمن يقرأ.. أما أنا فأكتب لكي أشعر أن للوقت بداية ونهاية.. لكي أقسّم الوقت يا أخي! الوقت لا أشعر به حيث أنا. والشمس لا أراها لكي أعرف ليلي من نهاري. ولكني بدأت بتأريخ زمني الخاص بي بالورقات المسودة بالكلام. فأصبحت الوحدة الزمنية الأولى خمس صفحات.. كل خمس صفحات تشكل عندي الوحدة الزمنية الأولى. والخمسون ورقة هي عشر وحدات زمنية. والحقيقة بدأت أدرك مع الوقت أني سيال القلم. وأنا دائماً أحتاج إلى أقلام ودفاتر. ثم الوحدات الزمنية الأخرى كالقلم مثلاً ويساوي عشر وحدات زمنية حتى ينتهي الحبر. والدفتر وحدة زمنية أخرى ويساوي عشرين وحدة زمنية لأن فيه مئة ورقة، أو قلمين لأني أحتاج لقلمين لكي أنهي دفتراً. وكل ما أخطه لا أفكر فيه كثيراً ولا أرجع إليه لأنقحه.. لا أريد أن أنشر ما أكتب ولا حتى أن أحتفظ به.. فقط دعني يا قارئي المجهول أعد الوقت لا أكثر. تراك أنت تقرأ لكي تعد وقتك مثلي أيضاً؟! لا أود من البداية يا من شاء القدر أن تقرأ ما أكتب أن أنفرك من هذه الأوراق التي بين يديك. فربما كان عندك الفائض الكثير من الوقت حتى أنك تحتاج مثلي أيضاً أن تقسمه، فهلا قسمته كما قسمته أنا.. وابدأ بخمس ورقات قراءة هي الوحدة الزمنية الأولى، والخمسون ورقة قراءة هي عشر وحدات زمنية..إلخ وهكذا نكون في نهاية المطاف قد شكلنا فريقاً.. أنا أقسم وقتي بالكتابة وأنت تقسم وقتك بالقراءة. سامحني.. هذه هي طريقتي في الكتابة.

الإثنين

الناس نوعان: مهاجمون وصامتون.

أنا أنتمي إلى النـوع الصامت. وسواي يكافح ويهاجم.

أما البكم والرضع فالحكمة الأزلية شاءت ألا يتكلـموا. بيد أنـي أطبقت على فمي بيدي، فوجدت السكوت حلواً.. ولم يعرف المتكلـمون كم هو الكلام مر! لذلك لـذت بالصمت واعتزلت المتكلمين والمهاجمين.

الثلاثاء

أنا ناسك بين النـاس! وأهون من التنسك بين النـاس العيش بين الوحوش. إنـي أستطيع أن آمن جانب الوحش وأن أكسب ألفته وصداقته باللين والمحبة، وإن أخفقت وغضب الوحش علي فهو لا ينال مني غير جسدي. أما الناس فيحسبون اللين مني غباءً والمحبة ضعفاً. إنهم يخافون إيذاء جسدي الفاني خوفاً من قوانين هم سنوها.. ويحلـلون جعل الروح الأبدي مشاعاً للشارد والوارد. ولا قانون يطالهم أو حسيب يخيفهم، لذلك أبقيت جسدي مشاعاً لألسنتهم وسيجت روحي بالسكوت. يخالني بعض منهم مختل الشعور.. ولكني وراء سكوتي أستطيع أن أبصر سرهم وأقرأ سريرتهم.. لأنني أحكـم على أفكارهم لا بما ينطقون بل بما لا ينطقون. لذاك سكت وهم يتكلـمون.

الخميس

متى تزول عني هذه الرجفة؟ جسمي كآلة حلـت لوالبها، يداي ترتجفان، أسناني تصطك. عضلاتي لا أستطيع شدها، كأن مطارق في قلبي، ورئتاي منفخ حداد. القلم لا يثبت بين أناملي.. عبثاً.. عبثاً أحاول الكتابة!

من هي هذه؟ تـراها...؟! لماذا؟ كيف؟ الأفضل أن....

لا. لا. هذا فوق طاقتي. ماذا تريد مني هذه القانونية البائسة؟ لقد غسل القانون يديه منـي وبرأ ذمته.. فماذا تـراها تحاول؟ ومن قادها إلى هنا؟ يا إلهي.. إنها تشبهها إلى حد بعيد!

السبت

وحملتها إلى قرب النهر.. معتقداً أنها خضراء! إلا أنها كانت متزوجة. كان ذلك في ليلة العيد، رافقتني وهي راضية. إنطفأت القناديل واشتعلت الجداجد في زوايا أبعد سياج. أمسكت ثدييها الناعمين وتفتحا للمساتي فجأة! مثل باقات الياسمين. كانت رؤوس الأشجار المطفأة تتضخم على حافتي الطريق.. وكان الأفق كلاباً تعوي بعيداً جداً عن النهر. عندما تجاوزنا العليق والأسلات والنبات الشائك.. حفرت خصل شعرها المرفوع ثقباً في الطمي. فككت ربطة عنقي، خلعت ثوبها، تخلصت من حزامي ومسدسي، وفكت هي صدريتيها وصدريها. لم يكن لسنابل القمح ولا البزاق قشرة أنعم من جلدها.. ولا يلمع الزجاج في ضوء القمر بكل هذا البريق! كان فخذاها المسحوقان تحت جسدي يفران مثل سمك نهري مذعور، نصفه مشتعل، ونصفه الآخر مغمور بالصقيع. عدوت تلك الليلة في أفضل الدروب ممتطياً مهرةً صدفية اللون، بلا لجام وبلا ركاب.. لأني رجل. ولا أريد أن أعيد كل الأشياء التي قالتها لي، دفعها التفاهم بيننا لأكون مهذباً. حملتها أنا بعيداً عن النهر، ملوثة بالتراب، سعيدة في أحضان النسيم. كانت سيوف من الزنبق تتأرجح.. وتصرفت بكل استقامة، مثل غجري قانوني! أهديتها علبة كبيرة للخياطة من نسيج تبني ولم أشأ أن أغرم بها.. لأنها متزوجة! وقد قالت لي إنها خضراء.. عندما كنت أحملها إلى النهر.

دروج الحكمة

الأحد

كان عادل، ذلك الشاب الذكي الطموح، يجتاز في مرحلة صعبة من حياته

حين انتهى به المطاف في السجن لخمسة أعوام بتهمة الاتجار بالمخدرات.. وكان هو أيضاً يتناول المخدر. لقد طلب صديقه المخدر بإلحاح فابتاعه له من عند تاجر يعرفه، فكانت هذه وقعته! وخرج عادل بعد ذلك من السجن.. وحاول أن يعمل غير مرة.. فعاد خائباً لسبب النقطة السوداء في سجله العدلي. كان يقبل في البداية في الوظيفة للباقته وكفاءته.. ثم يرفض بعد حين عندما يفضحه ماضيه. وفكر عادل تحت ضغط الحاجة إلى لقمة العيش.. أن يجد حلّاً لهذه المشكلة.. وعنت له أفكار كثيرة: «السفر والهجرة، تعلم مهنة جديدة، الاقتراض لإنشاء عمل خاص به، أو أن يشتري سجلا عدلياً مزوراً!» وقر رأيه أخيراً على أن يتصل بنائب المنطقة، فقصد إليه ذات يوم وطلب العون منه والمشورة. فاستجاب النائب ووكل له أحد المحامين لمتابعة قضية السجل العدلي. ثم أشار عليه المحامي أن يلجأ إلى جمعية تعنى بموضوع الادمان والمخدرات لطلب تقرير منها مدعوم بفحوصات مخبرية تثبت عدم تناوله المخدر. وطلب منه كذلك إفادةً من المختار حيث يقطن تشهد لحسن سلوكه في مرحلة ما بعد السجن، وأخرى من كاهن الرعية أيضاً تشهد عن الوضع العائلي الجيد والمستقر. ظن عادل أنه أقلع عن المخدر.. وأن صحته جيدة.. وأنه أهل لتلك الوظيفة واستبشر خيراً. وأتى عادل إلى القاضي الذي ضرب له موعداً في مكتبه، ومحاميه معه وكل الإفادات والأوراق الهامة.. بالإضافة إلى دعاء أمه وصلاتها العميقة.. وعلامة الصحة البارزة في ملامحه! كان عادل مرتاحاً، والقاضي مبتهجاً. سأل القاضي: ألم تخرج من السجن منذ ستة أشهر؟ كيف تقدم طلباً لتبييض سجلك العدلي؟ الوقت أمامك طويل بعد! فأجاب عادل: أعرف يا سيدي، ولكني أحتاج لفرصة كي لا أضيع من عمري

المزيد.. ولا أستطيع أن أبقى ثلاث سنوات أيضاً بلا عمل. وهنا تقدم المحامي وأبرز كل الأوراق والمستندات التي لديه. سأل القاضي ثانيةً متجاهلاً الأمر: ماذا تريد أن تعمل؟ فأجابه عادل: أريد أي عمل شريف يناسب علمي وقدراتي ولا أريد أن أبقى وقتاً كافياً أكون فيه عرضةً للانزلاق إلى المخدر أو الإجرام والخروج على القانون مرةً ثانية، وأنا أعد بأني لن أخذلك يا سيدي، سأبتعد عن كل ما يصادفني من مغريات قد تحرمني فرصي في أن أكون إنساناً جيداً سوياً. وقدم المحامي كذلك دفاعاً قصيراً طلب فيه الرحمة لعادل وإعطاءه الفرصة. ولكن القاضي أصدر حكمه ورفض تبييض السجل وبرره بأن لأرباب العمل الحق في معرفة ماضي وتاريخ موظفيهم. واستطرد قائلاً: إن الأبله فقط قد يستأمنك على ماله وأنت ذو ماض إجرامي أسود.. وربما تعود إلى الادمان ثانيةً في أي لحظة.. وهذه الأوراق لا تفيد بشيء وهي شكلية. فعاد عادل إلى بيته والنقمة تملأ قلبه. ثم راح يدرس خطةً جديدةً لحل مشكلته. فشرع يراقب القاضي كل يوم.. وعرف عنه أين يعيش وأين يعمل ومتى يمارس الرياضة.. وأين يلهو ويسهر ويتعشى. وكان بحوزته أرقام موبايلات لتجار كان قد عرفهم في السجن. وكمن عادل للقاضي متنكراً بزي «فتى موقف السيارات» في مساء جاء فيه إلى المطعم كعادته ليتناول عشاءَه.. فأعطاه القاضي مفاتيح سيارته مع البقشيش وهو لا يعلم ماذا يحاك له.. ودخل المطعم ليتعشى. فقاد عندئذ عادل سيارة القاضي إلى حيث اتفق مع تاجر مهرب للمخدرات.. ودخلت السيارة في مرآب وعبئت بالمخدرات. ثم انطلق بها عادل حتى حدود البلاد.. وعبر الحدود أيضاً! وشارة القضاة على زجاج السيارة تفتح له الطريق وتسهل له المرور. وهناك سلم السيارة بما فيها إلى مهرب آخر وأخذ منه حقيبة المال

ثمناً للسيارة وعمولة التهريب. وهناك سوى أوضاعه كلها. ولم يعرف حتى الآن من سرق سيارة القاضي. وعندما عاد عادل إلى بيروت ما عاد محتاجاً إلى سجل عدلي نظيف.. أو حتى إلى عمل! فأصحاب المال والنفوذ في المدينة صاروا يحترمونه الآن.. لقد بيض سجله العدلي بطريقته الخاصة.

الاثنين

مقلاع الثدي! أداة مخصصة لتعذيب النساء اللواتي يتهمن بالزنى وممارسة الفاحشة، حيث يجرى اقتلاع أثدائهن من الجذور. يتم توثيق المرأة إلى الجدار ثم تغرز هذه الأداة بإحكام في الثدي، ويتم شدها بقوة وسرعة حتى يتمزق الثدي ويقتلع من مكانه وتبرز عظام قفص الصدر. عرفت هذه الأداة انتشاراً كبيراً في بريطانيا وفي بقية أوروبا بدرجة أقل. والجلادون لم يجدوا حرجاً في تعذيب النساء الفاحشات! وأحياناً فتيات بين الطفولة والمراهقة. عرف عن ملكة بريطانيا ماري الأولى استعمالها الواسع لهذه الأداة في محاربة المنادين بإصلاح الكنيسة أثناء فترة حكمها التي دامت خمس سنوات.

الثلاثاء

أيُّها الطَائِرُ الذِي ألفَ الرُّوْضَ مُقاماً وَجَاورَ الأنهَارا
وتلهَى حيناً بسَقسَقةِ المَاءِ فكانتْ لِشَدْوِهِ أوتَارا
كانَ في الرّوضِ ملعَبٌ لكَ يا طيرُ وَمَلهىً تُمضِي عَليهِ النَّهارا
وتُحيّي الصَّبَاحَ إذ يَتلالا وتُحيّيْه عندَمَا يَتوارى
كانَ في الرّوضِ كالهَوَاءِ طليقاً فغدا في الحَديدِ يَشْكو الإسَارا
هكذا، أيُّها الشّقيقُ أنَا اليَوْمَ كِلانا نُحَاربُ الأقدَارا

دروج الحكمة

الخميس

في أحد الأيام وصل الموظفون إلى مركز عملهم فاستوقفتهم لافتة كبيرة فوق عتبة الباب الرئيسي كتب عليها: لقد توفي البارحة الشخص الذي كان يعيق نموكم وتقدمكم في هذا المكان! ونرجو منكم الدخول وحضور حفل العزاء في الصالة المخصصة لذلك. في البداية حزن الموظفون لوفاة أحد زملائهم في العمل، ولكن الفضول ألهب الصدور لمعرفة هوية الشخص الذي وقف عائقاً أمام تقدمهم ونمو شركتهم!

بدأ الموظفون الدخول إلى قاعة التابوت، وتولى رجال أمن الشركة عملية الدخول كلا بدوره لرؤية الشخص داخل التابوت. وكلما نظر أحدهم إلى داخل التابوت تغير لون وجهه وأصبح فجأةً غير قادر على الكلام، وكأن شيئاً ما خدش أعماق روحه.

لقد كان هناك في أرض الكفن مرآة تعكس صورة كل من ينظر إلى داخل الكفن، وبجانبها لافتة صغيرة تقول: هناك شخص واحد في هذا العالم يمكن أن يضع حداً لنموك وطموحاتك.. وهو أنت.

دروج الحكمة

الجمعة

السجين العادي هو المواطن في السجن.. والسجين المزمن هو التاجر.. الشاويش هو النائب.. الباش هو الشرطة.. العساكر هم الجيش.. آمرو السجن هم الحكومة.. الجمعيات هم المدارس والنقابات.. العملة هي السكاير والبن وكروت تشريح الخليوي، ولكل شيء ثمن! وأما علم مجسم هذه الدولة الصغيرة فهو الثياب والأحرمة الممزقة المنشورة على الشبابيك الحديدية. السجن صورة سالبة مصغرة عن المجتمع.

السبت

الحقيقي فينا صامت والاكتسابي ثرثار جداً.

دروج الحكمة

الأحد

مفارقة مضحكة مبكية في آن معاً: نال إدوار حكماً ثمانية عشر عاماً على جريمته، فاستعان بزوجته المحامية وسعى لتمييز الحكم. فكانت نتيجة التمييز المؤبد. أما اسماعيل فقد حكم بالاعدام لجريمة قتل ارتكبها، فسعى أيضاً للتمييز، فجاءت نتيجة التمييز البراءة الكاملة! فلم يستطع المسكين احتمال هذه المفاجأة.. فانتابته نوبة قلبية قوية أودت بحياته على الفور.

.... إلخ.

وهكذا مضى ناجي في قراءة هذه الكراسة دون أن يجد هيكليةً ما أو نهجاً لطريقة الكتابة. لا مفتاح أو كلمة مرور يلج بواسطتها هذه الألغاز والأحاجي التي لا تخلو من جمال أحياناً. إنها مقطعات شبه يومية.. أحياناً، وأسبوعية أحايين أخرى. حيناً خواطر وطوراً أحلام يقظة.. حيناً سرد ذكريات وطوراً سرد يوميات سجنية.. ويتداخل الماضي بالحاضر بغموض وغرابة في انسيالات خيالية نفسية مؤلمة. تظلـم وشكوى.. صرخات يأس. وتتناثر أبيات غزلية لامرأة مجهولة بين الفينة والأخرى.. تتخلـلـها رسومات لوجه امرأة بارزة الشفتين كبيرة العينين دقيقة الأنف. الرسومات الأنثوية العارية تنتشر بين السجناء على الورق وعلى الجدر. ناجي كان سجيناً ويعرف جيداً أن العاطفة الجنسية عند السجين أعمق منها عند الانسان الحر. وكلـما صدت ذئاب رغبة الانسان زادت عواءً «والمستور مسعور». المرأة المثالية البعيدة المنال نزيلة من

الدرجة الأولى في ذهن السجين. إذا كانت زوجة تاق للزوجة، أو كانت خطيبة حن إليها. وكثير من السجناء يتركنهم زوجاتهم وخطيباتهم.. ويرونه خيانة وعدم تفهم. كثيراً ما تدور أحاديث السجناء حول النساء والفتيات اللواتي يدخلن السجن من محاميات ومرشدات وطبيبات ويتنادرون بمفاتنهن.. ويتغامزون ويتهامسون.

قرأ ناجي في هذه الكتابات حوالى ساعتين أي ما يقارب الخمسين صفحة. أعجب بها كونها غامضة وغريبة.. ومتناثرة كأوراق الخريف. ويبدو أن لا قصد واضحاً من الكتابة حتى الآن كما أعلن الكاتب في البداية. يعرف ناجي أيضاً أن كثيراً من السجناء كانوا شعراء وهواة كتابة.. مثقفين حاملي شهادات، وكانوا يملأون فراغهم بالقراءة والكتابة. أعظم الكتابات صيغت بريشة السجناء.. أو قلم أدباء سجناء أو منفيين من أوطانهم. لا يفهم ناجي كثيراً في الكتابة ولم يحاول الكتابة في السجن.. رسم بضعة رسومات لزوجته وكتب ثلاث قصائد في بداية أعوام سجنه. ولكنه رسم الكثير من الأبنية التقليدية، ومارس الرياضة بانتظام في السجن.

تعب من القراءة في جلسته هذه، فوضع الدفتر مع الكتب.. وعاد إليه مساء اليوم التالي بشوق.. وراح يقرأ:

الثلاثاء

أمعائي تؤلمني جداً.. لا أدري ربما أخذت برداً في الليل.. أنا بحاجة إلى دواء.. لم أحصل على الدواء من الصيدلية اليوم. قال لي الجندي عند البوابة: إذهب.. أنت تتمارض ولست مريضاً، حيلكم هذه لا تمر علينا. فعدت إلى مخدعي حزيناً متألماً. إن أصعب حالة أواجهها في حجرتي أن أكون مريضاً..

لا أحد يصدق أنـي مريض! وإذا صدقوا تأخر الدواء ليومين أكون حينها قد عانيت من مرضي الأمرين. ينتابني خوف أحياناً أن يحدث لي ما حدث لأحد السجناء منذ أشهر.. لقد أصيب بنزف في معدته وتألـم كثيراً.. ولم يحصل على الدواء بسرعة ولا عاينه طبيب ففارق الحياة. أتـرى هو الآن نزيف في أمعائي أنا الآخر؟!

الاربعاء

حرامي[1].. أنا حرامي! لا أنا مش حرامي.. أنا فقير في زمن لا مكان فيه للفقير. أنا فقير في زمن إذا قال فيه الفقير الحقيقة يقولون إنه يتدخل في الذي ليس له فيه. وإذا أتى تصرفاً جيداً يقولون هو يغطـي فقره. وإذا نظر ووصف وروى يقولون ها هو الكسول يتفلسف. أنا فقير في زمن كلـهم يسرق كلـهم. وإذا فقير مثلي مد يده الى رغيف خبز يصبح هو سبب انحراف الكون وتبدل القوانين والشرائع وسنن الوجود.

وهم السارقون.. وينظرون إليك وينادون: هوذا السارق يا قوم.. هوذا السارق! أقول لك... أنا سارق! أي نعم.. أنا حرامي.. ولكني لست عبداً لك.. ولا عبد أعرافك التي علـمتني. أنت قلت لي إن المال هو السيد، معك قرش تساوي قرشاً. أنت أفهمتني أن الاحترام لا ينالـه غير الأغنياء.. وبالمال تشتري سعادة الدنيا وما فيها.. أنت قلت لي إن الحياة عز وجاه.. ورفاهية ومظاهر.. وسلطة ونفوذ.. وصراع وغلبة. ثم تريدني أن أعمل خادماً عاملاً تحت أيدي الناس وتقول هذا هو الشرف!! وعندما أطلب يد ابنتك تبصق في وجهي.. لأني ساقط في غربال مقاييسك. لقد احترت مع إلهك الذي تعبد! تارة يكون

(1) كلمة عامية تعني سارق.

العمل بالأجرة كرامة وشرفاً وطوراً عيباً ومذلـة. إسمعني جيداً.. مقابل ماذا أعطيك عمري وتعبي وسنيني؟! القليل من النـقود آخر الشهر تشتري بهم كرامتي وشرفي ورجولتي؟! وأنت تريد فوق هذا إذلالي وإهانتي.. وتسمعني عبارة (أنا ولي نعمتك) مراراً كل يوم.. أنا لا أريد أن أعمل عندك وأهين ذاتي لأجلك.. كلمة «حرامي» باتت أشرف لي من الذل عندك.. تعلـم أنت أن تكون إنساناً لا أعود أنا سارقاً.. تعلـم أنت أن لا تكنز لا أكون أنا سارقاً.. كن عفيفاً ولا تكذب لا أكون سارقاً.. تعلَّـم أن لا تدوس الآخرين لا أسرق أنا. أنت مجرم مثلي يا هذا.. ألا ترى؟ تعلـم أن تكتفي بخبزك اليومي لا أسرق أنا. وما دمت أنت كل هذه فأنا باق سارقاً وهذا شرف لي. إسمع.. وليسمع العالم كلـه.

الخميس

حدث في هذا اليوم أمران:

الأول: سجين شطب جسده بالشفرة بعد ستين يوماً من الاعتصام عن الأكل، لأنه يطالب بتنفيذ حكم الإعدام الصادر بحقـه منذ خمسة عشر عاماً. والرجل في الستـين من عمره. فأخرج من السجن عند انهياره إلى المستشفى للعلاج.

والثـاني: سجين وقع في قدر الطـبيخ في المطبخ. زلقت قدمه فسقط على قفاه في هذه الطـنجرة العملاقة والطـبيخ يغلي على درجة عالية، فاحترق المسكين من وسطه حتى فخذيه.. بيد أن ذكورته بقيت سالمة لم يمسها ضرر. ولكن صرخته كانت كصوت الرعد في ليلة عاصفة.

الجمعة

إذا فاجأك يوماً خياران صعبان.. ولا تدري أيهما هو الأصوب. أنظر أيهما أقرب إلى هواك وخالفه. فإن أكثر الصواب في خلاف الهوى.

دروج الحكمة

السبت

- ما اسمك أنت؟

- إسمي عيسى.

- وأنت؟

- قبل أم بعد؟

- ما هذا قبل وبعد يا ابن الـ...

- قبل دخولي السجن كنت حسين أبو الدهب.. وبعد دخولي السجن فالشاب عيسى هنا قال لي...

- ماذا قال لك يا ابن الـ...؟

- قال لي أنت لست حسين. وأنا كنت أعرف أن هالأخو الـ... حسين ليس أنا يا باش صدقني بل تهمة. عيسى قال لي أنت لست حسين ولم يقل لي أنا من! أرجوك هل تقدر يا باش أن تنظر في السجلات لتقول لي من أنا؟ هل أنا أوباما مثلاً..؟ أو ساركوزي ربما..؟ أو أقول لك حميد القرضاوي أقبل به.. جيد حميد القرضاوي مم يشكو؟

- يا عيسى لقد أفسدت هذا الشاب.. وعلـمته أن «يحبحب»[1]

الأحد

اخترعت هذه الأداة في اليونان القديمة، وتـعرف بالكثير من الأسماء..

---

(1) أي يتناول الحبوب والمخدرات.

منها (عجلة السحق) أو (عجلة كاثرين). استعملت على نطاق واسع حتى مطلع القرن التاسع عشر. قد تبدو للوهلة الأولى كأي عجلة خشبية.. ولكن الإبداع الوحشي للانسان أبى إلا أن يحول هذه العجلة البسيطة إلى إحدى أفظع أدوات التعذيب. وتفنن القدماء في ابتكار الطرق المختلفة لاستعمال هذه الآلة. فتارة يربط الضحية بشكل منحن على حافتها الدائرية ثم يتم دفعه من على جبل صخري، وطوراً يتم تثبيتها على الأرض بشكل أفقي مواز للأرض ويربط الضحية عليها ثم يبدأ الجلادون بدك وتهشيم جسده باستعمال المطرقات الحديدية الضخمة والكلاليب. وأحياناً يثبت الضحية في طرفها بشكل منحن ثم يدخلون قضيباً معدنياً في وسطها حتى تستطيع الدوران بسهولة، وتدور العجلة باستمرار بعد إضرام النار تحتها.. ثم تأتي الكلاب أو الذئاب الجائعة.. فيتم شيّ جسد الضحية قليلاً.. ثم تدور العجلة نحو الأعلى فيرتفع الجسد نحو الكلاب الجائعة التي تنهش اللحم المشوي. ثم يعاد شيّه من جديد وهو حي. وهكذا دواليك حتى لا يبقى فيه غير العظام. وهناك طريقة أخرى أقرب إلى الصلب، حيث يستلقي الضحية على العجلة بشكل أفقي (كالصحن) وتدق مفاصله حتى تتهشم وتبرز العظام ويتعرى اللحم، عندها تنصب العجلة على وتد خشبي طويل وتبقى على ذلك الوتد لعدة أيام، والضحية يشاهد الذباب والبعوض ينهش لحمه المكشوف الذي يبدأ بالتعفن تحت أشعة الشمس الحارقة وكثرة الحشرات.

الاثنين

أعدكم أيها الرفاق السجناء أنه عندما ينتهي بناء سجن الجنوب، وسجن الشمال، والسجن المركزي الجديد، وعندما تستصلح العبقرية الأميركية

أرض المريخ وتنتقل البشرية لتسكن على سطحه.. يصبح عندئذ لكل واحد منكم مخدعه الخاص به.. ولكل غرفته.

الأربعاء

في أيامنا هذه وفي أحدث سجون العالم، تستخدم أساليب في الاستنطاق واستخراج المعلومات من المتـهمين لا تقل وحشية وفظاعة عن الأزمنة القديمة. ومعتقل «غوانتانامو»[1] التـابع للولايات المتـحدة الأميركية التي تـشكـل الآن رمزاً عالياً للحضارة والحرية خير مثال. فأميركا في غوانتانامو تـنسى مكانتها الرمزية والحضارية، لتمارس أساليب شرسة، إن دلـت على شيء فهي تدل على التـخلـف. وقد قالت منظـمات حماية حقوق الإنسان إن (غوانتانامو) وصمة عار في جبين الإنسانية يجب محوها. وقد طالبت بريطانيا الولايات المتـحدة الأميركية إغلاق هذا المعتقل مصرحةً أن القاعدة الكوبية (غوانتانامو) غير مقبولة. إن المحققين الأميركيين الاختصاصيين في فن انتزاع المعلومات مارسوا في هذا المعتقل بتر الأصابع العشرة للضحية وأصابع القدم، وأحياناً يتم تخدير الضحية قبل عملية البتر. وأيضاً قيدوا السجين لمدة أربعين ساعة دون أن يرى مخلوقاً أمامه، ثم يؤتى بنساء لكي يلمسنه في مواضع حساسة بغية الإثارة والاستفزاز.. كما قال بعض السجناء الخارجين من المعتقل.

الخميس

طلبت من المكتبة اليوم إنجيلاً ورحت أقرأ. قرأت في الإنجيل مراراً ولو كانت قليلة.. بيد أنه اليوم تكشف لي عن هذا المصلوب المتألـم يموت في

---

(1) يقع هذا المعتقل في خليج غوانتانامو شرق كوبا. بدأت السلطات الأميركية تستخدمه كمعتقل للإرهابيين منذ عام 2002.

ذل وعار ظلماً ولا يفتح فمه مدافعاً عن نفسه! قيل لنا إنـه مات من أجلنا.. إله أخذ جسد بشر ومات ليخلصنا. يخلصنا مماذا؟ من الجحيم..!! ألا يشبه السجن الجحيم؟! أليس للسجناء مسيح يبذل نفسه لخلاصهم؟! ألا يستحق السجين خلاصاً؟ السجن وجهنـم كلاهما عقاب للبشر.. والفارق..! أن هناك أبرياء في السجن ولا أبرياء البتـة في جهنـم.. ربما! عدالة السماء كاملة.. وعدالة البشر ناقصة.

الجمعة

الطبيب: بلا ضجة. في الدور. واحد واحد. أنت ما هي مصيبتك؟

سجين أول: ضرسي يا حكيم.. منذ يومين وأنا لا أنام.

الطبيب: بسيطة. إذهب الآن إلى غرفتك ومخمض فمك بالماء والملح.. وهكذا دائماً عندما تشعر بالألم. التـالي.. من غيره؟

سجين ثان: رأسي يا حكيم. يكاد ينفجر من الألم.

الطبيب: هذه لا تحتاج لدواء. هذا الألـم يحتاج لماء بارد، واعصب رأسك جيداً وتر الوجع انتهى حالاً. الله معك. إلى غرفتك. من التـالي؟

سجين ثالث: يا حكيم جسدي يتحسس كثيراً.. لا أقدر أن أنام من الحك. أهو الجرب؟

الطبيب: أرني بطنك. هذا ليس جرباً إنه حساسية. إنزل إلى الباحة وأخلع قميصك واجلس في الشمس كل يوم ساعة، وتر الحساسية انتهت حالاً.

السبت

فتحت قضية تهريب سجين لزوجته في حقيبة بلاستيكية إلى زنزانته في أحد سجون عاصمة عربية.. لكي يمارس الجنس معها.. أبواب الجحيم على مصاريعها أمام العساكر والضباط آمري السجن. فأحرجت قادة السجن

الاعترافات الموجودة في محاضر تحقيق الشرطة القضائية التي حملت عنواناً بارزاً ألا وهو «أنا معتادة على هذا!» حيث تبين أن الزوج تعود الخروج من السجن في نزهة! وكذلك الزوجة أن تدخل إلى السجن خلسةً للقاء زوجها في زيارة جنسية رومنسية لمدة ساعتين. وعملية التهريب هذه غريبة حقاً.. ويبدو أن قامة الزوجة صغيرة لدرجة أنه يمكن وضعها في تلك الحقيبة العجائبية.

الأحد

كان جالساً في الزاوية. واجماً سابحاً في عالم آخر. سألته: أين أنت؟ أجاب: إني أعد خطة للهرب. لا أخشى شيئاً ليس عندي ما أخسره. حياتي انتهت. عشيقتي تخلت عني وهي سبب بلائي ووجودي هنا، زوجتي تسعى للطلاق، وأبي تبرأ مني والحزب نبذني. أنا الآن نكرة. إذا نجحت في الهرب سيتغير شيء ما في حياتي. لا أريد أن أموت موتاً بطيئاً في السجن حتى النهاية. كان هذا منذ أشهر. واليوم صباحاً عرفنا أن فريد تحول إلى دجاجة مشوية بالأسلاك المكهربة فوق السور وهو يحاول الهرب ليلاً.

الاثنين

الحمار الاسباني. وسيلة تعذيب مرعبة! وبالتأكيد لن يتمنى أحد امتطاء هذا الحمار.. لأن العذاب فوقه رهيب. يمتطي الضحية هذا الشيء وهو عار تماماً.. حيث أن ظهر «الحمار» يتشكل من صفيحتين حديديتين ملتحمتين من الأعلى على شكل ثمانية حادة جداً وقاطعة. بعد أن يمتطي الضحية الحمار تربط الأثقال في أسفل قدميه في كاحليه حتى تشده إلى الأسفل، ويبقى على هذه الحال حتى ينشطر إلى نصفين.

الثلاثاء

يحكى أن غاندي كان مرة يجري بسرعة لكي يلحق بالقطار.. وبدأ القطار

بالانطلاق. وعند صعوده سقطت من قدمه إحدى فردتي حذائه، فما كان منه إلا أن خلع الفردة الثانية.. ورماها قريبة من الفردة الأخرى على سكة القطار. فتعجب أصدقاؤه وسألوه: لماذا رميت فردة الحذاء الأخرى؟ فأجاب حكيم الهند وقال: أحببت للفقير الذي سيجد الحذاء أن يحظى بفردتين لا واحدة فينتفع بهما. فلو وجد فردة واحدة لا تفيده ولا أستفيد منها أنا أيضاً.

دروج الحكمة

الأربعاء

في اليوم الثالث من دخولي السجن سألني واحد من السجناء هل أنت تواجه؟ ولم افهم! فتابع: هذا قاموس اللغة السجنية. ستتعلم المصطلحات كلها في غضون أيام. وسؤالي هذا يعني هل لك ذوون وأقرباء يأتون لزيارتك أسبوعياً كما الكثير من المساجين؟ فأجبت أن لا. أنا مقطوع من الشجرة. فقال: يا للخيبة! ستكون سجيناً من الدرجة الثالثة.. منزوع الكرامة والاحترام. لأن من يواجهون يأتون بالعملة من ذويهم.. لحماية أنفسهم في هذه الغابة! أنت تواجه أنت ذو عملة.. وذو العملة هنا قوي أيضاً كما خارج السجن.

الخميس

حينما أغرق في عينيك عيني
ألمح الفجر العميق
وأرى الأمس العتيق
وأرى ما لست أدري
وأحس الكون يجري
بين عينيك وعيني.

دروج الحكمة

الجمعة

أُمسك اليوم ثلاثة سجناء وهم تحت تأثير المخدر العسكري ناصر عز الدين وعلقوه على الباب الحديدي الكبير في النظارة، وربطوا يديه ورجليه على شكل صليب، وهددوه بالقتل إذا ما رفع صوته بالصياح. فصار يبكي المسكين على صوت خافت.. لأنه يعلم أن الإنسان تحت تأثير حبوب المخدر لا يعي ما يفعل. ولولا السجين روكز الحاج لكان أجهز عليه في ميتة بشعة.

الأحد

إستطاع سامر علاو أن يصبح خارج السجن ليلاً! بيد أنه عاد ليهرب معه صديقيه في الزنزانة فشعر به الحراس. فطاردوه على سطح السجن وقفز من علو ستة أمتار وتكسرت قدماه. ولكنه استطاع أن يخفي نفسه بالأعشاب وأغصان الأشجار. ومع الصباح أدرك أنه لا يستطيع أن يذهب إلى مكان برجلين مكسورتين والألم بلغ أشده. فعاد وسلم نفسه للعساكر.

السبت

إصطحبت أم طفلتها ذات أحد إلى الكنيسة لتشاركها في العبادة. فانشغلت الصغيرة بالنظر إلى ضوء الشمس وهو ينفذ من زجاج نوافذ الكنيسة. وسألت الطفلة والدتها: من هؤلاء الناس المرسومون على زجاج النوافذ يا أمي؟ فأجابتها الأم قائلة:

إنهم القديسون. فقالت الطفلة عندها: لقد فهمت الآن من هم القديسون! إنهم الأشخاص الذين يتركون النور ينفذ من خلالهم.

دروج الحكمة

.... إلخ

قرأ.. وقرأ.. قرأ ناجي كثيراً في هذه الجلسة. وكان يقرأ بشوق.. الاسلوب شيق يشعر معه القارئ أنه سيصل إلى شيء ما.. بيد أن المعاني كانت كالزئبق.. نحس أننا أمسكنا به وسرعان ما يفر من بين الأصابع. بدا واضحاً أن الكتابة لا زالت غير هادفة، لا تفضي إلى شيء. ولكنه انجذب للطاقة الوجدانية المتدفقة بين السطور.. إنه نوع من بوح واعتراف غير محدد، لم يكن ناجي يسعى لاكتشاف حقيقة الانتحار في هذه الأوراق بقدر ما أصبح السرد الشيق يشده الآن. ولماذا يبوح وليم بسر انتحاره؟! الدفتر قديم.. هل عزم وليم على الانتحار منذ زمن؟ أم ان الانتحار كان حدثاً مفاجئاً له؟! ما سر هذا السجين المنتحر يا ترى؟ ساءل نفسه. هل يخبر سحر بأمر هذا الدفتر.. أم يبقيه سراً كما وعد؟! من يقوى في داخله: إلتزامه بالوعد أم ضعفه أمام الحب؟

بقي أياماً يقرأ في هذا المخطوط الغريب دون أن يتصل بسحر. يواظب يومياً على عمله في الجمعية ثم يعود مساءً بشوق ليكمل القراءة حيث انتهى. واجتاز فيه حتى ثلثه الأخير. وفجأة! يحدث تغير في تواتر النصوص. تغير واضح. فإذا النص الآن مترابط وهادف. وإذا أمامه فقرة من صفحات طويلة النفس.. نوع من سيرة ذاتية أو ذكريات. وانتهت المقطوعات الصغيرة التي تشبه اليوميات. ها هي الآن فقرة تبدأ بهذا الكلام:

«**... الاثنين**

لا أدري تنتابني اليوم ذكريات قديمة.. تعود إلى مراهقتي في تلك المحلة الراقية من الجزء الشمالي في المدينة. أذكر جيداً تناثر أبنيتها الحديثة بين الأشجار العالية الكثيفة والبساتين. أذكر أيضاً أبناء وأهل هذه البيوت إنهم

أطباء ومهندسون ومحامون. والدي كان وجيهاً من وجهاء تلك الأحياء.. كان موظفاً ذا منصب عال في إحدى دوائر الدولة. في بدايته كان مساحاً عقارياً ثم تدرج حتى أصبح ما صار عليه. كان والدي يؤمن بمنطق القوة وكم ردد في مسامعي تلك المقولات: الذي يخيف الآخرين أنياب بارزة.. القوي قوي بنفسه والخوف لا يطعم خبزاً.، ما حك جلدك مثل ظفرك.. إن لم تهاجم ستهاجم، وأضعف نقطة يقف فيها الإنسان هي نقطة الدفاع.. الحقوق لا تطلب بل تنتزع.. إذا لم تُعَل صوتك ينسك الآخرون. كان يسألني دائماً: ما مصلحتك في هذا الأمر؟ لم يكن «مصلحجياً» بل واقعياً كما قال دائماً. كان يدرك قسوة الحياة ويعرف أنها تحتاج لشخصيات قوية للثبات في ميادينها.. ولإنجاز أشياء ذات قيمة جديرة بالاعتبار. لهذا كان يحثني دائماً ويعلمني أنا الوحيد بين فتاتين أن أسعى للنفوذ والسلطة. لم يكن والدي سليل جاه ولكنه سعى دائماً إليه. كان مضيافاً خدوماً.. وقلما خلا بيتنا من الناس وذوي الشأن منهم. أحب الناس لأنه عاشق وجاهة وزعامة. لا يؤمن بالسياسة خدمةً للناس بل موقعاً متقدماً في المجتمع. شجعني على انتخابات البلدية مرتين، وفشلت في المرتين. قال لي لا تيأس لا زلت شاباً. وكون بيتنا مفتوحاً لجميع طبقات المجتمع كانت لي صداقات من الطبقات الاجتماعية المختلفة. كنت ذكياً في دراستي ومن المتفوقين. وكانت لي شخصية قيادية ظهرت في الأندية والنشاطات المدرسية والكشفية والاجتماعية.. ونفوذ والدي وعلاقاته وفرت لي هذه الميزة. والدي من المتحدثين في السياسة من الدرجة الأولى وقد عشقت السياسة على يديه. والحقيقة أني ورثت الكثير عن والدي: صفاته الطبيعية ومكتسباته في الحياة. صممت أن أدرس

العلوم السياسية وانتسبت عضواً في الحزب وصرت بسرعة رئيس القسم في المحلـة، وهكذا غرقت في العمل الحزبي حتى أذني. وراحت أحلام السلطة والمجد تداعب خيالي. هذا الجانب من حياتي وشخصيتي كان على شيء من المثالية، بيد أن الجانب الرومنسي أو النـاحية النـسائية فلم تكن هكذا. لم أكن وسيماً ولكن ذا شخصية جذابة متحدثاً ذكياً.. والمال وفر. هذا كان كافياً ليجعل منـي كازانوفياً من الدرجة الأولى. لم أغرم إلا مرة واحدة.. هي المرأة التي تزوجتها. عشرات الفتيات اللواتي عرفتهن لم أحب واحدة منهن ومعظمهن أحببنني. حطـمت مشاعر الكثيرات. وعلاقاتي سريعة لا تتعدى إحداها شهراً واحداً. إنـي أذكر جيداً حنان ريشا التي أحبتني حتى العبادة، وفي أسابيع قليلة ظهرت جيهان ولا أدري كيف الخلاص من حنان وأبت المسكينة الانفصال. كانت موعودة بالزواج لأن أسلوبي التـلميح به. فكان الحل أن أصدمها بفتاة أخرى.. وجيهان جاهزة. جاءت حنان إليّ في ذلك المساء الماطر.. طرقت الباب وخرجت إليها وأريتـها صوراً لي حميمة.. صاخبة.. مع جيهان، وصحت في وجهها مطلقاً السباب كالرصاص.. وانهارت البائسة واقعة على ركبتيها، وأوصدت الباب في وجهها وهي تبكي وتتوسل وتطرق الباب. رحلت ولم أعد أرى لها وجهاً. أما نورما النـاعمة.. نورما الحاج.. فعندما صديتها انهارت أعصابها ودخلت المستشفى لأيام وتكفـل خالي يومها بـ «لملمة» المسألة وستر المفضوح مع أهلها.. بيد أني علمت فيما بعد أن نورما دخلت في أزمة نفسية طويلة الأمد. وسماره الشبقة التي لا تمارس الجنس إلا في الصيف! لأنها لا تحبه في المخدع بل في الطبيعة.. رائحة الحشائش والازهار والشجر تثيرها حتى النشوة! وكم ركضت عارية على

شاطئ البحر في نصف الليل وهي تصرخ وتنادي: تعال نمارس الحب في البحر.. بعيداً في البحر.. لكي تخبر النجوم والقمر حكاية حبنا. إيه.. أين أنت الآن يا سماره؟ كنت ماجناً متهالكاً على الدنيا وملذاتها، وثورة الشباب نار في دمي. في الشأن العام كنت شخصاً آخر. منذ البداية أقمت حاجزاً فاصلاً بين الشأن العام والدونجوانية. كنت ملتزماً الجدية والعقيدة والحجة والنشاط والتخطيط.. كنت ديناميكياً شجاعاً. وبدأ نجمي كرجل شأن عام يلمع في تلك المحلة. وكان يقال عني دائماً «لو بيعقل وليم إبن فارس كان بيطلع منو رئيس جمهورية». كانت لنا أنا ووالدي وعمي علاقات ود وصداقة مع النائب ج. ج. ورئيس البلدية مع حدة المنافسة بيننا، والقائمقام ورئيس المحكمة، وأبرز مهندسي ومحاميي وأطباء المدينة. وكانت العلاقات كالقبور! ظاهرها مكلّس وباطنها منجّس. سرعان ما أدركت أن العلاقات بين رجال الشأن العام أساسها تنافس خبيث وبغضة. وما البروتوكولات والدبلوماسيات غير الرياء عينه. ولغة الساسة الوحيدة هي البزار.. والآخرون الضعفاء حجارة فوق رقعة الشطرنج. كنت أسمع كلمات المديح من النائب ج.ج. ورئيس البلدية والمحامين الطامحين، وكنت أشعر بالرياء الناضح من كلامهم. قيل لي يوماً نقلاً عن شخص كان حاضراً في جلسة بين النائب ج.ج. ورئيس البلدية أنهما اتفقا ألا أكون بين المتكلمين في حفل تدشين الحديقة العامة برعاية وزير البيئة وكان حاضراً يومها. وقيل لي إن النائب ج.ج. كان حازماً شديد اللهجة في نبرته نحوي. من حينها بدأت أشعر بالقوة المختبئة وراء جدار الحسد. بدأت أحس الأشباح تتحرك في الظلمة.. لا أراها ولكن حدسي يدركها.. توقع بي.. تحاربني.. تضع العثرات في طريقي. ومع الأيام تأكد لي من

وراءها. باعدت الكراهية والمنافسة بيننا. وصممت ألا أذعن مستخدماً كل الوسائل المتاحة لي. ونشطت حركتي في كل نواحي الشأن العام: عضواً في المجلس البلدي ولجنة البيئة والإنماء وفي هيئة النـادي الثـقافي ورئيساً للمكتب في الحزب... ورحت أطرح المشاريع والرؤى والأفكار ونجحت. وكان يصل إلي الكلام دائماً أن سعادته ج. ج. غير راض عن هذا المشروع أو ذاك. ومضت الشهور والسنون وحزت على الدكتوراه في العلوم السياسية والاقتصادية، وأصبحت رئيس دائرة في الحزب وأسست فيه مجلس التـثقيف السياسي.. وكان علامة فارقة في تاريخ الحزب! وذات يوم.. وعلى غير قصد منـي قرع الحب الصادق بابي.. أقول الصادق لأنـها المرأة الوحيدة التي جعلتني أفكـر بالزواج. والحقيقة أني كنت خائفاً على الزواج العتيد من صولاتي الكازانوفية الماضية.. وسرعان ما اكتشفت أن الحب والزواج لا يخلوان من المصلحة، وبنود الاتفاقية قادرة أن تسقط آثام الماضي من حسابها. في ذلك المعرض الفنـي الحرفي للنـادي، وتحت قنطرة حجرية في السوق العتيق.. إلتقيتها هي وشاباً رفيقاً لها.. يتمشيان في أنحاء المعرض، تـعجب بشيء هنا وتـثني على آخر هناك. آه.. أذكر جيداً تلك الساعة... وكيف أنساها؟! شادية تنتمي لأسرة العصاميين من أبناء المدينة. ليست سليلة أكابر وأرستقراطيين ولكنها من أسرة وصلت بالعزم والمثابرة. ذووها جميعاً أصحاب مراكز مرموقة. كانت جميلة فاتنة.. واثقة وعاشقة جمال. علمت لاحقاً أنـها طالبة مسرح سنة ثانية وصاحبة صوت جميل. أذكر جيداً ذلك اللقاء الرومنسي. كانت كلمات قليلة من الطـرفين، ولكنـها كانت بذاراً لغرس النـصيب الذي نبت أخيراً في صحاري متاهاتي الكازانوفية الطـويلة.

شادية مطر امرأة مهذبة وسريعة الخاطر.. بادلتني الشعور الجميل.. ومما لا شك فيه، وبتواضع، أن سمعتي سبقتني إليها لتـمهد لهذا الانجذاب السريع بيننا، أقصد سمعتي في الشأن العام. هكذا نبت الحب بيننا.. لقاءات سهرات مواعيد غراميات... ألله يا شادية.. تعزني الدنيا الآن.. تطيب لي كثيراً.. كنت أراك فراشةً ربيعية على خشبة المسرح في أدوارك الجامعية والمحلية وأغانيك الانكليزية القديمة والبلوز منها: فرانك سيناترا ومات مونرو وتوم جونز ودين مارتن وآندي وليامز جعلتني أهوى الموسيقى.. كنت إلى جانبك دائماً مبتهجاً وفخوراً. لقد أنستني شادية شقاوتي النسائية وغيرت في أخلاقي ومزاجي تجاه المرأة.. واقتنعت بها قناعة ثابتة بأنـها المناسبة رفيقة دربي لما بقي لي من السير في هذه الدنيا. وأحب شيء أذكره وأنا في سجني هذا الآن هو تلك المرحلة ما قبل الزواج بقليل.. أنا وشادية والأيام الرائعة والربيع الذي حسبناه لا ينتهي! لقد أنستني عطور ورداتي الدونجوانية وباتت هي وحدها جنـتي الحاضرة. بسرعة فهمت شخصيتي.. ورأت هواجسي وأحلامي وطموحاتي والتـحديات والمشاريع والعقبات أولاداً صغاراً يمشون أمامي على الدرب الذي أسير فيه. كانت تشجعني، وكانت تبتكر الأفكار الجديدة حتى أصبحت بالنسبة لي صندوقة عجائب وأسرار، تـطلع دائماً لي الغريب والبديع. وهكذا سرنا على الطـريق سوية. سامحك الله يا شادية... سامحك الله! إن السماء عادت وانتقمت لكل الفتيات اللواتي سحقت مشاعرهن فسحقت أنت قلبي وحياتي معاً. أنا الآن أدفع ثمن جرائمي تجاه كل فتاة لهوت بها وعبثت بحياتها. السماء عادلة.. بلى هي عادلة! وعلى قول المثـل: ظـلم المرء يصرعه.»

وتابع ناجي القراءة مأخوذاً إلى أقصى حد بهذا النـص لسيرة وليم:

«أذكر جيداً تلك الساعة الشيطانية التي جاءتني فيها تلك الرسالة اللعينة. منذ شهور وشادية أصبحت شخصاً آخر. لا أفهمها ولا تفهمني. أنا في واد وهي في واد. كثـرت الشجارات والتـصادمات وصرنا كالزيت والماء يتلامسان ولا يمتزجان. بسرعة حدث هذا! كيف؟ لماذا؟ إنـي أجهل. قالت لي الرسالة أشياء مخيفة.. فظيعة.. مدمرة..! لم أصدق.. أصابني جنون الرجولة الجريحة. زودتني الرسالة المجهولة بالزمان والمكان. وقصدت هذا الزمان والمكان وفي لحظة هستيرية رهيبة لم تـبق فسحة للعقل أصبحت قاتلاً. جريمتي ضحيتان.. وشادية إحداهما. لذت بالفرار هائماً على وجهي. ثم عدت إلى البيت آخذ ما يسهل حملـه وأتوارى عن الأبصار.. فإذا العساكر يقرعون الباب! هكذا.. بسرعة.. كالأشباح؟! كيف عرفوا بجريمتي؟! حكم علي عشرين سنة في جلسة سرية واحدة لم أع ما دار فيها.. كالحلم. بل كابوس! قيل لي فيما بعد إن مراسم الدفن أيضاً كانت في غاية السرية، لم يكن هناك أحد من المعارف والأقرباء. ولما سئل عن السبب.. كان الجواب الحازم «إنـها قضية سياسية كبيرة!» وفي السجن مدت لي جمعية (عطاء بسرور) يد العون وحاولت مراراً كثيرة الحصول على استئناف لقضيتي.. فكان الرد سلباً وبقوة! وكأن قوة أرواحية عاتية خفية مجهولة.. وأقوى من كل صداقات ونفوذ والدي الذي جاءني خبر وفاته بالذبحة القلبية بعد أشهر من توقيفي.. قوة أرادت لي البقاء في السجن إلى الأبد. فاستسلمت للهزيمة. والقوي يغلبه من هو أقوى منه.»

قرأ ناجي هذا الفصل وتأكد أن أحداً غيره لم يقرأ هذه الفقرات. لقد دخل قدس أقداس القضية. شعر لبعض الوقت كأنه يقرأ ذاته.. يتذكـر نفسه أيام

السجن.. هنالك تشابه ما.. غريب! في سيرة السجناء... النشأة، الظروف، القيم، الدوافع، الجرم. لقد رأى في قصة وليم عامر ظلماً مخيفاً. لقد استدرج وليم إلى الجريمة. أهي مكيدة؟! هكذا تنبأ حدس ناجي. وقد لا تكون حادثة انتحاره بعيدة عن ملف قضيته بالكامل. هل قضى هذا الإنسان في السجن منتحراً بعد يأس عميق من الخلاص؟ كلمة مرور لا زالت مجهولة تدخلنا إلى سر هذا الملف؟ توقف عن القراءة هنا.. وأعاد الدفتر إلى مكانه واتصل بالسيد كميل رئيس الجمعية:

- مساء الخير سيد كميل.

- أهلاً يا ناجي، خير إن شاء الله!

- خير يا سيد كميل. إني أقرأ في هذا الكراس الذي حملتني مسؤوليته.

- حسناً، ماذا وجدت؟ هل هناك ما يفيد؟

- حتى الآن لا شيء عن سبب الانتحار. والحقيقة أني أكاد أنتهي منه. ويبدو أن لا غاية من الكتابة سوى الترفيه عن مكبوتات نفسية. ولكن أريد أن أسأل.

- قل.

- يقول وليم إنه حاول استئناف القضية مراراً بمساعدتكم.

- أجل بمساعدتنا نحن وغيرنا أيضاً. ولكن المحاولات باءت بالفشل.

- لماذا؟

- دائماً كان يرفض الطلب عند القاضي المعني بشدة. هناك غموض وغرابة في قضية وليم، وكأن قوة حازمة تريد له البقاء في السجن أطول مدة ممكنة. مع أن هناك قضايا كثيرة مشابهة في جرائم الشرف لا تتعدى العشر سنوات.

- أظن يا سيد كميل أن انتحار وليم في السجن له علاقة بكامل قضيته.

- لماذا؟

- يقول في المخطوط إن مراسم دفن ضحيته كانت بسرية تامة.

- كيف؟!

- وليم عامر قتل زوجته وعشيقها في ساعة مجنونة. دفنت الزوجة بسرية وحوكم بسرية تامة أيضاً، والسبب أن القضية سياسية.

- أجل هذا ما قاله لنا عدد من المحامين، وكانت القضية مستحيلة! وشعرنا بوجود أصابع خفية تعمل ضدنا في هذه القضية اليائسة. وعلمنا فيما بعد أن مراسم الدفن كانت سرية لعدم وجود الجثة.. والزوجة المقتولة لا زالت حية!

- يا سيد كميل أشعر أن هناك مؤامرة ضد وليم عامر وقد نجحت بامتياز.. حتى الآن.. إلا إذا ظهرت خيوط تقودنا إلى الحقيقة.

- ولكن عملنا نحن ليس مواجهة المؤامرات يا ناجي إذا كان هناك من مؤامرة.. إنه عمل الدولة. نحن نساعد حيث يمكن المساعدة. وإذا كانت قضية وليم سياسية فليس لنا في السياسة. إذا كان في المخطوط أدلة تفيد القانون نعطي المخطوط لمحام ونخرج من الموضوع.

أجاب ناجي باقتضاب خاتماً الحديث:

- مفهوم يا سيد كميل مفهوم. سأوافيك بكل جديد.

- لا تنس السرية التامة.

مرّ أسبوعان وموضوع وليم يحوز على جزء كبير من فكر ناجي حتى أنه نسي سحر.. إلى أن عادت وظهرت على شاشة التلفزيون ذات مساء.. وكانت فاتنة كعادتها. كانت الحلقة صاخبة عنيفة بنقاشها وطروحاتها.. وضيفيها

وهما ضابط من الأمن الداخلي وأحد المحامين البارزين.. ولا يخلو الأمر من بعض كلام شديد اللهجة. حديث سحر كان جريئاً للغاية. فهي بالنسبة للصحافيات سواها صغيرة جداً. ولكن الموهبة تفرض وجودها كالشمس في رابعة النهار. موضوعات الحلقة كانت حول: الاعتصامات السلمية غير العنفية داخل السجن وخارجه من ذوي السجناء، وتحول السجن إلى تربة خصبة لاحتضان ونمو الجريمة، حشر الجرائم المتنوعة الكبير منها والصغير في مكان واحد، إنعدام المعالجة النفسية الاختصاصية، ضرورة وجود سجون إصلاحية كسجون الغرب...إلخ هذه وغيرها من الموضوعات التي بحثها حوار ساخن. كان ناجي إزاءها شاخصاً بإعجاب. وذلك الاعجاب الغامض يزداد يوماً فيوماً كمدّ تسونامي لا يوقفه سد. أحس أن هذا الحديث التلفزيوني يمكن أن يحرك ثورةً داخل السجن. بدت سحر شخصية ثائرة في أدائها. وفيما هو مسمر أمام شاشة التلفزيون.. تذكر.. فجأةً! ويا لفظاعة ما نسي! كاد أن ينسيه وليم عامر ومذكراته كل شيء. لقد أخبرته سحر عن اكتشافها المؤلم.. وهو أنها يتيمة الأب والأم!! واضطربت مشاعره وخواطره ثانية لهذه الحقيقة: ترى من هي هذه الفتاة الغريبة طلعت علي بعد هذا العمر؟! آه..! تراها هي...؟ هل يمكن هذا...؟ راح يسأل نفسه.. والعرق يتصبب على جبينه خوفاً وارتباكاً. ثم يرن الموبايل ويعلو صوت سحر معاتباً:

– أين أنت يا رجل؟ أسبوعان ولا تسأل عني. أعليّ أنا دائماً أن أهاتفك؟

– سحر! كيف أنت؟ هل تعلمين أني كنت أفكر بك للتو؟

– أوه.. دعك من هذه الحجج التي تشبه حجج سواك. هل تشاهدني على الشاشة؟ لم أكن أعلم أن الحلقة ستعرض مساء اليوم وإلا فأخبرتك.

- أجل. إنـي أشاهدك الآن وأنت مدهشة. ستكونين إعلامية ناجحة على مستوى العالم العربي. بإمكانك أن تقودي حواراً في السياسة أيضاً؟ أنت سريعة الخاطر ولديك طلـة تلفزيونية مؤثـرة. أوه.. قبل أن أنسى هل بإمكاني أن أسأل سؤالاً إذا كان لا يضايقك؟

- إسأل.

- قلت لي يا سحر أنـك يتيمة الأب والأم.

- ها أنت الآن تثير ما قد عزمت على نسيانه.

- أهل نسيت هكذا بكل بساطة؟

- وهل يفيد البحث في هذا الموضوع؟ إلى أين يمكن أن أصل. الأب هو الذي يربي وليس الذي يلد. والدي الآن يحبني حباً جماً وهو يضحي بالكثير لأجلي، وهو أب بكل ما في الكلمة من معنى. ألا يكفي هذا؟

فقال ناجي في سره يكفي بالنـسبة لك أما بالنـسبة لي فلا. وسأل:

- هل تعلمين لماذا أعطاك والدك أنور اسم سحر؟

- سؤالك غريب! كيف خطر لك؟ لقد أعطاني اسم والدتي إحياءً لذكراها. ولكن إثارة موضوع الماضي بالنسبة لوالدي أنور صعب ومؤذ.. هو لا يريد الحديث عن هذا الماضي. ثم عادت وسألت باهتمام:

- ولكن أيعني لك شيئاً كوني يتيمة الأم والأب يا ناجي؟

- البتـة. لا تسيئي فهمي يا سحر. ولكن ليس سهلاً أن يكتشف المرء في مرحلة متقدمة من حياته أنه يتيم الأم والأب! هل سلـمت بسرعة لهذه الحقيقة. عذراً للسؤال.. ألا يجوز أن تكون هناك أشياء حقائق خيوط ربما يحاول والدك أنور إخفاءها؟

- ألا يجوز أيضاً يا ناجي لو جاهدت باحثة عن الحقيقة أن أصل إلى ما هو أسوأ من هذه الحقيقة التي عرفتها حتى الآن؟

- هذا احتمال. قال هذا وبلع ريقه... بجملتها هذه أصابتها برمية واحدة! صمت قليلاً وقلبه يضطرب. عاد وسأل بهدوء:

- هل أخبرت والدك عن علاقتنا يا سحر؟

فأجابت سحر بكل مرح وابتهاج:

- أجل.. بكل تأكيد.

فارتجفت أعصاب ناجي كما ارتجف أنور سالم عندما علم أن سحر على علاقة بناجي العرم المهندس المعماري. ولكن سحر لا زالت تجهل أنها حلقة من حلقات الماضي تشدها سلسلتان في اتجاهين متعاكسين أنور سالم وناجي العرم.

******

6

الحب عند الرجل بعض وجوده،

وعند المرأة كل وجودها.

اللورد بايرون

وصل ناجي إلى عمله في الجمعية صباح اليوم التالي فإذا الحشد كبير أمام مدخل السجن، ونسوة رافعات اللافتات والصيحات بالمطالب ذاتها. وكان عديد العناصر الأمنية كبيراً أيضاً، لأن ناراً موازية كان تغلي في الداخل. «ما هذا؟! إن الحركات الاحتجاجية باتت سريعة أكثر بكثير مما كانت عليه أيام زمان.. لا نقدر أن ندخل السجن اليوم» قال في سره. وما إن جلس وراء مكتبه في الطبقة الثانية من المبنى حتى دخل وراءه السيد كميل سائلاً:

– هل تعلم يا ناجي أن أي نبرة عالية في الإعلام مؤيدة لمطالب السجناء اليوم تثيرهم وتحفزهم.. وقد تصبح مصدر شغب واضطراب؟

فارتبك ناجي وقد استشعر معنىً ما مبطناً في كلام السيد كميل، فأجاب بسؤال متجاهلاً:

– ماذا تقصد بالنبرة العالية يا سيد كميل؟

– أقصد الصحافية الشابة الجميلة سحر في الـ NRCC! قالها وقد لمعت

عيناه بخبث.

تنحنح ناجي بارتباك.. وسأل:

– ما بها سحر يا سيد كميل؟ إنها إعلامية ناجحة.

– إعلامية ناجحة في عملها ولكن في عملنا نحن هنا.. ينبغي الحذر جداً.. لأن أسلوب خدمتنا للسجناء يختلف كثيراً عن العمل الإعلامي. وأنت صلة وصل بيننا وبين الإعلام لا أكثر. مسموح لنا نحن أن نخدم السجناء لأغراض محدودة.. وممنوع علينا أن نـحرض على التـمرد. كما أنه ليس من مسؤوليتنا رفع المطالب في الإعلام والسعي لتلبيتها.

– هذا واضح يا سيد كميل.. ومفهوم جداً. ولكن لماذا هذه النبرة الحادة في هذا الصباح؟

إقترب السيد كميل وجلس مقابل ناجي وقال بلطف وهدوء:

– إسمع يا ناجي. هذه الفتاة مغامرة وهي تبرز كثيراً في الآونة الأخيرة.. رافعة مطالب السجناء بصوت عال. واضح أنها تحمل قضية السجناء على عاتقها. يجب أن تعرف جيداً نحن لا نحرض السجناء.. إنـنا نخدم على قد المساحة المتاحة لنا مهنيّاً وقانونيّاً. وإذا سبب عملنا شغباً في داخل السجن تتعثـر الخدمة. كن حذراً في علاقتك مع سحر. والدفتر المخطوط إياك وأن يصل إلى يدها.

– ما تقوله بديهي يا سيد كميل.. مخاوفك ليست في محلـها.. وأعرف أن الإعلام يجعل من الحبة قبة. ما يجب أن يخفى يجب أن يخفى وما يجب أن يقال يجب أن يقال للإعلام. الأمر واضح وبسيط. وأنا سأكون عند حسن الظن.

طمأنت هذه الكلمات بال السيد كميل، فعاد ولمح في سؤال:

- ألا تكون قد دخلت رأسك يا رجل.. نحن الرجال ذوو عاطفة سريعة.. للجمال تأثير المخدر في عقولنا. ربما تستعملك.. أو أن جهة ما تقف وراءها! إنتبه.. كن حذراً.

أجاب ناجي بهدوء واقتضاب. وليس لديه كلام آخر يقوله:

- لن أقدم لها إلا ما هو ضروري ونافع.. بحذر وحكمة.

- حسناً. جيد يا ناجي. عافاك الله.

خرج السيد كميل. وصدى كلماته يترجع داخل جدران الغرفة.. أتراه يكون على حق؟ سحر تريد المعلومات والمساعدة فقط؟ ولكن ما هي هذه المعلومات الهامة التي أقدمها لها؟ الفتاة متحمسة وطموحة ولا شيء غير هذا. ولكن الحذر ضروري. يجب ألا أذهب في العلاقة معها لدرجة التورط. هي فتاة طيبة وذكية.. وكل ما يظهر منها صادق.. لا رياء ولا حيلة في شخصيتها. والصراع يوغل في ذات ناجي بشأن سحر.

يرن الموبايل. إنها سحر أيضاً:

- هل نلتقي هذا المساء يا ناجي لدي مستجدات؟

فأجاب بكل ابتهاج ناسياً بسرعة اضطراب خواطره.. وأيضاً حديث السيد كميل:

- أجل نلتقي هذا المساء، وأنا لدي مستجدات. ولكن أين؟

أمر عليك ونذهب إلى مقهىً هادئ في المدينة.

وارتعب ناجي لغليان عواطفه وشدة خفقان قلبه شوقاً للمساء.. شوق غامض قوي! أهي علامة الحب؟! لماذا يشعر الآن بهذا الشوق الآسر؟ ألأن

قوة بدأت تقاوم هذه العلاقة؟ وكلما عصفت ريح مقاومة انغرزت جذور الحب في تربة القلوب الدالهة؟! كان ينتظر المساء بفارغ الصبر. من الصالون إلى المطبخ إلى غرفة النوم إلى الشرفة جيئة وذهاباً. حاول أن يقرأ شيئاً.. كانت الحروف والكلمات طلاسم وألغازاً.. رسم قليلاً وأشعل عدداً من السكاير.. ثم راح يفكر بطريقة أخرى. ترى ماذا تفكر هي به؟ إنه يدفع بنفسه إلى المجهول؟ أتبادله هي الشوق نفسه أم العلاقة باقية ضمن حدود العمل لا أكثر؟ أو ربما هي أيضاً تدفع بنفسها إلى المجهول؟؟! أسئلة لا إجابة ثابتة عنها حتى الآن. ولكن الذي يعرفه ناجي.. وهو متأكد منه أن لقاءه بهذه الفتاة الشابة أحدث فيه تغييراً.. إنفجاراً كبيراً! وخط له قدراً يعجز أن يهرب منه.

أخذ العطر من غير وعي وعطر جسده ثم وثب إلى أسفل.. وسار نحو الحديقة العامة يشرب من كأس الصبر القطرات القليلة الأخيرة. إقتربت منه الهوندا على مهل.. وشد ما كانت المفاجأة كبيرة حينما رآها هي أيضاً في حلتها الأنيقة. ضفائر كستنائية لامعة متشابكة.. وخصلة منفلتة فوق الجبين.. وسواد الكحلة يظلل العينين العسليتين فزادهما سحراً، مع مسحة حمرة ذات لون فاتح على الشفتين فشع الوجه كالبدر. هو لم يعهدها تهتم بمظهرها.. فكيف بهذا المساء؟! وخفقان القلب كالذين ذاقوا الحب الأول. وبالتحديد عندما قالت له مبتسمة:

- تبدو وسيماً وأنيقاً هذا المساء!

فأجاب وهو يصعد إلى السيارة:

- وأنت أيضاً.. فاتنة.

ومن موضوع الجمال، أرادت بأسلوب ذكي أن تأخذ الحديث في اتجاه بعيد عن موضوع السجن والعمل:

- ترى ما هو الجمال برأيك يا ناجي؟ ولماذا يهم الرجل أولاً مظهر المرأة؟ وقد أرادت بسؤالها هذا وبدبلوماسية أن تعرف أيهتم لها كشخص أم أنه ضعيف كالجميع أمام الشكل.. هل تعني له كفكر وذات.. كنفسية ورؤىً؟

وأجاب ناجي بصدق وعفوية غير منتبه لما تحاول الوصول إليه:

- الجمال من الله يا سحر، هو أعطانا ذائقة النظر لنفرح به ونشكره. والذكاء من الله أيضاً. إذا كان الانسان جميلاً هذه نعمة أو كان ذكياً فهذه نعمة أيضاً. وإذا كان الاثنين فهذا منتهى الجود الإلهي للانسان.

- لماذا يهتم الرجل بجمال المرأة والمرأة بعقل الرجل؟ المرأة لا تعبأ كثيراً بالجمال الخارجي عند الرجل.

- لأن دور المرأة يختلف عن دور الرجل في الحياة. دور المرأة في الجانب العاطفي ودور الرجل في القوة. المرأة حنان محبة وأمومة وهذا مشكول بالجمال، والرجل حماية تدبير وقيادة وهذا مشكول بالعقل.

فقالت سحر مازحة:

- ما هذا؟ تفكر بطريقة غير متوقعة.

- آلام الحياة هي التي تصيغ طريقة تفكيرنا. أنت أيضاً يا سحر.. آلام الحياة هي التي صنعت منك ثائرةً ترفضين الظلم والفساد الاجتماعيين.

- هل تعلم أن أخي مجرم.. أو بالحري صار مجرماً؟ أعذرني يا ناجي لم أقصد...

ذهل ناجي للنبأ! مفاجأة جديدة يلفظها بركان أسرار هذه الفتاة الصاخبة.

- ماذا تقولين يا سحر؟!

- أجل. أخي اشتبه به يوماً ما وسجن لمدة. ومدة السجن كانت طويلة

كفاية حتى مسخته منحرفاً هو الآخر. وكانت كافية حتى تشحنه بشهوة عظيمة للانتقام من الدنيا بأسرها.. لقد أصبح أخي مجرماً طريد العدالة الآن، ولا أحد يعرف أين هو. إني أصلي كثيراً له. أخرستها الغصة.. وانحدرت الدموع من عينيها.

عقدت الدهشة لسان ناجي.. وراح ينظر في عينيها العسليتين.. ورأى أن هذه الثـورة العارمة في قلب هذه الفتاة عاصفة من نار وقـدتها تراكمات ماض مليء بكل أنواع الظـلم والألم والقهر الاجتماعي. بيد أن هذه المصارحة شجعته ليخبرها عن سره هو.. لولا الحذر الذي بذره السيد كميل في قلبه من جهتها، ودوافعها مما تـريد. وقال:

– الحق يقال يا سحر أن ليس كل المساجين مجرمين.. وليس كل الأحرار أبرياء من الجريمة أيضاً.

– المجرمون الحقيقيون هم الذين صيَّروا أخي مجرماً. أعرفت الآن سر القضية، وسر ثورتي؟

– أنا مثلاً سجنت عشرين عاماً وأنا لست قاتلاً! الغدر والخديعة جعلتاني متهماً في ساعة «منحوسة» حيث لا يستطيع المرء مقاومة القدر الحتمي الذي يسير كالقطار السريع ولا قائد له.

– ألن تقول لي حكايتـك؟

فأجاب بحكمة حاسباً في ذهنه حساب أنور سالم:

– حكايتي تؤلمني كما حكايتك يا سحر. لم يأت الوقت المناسب ليكشف واحدنا للآخر حكايته.

سألت سحر وغيرت الحديث في اتـجاه آخر:

– كيف العمل في الجمعية؟ وما هو جديدك؟

– العمل جيد جداً. وجديدي.. معرفتهم بعلاقتنا ونبرة شديدة أن نتوخى الحذر مع الصحافة. هل قلت لك إنـي أنا المسؤول عن العلاقة مع الصحافة في الجمعية؟

– ممتاز! أنتم بحاجة ماسة للصحافة وفي الوقت ذاته أنتم تخشونها؟

– أجل، لأن العمل في داخل السجن خطر لسبب الدسائس والمكائد.. وكثير من قضايا السجناء لها تأثيرها خارج السجن. يجب أن يكون العمل في السجن حذراً جداً. ولا يجب أن يصل كل شيء إلى الرأي العام.

سألت سحر:

– وعلاقتنا.. أتؤثـر على عملك في شيء؟

– لا ليس هناك من أمر سلبي.. حتى الآن.. ولكن الحذر من الصحافة مطلوب.. وخصوصاً إذا كان الصحافي ثائراً مثلك. طبيعة عملنا داخل السجن يتناقض مع طبيعة العمل الإعلامي.

– كيف؟

– أنتم تعملون تحت سقف الحرية الكاملة ويحق لكم نشر أي شيء. أما نحن فنخدم السجناء بحسب ما يسمح لنا وبحدود ضيقة جداً.. مخافة أن يكون العمل تحريضياً أو ما شابه. فإذا كان عمل الجمعيات داخل السجن يؤازر الإعلام ويحرض على ثورة داخل السجن لا تصير عندها الخدمة مثمرة. وأنت صاحبة أفكار ثورية يا سحر لا تتوافق مع العمل الذي يحاول أن يساعد السجين من الداخل. عملـك هو ضغط على الدولة وهذا يفرح السجين ويثيره ويدفعه على التـمرد، لأن الدولة عدوه اللدود. أعتقد أنه يجب أن تخفـفي من ثورتك، تكتيكياً على الأقل.

صمتت سحر. فسأل ناجي:

- ولكن لم تخبريني ما جديدك أنت؟

- الحقيقة أن جديدي شيء قريب جداً مما تقوله أنت. جاءتني رسالة SMS من مجهول تقول: «أنت تقتربين من الخطوط الحمر. أنت قريبة من الخطر» وأنا لم أخبر أحداً سواك بعد بهذه الرسالة. لم أخبر أبي خوفاً عليه.

أدرك ناجي بكلامها هذا أنـها صادقة في كل شيء وعلى طول الخط. واطمأن إلى أن العلاقة واقفة على أرض ثابتة. وتحرك الخوف في قلبه على حياة سحر من هذا التـهديد المفاجئ.

صمت ناجي.. ولكن كلاماً كثيراً ظهر في ملامح وجهه. فسألت:

- ما رأيك؟ أظن ستقول لي أن أخفف من حماستي وتهوري.

فقال بهدوء:

- صدقيني بدأت أخاف عليك.. ومن قبل الآن. ربما بدأنا ندخل مساحة ليس لنا فيها. إنـنا نقترب من المحظور.

- هل سيطر عليك الخوف؟ أأنت خائف علي.. أم خائف فقط؟ وكانت تعني سؤالها جيداً. صمت قليلاً ونظر في عينيها ملياً يريد أن يبوح لها بأشياء وأشياء. فأجاب:

- أنا خائف الآن علينا كلينا. على علاقتنا نحن الاثنين.

- وهل علاقتنا من الأهمية بحيث يخاف عليها؟

- بالنسبة لي على الأقل هي على قدر كبير من الأهمية.

فابتسمت في سريرتها ابتسامة رضًى. وعادت فسألت:

- أنا قريبة من الخطر أما أنت فلا.

فتجاسر عندها وقال بهدوء:

- أنت في خطر فأنا أيضاً في خطر.

- أتعلم يا ناجي أن المشاكل في سير العلاقات تشدها وتعمقها.

- هذا صحيح. وأخشى أن يتحول الخوف عندي إلى شيء آخر. قال هذا وكأنه يفكر بصوت عال.

- مثل ماذا يا ناجي؟! سألت بنبرة ملحة.

- غير قادر على التحديد بعد. ولكنك تحتاجين إلى مساعدة وحماية الآن أكثر من ذي قبل. ألن تخبري الشرطة؟

- لم افكر بهذا. وقد لا أفعل.

- هل تدركين جدية الخطر القريب منك؟

- صاحب القضية يجب أن يكون شجاعاً.

- من هي الجهة التي أرسلت هذا التهديد برأيك؟

- أعداء السجين بلا شك. أجابت سحر بثقة.

- الدولة برموزها ومؤسساتها، الأمن والقضاء.. المجتمع.. البيئة.. كل الناس... أهذا ما تقصدين؟

- وقد صرت أنا أيضاً عدوة الدولة.

- إن الطريقة التي تعملين فيها تحرك الاضطراب في السجن وهذا لا يريح الدولة. وإدارة السجن لا تفكر بسوى نيل المجرم عقابه.. وأمن السجن لا أكثر.

- لن أخاف أو أتراجع يا ناجي. هذه الإدارة جعلت من أخي مجرماً. وكم من إنسان كأخي ظلمه هذا الأداء السيء فدمرت حياته. السجون في هذا البلد وفي بلدان عالم الثلثين يجب أن تصير سجوناً إصلاحية.

- الطريق شاق وبعيد جداً.

- لن أيأس. قضيتي قضية إنسانية محقة. لن تتخلى عني يا ناجي فأنا بحاجة لوقوفك إلى جانبي. لا أدري أشعر بعمق الحاجة إليك يوماً بعد يوم.

ونظر ناجي في عينيها وسمع صوتاً يرجوه ويتوسل إليه. وبدا أن في نظراتها جرأة تفصح عن خبيئات القلب. وجرأة عينيها كانت آسرة.

وتسامر البعض الوقت في هموم العمل. ثم أمضيا وقتاً طيباً في مقهى مشرف على البحر عند حافة الأزقة القديمة. عشاء خفيف وقليل من الموسيقى الفرنسية القديمة.. رقصات مترنحة يضبط أيقاعها المشروب الغازي الممزوج بالكحول.. ونفس الأركيلة بين الفينة والفينة. وفي طريق العودة.. وبينما كانت السيارة تعبر من زقاق إلى شارع ومن ساحة الى منعطف، وشوارع الأحياء الهاربة في حركة الليل الصامتة.. والأضواء المرتجفة كعيون ناعسة أسكرتها اللذة.. حركة الليل في وسط المدينة هي حركة شوق وانطلاق، وحركة النهار هي حركة أسيرة صراع البقاء.. وسجينة الحاجة إلى لقمة العيش. حركة الليل رندحات هامسة يتخدر على وقعها القلب والأعصاب، وتنام الهموم. ليل وأضواء ونجوم وقمر وعطور وكؤوس وعشاق يتسامرون في المقاهي والأندية الليلية حتى يوقظوا سبات الفجر. لم يتكلما.. بيد أن القلب كرحم يتمخض بالكثير الكثير من الكلام. بدأا يخافان مما بينهما كما يخاف اثنان إذا وجدا الكنز الذي يبحثان عنه. سحر أكثر جرأة لأنها تشرب خمرة المغامرة في كأس الشباب، وناجي خمرت تفكيره خوابي السنين. في قلبها خوف المستحيل وفي قلبه خوف الواقعية. وشرعت كواسر العقبات والعثرات تحوم حول طريدة لم تلفظ أنفاسها بعد. وسحر لا تأبه لفارق العمر.. إنها باحثة عن

الإنسان الذي اكتملت دوائر نضجه وخبرته. هي لا تريد شاباً صغيراً يراقص الحرية بيد واحدة ولا يريد احتضان الالتزام الجدي. ويبقى لغز ناجي وحقيقة سجنه شطحات ريشة تبحث عن موضوعها فوق صفحة بيضاء. وسحر تنتظر أن تنام على مخدة بوح منه من تلقاء نفسه، وقد أنبأها حدسها أن ظروفاً قاهرة استثنائية كانت قاضيه وجلاده.. فرمت به في عتمة السجن كما رمت أخاها التـائه في بقاع الدنيا المجهولة.

ما إن وصل ناجي إلى منزله بعد أمسيته الجميلة مع سحر، لم يشعر بالنعاس.. سكب له كأساً من الجعة الباردة واستلقى قبالة التلفاز.. وكان ينظر إليه ولا يشاهد شيئاً. كانت الخواطر تتعارك في ساحة سحر. وفجأةً رن الموبايل. ورنين الموبايلات في هذا الزمن العصري كأنه صدى دقات قلب الإنسان.. لكثافته.

- مساء الخير يا ناجي كيف الحال؟ قال السيد كميل.

- أهلاً سيد كميل طاب مساؤك.

- أرجوك يا ناجي أوقف علاقتك بسحر هذه. وفوراً.

- لماذا؟

- وراء هذه الفتاة متاعب.

- أي نوع من المتاعب؟ قالها بدهشة وانزعاج.

- قد تتورط معها في ما لا تحمد عقباه. لقد جاءني منذ قليل اتـصال هاتفي عن سحر لا يريح إطلاقاً. يجب أن تبتعد عن هذه الصحافية المغامرة نهائياً.. أرجوك.

كان وقع كلمات السيد كميل صاعقاً على ناجي. لقد وصلت العلاقة إلى

الحائط المسدود.. وفي مرحلة أصبح الخيط مثلوثاً بينهما. شعر في لحظتها أنـه لن يكون في مقدوره إطاعة السيد كميل.. وسيبقي على علاقته بسحر كردة فعل أولى لما سمعه لتوه من مدير الجمعية الذي أحبه وساعده كثيراً. وتابع السيد كميل ملحاً:

- عدني الآن يا ناجي أنـك ستبتعد عن هذه الفتاة.

فسأل ناجي:

- ألن أعرف السبب؟

- أنا لا أعرف السبب أيضاً! ربما فيما بعد.

فقال ناجي مكرهاً كمداً:

- حسناً يا سيد كميل كما تريد. أعدك.

أقفل ناجي الخط وغرق في بحر أفكاره وهواجسه: « سحر.. سحر.. سحر.. عباءة أسرار تلف هذه الفتاة. طلعت واقتحمت حياتي بكل جرأة وقوة لا أستطيع صدها. كانت قريبةً لي من خلال صلة زوجتي بآل سالم، فإذا هي لا أب لها ولا أم.. يتيمة ولكنها ربيبة أنور سالم شقيق زوجتي سحر القديمة» ثم عادت الآن الفكرة السابقة ولمعت في رأسه كلمعان القنبلة عند انفجارها.. وكانت ملحة ثابتة وثقيلة.. ساءل نفسه: «أتراها هي..؟! هل يمكن..؟! هل فعل هذا أنور سالم وكان قلبه كبيراً محباً لهذه الدرجة؟!» ثم غاصت خواطره في كومة الأعوام العشرين وما قبل.. أيام وضعت زوجته سحر القديمة مولودتها الجديدة ولم يتـفق الوالدان على الاسم الجديد للبنت المولودة. يذكر جيداً ذلك اليوم الجميل من أيام أيلول الصافية المنعشة. كان في ذروة السعادة لأن المولودة كانت ثمرة حب عظيم في قلبه نحو سحر الزوجة. كان ناجي يعيش

أياماً حلوة، زوجة محبوبة ومولودة رائعة الجمال وفي أجمل فصول السنة. كانت الساعات والأيام تمر سراعاً.. كانت تفر فراراً من حياة ناجي يحاول إيقافها عبثاً.. فراشات ملونة بعيدة عن مرمى شباكه.. كيف السبيل إلى إطالة لحظات السعادة؟ وكأنـما رأى في حدسه ولاوعيه أن العاصف.. بل الانفجار الرهيب بات على قاب قوسين أو أدنى. فبدت سعادته الكبيرة ساحرةً شريرة تـنبئه أن الأيام قد خبأت له في صندوقتها السحرية العجائبية تلك المرارات التي لا يستطيع إنسان أن يرشفها بسهولة. كان الكأس حارقاً جداً.. وبقي يرشف منه حتى اكتملت عشرون سنة.

******

ومرّت الأيام.. وفاقتها الأحداث سرعةً، وتوقـفت اللقاءات بين ناجي وسحر ما خلا اتصالات هاتفية قليلة أبقى ناجي عليها. وعندما كانت تـلح عليه باللـقاء كان ينسحب بدبلوماسية لبقة، وكان ناجي يسألـها عن التـهديد الهاتفي كلما اتصل بها. وغرقت هي أيضاً في عملها حتى نسيت كل شيء حولها.. وبدأ نجم سحر في الصعود في المقالات الصحفية وفي الطـلات التلفزيونية. وكان تأثيرها ملهماً. وذات مساء وفي إحدى الحلقات الحوارية التلفزيونية ناشدت كل سجين في سجون الوطن بأن يعلن اعتصاماً سلمياً مفتوحاً في سجنه حيث هو. وكانت المفاجأة الكبرى في صباح اليوم التـالي! فخرجت المظاهرات أمام سجون البلاد كلها. وأعلن سجناء «بريحان» الاعتصام المفتوح. فبدا واضحاً أن هذه الصحافية باتت مصدر شغب واضطراب للسجون بمقالاتها وأحاديثها التلفزيونية. وسرعان ما ظهرت سحر وسط الحشد أمام مدخل سجن «بريحان» ماسكة مكبر الصوت هاتفة:

«لا تخافوا أيها الشجعان فصاحب الحق لا يخاف. لا تتراجعوا فالجندي أمامه النصر لا يتراجع. لا تيأسوا فالذي يؤمن بالحق غالب لا محالة. لا تتهاونوا فالقضية قضية أبنائكم.. أبناء هذا الوطن الحبيب وليس الغرباء. ما دام الحق معكم جاهروا بما تريدون وصاحب الحق سلطان. ما دمتم تحبون أبناءكم فضحّوا لأجلهم وهم يستأهلون تضحياتكم. أنتم أحرار فعبروا عن أمانيكم بكل حرية وعن تطلعاتكم بكل أمل. ففي هذا الوطن خيرون ينصفونكم، وسامعو صوت يسمعون أناتكم، ومبصرون يرون دمعاتكم. علوا الصوت: الشعب يريد العدل والرأفة والتسامح. فهتف الجمهور الكبير وراء سحر: الشعب يريد العدل والرأفة والتسامح. وعادت فنادت ثانية: الشعب يريد العدل والرأفة والتسامح. وردد الشعب أيضاً. ثم نادت بصوت عال: يا سجان يا سجان. وردد الجمهور هذا الكلام. ثم زادت: سجينك منو حيوان. فبات القرار: يا سجان يا سجان سجينك منو حيوان. وكررت هذا القرار مرات عديدة، وحفظه الجمهور وراح ينشده طوال الوقت.

كان ناجي قد شاهد سحر على التلفزيون وتوقع هذه النتائج من تحريضاتها. وهو الآن واقف يراقب سحر من الطبقة الثالثة من مبنى الجمعية وهي تقود هذه التظاهرة. رأى في سحر إنساناً كبيراً.. تملك شجاعة وقوة الرجال، لا بل هي شخصية قيادية بامتياز. كان يتأملها وهو يتذكر يوم رآها للمرة الأولى وهي تحاول أخذ حديث من المتظاهرين.. بيد أنها الآن على رأسهم تقود حركتهم. كانت تبحث عن أفكارهم.. والآن تملي عليهم أفكارهم. ولا يدري ماذا يمكن أن تصل إليه الأمور في المستقبل. وانتهت التظاهرة وفض الجمع. فنزل ناجي واقترب من سحر قائلاً:

- أنت مدهشة. يعطيك العافية. أنا خائف عليك يا سحر.

- مم؟

- أنت الآن قائدة للسجناء وذويهم يأتمرون بأمرك. أي كلام إعلامي تقولينه سيطيعون طاعة عمياء.

- أنا أفعل ما يمليه علي ضميري.

- السجناء فقدوا الثقة بكل الأنشطة الانسانية ومؤسسات الدولة. إنهم يثقون بك أنت. وأنت الآن الحاملة الأولى لقضيتهم.

- ليس هدفي هنا يا ناجي.. بل الهدف الوصول إلى الرؤيا البعيدة.

- إلى أين تريدين الوصول؟

- إلى السجن الاصلاحي كما في الدول الغربية الراقية. إلى الإدارة الحكيمة الراقية للسجون.. والتي تحترم السجين كإنسان وتعمل على بنائه وشفائه.

- طريقك شاق يا سحر.. وأنت أصبحت في دائرة الخطر، وأنا خائف عليك.

- أعلم أني في دائرة الخطر. وبالمناسبة وصلني أيضاً SMS آخر من مجهول يقول أيضاً: أنت في خطر.

- أنت مغامرة. قالها ناجي وقد بدا الاضطراب في ملامحه.

- لا شيء يخيفني يا ناجي.

- أحترم وأقدر شجاعتك يا سحر وقضيتك سامية، ولكني خائف عليك. ماذا يقول والدك؟ هل هو موافق على نشاطك الإعلامي؟

- والدي مثلك خائف ويقول لي الكلام ذاته. ولكنه يجهل رسائل الـ SMS.

- ولا زلت مستمرة.

- والدي مثلي شعر بمرارة أن يصبح أخي طريد العدالة لسبب تخلف السجون عندنا في هذا الشرق. وشيء آخر.. لقد حدثت مشاجرة بيني وبين مدير الـ NRCC وطلب مني ترك هذا الموضوع لأن الإدارة تتعرض لضغوط سياسية بسببي أنا. وأنا لا زلت على موقفي. وقد أترك العمل فيها قريباً.

- ماذا.. ستتركين العمل؟! أرأيت.. الطريق محفوف بالمتاعب.

- لا تخف هناك أكثر من تلفزيون يريدني أن أنضم إلى أسرته.

عندها قال ناجي بكلمات دافئة عميقة:

- لن أسمح أن يصيبك مكروه يا سحر، سأحامي عنك كحدقة العين.. أنت.. أنت غالية علي.

فقالت سحر بنبرة صوت فيها حنان:

- أقدر نبل عواطفك يا ناجي، وتأكد أنك في نظري أنسان عظيم وأنا واثقة من قدرتك على حمايتي. نظرت في عينيه ملياً ثم قالت: علي أن أذهب إلى اللقاء.

- نلتقي هاتفياً أليس كذلك.

- كما تريد. ولو كان اللقاء الهاتفي لا يكفي.

وفي اليوم التالي يتصل ناجي بسحر ليطلعها على جديد هام:

- سحر لقد جاءني SMS أنا أيضاً منذ ساعة ومن مجهول أيضاً.. والتحذير أن أقطع علاقتي بك نهائياً!

أجابت سحر بدهشة والاضطراب بدا في نغمة صوتها.

- يبدو أننا متورطان يا ناجي! أهذا قدرنا أن نبقى معاً لنواجه الصعاب سوية؟

– بلى يا سحر، بت الآن أكثر شجاعة من ذي قبل. سأقف إلى جانبك لنواجه التحديات معاً. لدينا قضية سامية وسنمضي إلى النـهاية، حتى ولو خسرت عملي.

– ولكن من الآن وصاعداً يجب أن ندرس خطواتنا جيداً.. وكذلك اللقاءات. نتراسل على الإنترنت.

– أو نتهاتف على الهاتف الثـابت فهو أكثر أماناً.

– أجل الوداع.

– الوداع.

وعاد ناجي إلى عمله حيث أعلن السجناء اعتصاماً مفتوحاً وجعلوا سقفه العفو العام غير المشروط. واستمر الاعتصام أياماً. حدث كثير من حالات الاغماء ونقل الكثيرون إلى المستشفيات. وكانت الجمعية تحاول عبر موقعها أن تمد جسراً بين الدولة والسجناء عل شيئاً يتحقـق. وملخص مطالب السجناء:

- مشكلة الطعام.
- مشكلة الدواء.
- مشكلة الاكتظاظ.
- مشكلة السوق إلى الجلسات.
- مشكلة تعجيل الأحكام.
- مشكلة اللقاءات مع الأهل.
- مشكلة تخفيض السنة العقابية إلى تسعة أشهر.

وهكذا دام الاعتصام أسبوعين ولا نتائج ذات أهمية، فانتهى الأمر لإحباط ونقمة لدى السجناء.

******

وذات مساء وفيما كان ناجي يتناول عشاءه.. قـرع الجرس.. وفتح الباب.. وإذا أمامه السيد أنور سالم مربي سحر سالم.. واقف بهيبة ووقار.. وجرأة غامضة. كانت المفاجأة صاعقة! إلا هذه لم تخطر على باله قط:

- أنور سالم!؟ تكلم ناجي كالهمس بدهشة بالغة. ونظر في وجه زائره ولم يشعر البتة بأي حقد أو ثورة أو أي رغبة للانتقام. انتهت سنوات السجن وانتهت معها عقدها النفسية. والذي يحلّق مع الحقيقة الكاملة لا تطاله ديدان الكراهية.

- أجل أنور سالم بذاته. مساء الخير يا ناجي. هل بالإمكان الدخول؟

- مساء النـور. تفضل.. تفضل.. كيف عرفت منزلي؟

- عرفت منها أنـها على علاقة بك، فراقبتـها. ثم تابع: إطمئن هي تجهل أمر هذه الزيارة.. وكذلك من أنت وكل الماضي عنك وعن أمها. منذ متى خرجت؟ سأل بعد أن مد ناجي يده مشيراً إليه بالدخول. وأجاب ناجي:

- منذ أربعة أعوام تقريباً.

- ومنذ متى أنت على علاقة بسحر؟

- منذ شهور قليلة. ثم جلسا في الردهة، وسأل السيد أنور:

- كيف حالك.. تبدو جيداً ما خلا القليل من السمنة والقليل من الشعر الأبيض.

- سيد أنور أريد أن أسألك سؤالاً. قال هذا وقد ومضت فكرة سريعة في رأسه:

- هل أنت من أرسلت لي SMS طالباً منـي الابتعاد عن سحر؟

ذعر السيد أنور من هذا السؤال. وأجاب فوراً أن لا، بيد أن الخوف بدا واضحاً في عينيه ورجفة الشفتين. وتابع وقال:

- طبعاً زيارتي المفاجئة هذه موضوعها سحر. ومحبتي لسحر أقوى من الخوف منك.

- بكل تأكيد سيد أنور.. هذا واضح. وأنا كذلك محبتي لسحر أقوى من الحقد عليك. قال ناجي بكل هدوء وقد لاحظ الخوف جيداً عند السيد أنور.

- أنت إلى الآن لم تخبر سحر بمن أنت.

- صحيح يا أنور.

- نِعمَ ما فعلت. ولهذا جئت كي نتفاهم على حيثيات وتفاصيل المرحلة المقبلة. أريد أن أسألك: ماذا تريد من سحر؟

أجاب ناجي بهدوء وتجرد:

- الحقيقة يا سيد أنور كنت أفكر في الابتعاد عنها كلياً.. بيد أني شعرت بحاجتها إلي فهي في خطر.. وأنا الذي أساعدها في مشروعها لا أكثر. واطمئن لن تعرف حقيقتي أبداً.. أؤكد لك. كانت كلمات ناجي ترسم المفاجأة الكبرى في ملامح أنور.

- ألن تعلن نفسك لها؟

- بالتأكيد لا. قالها بحزم.

- لماذا؟

- لأن الأشياء ليست كما تراها أنت.. صدقني. هنالك الكثير أنت لا زلت تجهله. ولو كان في نيتي كشف الحقائق لفعلت منذ اللحظة الأولى. الحقيقة يا أنور أقوى من أن تحتملها سحر.

- لماذا أنت؟! ألم تعثر على غيرك يساعدها في مشاريعها؟ كيف حظيت بك؟

– في إحدى المظاهرات أمام سجن «بريحان». أما لماذا أنا.. فلأنـي سجين سابق ولديَّ من المعلومات ما يفيد بحثها. وأنا الآن تحت أمرك ماذا تريد منـي أن أفعل. الفتاة مندفعة وطموحة.. وهي في خطر وتحتاج الى مساعدتنا نحن الاثنين لحمايتها. كلمات ناجي فيها نبل وأخلاق.. أدهشت أنور. وأنور أبقى في حسابه أن ناجي يناور ويخفي نواياه الحقيقية.

قال أنور:

– إسمع يا ناجي لقد ربيت سحر كأعز من ولدي، وأحببتها حباً جماً. وضحيت بالكثير لأجلها. وأمامها مستقبل باهر. وأعطيتها اسم والدتها واسم عائلتي أنا حفاظاً على ذكرى والدتها. ولست مستعداً أن أخسرها في أي حال. يجب أن لا تعرف حقيقتـك. قد يشوش هذا على حياتها.. قد يؤذيها.. ويؤذيك أنت أيضاً عندما تعرف هي كيف صارت الأمور بين أبيها وأمها الحقيقيين.. وأن أباها قضى في السجن سنيناً طويلة لارتكابه جريمة قتل. أعتقد يا ناجي أنك فكـرت في كل هذا.

أجاب ناجي بكل هدوء ولطف. والألم الدفين يحز فؤاده:

– وكيف لم أفكـر بكل هذا! والحقيقة أني لولا الكمبيوتر يا سيد أنور لما عرفت الحقيقة. رأيت على الـFACEBOOK بالصدفة صوراً لك ولسحر فأدركت من هي سحر هذه التي التقيتها صدفة أمام سجن «بريحان». وعندها زدت تكتماً على كل شيء، خوفاً عليها وعلى حياتها ومستقبلها. هي من أرادت هذه العلاقة وبإلحاح. وأنا أقدم لها المساعدة وهي الآن تحتاج لحماية. وتأكـد يا سيد أنور أني لن أبوح بشيء لها. وهذه حقيقة حتمية بالنسبة لي.

– شكراً لك يا ناجي. تصرف عظيم ينم عن نبل وشهامة ومحبة. ويسرني أن نبقى على اتـصال لما فيه خير سحر، وطبعاً هذه الزيارة تبقى طي الكتمان.

شربا القهوة كصديقين قديمين. ولم يتحدثا في شيء عن الماضي. وأبدى السيد أنور ارتياحاً حذراً نحو ناجي لتفهمه وحسن أدائه. وشعر أنه لن يكون هناك أفضل منه لحماية سحر، فهو في نظره والدها والأجدر بحمايتها. وظن أنه يقدر أن يخفي ما تريد أن تبوح به الأيام وتعلنه. بيد أن الحقيقة من الجانب الآخر أي جانب ناجي كانت محجوبة عن أنور كل هذا العمر. والصورة الكاملة للقضية كانت بحوزة ناجي العرم وحده فقط. وصاحب الحقيقة الكاملة ينوء بثقلها.. فهي صليبه وخلاصه في آن معاً. وأسعد الناس ربما أجهلهم.

لم يكن هذا المساء سهلاً بالنسبة لناجي. راح يفكر جيداً في الذي لم يعرفه السيد أنور قط. وهل يجب أن يعرفه أم لا؟ وقد كان خيراً للفتاة سحر أن يبقى النصف الآخر من الحقيقة محجوباً عنه.. فلا تذهب حياة سحر إلى المجهول. وشعر ناجي بامتلاكه نصف الحقيقة الآخر أنه غني أغنى من كل أثرياء الأرض كلهم.

******

7

لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحيوة الأبدية.

يوحنا 3: 16

من هي المرأة التي حادثتك على الهاتف؟

- من سمر؟

- واسمها سمر؟

كانت شعاعات الفجر المنبثقة من بين قضبان السقف المتشابكة تشكل قضباناً من نور أغبر في فضاء الغرفة.. والكل لا زال نائماً. وضع زهير فنجان قهوته على قضيب مبسط من قضبان الباب الحديدي وأشعل سيكارة، ثم قال وهو ينفث الدخان في الهواء:

- من أين أبدأ يا أبو شادي.. من أين؟ هل أقص عليك تاريخ سمر.. أو تاريخي أنا.. أو تاريخنا نحن الاثنين معاً؟

- هناك تاريخ إذاً بينكما يا زهير. ولكن كيف حصلت على هذا الرقم هنا في السجن؟

هذه بداية فصل آخر من فصول يوميات وليم عامر المتناثرة.. والتي

أصبحت تأخذ اتجاهات غيرها في البدايات. فبرزت فقرات طويلة لاختبارات شخصية لسير ذاتية لسجناء أو أصدقاء من الماضي. راح ناجي يقرأ بعد أن شوقته قهوة زهير في القصة ليعمل القهوة هو لنفسه، ويجلس إلى المخطوط ويقرأ.

قال زهير لأبو شادي:

- في العام 1998 يا أبو شادي.. كنت أعيش حياة الأمراء.. أوضاعي المادية وأعمالي كانت في أوجها، وكان الجميع يحسدني على ما أنا عليه.

- تقصد أعمال السطو والنهب؟

- أجل أجل. وبدا واضحاً لناجي وهو يقرأ.. أن وليم عامر كتب الحديث كما سمعه من فم زهير مباشرة.

- إلتقيت في هذا العام بفتاة من زحله هي هذه، سمر، فتاة لا ينقصها الجمال. وظروف اللقاء بها غريبة حقاً.. يا لسخرية الأقدار! كنت أخطط لاصطياد الأخت الكبيرة المطلقة.. وهي امرأة مثيرة.. فإذا الصغيرة البريئة تعلق في صنارتي على غير قصد مني.

- بل كنت تسعى للإثنين معاً.. لا تنكر.

- لا يا أبو شادي، صدقني. ألهامّ.. قضيت أنا وسمر عشرة أيام رائعة على شاطئ جبيل الأثري الساحر. لم تتركني لحظة. أمضينا الدقائق واللحظات ليلاً نهاراً.. كأننا جسد وظله. ولم تسمح لي أن أغفو عشر ساعات في هذه الأيام العشرة. لقد أحبتني بشكل إجرامي!

- طنجرة ولقيت غطاءها. قال أبو شادي ساخراً.

- كانت مجنونة في حبها لي.. إرهابية! عنفتها أمها وأختها «لكي تعقل»

وهددتاها بأخيها وأعمامها، فكانت تقول لهم: «لست خائفةً من أحد.. لن أترك زهير». وهكذا استمرت العلاقة حتى عام 1999 مع وجود فجوات زمانية في سير العلاقة لسبب حاجز الجغرافيا. أنا في البترون وهي في زحله. كنت أذهب حيناً إلى زحله وأحياناً تأتي هي إلى البترون لتراني لدقائق قليلة.. وحجتها أنها عند أختها. وقد أقدمت على مغامرات مدهشة من أجلي، وكاد يكلفها جنونها حياتها!

– يا لطيف «قشبر شعر بدني».

– يكفي سخرية. ولسوء حظها لم أحبها كما أحبتني هي. فيها أشياء جميلة ولكني لم أفكر بها قط كزوجة وأم لأولادي. ولكن في هذه المرحلة ظهرت ماريا. وماريا فتاة شقراء جذابة. ماريا أسرت عقلي وروحي. أحببت ماريا حتى أنه باتت ابتسامتها المشرقة أجمل ما في الوجود. كانت فينوسي.. وعشتاري في هذا العالم.

– أنت تتحدث كما تكتب.. شعراً يا زهير.

كان الحديث يدور قرب الباب الحديدي خافتاً في ذلك الصباح. وكان بمقدوري أن أرهف سمعي.. وألتقط الكلام كله.

– ألا تريد باقي الحديث يا أبو شادي؟

– بلى بلى.. تابع يا زهير.

– في نهاية المطاف تزوجت ماريا.. وفطمت علاقاتي مع كل الفتيات اللواتي عرفتهن.

– حلوه هذه «فطمت».

– وهنا تكمن جريمتي الحقيقية..! ما قمت به من سرقة وسطو وسلب ليس بشيء أمام الخيانة.. وتحطيم قلب بريء مخلص عامر بالحب.

- يا للشهامة! لقد استيقظ الضمير هنا في السجن أليس كذلك؟

- إسمع.. إسمع.

- تفضل.

- علمت المسكينة سمر بزواجي من ماريا وكانت الكارثة! لم تصدق النبأ. جاءت إلى البترون لتتحقق بنفسها من الخبر.. ولم تكترث لإهلها وذويها. وقعت على قدمي يومها وتوسلت إلي «ببوس إجريك لا تتخلّ عني» لا أستطيع أن أشرح الموقف. إني أستحق الإعدام لأجل هذه الخيانة «المجزرة» التي اقترفتها.

- لا يا شيخ؟!

- لقد انهارت في منزلي وراحت تهذي.. فقدت وعيها.. ودخلت في نوبة عصبية. نقلتها إلى مستشفى البترون الحكومي ثم أخبرت ذويها بالأمر. ومرقت الأيام وبعّدت بيننا.. حتى العام 2002، ألعام الذي توالت الخسارات في الشغل. خساراتي أثرت على وضعي العائلي.. طلقت أو طلقتني زوجتي! واحدة من الاثنين، لسبب عملي الذي لم أخبرها به ساعة زواجنا. وليس هذا هو السبب الوحيد طبعاً. ماريا كانت ذروة خساراتي. وخلال أسبوع! ولا أدري كيف طار الخبر إلى سمر في زحله.. فأجرت اتصالات هاتفية وحظيت برقمي واتصلت بي. وعادت العلاقة.. فقط على الهاتف.

- ما هذا؟! أنت كازانوفا عصرك!

- لم أشأ أنا إحياء العلاقة.. ولكني لو صديتها هنا أيضاً.. لكنت سببت صدمةً أخرى لها. أبقيت الاتصال معها مفتوحاً. ثم بدأت أموري تتحسن شيئاً فشيئاً. وجاءني يوماً رجل اسمه عبدو وزوجته ياسمين، أوصاني بهما صديق

قديم. عبدو هذا يعمل في الدعارة.. وزوجته كانت حاملاً في شهرها السادس. وراح يشكو لي سوء أحواله. قبلت أن يعمل معي بشروط.. أهمها أن يوقف عمله في الدعارة، وأن يقطع علاقاته مع كل عملائه السابقين. إستأجرت له منزلاً، وأنا أعرف أن أجواء هذه «المهنة» سهرات وسكر ومخدرات وعربدة، والبيت معرض للشبهات، ولا أريد أن يلقى القبض عليّ في مهنة ليست مهنتي! راهنت على أنه سيوقف عمله في الدعارة عندما يرى المال سيالاً بين يديه من سرقة السيارات. لم يلتزم عبدو هذا بشروطي.. وحول البيت إلى وكر دعارة «موسيقىً كحول مخدرات» كان يعدني ويخل دائماً بوعده. وعزمت على الاستغناء عن خدماته لولا زوجته ياسمين الجريئة! ياسمين كانت تنجز لي مهمات لا يجرؤ عليها رجالي! أنا لا أثق بأحد في المهام الصعبة وهذا يسرني، لأنه دليل بقائي في موقعي القيادي. ياسمين كانت تجرؤ حيث لا يجرؤ الآخرون. كانت تخترق الحواجز كلها بسيارة مسروقة دون أي ارتباك في تصرفاتها وكلماتها. وياسمين هذه غانية من الغواني المحترفات اللواتي يتقن المهنة بفن وحذاقة. ولو لم تكن امرأةً لحلت مكاني في القيادة. وطار صيتها في كل أنحاء البلاد.. طبعاً في عالم العصابات والمهنة. وازدهر الشغل على يديها، وصرنا نحن نمتلك المبادرة في البيع والشراء. لقد عرفت نساءً كثيرات متزوجات وعذراوات.. وأما ياسمين فهي من النوع الذي يتحدث عن الجنس أمام الرجال بطريقة تصدم السامع! بألفاظها ودلع نبرة صوتها وغنج نظراتها الذابحة. ياسمين هذه تستطيع أن تبدل ملابسها أمام أي إنسان، ولا حرج عليها أن تمشي عاريةً في الشارع! وضحكتها المصطنعة المثيرة... لقد هممت بأن أقتلها مرات بسبب ضحكتها هذه.

- ألم تمد يدك إليها؟

- لا. إسمع. في أحد الأيام كنت عند الجيران.. وإذا بسيارة تقف أمام المنزل. كانوا رجلين وامرأة حامل. إنهم من معارف عبدو زوج ياسمين. صدوني في البداية فأقنعتهم بأن البيت بيتي فاعتذروا. كانوا يريدون أن يتركوا المرأة في مكان آمن عند عبدو حتى يرسموا مصيرها. رفضت أولاً ثم عدلت بعدها عن رفضي.. لأنها زوجة صديق لهم وألقي القبض عليه في سورية بتهمة الاتجار بالمخدرات، وأهلها يريدون قتلها لأنها تزوجته رغماً عنهم. حالة المرأة بائسة جداً، فأذعنت وأبقيتها عند عبدو. سألتها إذا كانت تعمل في الدعارة.. ولم استطع في البداية أن أعرف.. مع الأيام تثبت لي أن لا. وطمأنتها من نحوي. وذات يوم كان الرجلان جالسين عندنا وأنا شبه نائم في غرفة مجاورة. ظناني أغط في نوم عميق! ولكني استطعت أن أسمع الحديث كله. كان أحدهم يحاول أن يقول لعبدو أن يقنعني أن أبقي المرأة حتى الولادة.. لأنه قد تم بيع الطفل بـ 10000 دولار أميركي لإحدى العائلات الغنية، وسيحاولون بيع المرأة لأحد تجار الدعارة.. وبأي سعر كان. بعد نصف ساعة على حوارهم تظاهرت بأني قد استفقت من نومي، وتصرفت بطريقة طبيعية مع الجميع. لا أدري لماذا شعرت يومها إزاء هذه الصفقة الذين هم مقدمون عليها.. بأني قديس بين الشياطين!

- ألا بارك الله فيك يا زهير. ونعم الأخلاق!

- رأيت أمامي زمرةً من الوحوش. أنا أتاجر بالسيارات المسروقة وهم يريدون أن يتاجروا بالناس. شعرت بأني أسمى خلقاً منهم! لست أفهم هذا. وعندما ذهبوا أخبرتها بنواياهم، وطلبت منها أن تجهز أغراضها.. وجئت

بها إلى منزلي في شكا.. البيت السري الذي خصصته للأعمال. علما بالأمر وقامت القيامة! فاتصلا بي هاتفياً وقلت لهما بأني هربتها من عبدو وياسمين لأنهما أرادا تشغيلها معهما في الدعارة. وعندما علما بأني مدعوم من ضابط كبير في المخابرات وبمقدوري أن أؤذيهما.. وقد هددتهما.. صرفا النظر عن موضوعها.

– تطور مثير! أنت رجل مغامر.

– إسمع يا أبو شادي.

– وسمر المسكينة؟

– الكلام يأتيك. تصرفت مع إيمان..

– إيمان هو اسمها؟

– أجل. عاملتها بشرف ورجولة ولم أراودها عن نفسها.

– الله.. يا للنبل والشهامة. قالها بنبرة تهكمية أيضاً.

– كنت وحيداً. زوجتي طلقتني، وللرجل حاجات. اعتدت عليها وبدأت أميل إليها. قلت لها أن تقول للجارات إنها زوجتي. لم أمسها حتى قررت أن تكون زوجتي، والطفل الذي تحمله في أحشائها يكون طفلي. لقد أعلمت أهلي بها فقط على أنها زوجتي الجديدة، وأبقيت زواجي السري هذا بعيداً عن العلن. وبسحر ساحر أيضاً علمت سمر بالأمر! ولا أدري كيف، وعادت إلى حالتها الهستيرية.. واتصلت بي والدتها لتخبرني بما حدث، وأكدت لها أن الخبر كاذب. وشرحت لإيمان موضوع سمر وتفهمت الأمر.

– أنت غارق في وحلة متحركة يا هذا.

– الحقيقة لم أتزوج من إيمان بعقد قران، ولا طوب قدس زواجنا أحد

المنافقين! كان الزواج هكذا: «كلمة رجل أحب أنثى وأرادها زوجة.. وأنثى صادقة بمشاعرها استطاعت أن تكون مخلصة»، هذا يكفي. ذهبت أنا وإيمان إلى سحر وأقنعتها بأن إيمان زوجة صديقي وهو الآن في السجن. و«خبصتها خبصة» أخرى ووعدتها بالزواج لكي تهدأ موجات الهستيريا التي كانت تنتابها. ثم وضعت بعدها إيمان مولودها في مستشفى البترون الحكومي، وكان أسود! لكنه جميل، وأمه بيضاء نقية كالثلج. فتح عينيه في هذه الدنيا على يدي.. وسميته باسم أغلى الناس على قلبي، اسم أخي الصغير وجدي. أقنعت إخوتي بأن هذا الطفل هو ابني، وكذلك شقيقتي الكبرى التي هي بئر أسراري. وجدي الجديد لم يكن مجرد طفل عادي.. كان ملاكاً من السماء. عندما يبكي لا تكاد تسمع صوته، وإذا بكى وجدي يجب أن تكون المحلة كلها في حالة استنفار لمعرفة سبب بكاء وجدي! أنا الذي كنت أطعمه وأحمله وأبدل له حفاضاته وأغسله. والمولود الأول في العائلة يكون عادةً غريم الوالد.. وأما في حالتي أنا فوجدي كان غريم إيمان، لا تحمله إيمان إلا لإرضاعه فقط. كان ينام في حضني، وكنت أعريه من ملابسه وأدخله في طيات ثيابي، وأضع رأسه في راحة يدي، فإن غفا أبقى هكذا لحين استيقاظه حتى ولو حضر رئيس البلاد بشخصه إلي. ووجدي منذ أيامه الأولى اعتاد علي كأبيه.. يسكت على صوت مفاتيحي ويبكي لو تجاهلته أو لم احمله. وجدي شطبني.. «كنسلني».. خلاني أنسى ذاتي بالكامل. جعلت من إيمان امرأةً.. سيدةً محترمة في المحلة. وهي في الحقيقة إنسانة خلوقة كريمة وعفوية، وأخطاؤها ليست أخطاءً بالنسبة لي. لا زلت أحبها.. وإن خرجت من السجن وقبلت بالرجوع إلي سأعود إليها وأكرمها أكثر من السابق. أما وجدي فهو ولدي رضي الناس أو لم يرضوا!

وليذهب العالم إلى الجحيم. ومأساتي هذه التي دفعت بي إلى شفير الانتحار! فهي أن المحبة التي كان يحيطني بها «الآخرون» كاذبة. كنت قريباً من الذين أحبهم قربي لذاتي.. لقد أكرمتهم.. جميعاً.. الرجال والاصدقاء الذين يعملون معي.. التجار والعملاء..إلخ. ما كنت أحتاج أن ألمّح لهم بخدمة ما حتى يعملوها لي. أقربائي وإخوتي وزوجتي.. إلا سمر طبعاً.. كانوا بعيدين عني في محنتي.. غرباء! ألفيتني غريباً وحيداً لا أحد يهمه أمري، فكأني ولدت للتو وقد خرجت من الحائط.

– جميل! حرامي ينتظر الاخلاص من حرامي آخر! وهل يجتنون من الشوك عنباً؟[1]

– عندما بدأ المحقق معي قلت له بكل وضوح: أنا عملت الكثير ولن أتوقف عن هذا. هات أمضِ لك على دعاوى ضد مجهول.. من الآخر.. كم تريد من المال لقاء إطلاق سراحي؟ وراح يفاوضني، واتفقنا على 5000 دولار وأعطاني الهاتف، ورحت أجري اتصالاتي.. بيد أنه لم يأت أحد! لا زوجتي ولا إخوتي ولا الاصدقاء، ولا أدري لماذا. هذا لغز لا حل له. فلمن سأخرج؟ ولماذا أخرج؟ قل لي.

– الخوف أبعدهم، أو قالوا بلا شك «دعوه يتربَّ في السجن.. لا يصلحه غير السجن» أليس كذلك يا زهير؟

– لا أدري.. لم أكن في هكذا أجواء بينهم.

– ماريا طلقتك. وإيمان ماذا عنها؟

– لا أعرف عنها شيئاً.

(1) متى 16:7.

- هل جاءت مرة لزيارتك؟

- لا.

- لقد ذهبت حياتها إلى المجهول هي الأخرى.

- لو أرادت الرجوع أرجع أنا إليها.

- أنت تائه مشرد يا صاح.. ولا تعرف من تريد أو ماذا تريد. هذه هي الحقيقة. كان الله في عونك.

- ومرت سنواتي الخمس هنا في هذا السجن، حتى جاءت تلك الشابة من الأمم المتحدة. إلتقت نظراتنا.. تصادمت.. وأحدث الصدام انفجاراً في داخلي. لا أدري شيء ما جديد تحرك فيّ. ربما الأمل.. أو يقظة الرجولة النائمة.. أو ربما تلك الطمأنينة التي نشعر بها في لحظة اليأس الكامل.. أو نوع غريب من الحب الرومنسي العفيف.

- عفيف!!

- لقد دارت حوارات كثيرة بيننا.. عميقة.. من خلال النظرات. ألا ترى؟ لقد باتت تأتي كل يوم تقريباً. لقد أيقظت فيّ ما قد خدرته السنوات الخمس. لقد أقامت لعازر الذي مات فيّ منذ خمس سنوات.. هي مسيح الله! بيد أنها صدتني. ولكني أستطيع أن أقرأ بوضوح تام.. كلمات الشغف في عينيها.

- أي نعم.. لقد شغفت الآن هذه الحقوقية الجميلة برئيس عصابة سرقة سيارات!

- ولكن عينيها كانتا تقولان أشياء وأشياء. لماذا رفضت؟ لأني سجين بلا ريب.

- وحرامي كبير أيضاً.

- منذ مدة حاولت أن تقول لي شيئاً ولم أعطها الفرصة.. فحرمتني حتى من النظرة، وأنا لا أريد غير هذه النظرة.

- كم أنت قنوع ومتواضع!

- يا أبو شادي.. أنا لم أقارب امرأةً منذ خمس سنوات.. ونظرة منها تكفي لأشعر برجولتي. هنا في السجن.. وأنت رجل يا أبو شادي.. لسبب الكبت والحرمان تصبح نظرة من امرأة ما كنزاً ثميناً.. واحةً في صحراء.. نشوة روحية.. إلى أن جاءني الاتصال الذي تسألني عنه.

- آه.. لقد نسيت سمر.. ترى كيف عرفت رقم الهاتف؟

- صدقني لا أدري. أشيطان أم ملاك هو الذي يقودها دائماً إلي! لا أعرف.

- هذه الفتاة مجنونة.. إنها معقدة نفسياً.

- أعتقد أنها من زمان تطلب أرقاماً عشوائية.. إلى أن قادتها الصدفة إلى رجل يعرفني اسمه مهنا زغيب فأعطاها هذا الرقم.

- يبدو يا زهير أنك إذا خرجت من السجن.. لن ترى أحداً سواها يكون في انتظارك.

- وهي لن تلقى أحداً يوافيها سواي. ولكن ماذا عنك.. ألن تخبرني أنت قصتك؟ ها أنا أخبرتك ما عندي. خذ «نفّخ عليها تنجلي».

وأشعل أبو شادي سيكارةً أخرى استعداداً للبدء بقصته. تأفف وتنحنح.. ثم شرع يتحدث بصوت خافت، وصوت شخير النائمين في الردهة يلكزه ألا يرفع صوته.. وأصوات تراشق متقطع.. بعيد.. آت مع زغردات العصافير من حقول الرماية المحيطة بالسجن، كأنه علامة أن الحياة صراع دائم بين الحب والكراهية.

– قصتي تبدأ تقريباً في زمن قريب من زمن قصتك، أي عام 1996 عندما كنت أعمل في مصنع آل أبو الروس للبلاستيك. وكان المسؤول عني مباشرةً الشيخ مازن أبو الروس. هذا الرجل الأصيل تبناني.. في زمن غربتي في هذه الدنيا.. وقدم لي عملاً شريفاً. وليس هذا فقط، بل خطب لي بنتاً رائعةً من الجبل، وساعدني كثيراً فأسست بيتاً وتزوجت.. وبرضى أهل العروس الكامل.

– قصتك تبدأ سعيدة. ولكن العبرة في النهاية. قصتك تنتمي للمأساة كنوع أدبي، أما أنا فملهاة، لأن نهايتها ربما تكون سعيدة. كل سكان هذا المكان قصصهم من المأساة يا أبو شادي. المآسي تعشش في زوايا هذا المجسم كالعناكب والحشرات.

– بعد مرور حوالى سبع سنوات على عملي في هذا المصنع، وبراتبين: الراتب الأول عن عمل نهاري، والثاني عن الحراسة الليلية. والشيخ مازن أبو الروس هو صاحب الكلمة الأولى في المصنع بدعم رجال «التجمع الحزبي». وذات يوم أرسل الشيخ مازن في طلبي، فحضرت إلى بيته القريب من بيتي. وسألني:

– ماذا يعمل سايد (وهذا من آل أبو الروس أيضاً) عندما تقوم بتطبيق قالب الماكنة؟ فأجبت بصراحة:

– يأتي بأكياس النايلون و«يدحشها» في داخل القالب قبل ربطه بالبراغي. وسألت سايد عن هذا فأجاب: لكي لا تحدث احتكاكات في لب القالب. فقال لي الشيخ مازن بنغمة مازحة:

– أنت أبله يا عفيف! فسألته لماذا؟ أجاب:

– فيما بعد أفهمك الموضوع. «لعب الفار في عبي». وقال لي:

– عندما تفتح القالب وتحمله بمساعدة معلمي الماكنات.. خبرني فوراً على التلفون.. ولا تعلم أحداً بذلك. فامتثلت لإرادة الشيخ. وكانت العادة عندما يحمل قالب تأتي سيارة عسكرية كبيرة يواكبها جيب صغير يقوده المقدم بنفسه، والسيارة الكبيرة تكون محملة بقطع غيار مستهلكة للدبابات. فأقوم أنا بدوري بتنزيل قطع الغيار هذه على الأرض بالسيكاتريس وأرفع القالب إلى الشاحنة، ثم أعود وأغطيه بالقطع التي أنزلتها. قال لي سايد أن أفك أحد القوالب بحجة تصليحه، فاتصلت بالشيخ مازن وأخبرته قبل الشروع بعملية التفكيك. ثم أخرجنا القالب إلى ساحة المصنع وبدأت بتطبيق القالب، وجاء سايد بلفّة النايلون. وبعد هذا بقليل حضر الشيخ مازن بشكل مفاجئ.. فدهش الجميع بحضوره! ووجه الشيخ السؤال إلى سايد مباشرةً: ما هذا النايلون يا سايد؟ فأجاب سايد بارتباك: نضع هذا النايلون هنا حتى لا يصير احتكاك. فأخذه الشيخ مازن من يده بعنف.. وحدثت مشادة كلامية، ثم مزق النايلون بمقص بيده، فإذا كمية كبيرة من الكوكايين مخبأة في داخله. فاشتعل الجدال بينهما على وتيرة عالية جداً مع تشكيلة طيبة من الشتائم والسباب. ثم دلفا إلى مكتب الإدارة ولا أحد يعلم ما الذي دار بينهما. مرت الأيام وشعرت بتغيير واضح في سلوك بيت أبو الروس نحوي، وكأني أنا المسؤول عما حصل بين الشيخ مازن وسايد. فاتهموني أولاً بسرقة 40000 متر من نرابيج النقطة الزراعية. طلبت منهم، بعد أن قدمت استقالتي من العمل، إجراء تحقيق. وطالبت أيضاً بالتعويض عن السنين التي قضيتها في خدمة هذا المصنع، وفي كلامي نبرة تهديد. وبعد أيام جاءني «طلال» المهندس الكهربائي في المصنع،

حاملاً معه 800000 ألف ليرة لبنانية وقال لي: هذا تعويضك. قلت له: تعويضي يساوي خمسة ملايين ليرة! فأجاب: هذا الذي أرسله لك أصحاب المصنع.. وأبرز لي ورقةً.. وطلب مني أن أوقع بأني قد استلمت المبلغ، فوقعت للحال واكتفيت بالمبلغ.

- ولكنها لم تمرّ على خير. علق زهير.

- صحيح. مرت أسابيع. وذات مساء.. وعندما كنت في حديقة منزلي أشاهد التلفاز.. وزوجتي كانت عند أبيها تخدمه لسبب جراحة أجراها.. فوجئت بربيع أبو الروس واقفاً عند سياج الحديقة يقول «أين أنت يا أبو شادي؟»

- شادي هو اسم ابنك؟

- لا.. هذه كنيتي لسبب صوتي الجميل. فأجبت: نعم.. لقد استقلت من العمل يا ربيع. فاقترب وجلس على كرسي داخل الحديقة، فسألته: ما هذه الزيارة في مثل هذا الوقت؟ وقد حسبته جاء يطلب مني العودة إلى العمل. فأجاب سائلاً: سمعت أنك تطلب تعويضاً خمسة ملايين ليرة. فقلت: أجل. وهذا حقي. فقال: نحن لا نأكل مال أحد، وقد أعطيت الشيخ مازن شيكاً بهذا المبلغ باسمك ويصرف غداً. فسألت مندهشاً: لماذا لم تأت بالشيك أنت؟ فأجاب: أنت تعرف الشيخ مازن هو المسؤول عن «الشغيلة»، ويعمل كل شيء بيده. قال هذا وألح عليّ أن آتي غداً باكراً ورحل. فقلت له إني سآتي وقد استشعرت الخبث في نبرة صوته.. وفي قلبي عزمت على الذهاب إلى الصيد. وحوالى الخامسة من صباح الغد ذهبت إلى الصيد.

- غريب! هل تكبرت على النعمة؟

– الكلام يأتيك. الشيك لا خوف عليه وهو في عهدة الشيخ مازن.. هذا الإنسان الذي تبناني منذ وصولي إلى هذه البلاد، والذي زوجني وعضدني في بناء بيتي ووهبني عملاً محترماً. وقد عارض في البداية آل أبو الروس عملي في المصنع، والشيخ مازن حسم الأمر، وهو رجل مدعوم من «التجمع الحزبي». كنت قد استعرت بندقية صيد من شقيق زوجتي، فانطلقت في رحلة صيد في ذلك الصباح المشؤوم في البرية القريبة من بلدة «وادي الزين». وكان مجيد الشقاقي أحد المزارعين من أهل البلدة صديقاً لي. فناداني يومها بين الأحراج: تعال يا أبو شادي عندي خبر لك. فجئت إليه وكانت العاشرة والنصف. قال لي: لقد أذاع التلفزيون خبر مقتل النائب «جميل حردان» فتشاءمت جداً للنبأ، وهو محسوب على «التجمع الحزبي».. وظننت أن لهذه الحادثة تداعيات أمنية صعبة. ثم عدت إلى صيدي وطرائدي حتى الرابعة مساءً.. ورجعت إلى بيتي سالكاً طريق «وادي الزين». وقبل أن أصل إلى البلدة.. وعلى الحاجز «المشترك» كما كانوا يسمونه آنذاك، فوجئت بزحمة سير خانقة! فسألت عن السبب، فقال لي أحدهم إنه موكب جثمان الشيخ مازن أبو الروس. صعقت للخبر الكارثة! وحزنت جداً لأن الشيخ كان بالنسبة لي أهلي وعائلتي.

– يا له يوماً مشؤوماً!

– حاولت الذهاب إلى بيته لأتحقق من الأمر، إلا أن زحمة السير أعاقتني. قال لي المشيعون عند زحمة السير إن الشيخ قتل هذا الصباح. وبينا أنا أحاول هضم هذه الحادثة الرهيبة. تذكرت ربيع البارحة وإصراره على ذهابي إلى المصنع لأخذ الشيك. وكان الشيخ يقول لي دائماً: إذا قتلت يوماً فعلى أيدي بيت أبو الروس حتماً. خفت! وراحت الشكوك والهواجس تنطح رأسي.

أهي محاولة من آل أبو الروس لتوريطي في مؤامرة قتل الشيخ مازن؟! كانت شكوكي في مكانها، فيما بعد عرفت الخطة الجهنمية التي كانوا يدبرونها.. التخلص مني ومن الشيخ مازن في آن معاً.. عصفورين بحجر واحد! يقتلون الشيخ مازن، وعند وصولي يقتلونني ويقولون بأني قتلت الشيخ مازن وحاولت الفرار فقتلوني وأنا هارب. ويرتاحون من الشاهدين الوحيدين على عملياتهم السرية. وبينا يتنازعني الفكر الأسود والأبيض.. ولا مساحة رمادية! مشدوداً بين الخوف من جهة والريبة من جهة أخرى.. هربت! أجل.. هربت خائفاً أن يخرج مارد ماضي الحزين من قمقمه حاملاً معه الملفات الوسخة والوثائق..! فتكون جريمة الشيخ مازن التي أنا بريء منها باباً لنبش الملفات الميتة التي تطاردني هي الأخرى إلى هذه البلاد.

- يا للوقعة المنحوسة!

- همت على وجهي في البراري والجبال حتى حدود البلاد. وعبرت الحدود سيراً على الأقدام.. حوالى عشرة كيلومترات.. وتركت سيارتي في بساتين البلدة، وفيها مسدس توكاريف وبندقية الصيد التي هي لخليل الدكاش شقيق زوجتي. هارب لا أعرف إلى أين أنا ذاهب! لقد شلّ الخوف عقلي. كانت ساعات رهيبة.. فكرت.. وقررت أن أعود أدراجي حتى لا تثبت الجريمة علي وهذا ما يريده آل أبو الروس. خيل إلي أن القانون ينصفني في هذه البلاد.. والشهود يثبتون براءتي. ذهبت إلى طبيب أعرفه أيام كنا نعالج على نفقة الأمم المتحدة. أخبرته بمصيبتي وطلبت إليه أن يتصل بمفوضية الأمم المتحدة كي تكون مرجعيةً أسلم نفسي من خلالها إلى السلطات المحلية. بيد أنه خدعني! وأخبر الجهات الأمنية بعد أن عين لي مكاناً أكون موجوداً فيه أنتظرهم.

فعـل هذا حتى لا يبدو الأمر كأنه خبـأ مجرمـاً عنده، هكـذا قال لي فأقنعني.

- وقعت في الكمين بسهولة. يا لبؤسك.

- ذهبت إلى المكان المعين. وبعد نصف ساعة انتظار قبض علي. وأثناء القبض علي حاول أحدهم من آل أبو الروس قتلي.. جرحت.. ونقلت إلى المستشفى. ثم أفقت بعد غيبوبة طويلة.. فإذا بي في زنزانة من زنزانات الجيش المرعبة.

- كان الله في عونك.

- إني أخجل من التحدث عن التعذيب الذي ذقته. لا يصدقه إنسان ولو شاهده بأم العين. كان التعذيب ناراً حاقدة لا بحثاً عن الحقيقة. كانت أسئلة المحققين لا أن أعترف بالجريمة.. بل أن أنكر أن القتلة هم آل أبو الروس. ومرت أسابيع وأنا عار في زنزانات المعسكر. وكان من جملة الذين يحققون معي ضابط نسيب لبيت أبو الروس، فكأن السماء نفضت يدها مني. كسروا يدي اليسرى عند المعصم، وعندما رفعوني بالبلانكو إلى السقف من معصمي المكسور، ولسبب تباعد عظمات معصمي يُحكم جسدي ثقله على العصب الضعيف، فيغمى علي. أطفأوا سكايرهم في عيني. ثم ربطوا ذكري بخيط رفيع إلى شبك الباب الحديدي، وأبعدوني لمسافة مترين أو أكثر حتى يكون الخيط المربوط قد صار مستقيماً، ثم جلس المحقق في نصف المسافة يضرب على الخيط بعصاً في يده ساعة يريد.. حتى سال الدم من عضوي. ثم نقلت بعد ذلك إلى سجن آخر حيث كان المقدم سعيد.. وما أدراك ما المقدم سعيد! حاولت الانتحار برمي نفسي من الطبقة الثانية وفشلت. ولكن الله أرسل إليّ المحافظ وهددهم عندما رأى هيئتي البشعة بعد التعذيب. كنت ميتاً بين

أيديهم، كما مات الكثيرون. نقلوني إلى السجن المركزي، ومنعوا الدواء عني والزيارات، بيد أن بعض السجناء تمارضوا لكي يأتوا لي ببعض المسكنات. وحتى الآن لم تعالج يدي اليسرى.

- أرني. هنا؟

- أجل. وبسبب محاولة الانتحار الفاشلة هذه بقيت 21 يوماً على كرسي المعاقين. أرسلت إلى غبطة البطريرك ومفتي الجمهورية ثم إلى رئيس البلاد. وصلتُ إلى القصر الرئاسي ولم أقابل أحداً. أحلت إلى كبير القضاة الذي أحالني بدوره إلى أحد المحامين. كانت علي حرباً نفسيةً قاسية حتى كدت أجن. أدخلت إلى سجن المجانين، وبعد أن فحصني طبيب المجانين وجدني في كامل قواي العقلية.. فأطلقني. مورست معي طرائق لإثارة أعصابي قبل موعد الجلسة لكي أصل إليها محبط العزيمة منهاراً. طلبت شاهداً، وهو الرجل الذي كنت عنده أثناء وقوع الجريمة. سئل الشاهد أمامي إذا كان يعرفني؟ وأنكر إنكاراً شديداً.

- هذه ساعة «التخلي»!

- أدخل المحقق الشاهد في متاهات خبيثة.. ثم دار.. وعاد فسأله: ماذا قال لك المتهم عندما أخبرته بأن الشيخ مازن أبو الروس قد قتل؟ فأجابه على الفور وبدون انتباه لخدعة المحقق. فقال المحقق: لقد قلت لي بأنك لم تره ولا تعرفه! فارتبك الشاهد المسكين.. وراح يرفع صوته بالسباب والشتائم على «التجمع الحزبي» ثم صار يبكي. وقال مذهولاً.. وبصوت متهدج: يا سيدي المحقق.. إني خائف على نفسي وعائلتي وأولادي. فسأله المحقق: ممن تخاف ونحن الدولة؟!

– ونعم بالمذكور!

– فقال الشاهد: قبل أيام جاءني أربعة رجال في سيارة من نوع BMW سوداء اللون.. وهددوني بإيذائي وإيذاء عائلتي إذا قلت إني رأيت أو أعرف المتهم. إنهم رجال «التجمع الحزبي»، من يحميني في البرية هناك حيث أعيش كمزارع. قال المحقق: يجب أن تقول الحقيقة. فقال الشاهد: إني خائف. فضرب القاضي على الجرس بغضب.. ودخل العسكري.. وأمر القاضي بتوقيف الشاهد. وأخرجنا أنا والشاهد إلى السجن المركزي.

– يا للشاهد المسكين!

– وبعد عشرين يوماً طلب شاهدي رؤية القاضي ليقول له الحقيقة، خوفاً أن يبقى في السجن سنةً أو أكثر. ومثلنا أنا وشاهدي أمام القاضي وتعهد بحمايته.. وقال الشاهد ما قلته أنا للقاضي منذ البداية فأطلق سراحه.

– حمداً لله على سلامته.

– ثم جرت محاكمتي ومثلتُ الجريمة تمثيلاً مزيفاً لأنهم هددوني بالعودة إلى التعذيب مرةً ثانية. أروني صوراً للقتيل في سيارته ورصاصات خمس في جسده. لقد علموني تمثيل الجريمة التي لم أقترفها. وإني أذكر كيف شن آل أبو الروس هجوماً مسلحاً على الموكب الذي كنت أقلّ فيه وهو جيش وشرطة وصحافيون.. فتصدى لهم الجيش وانتزع من بعضهم السلاح، وهربوني عبر طريق آخر. وكلت لي مفوضية الأمم المتحدة محامياً.. فكانت مشادة صاخبة بينه وبين القاضي: أن لا أدلة جنائية ولا شاهد ولا سلاح جريمة ولا اعتراف طوعياً، الاعتراف كان تحت التعذيب. ولكن المحامي قدم بيناته وأوراقه من مخابرات الجيش متهماً آل أبو الروس بالجريمة،

وضلوعهم بتجارة المخدرات في جلسة كان ذوو القتيل يحضرونها جميعاً. وفي الجلسة التالية كان محاميّ أخرس أطرش! ولكنه عندما كان القاضي يسألني سؤالاً وهو دوري في الإجابة كان محاميّ يجيب باقتضاب غريب، فاحتج النيابة العامة وانسحب من الجلسة وعين آخر سواه. وتوالت بعدها الجلسات، وكنت أحاول ألا أحضرها فكان نصيبي الركل والضرب بالعصي. وفي الجلسة الأخيرة كان الدم يسيل مني، حصل جدال بيني وبين القاضي وشتمته بأبشع الألفاظ.. فأخرجوني من القاعة بالضرب والركل. وكانت هناك محامية تتدرب في مكتب محاميّ.. أكملت هي المرافعة حتى النهاية. وسئلت في «الخاتمة»: ماذا تطلب من المحكمة؟ فأجبت بالسباب والشتائم، وكان الحكم بالاعدام.

– حمداً لله على السلامة.

– ثم جاء فيما بعد محام آخر من الأمم المتحدة، وطلب أن أشرح له قضيتي ففعلت، غضب وزمجر وزأر زئير الأسود وذهب ولم يعد.

– والرجاء ممن يعرف عنه شيئاً.

– وحضر محام آخر أيضاً من الأمم المتحدة.. وزأر وغضب وزمجر كسابقه وذهب ولم يعد. وأما محامي الخصم فقد اتهمني بأنني مجرم خطير إرهابي.. وعدد قتلاي لا يعد ولا يحصى. وراح يعدد مآثري الإرهابية وجرائمي الكثيرة.. ولم يسأله القاضي عن واحدة من هذه الجرائم! وكانت الابتسامة المشرقة تضيء وجه القاضي الذي ختم بـ «كلمة لأهل الحق والعدل والانصاف.. ألا يرحموا مجرماً كائناً من كان.. ولا يتجند أحد للدفاع عن المجرمين أعداء الإنسانية».

- آمين.

وطوى وليم المخطوط جانباً، ورشف رشفته الأخيرة من القهوة.. وسبح في تفكير عميق.

******

أرسلت سحر ذات يوم رسالةً هاتفية إلى ناجي تقول له أن يدخل إلى الـ FACEBOOK لتتحادث معه. فيأخذ ناجي حاسوبه المحمول ويفتحه ويقرأ كلمات سحر:

- قد تكون هذه الوسيلة آمنةً حتى الآن لنتواصل بها.

أجاب ناجي:

- أجل يا سحر. ورياح الظروف تسير بعكس ما تشتهي سفينتنا. اللقاء ممنوع بيننا.

- ألا ترى أن هذا يقوي العلاقة؟

- هناك أيضاً جدار من السنين بيننا يا سحر. ألا ترين هذا؟

- وهل تظن أن الشاب «الفركوع» من شباب هذه الأيام يفي بالغرض؟ السنون تاج الرجل. إنها خبرة ونضج.

- وأنا سجين سابق؟!

- ليس كل سجين مجرماً. أخي صار مجرماً، والسجن هو السبب.. ينتابني شعور قوي أنه عما قريب لن يكون هناك سجون في بلادنا.. بل إصلاحيات إنسانية. قالت هذا لكي تغير مجرى الحديث.

- هناك يا سحر حواجز اجتماعية ضاغطة تحول بيننا.. لا نستطيع تخطيها.

- أنا لا أؤمن بالحواجز.. إن التصميم الواعي الذكي يصنع المعجزات.

- أنت مغامرة يا سحر. لا أدري.. أشعر أني بت أسير مغامرتك هذه. ولكنها مغامرة شيقة! مع أني أجهل إلى أين يفضي هذا الأمر.

- أنا متأكدة أنك مهتم بي اهتماماً عميقاً.

- وهل أحاول أن أخفي هذا؟

- وأنت معجب بي أيضاً.

- وأيضاً لا أخفي هذا.

- مم أنت خائف؟

- أخلاقي! أخلاقي تمنعني من التمادي معك. المجتمع والناس.. وأهلك أيضاً لن يعجبهم هذا.. وما نهاية هذه العلاقة؟ قد تكون هذه فورة شباب عندك وحماسة لا أكثر. أنت تفتقدين إلى الخبرة في الحياة. قد يأتي يوم تندمين على ما بيننا الآن.

- ألم تقل لي إنك مهندس معماري؟ أنت مثقف وحامل شهادة ولديك إمكانيات فكرية للانطلاق من جديد.

- بعد سنوات سجني الطويلة حاولت الانطلاق.. المجتمع لم يساعدني.. تراه يعطيني فرصة ثانية.. حتى في إيجاد الحب؟

- لكل قاعدة استثناءات. أنا الاستثناء. بل ربما أنا القاعدة والآخرون هم الاستثناء. ألا ترى أني فرصة ثانية لك؟ أنا أريد حباً صادقاً.. والحب الصادق برج منيع يحمي عواطفي من رياح الغدر والخيانة. فهل ما أطلب مستحيل؟ لا يهمني رأي الناس يا ناجي. ولا المظاهر والبهرجات الخارجية.

- ورأي والدك؟

- أحترم رأي والدي. هو يوافق على ما يسعدني.. سأقنعه.. سيتفهم.

وقال ناجي في سره: أين أنت من حقيقة الأمر يا سحر! ثم أجاب:

– أحترمك واقدرك جداً يا سحر، وأنا مسرور جداً بلقائك وأود حقـاً لو أحتفظ بك، فأنت واحة في صحراء تجاربي. بيد أنـي أخاف عليك وعليَّ من خبيئات الأيام والسنين. أنا عركتني الحياة جيداً بإمكاني الاحتمال.. وأنت لا زلت في البداية. قال هذا وهو لا يعرف شيئاً عن حياة سحر.

– أنا لم أخبرك قصتي بعد لتعرف أنـي ربيبة الألم مثلك.

– صدقيني لا أريد لهذه العلاقة أن تخرج من دائرة العمل. وسأحميك إذا لحق بك مكروه.

– ليس لنا أن نهرب من قدرنا نحن الاثنين. هذا المجهول يكمن لنا نحن الاثنين أنت وأنا.

– تـرانا نواجه قدراً واحداً يا سحر؟ أنت تتعرضين لتهديدات بسبب رؤياك العظيمة. والمجهول ذاته أرسل لي SMS ثانيةً يطلب منـي الابتعاد عنك بلغة التـهديد أيضاً. ترى من هو هذا المجهول؟!

– ماذا تقول؟! قالتها بصوت عال وهي تنقر على لوحة الحروف.. قلبها يخفق وأصابعها ترتجف.

– أرأيت أن الخطر يحيق بنا.. قاب قوسين أو أدنى.

– هل ترى أن نخبر الشرطة؟

– الحكمة الآن توجب أن نبتعد واحدنا عن الآخر ريثما تعبر هذه الغمامة. وأتمنـى أن توقفي عملك في المشروع مرحلياً، ثم تتابعين لاحقاً. أنا لست خائفاً على نفسي بل عليك.

– قد تكون على حق. ولكن هل ترى التـهديدات جادة؟ ماذا يمكن أن يحدث مثلاً؟

– نحن في زمن التطرف يا سحر. والمجتمع يعاني من داء الغضب. والناس معبأة ثورة ونقمة وتمرداً. من يدري قد يكون رجل دولة.. أو من ذوي قتيل ما لا يريد الرحمة للقاتل.. أو متعصباً متطرفاً يريد أن يخضع المجتمع لجنون أفكاره.. أو أي جهة لها مصلحة وغاية خاصة. الاحتمالات كثيرة. أقرباء وأهل الضحايا يا سحر ناحية يجب أخذها بعين الاعتبار.

– القاتل والمقتول كلاهما ضحية.. ولكن بصورة مختلفة. أنا منتبهة لهذه النـاحية.

– إنتبهي لنفسك يا سحر واتـصلي بي حالاً إذا بدا أي غريب، أو شيء غامض لافت.

******

ذات مساء.. بينما كانت سحر جالسة إلى الكمبيوتر تعد نفسها لتظاهرة الغد أمام المجلس الحكومي، تصلها رسالة هاتفية تقول: «لا تقلقوا علي يا سحر. أنا بخير. هل أنتم جميعاً بخير؟ طمّني الوالد عنـي. لا تحاولوا الاتصال بي أبداً، هذا يؤذيني. سأغير أرقامي الهاتفية خلال أيام». عرفت سحر صاحب الرسالة، وابتهجت للمفاجأة. ونقرت على الفور رسالةً تقول فيها: «كلنا بخير يا هاني وأبي أيضاً. كيف عرفت رقمي؟! نحن قلقون عليك كثيراً يا أخي. إنتبه لنفسك. هداك الله، وأنا أصلي لأجلك دائماً». توقفت عن عملها قليلاً.. وفركت عينيها التعبتين.. وهمست لنفسها وهي تضم راحتيها إلى صدرها «ألا سامح الله من كان سبب بلائك يا أخي.. حماك الرب يا هاني.. وهدى عقلك وقلبك لترجع إلى الحياة الكريمة الصحيحة».

وصباح اليوم التالي كانت سحر واثنان من المصورين يحملون الأغراض

إلى السيارة للانطلاق إلى المظاهرة.. وهمت بالخروج من الصحيفة. فاستوقفها فايز في الردهة عند المدخل الزجاجي قرب المصعد:

– سحر.. صباح الخير! لم أرك منذ أسابيع. إلى أين.. ما الجديد اليوم؟

فأومأت سحر للمصور أن يسبقها إلى السيارة. وقالت لفايز:

– أهالي السجناء يتظاهرون اليوم أمام القصر الحكومي.

– ما هو الداعي؟

– لا جديد على الأشياء القديمة. اليوم فقط تركيز على التسريع في الجلسات والأحكام.

– وما هو سبب بطء الجلسات والأحكام؟

– الاكتظاظ الكبير في السجن المركزي. والجرائم ذات الطبيعة السياسية، حيث الملف سياسي تبقى القضية رهينة التغيرات السياسية.

– وما المطلوب؟

– المطلوب إما المحاكمة وإما إخلاء السبيل.

– إخلاء السبيل يعني البراءة.

– لا. تتابع القضية والجلسات من خارج السجن.

– وهل يمكن متابعة القضية من الخارج إذا كانت ذات طابع سياسي. عندما يخرج الموقوفون من السجن لن يستطيع القانون إذ ذاك أن يطالهم. يكونون قد أصبحوا خارج البلاد. الغطاء السياسي كفيل بهذا.

– هنا المشكلة! هل يبقى المتهم مسجوناً.. لا محاكمة ولا إخلاء سبيل؟! إلى متى؟ حتى تحل عقدة الشرق الأوسط؟ ويوقع العرب قاطبةً الصلح مع إسرائيل؟!

- إنها فعلاً قضية محقة.

- ماذا نقول لأهالي الموقوفين؟ هناك عائلات مشردة تجهل مستقبلها. ما ذنب الزوجة والأولاد؟ من حق ذوي السجناء أن يعرفوا الحكم ولا يبقوا معلقين هكذا في الهواء يجهلون المصير. وبعض منهم مقتنع ببراءة سجينهم. بالمناسبة أين أصبح موضوع رسائل بشير الجميل؟ ألا زلت تبحث فيه؟

- كما كنت متوقعاً منذ البداية.. صحافي أميركي غريب الأطوار مغامر.. «غنّى موالاً» وانتهى الأمر.

- كيف؟

- لقد أرسل إلي أخيراً ليقول لي إنه عدل ثانية عن فكرته ولن يعطيني هذه الرسائل. وسيعود إلى أميركا. وأنا أشك بحقيقتها.

- هل باح لك باسمه؟

- لا. وكما قال لي خوفاً من ابنة برباره أن تلاحقه قانونياً.

وبينما كانت سحر تحادث فايز رن هاتفها الخليوي.. وإذا رقم الهاتف غريب! فتحت الخط وقالت:

- آلو. وسمعت صوتاً خشناً.. متماسكاً.. يحاول أن يكون لطيفاً.

- آلو.. سحر سالم الصحافية اللامعة أليس كذلك؟

- نعم هي بذاتها.. من المتكلم؟

- معك الوزير على الخط.

- معالي الوزير!! معاليك تحادثني مباشرة؟! قالت هذا وقد جحظت عيناها دهشةً ودهش فايز أيضاً لدهشتها.

- أجل.. يا سحر أنا لا أحب الوساطات.. أحب أن أعمل كل شيء بيدي.

- خير إن شاء الله يا معالي الوزير؟

- خير.. خير يا سحر، أريد أن أقول لك أولاً: يعطيك العافية.. أنت تؤدين عملاً ممتازاً. أنت من الصحافيين الذين نفتخر ونعتز بهم في بلدنا. أنتم الصحافة تضعون جهوداً كبيرة للبحث عن الحقيقة وتوصيلها للناس. وفقكم الله.

- شكراً لك يا معالي الوزير. أنا لا أستحق كل هذا الاطراء.

- آنسة سحر هل يمكن أن نتقابل؟ أريد نصف ساعة من وقتك لا أكثر؟

- بكل تأكيد يا معالي الوزير. أنا حاضرة. قالتها بابتهاج كأنها حظيت بشيء نادر ثمين.

- متى يا سحر؟

- أنت تأمر وأنا أطيع يا معالي الوزير.

- أيناسبك غداً الحادية عشرة قبل الظهر؟

- إتفقنا.

- حسناً يا سحر إلى اللقاء.

كان فايز ينظر إلى سحر مدهوشاً بها وهي تحادث الوزير على الهاتف. قالت له وهي تقفل الخط:

- إنه الوزير يا فايز. ماذا تراه يريد؟!

******

8

طار غراب ذات يوم في السماء وفي منقاره قطعة لحم. فطار في إثره عشرون غراباً وهاجموه بشراسة. ترك الغراب أخيراً قطعة اللحم تسقط. فتركه عندئذ مطاردوه وشأنه، وانقضوا زاعقين وراء قطعة اللحم. قال الغراب في سره: لقد خسرت اللحم ولكني ربحت هذه السماء الرائعة.

البهغفتا بورانا

أنور سالم،

هي حكاية أخرى.

حكاية سحر حكاية الثورة، وحكاية ناجي حكاية القيود المزمنة، وحكاية وليم عامر الحبيس المنتحر حكاية الهزيمة. قد تكون سحر حلقة وصل بين ناجي ووليم من جهة.. وأنور سالم من جهة أخرى! ناجي ووليم فصول في درج الأسر.. سحر نشّابة الثورة والتمرد.. ولكنها لم تصل بعد إلى حيث انتهى أنور سالم في مسافاته العميقة في حياة الحرية.. والانطلاق نحو الرحاب الروحية الفسيحة.

لم تكن بدايات أنور غير عادية. هي طبيعية جداً كـ «معاناة» إنسان هذا

الوطن الصغير. كائن حي راح يفتش عن وسائل بقائه حياً. موظف صاعد في مصلحة الجمارك. وأنور أغرته سكريات الرشوة منذ البداية، فلا يمر نهار إلا ويذوق منها على قد شربه من القهوة. هو وسواه من الذين يقبضون «البقشيش» يسترون برداء الحجة ما يفعلون: هذه شطارة.. وحق! حق لذوي الرواتب البسيطة.. في تركيبة اجتماعية يسحق القوي فيها الضعيف. ويبقى المال وحده القوة الغامضة التي تصنع القوي والضعيف في آن معاً. أي إكسير غريب هو المال؟! أي سحر؟! أي تعويذة.. بل لعنة؟! يكتبها الإنسان على صفحات يومياته.. فإذا هي تعود بدورها لتكتبه من جديد، وعلى الصفحات ذاتها، في حلته الجديدة التي هي تشاء.. إما قوياً أو ضعيفاً. أترى صحيح أن المرء لا يستطيع أن يعمل شيئاً بغير أداة القوة.. المال؟ يرى صاحب المال نفسه قوياً.. ولكنه ضعيف أمام سطوة وهيبة المال؟ يبني الكثيرون هويتهم على المال. الهوية بناء عظيم متين.. والمال رمال! لا يصلح أساساً لهذا البناء. قال أحدهم: إذا وضعت المال على رأسك حطك، وإذا دسته رفعك. ومن مفارقات الحياة أن الثري يملك الطعام ولا يملك الشهية، والفقير يملك الشهية ولا يملك الطعام. بيد أن المال يشبع الجسد ولا يشبع الروح. ليست الحياة كلها مادة؟! في الحياة ما هو أعمق وأثمن من المادة به يكون المرء قوياً حراً شريفاً؟! أنور كان ضعيفاً أمام المادة. حلم بالثروة والعز. قبض الرشوة ساعياً إلى الحياة الـ «عالية». ولكنه بقي دائماً عبد سعيه الذي لم يوصله إلى شيء. ذات يوم وجد فتىً في الخامسة عشرة قطعةً ذهبية في القمامة.. فراح يبحث في كل زاوية عن القمامات والمال والقطع الذهبية. بعد عشرات السنين أصبح ثرياً لكثرة ما وجد نقوداً وذهباً قرب القمامات.. بيد أنه مات

ولم يعرف من دنيانا الجميلة الرائعة سوى النفايات والأوساخ والقذارات الموجودة في زوايا الشوارع والأماكن المنعزلة، بقي فقير الفكر والروح. كان أنور يأخذ الرشوة ولا يدري كيف يتبخر المال من راحتيه! أسرّ له ذات يوم أبو كمال زميل له في الوظيفة، وحثه أن يشاركه في عملية اختلاس:

- الدولة من كبيرها إلى صغيرها كلهم سراقون يا أنور. إنهم يسرقون مال الشعب. سرقتنا حلال لأنها استرجاع ما هو حقنا من الدولة. فأجاب أنور:

- كله ولا السرقة يا أبو كمال. ضميري لا يحتمل السرقة.. ولو كانت بسيطة.

- من وسع ذمته للرشوة.. يوسعها أكثر قليلاً للسرقة يا أخي.

- الرشوة ليست شراً يا أبو كمال إنها شطارة. وختم الكلام أبو كمال:

- وهل الشطارة أن يأخذ الإنسان فوق راتبه الشهري من إخوته المواطنين الذين حالتهم كحالته. ويسكت أنور ولا يجيب. وشد ما كان خوف ودهشة أنور كبيرين.. عندما حضر إلى مركز العمل عساكر الدولة ومعهم مذكرة لتوقيف أبو كمال لضلوعه في قضية تزوير واختلاس. هكذا بصمت.. لا يدري أحد كيف كشف أمره. حقاً أن القضاء امرأة عجوز بطيئة الخطى ولكنها تصل إلى النهاية. بلع أنور بريقه.. وشكر الله أنه لم يتورط مع أبو كمال وتحريضاته.

يأتي المال الكثير من الرشوة ولا يدري أنور كيف يذهب. إن هذا المال كالضيف غير المهذب يأتي بلا إذن ويخرج كما دخل بلا إذن. بقي ساعياً وراء الغيب.. والحالة المادية هي هي. دخل مع قريب له في تعهدات بنائية وفشل، سافر وعمل في الخارج ولم ينجح أيضاً، فتح متجراً لبيع الألبسة ولم

يوفـق كذلك. حالة العائلة كانت جيدة، ولـم تحتج يوماً لشيء.. ما خلا السلام وراحة البال. ومدخرات البيت ليست بذي بال. وضع أنور العلمي لم يمكـنه من الارتقاء في عمله، ونقلاتـه التـصاعدية بطيئة جداً. وظل أنور موظـفاً في الجمارك سبعة وعشرين عاماً، يأخذ من الرشوة ضعفي راتبه، وهو بالكاد اشترى شقـة في المدينة وقطعة أرض صغيرة.

لم يبق أنور في مستنقع العزوبية طويلاً.. فسرعان ما جرفه تيار الحب. الحب الأول كان فاشلاً لسبب ضيق ذات اليد. شحن هذا الحبُّ بطارية أحلامه بالثـروة والغنى. ومرت السنون. نضجت مواسم الفكر عنده.. وأدرك أن الحياة امرأة ليست جميلة! ولكنها تبهرك بما تضعه من التبرج والزينة.. ذكية تعرف كيف توقع المرء في الغرام. ألفى نفسه على بساط الواقعية. وما عتم أن التقى بسعاد.. وأعجب بها، وعبرا سوية نحو حياة الشراكة مدى العمر. أنجب من سعاد هاني ووائل، ثم كان الحادث المشؤوم الذي أودى بحياتها. كانت الكهرباء مقطوعة، والمكواة في مكانها موصولة إلى بريز الكهرباء، وسعاد سابحة في بركة الماء في المطبخ تنظـف الأرض. جاءت الكهرباء فجأةً وهاني يلعب وهو ابن ثلاث سنوات، شد كايبل المكواة فسقطت إلى الأرض وخرج الكايبل من المكواة عارياً على أرض المطبخ العائمة بالماء. وثب أنور إلى الديجنكتور متأخراً. وعبق البيت برائحة الكهرباء ورائحة الدماء. وكأن هذه الحادثة نبوءة تخبر عما سينتهي إليه هاني. تلك كانت المصيبة الثـانية التي شوشت نفسية أنور بعد حادثة أخته سحر التي تزوجت من المهندس المعماري الشاب ناجي العرم. والذي يعرفه أنور أن ناجي العرم قتل أخته سحر لاكتشافه أنها خانته مع رجل مجهول لم يظهر على الساحة ولا استطاع

أحد الوصول إليه. وكان أنور يعرف جيداً أن أخته ليست مستقيمة الأخلاق، ولها مغامرات.. ومغامرات مع الرجال. وفرح جداً بالمهندس الشاب يتقرب منها ويحبها ويطلب يدها. قال أنور في سره: لن يغطي آثام أختي المجنونة غير غرام هذا الشاب الآدمي. ورُحب بناجي عريساً لسحر. وقبلت هي بسرعة بناجي ولم يصدق أخوها أنور أنها قبلت! كان ناجي يحبها منذ أيام المراهقة.. أيام البكالوريا.. كان يراها تحادث هذا وتخرج مع ذاك ممن يملكون السيارات الحديثة.. فيشعر بنفسه أنه نفر يريد احتلال قلعة..! سحر لم تكترث له ولا كانت تشعر بوجوده حتى. لم تسمح لها أحلامها أن تنظر قليلاً إلى ما حولها. كانت أحلامها بساط ريح يحملها إلى أبعاد غريبة مخيفة. حاول محادثتها مرةً وكان العرق يتصبب من جبينه. قال لها بكلمات متهدجة:

– أنا معجب. هل بإمكاننا أن نتعارف؟ وقاسته بنظراتها من أم رأسه حتى أخمصيه. وأجابت بسؤال:

– وماذا يمكنك أن تقدم لي؟ فأجاب بصدق وعفوية:

– حبي الصادق. فما كان منها إلا وانفجرت بالضحك كأنها سمعت نكتة. وقالت:

– إغلِهِ واشرب زومه. سيكون خير دواء لما أنت فيه.

فجمد في مكانه كما جمدت امرأة لوط وصارت عمود ملح. هو صار عمود صدمة وإحباط! ولكنه لم ييأس حاول مرة ثانية وثالثة وبقيت هي على صدها وتهكمها اللاذع والحاط بشخصه وكرامته. ومرت الأيام والشهور وسحر تزور خياله بين الفينة والفينة. شعر بأنه بات على قاب قوسين من الحرية! فيصبح عتيق الحب. بيد أن الأقدار شاءت أن تطيل عمر أسره لسنوات طويلة

لم يكن يحسب لها حساباً قط. وذات يوم.. فيما كان داخلاً إلى السوبرماركت وهي خارجة مسرعة.. رأته ورآها.. كانت فاتنة.. مضطربة.. واضطرابها زاد من جاذبيتها.. كانت عفوية نوعاً من العفوية المتكبرة المثيرة. بيد أن نظرتها هذه المرة كانت كمن وجد كنزاً.. أو حلاً لمعضلة. اقتربت منه وحيته مظهرة شوقاً غامضاً:

- ناجي..! أين أنت؟ لم نرك من زمان. كيف الحال؟

فارتبك.. وظنها تحادث شخصاً آخر سواه. فراح ينظر حوله علـه يرى هذا الشخص. لم يفهم شوقها هذا.. كأنه كلمة ليست في مكانها من سياق الجملة. فقال بصوت خافت خفوت الدهشة:

- أهلاً.. س.. سحر. أنا جيد. وأنت؟

- نشكر الله. كيف الجامعة ألم تنته من الدراسة بعد؟

- أنا الآن أعد مشروع الدبلوم.

- وفقك الله يا ناجي. أنت تستأهل كل الخير.

- شكراً لك يا سحر.

ثم هاتفته بعد هذه الحادثة طالبة مشورته في مخطط رخصة لقريب لها.. وتوالت السلامات واللقاءات والمصارحات.. ولم تمض أسابيع قليلة حتى أزف موعد الزواج! هكذا بسرعة. لقد قبلت بزواج أقل بكثير من نسور أحلامها البعيدة. وناجي لم يفكر بتغيرها المفاجئ من نحوه لفرط حبه لها. لم يصدق المسكين بأن محبوبته الولوع قبلت به شريكاً لحياتها.

وتمت الفرحة في عرس بسيط متواضع.. ولكنه كبير من حيث أصدائه.. كل الناس كانوا يعلمون جيداً أن هذا الزواج لا يعمر طويلاً، وحب ناجي

جوهرة ستسحقـها أقدام الخيانة عاجلاً أم آجلاً. وكانت المخاوف سيوفاً في قرَبها.

كان أنور سالم مبتهجاً بهذه الزيجة الوامضة.. خير البر عاجله. وهو كذلك غير مصدق حقيقة الأمر. أختـه التـائهة التي لا تعرف ما تريد، والتي أوقفت دراستها، وجلبت للعائلة مشاكل جمة.. قبلت أخيراً بشاب مهندس! إنها أعجوبة! ووطأة هذه الأعجوبة أيضاً لم تترك له فسحة ليفكر بأسباب هذا الإنقلاب الغريب في مزاج سحر أخته الشابة الفاتنة. ومرت الأيام وأراح أنور قلبه من هموم سحر. وبالكاد مرت سبعة أشهر فوضعت سحر طفلة جميلة بسلام، ولم يدم السلام اسبوعين. وانفجر الخبر كالقنبلة ورجّ المحلـة بأسرها: ناجي قتل زوجته وحبيبته الفاتنة سحر. الأدلـة كلها تشير إليه. كانت الكارثة كبيرة لناجي وأنور على حد سواء. وأنور يعلم جيداً في قرارة نفسه أن ماضي أخته هو الذي جنى عليها. كانت الحادثة باباً للقيل والقال.. وأبدعت مخيلة النـاس في نسج الأقاصيص والحكايات عن هذه الحادثة. بيد أن ناجي بقي صامتاً.. صمتاً مخيفاً! لم يدافع عن نفسه، ولم ينبس ببنت شفة حتى صدور الحكم.. وأمضى العشرين سنة في سجن «بريحان».

أخذ أنور الطـفلة وسماها سحر حفاظاً على ذكرى والدتها. وضمها إلى ولديه هاني ووائل. وهكذا تعزى أنور بسحر الصغيرة.. والبيت ينقصه وجود البنت، ولم يشعر الأخوان هاني ووائل بحقيقة سحر لأنهما كانا صغيرين لا يعيان شيئاً. وانتقل بعدها أنور مع العائلة ووالدته «الختياره» إلى ناحية بعيدة عن المدينة لكي يريح رأسه من كلام النـاس، والأسنان التي تعض سيرة المرء لدرجة التـشويه الكامل.

وهكذا سارت الأيام والسنون سيرها الطبيعي إلى أن حدث التحول الكبير في حياة أنور سالم. هذا التحول قلب حياته رأساً على عقب. على غير انتظار وبلا سابق موعد.. كانت الأيام ترسم لأنور اتجاهات لم تكن واردة في حساباته قط. إنه صدمة التوبة والإيمان والتديّن! عندما يمتلك الإيمان عقل الإنسان يتغير الوجود كله.. ينصبغ بصبغة مختلفة.. ينسجن في نظرة مختلفة.. إنها عدسة جديدة يضعها المرء على عينيه وينظر الكون كله من خلالها.

نزل من الأوتوبوس ذات يوم.. ورأى امرأة هرمة واقفة على الرصيف تعطي ورقة لكل المارة العابرين من رزمة أوراق كانت بيدها. كانت أخاديد وجهها كثيرة، وبياض شعرها حاد، وزرقة العينين تظهر ذكاءً. كانت الملامح مشرقة ومريحة. وكانت تقول وهي تبتسم: لا تضيع الوقت يا بني. ألله يحبك. كانت تحاول أن تعطي كل الناس من رزمة أوراقها هذه، وقلائل هم الذين كانوا يأخذون الورقة. ظنها بعض منهم تشحذ فأعطاها النقود وأبت.. وبعض آخر كان يحاول إرضاءها بأخذه الورقة ثم يضعها في جيبه، أو يلقي نظرة سريعة ثم يرميها في أقرب سلة للنفايات. شعر أنور بخوف غريب نحو هذه المرأة العجوز.. وقعت عيناها على عينيه من بعيد.. ملامحها ذات هيبة.. خاف.. عيناها ثاقبتان.. تتكلمان.. لم يتجاسر على الاقتراب منها، ومضى في سبيله. ولكن حلماً مزعجاً رآه في منامه في تلك الليلة قض عليه مضجعه. شاهد نفسه في منامه ماشياً على سكة القطار جسراً ممتداً فوق واد مخيف.. وما إن وصل إلى وسط الجسر حتى سمع صوت القطار قادماً مطلقاً صفارته المدوية. نظر أمامه ووراءه فلم ير قطاراً.. ولم يعرف من أي جهة هو مقبل. وراح صوت

القطار يقترب منه وكأنه صار على بعد أمتار منه ولا أثر لقطار! ذعر.. وانزلقت رجله من الخوف الشديد.. وبقيت يده اليمنى ممسكة بجسر السكة والجسد يتدلى في الهواء فوق الهوة العميقة. وراح يصرخ ويصرخ.. ثم فجأة يرى قدمين واقفتين قرب يده اليمنى..! يرفع نظره، فإذا المرأة العجوز التي رآها في الشارع تمد عصاها وتقول له: أمسك بها.. أمسك بها.. أمسك بها.. لا زال القطار بعيداً.. هيا أرجوك.. لا تضيع الوقت. ويجيبها: ولكن القطار قريب! وأنا لا أراه! فتقول له والدموع في عينيها: لا.. هو بعيد.. أمسك بالعصا.. أرجوك لا تضيع الوقت.. هيا.. أرجوك. ثم يصحو من الحلم والعرق يتصبب من جبينه وقلبه يخفق بشدة. ولكن الحلم نفسه تكرر في الليلة التالية ثم التي بعدها. فنهش الخوف والحيرة تفكير أنور. ثم توقف الحلم. وبعد ذلك بأيام.. وفيما كان ماراً بسيارته في المكان عينه الذي رأى فيه المرأة العجوز دق قلبه واضطربت أعصابه أن يراها في أي ركن أو زاوية. وفجأةً! ها هي.. ويراها تنبثق كساحرة من الزقاق الفرعي وتلوح له أن يقف.. ويحاول أن يتجاهلها.. فإذا بها تقفز أمام السيارة وتكاد تضع يدها على غطاء المحرك. فأجبرته على التوقف. سألت بنغمة استرحام:

– إلى أين أنت تتجه يا ابني؟ وأجاب مرتبكاً خائفاً:

– مستديرة «الفولفو» في الحي الشمالي. وكان ذاهباً في مهمة ضمن إطار العمل. فراحت المرأة تتوسل إليه أن يوصلها إلى «شارع الحدادين» للجهة الجنوبية من مستديرة «الفولفو»:

– الله يوفقك يا عم. أرجوك أن ترحمني وترحم عجزي.. يرحمك الرب. يجب أن أصل إلى المستشفى في «شارع الحدادين» بسرعة.. ليس لي غير

الله. حما الله شبابك ورد عن عائلتك وأولادك كل مكروه. فقال متنحنحاً منزعجاً ما عسى أن يكون له على وجه هذه المرأة الغريبة:

- طـلـعي يا خالتي.. يلا طـلـعي. الزحمة وراءنا. ورأى رزمة الأوراق في يدها. إنها مطبوعات.. مناشير. ونظر عميقاً في وجهها فإذا هو شيخ وفتى في آن معاً، والعينان الفاتحتان تلمعان حكمة ونـضجاً.

- شكراً لك يا شهم. حماك الله، وسار في وجهه أمامك، ويسر أمرك.

سألها أنور:

- خير إن شاء الله.. ماذا عندك في المستشفى؟ فأجابت:

- إني أغسل كليتي مرتين في الاسبوع، وقد تأخرت على الموعد اليوم.

وقبل أن يصل إلى مستديرة «الفولفو» انحرف إلى طريق فرعي نحو الجنوب إلى «شارع الحدادين». وقالت المرأة وهي تعطيه نشرة من الرزمة التي في يدها:

- الله يحبك.. هو يناديك الآن.. لا تؤجل ولا تضيع الوقت. الشباب لا يدوم. فسأل أنور مدهوشاً من كلماتها:

- الله يناديني الآن؟!

- أجل.

- كيف؟!

- بكلمات هذه العجوز الشقية الجالسة إلى جانبك. العمر يا بني يمضي كالحلم! كنا شباباً وكانت لنا أيام. إنه فرصة عظيمة لا تعوض لنربح العمر الأبدي.

- هل أنت تنتمين لجمعية إنسانية.. أو دينية؟

- أنا أنتمي لمملكة السماء. ممالك العالم زائلة ومملكة السماء باقية. رسالتي أن أدعو وأنادي كل النـاس ليهربوا من الغضب الآتي.

- أنا لا زلت شاباً يا خالتي. عندما أشيخ أفكر في السماء. عندما يصير الإنسان ضعيفاً في نهاية حياته، عندئذ يهيئ أفكاره وقلبه لرحلة السماء القريبة.

- الشباب يشفقون على الشيوخ، والشيوخ يشفقون على الشباب. هل تضمن أن تبقى على قيد الحياة حتى تلك الساعة؟

- يا ستـي الله محبة. سيعطي فرصةً للإنسان. فأجابت:

- يقول الإنجيل: أذكر خالقك في أيام شبابك. توبة الشاب أثمن في عين الله من توبة الشيخ.

- الله يحب كل النـاس، ولا يميز بين كبير وصغير، شاب أو شيخ.

أجابت المرأة بهدوء ولطف:

- توبة القوي عن محبة، وتوبة الشيخ عن ضعف. توبة الشاب طوعية، وتوبة الشيخ قسرية. المحبة الطـوعية تمجد الله، والمحبة القسرية لا تمجد الله. أيهما يفيد الوطن الجندي المتطوع أم المجند في الخدمة الإجبارية؟ من جملة حساباتك الكثيرة في هذه الحياة إعمل حساب يوم الحساب. ربنا يرى كل شيء ويحاسب الإنسان. هذه الحقيقة حتمية.. صدقني.. والبشر لا يأخذونها على محمل الجد. بيد أن تلك الساعة آتية صدقوا أو لم يصدقوا. لا تضيع الفرصة.. أرجوك. الآن فرصة ثمينة جداً للتـوبة والرجوع إلى الله. هنا.. توقـف هنا سأنزل. شكراً لك يا أخي. فكر جيداً بما قلته لك. لا تـضيع الوقت.

أحدثت كلماتها زلزالاً في داخله. لم يسمع أنور مثل هذه الكلمات من

قبل. واستحضر توسلاتها التي شاهدها في الحلم أمام عينيه. من هذه؟! أملاك هي أم شيطان؟! لقد أسرته الكلمات الخارجة من فم امرأة عجوز تدعوه إلى التـوبة.. وهكذا كلام لا ينطق به غير الكاهن. ما سر هذه المرأة العجوز طلعت لي كما اليمامة من قبعة الساحر؟ هي محقـة في كل ما تقول.. يجب أن يفكر الإنسان في ربّه.. ويحسب حساب الآخرة. وتابع أنور نحو المكان الذي يقصد بيد أن زحمة السير منعته. وصار يتأفـف ويلعن سوء طالعه لأن المرأة أخرت وصوله. ثم فجأةً رأى النـاس يهرعون مسرعين في اتـجاهه فاستوقف أحدهم وسأله: ما سبب هذه الزحمة هنا؟ فأجاب الرجل مضطرباً: لقد حدث انفجار هنا الآن قرب مبنى الجمارك. فارتعشت أطراف أنور وصارت تعرق، واصفر وجهه وصارت شفتاه ترتجفان. عرف الجواب.. إنها المرأة العجوز! ذعر لهذه الحقيقة. أهي ساحرة أم جن أم قارئة غيب؟! لا.. هي التي أبعدته عن المكان.. إنها ملاك من السماء إذاً.. هذه المرأة قديسة! لقد أنقذت حياته! أدار المذياع وعاد أدراجه مبتعداً عن زحمة السير إلى مكان عمله. سمع الخبر كاملاً على الراديو.. ولكن عينيه كانتا مسمرتين بالنشرة التي أعطته إياها هذه العجوز على تابلو السيارة. فما إن وصل وركن سيارته حتى أخذ الورقة من فوره وراح يقرأ[1]:

«بازاروف رجل قروي بسيط، يحلم بأن يملك قطعة أرض هائلة الاتـساع. فاشترى أولاً مزرعة عرضت للبيع بالتقسيط على دفعات. عمل فيها وأنتجت كورته وأخصبت. ثم عاد واشترى ثانيةً قطعة أرض مجاورة بثمن زهيد من جاره الذي شاء بيع الأرض والرحيل. فصار الرجل ثرياً في مدة قصيرة جداً..

---

(1) عن ليو تولستوي بتصرف.

مالكاً لآلاف الكيلومترات. زاره ذات يوم صديق قديم وسأله عن النـجاح في عمله وعن السعادة. فأجاب بازاروف: النـجاح لا بأس.. وأما السعادة فمفقودة. فسأل الصديق: لماذا؟ وأجاب بازاروف: لأني أريد أضعاف ما أملك الآن! وأصحاب الأراضي من حولي لا يبيعون. عندها قال الصديق: أعرف بلاداً على نهر الفولجاتا.. والأراضي رحبة وخصبة وأصحابها بسطاء، وتستطيع أن تحصل على الأرض بسهولة. صدق بازاروف قول الصديق وباع كل ما له وسافر مع خادمه إلى تلك البلاد. وما إن وصل حتى قدم الهدايا الثـمينة لمشايخ القبائل هناك. وسألهم عن ثمن الأرض، فقالوا له: ألف روبل عن اليوم الكامل. فسأل: ما المقصود باليوم الكامل؟ أجابوه: نحن لا نستخدم مقاييسكم، نحن نـقدر الأرض وثمنها بالمسافة التي يقطعها الرجل مشياً فيها ليوم واحد.. من شروق الشمس إلى أن يرجع إلى النـقطة التي انطلق منها.. وعليه الوصول قبل المغيب. وهذه تساوي ألف روبل. دفع بازاروف عندئذ الألف روبل واستعد للانطلاق في صباح اليوم التـالي. وفي الغد قالوا له: هوذا السهل الرحب أمامك، فإما المال لنا والأرض لك.. أو تفقد المال والأرض معاً.

وهكذا راح بازاروف يركض بكل قوته في تلك المسافات الفسيحة. وكان كلـما قطع مسافة كبيرة وأراد الوقوف عندها تغريه خصوبة الأرض.. فيعود إلى الركض. وبقي يركض ثم يقف وينظر.. الأرض رائعة جداً..! بإمكانه أن يحصل على المزيد.. هيا يا بازاروف أركض.. ويعود ويركض. وانتصف النـهار. واشتد به التـعب. جلس للحظات وأكل القليل من الطـعام، وشرب الماء ثم قفز يركض راجعاً إلى حيث انطلق. ثم توقـف وعاد يركض

ليحصل على مسافات جديدة. الأرض رائعة وخصبة.. ركض ثم توقف.. ثم عاد أدراجه. وأقبل العصر. ففكر أن يرجع نهائياً حتى لا يخسر الكل. شعر بالتعب الشديد.. وبدأ يخلع ثيابه قطعة قطعة حتى حذاءه. ثم ركض حافياً والشوك يهشم ويمزق قدميه. واشتد به التعب فوق الطاقة، وفكر بالاستراحة. ورأى الشمس تنحدر نحو الغروب.. فاستمد من الضعف قوة وراح يركض.. ويركض.. ويركض.. عما قليل سيصبح مالكاً لأرض طالما حلم بها.. وأنفاسه تخرج متدافعة.. متقطعة.. القلب يدق بسرعة، ورئتاه تكاد تنفجران. وقبل أن يصل إلى سفح الجبل توارت الشمس عن عينيه. فخارت عزيمته واضطرب اضطراباً رهيباً. وإذ ذاك كافح مرة أخيرة، وأخذ يجري ويجري بكل ما بقي لديه من عزم. ولما وصل قبل مغيب آخر شعاعات الشمس، استقبله الجماعة كلهم بهتاف عظيم. وقال الرئيس لبازاروف: هنيئاً لك قطعة الأرض الكبيرة هذه.. فامتلكها هي لك. وما إن مد بازاروف يده ليصافح رئيس القبيلة حتى انفجر الدم من فمه وسقط على الأرض. وأسرع خادمه ليسعفه.. ولكن بازاروف كان قد صار جثة هامدة.

أخي القارئ. أنت بازاروف في شكل من الأشكال. تركض وراء الشهرة والثروة والملذات والسلطة والسعادة ومباهج الحياة كلها... أنت تجري وراء السراب.. وراء الوهم.. أنت تستنفد طاقتك.. وحياتك.. ومواهبك.. أنت مقامر! حياتك على طاولة الرهان.. ونتيجة الرهان هي الخسارة الكبيرة، لأنك ستخسر حياتك في نهاية المطاف وكل شيء. إقرأ ما قاله المسيح للغني: يا غبي، هذه الليلة تطلب نفسك منك، وهذه التي أعددتها لمن تكون؟ هكذا الذي يكنز لنفسه وليس غنياً لله» لوقا 12: 20

ثم قرأ في آخر النشرة عنواناً ورقمي ثابت وخليوي. وفكر في ما قرأ لتوه.. وما حدث له مع المرأة العجوز. هزت القصة كيانه. أصابته نشابتها. رمية حكيمة! هي موجهة إليه هو وحده. أتراها حقاً رسالة من الله إليه؟ ولكن كل إنسان هو بازاروف في مكان ما. الإنسان لا يشبع.. لا يكتفي.. يسعى.. شهوة التحصيل والانجاز خطان يتقاطعان عند نقطة الطمع. مساحات بيضاء ترسم ريشة الطموح عليها تواقيعها الشاحبة. الطمع والطموح توأمان قزمان يتناحران أبداً. قد يربح المرء العالم كله ولكنه في النهاية يخسر نفسه. والتاريخ مليء بالرجال الذين حققوا أعمالاً عظيمة أدخلتهم التاريخ.. بيد أنهم كانوا ضحايا سعيهم وجهادهم. فكر أنور جيداً في حاله. كلمات هذه المرأة ونشرتها أحدثت فيه انفجاراً فكرياً. كان عقله في سبات عميق وجاءت هذه ولكزته.. فصحا ولا يدري أين كان. ساءل نفسه: إلى أين يا أنور؟ ماذا بعد؟ هذه هي الحياة.. وتبقى هكذا.. ثم ماذا؟ ماذا لو كانت السماء حقيقة؟ وهناك إله يحاسب؟ أحقاً هناك حياة بعد موتنا؟ بعد أن نتحول إلى رماد وتراب؟! ولكن كل الناس هكذا.. نموت وكفى.. إلى التراب نعود.. لماذا تتعب فكرك وتسير بعكس التيار؟ الناس عقول مسبية مخدرة.. أنت.. أين أنت..؟ السماء تكلمك أنت الآن... أشياء وأشياء تعلمناها وشربناها مع الحليب منذ الطفولة.. ولكنها داعبتنا ولم تزلزل يوماً أعماقنا! لماذا؟! سلمنا بها.. ولم نسلم عليها.. أو نسلمها الإيمان الحقيقي. تسونامي من الأفكار يجتاح عقل أنور ويقلق وجدانه.

لم يهدأ أنور بعد لقائه بهذه المرأة والحلم والورقة.. قرأ العنوان جيداً في النشرة، عرفه. وقصد المكان يوم الأربعاء مساءً كما قالت النشرة. فإذا هي

الكنيسة! مكتوب على اللافتة خارجاً (كنيسة محبة الله). دخل الكنيسة وسمع الخطبة يقولها الكاهن.. وترانيم وصلوات.. ترانيم رائعة! صلوات عفوية ليست مكتوبة في الكتب أو على الأوراق! جذبه مشهد الناس المصلين. وجوه مشرقة مريحة. وراح يجول بناظريه علّه يرى هذه المرأة العجوز التي أعطته النشرة. لم يرها. قلق! وفي ختام الاجتماع قال خادم الكنيسة:

- أرجو أيها الإخوة الأحباء أن تتابعوا صلواتكم لأجل تعزية أقرباء وذوي أختنا زاهية، التي انتقلت إلى المجد. هي الآن في المكان الذي طالما اشتاقت وحنت إليه.

خرج الحضور إلى الردهة الجانبية، واقترب أحدهم من أنور وقال بلطف:

- أنا سامر. لم أرك هنا في الكنيسة من قبل. أهلاً وسهلاً. وقال أنور:

- أنا أنور سالم. أين المرأة العجوز التي توزع الأوراق والنشرات في الطريق؟ لقد أعطتني ورقة، وقد أوصلتها إلى المستشفى لتغسل كليتيها. أريد أن أشكرها.

صمت الشاب سامر صمتاً مقدساً. كأن كلمات أنور آيات كتابية. وفي عينيه خوف ودهشة. ثم أجاب بهدوء:

- لقد أعطتك عمرها.. وانتقلت إلى محضر يسوع.

ذعر أنور:

- ماذا! متى؟ كيف؟

- في المستشفى. فاجأتها الذبحة القلبية أثناء الغسيل.

شعر أنور بأنه يكاد ينهار. تنحى جانباً وجلس على كرسي. ثم سأل:

- ما اسمها؟ وأجاب سامر:

- زاهية.

- لقد أنقذتني زاهية من الموت يا سامر. لقد وهبتني الحياة وغادرت هي.
وقص أنور على سامر ما جرى له مع زاهية. وابتهج سامر كثيراً لحكاية زاهية مع أنور.

حادثة زاهية تركت أثراً عميقاً في وجدان أنور، وعاد فرآها مرات في الحلم نفسه. ثم راح يتردد على الكنيسة، وعرف عن زاهية الكثير. واكتشف تديناً من نوع مختلف.. واختبر الاختبار الجديد. صار إنساناً آخر! وبنى العلاقات مع الكاهن وأفراد الرعية. ومن حينها وأنور يعيش حياة التزام ديني وتقوى، ويشارك أيضاً في الخدمات في الكنيسة. وراح يجاهر باختباره الجديد. وسكن الفرح الدائم في أكواخ غربته. وأتى بأولاده إلى مدرسة الأحد بغية تأسيس حياتهم على مبادئ وتعاليم الكتاب المقدس. سحر ووائل كانا مطيعين أما هاني فكان مشاغباً. وكبر الأولاد، ودخلوا سن المراهقة وبات لهم علاقات وصداقات في الكنيسة. وما عتم أن ابتعدوا تباعاً. كان أنور يحاول جاهداً ربحهم ثانية.. ويصلي.. ولم ير ثمراً لصلواته. وائل راح يتعلم النجارة وهاني انحرف كثيراً عما تعلمه في مدرسة الأحد، وسحر بقيت على المبادئ.. بيد أن طموحاتها غلبت في شخصيتها وشرعت تدرس الإعلام.

******

«لقد ابتعدت كثيراً عن الكنيسة يا سحر. الكل يسأل عنك.. وفاء وسامر وغنوه.. الجميع» كانت هذه كلمات أنور سالم لسحر وهو يدخل الغرفة حاملاً الشاي بالفواكه الذي حضره بنفسه، وسحر جالسة إلى الكمبيوتر تعمل. فأجابت سحر:

- أنت ترى الدراسة يا أبي ومسؤولية البيت، ومشاكلنا التي لا تدعنا نرتاح. هم هاني وحده يكفي. أخشى أن تكون الكارثة.. ويأتينا خبره في ساعة «منحوسة». ويصمت أنور بالعاً ريق غصته. ثم سألت سحر:

- قلت لي إنك طلبت المساعدة من صديق قديم يمكنه أن يتصل بإحدى العصابات.. ويمكن أن نصل إلى شيء.

- أجل يا ابنتي. هو يحاول.. ولا جديد. وأنا أصلي كثيراً.. والكنيسة أيضاً. والرب يصنع رضى خائفيه وأتقيائه. لن تذهب الصلوات أدراج الرياح. إلهنا حي. فتقول سحر بتأفف:

- الصلاة لا تنفع يا أبي. هذه الدنيا غابة. هذا الزمن زمن القوة والتذاؤب. لا مكان للضعيف.. ولا كرامة.. ولا حق.

- وهل ينتظر المؤمن الكرامة والشرف في هذه الحياة. رب الشرف والعزة والجلال لم يحظَ بالكرامة حين كان في الجسد في هذا العالم. كرامة المؤمن ومجده في الحياة الثانية يا سحر.. أليس كذلك؟

- لماذا أوجدنا الله في هذا العالم يا أبي؟ لماذا أعطانا نعمة الحياة؟ ألم يكن قصد الله أن نحيا حياة كريمة شريفة.. أن نفرح ونتمتع ونسعد بهذه الدنيا؟! نحن معشر البشر يا أبي حولنا بركة الحياة إلى جحيم. كان أخي هاني يعيش حياة رائعة.. من الذي مسخه؟ الإنسان! وشرقت سحر بدمعتها. وغمرها أنور برفق وهو يمسح أيضاً دمعته. وقال والحرقة ترجف صوته:

- الشيطان الذي يعمل في قلب الإنسان.

- لا يا أبي. الإنسان الذي شاء وأراد أن يتحالف مع الشيطان.

- الشيطان أقوى وأذكى من الإنسان بكثير.

- والحلّ هو المواجهة. إنها حرب بيننا وبين الشيطان.

- في هذه نتـفق يا ابنتي.

- على الإنسان المؤمن أن يقاوم في هذه الحياة. يقاوم العبثية.. يقاوم التـخلـف.. التـعصب.. الفوقية.. الجهل.. الظـلـم.. العنف....إلخ

- أيضاً الكفر والإلحاد.. والانحلال الأخلاقي الذي انتهى إليه هذا الزمن.

- ألم يكن المسيح مقاوماً يا أبي؟ ألم يواجه ظلم وتعسف وجبروت رجال الدين؟

- بلى. ولكن دور المؤمن في هذا العالم إيصال رسالة محبة الله لكل النـاس.. وليس الإصلاح الاجتماعي. هذا العالم وضع في الشرير ونهايته معه. علينا إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

- وإصلاح ما يمكن إصلاحه أيضاً. نحن نعيش على ما بناه السابقون. وبدورنا نؤسس للاحقين. الحياة مستمرة، وعلينا أن نقدم للأجيال الأفضل، كما قدم القدماء لنا الأفضل. هكذا الحياة يا أبي تسلّـم وتسليم.

وهكذا تدور دائماً وتيرة الحوار بين سحر وأنور.. ولا نتيجة ترضي الطرفين. وسحر لم تكن بعيدة عن المبادئ التي تعلـمتها في مدرسة الأحد. لقد شربت من نبعة الإيمان إيماناً صافياً عذباً.. شربت قليلاً.. وخلـت قليلاً لزمن لاحق.

******

وفي بقعة أخرى من العالم.. في بيت حجري عتيق متهدم.. في تلك الجبال البعيدة الساخرة من جبروت وهيبة رجال الدولة.. وبينما الطـقس في الخارج بارد عاصف.. كان الرجال الستـة جالسين حول النـار يصطلون

ويتحادثون.. والسابع لم يأت بعد من رحلة صيده عصر ذلك اليوم. هاني سالم إبن أنور سالم الذي ذابت الثورة بالجريمة في أتون ذاته! أهو ثائر أم مجرم؟! هو لا يدري. ما يعرفه أن عدوه هو الدولة وكل رموزها. لقد بات يحارب الدولة.. والجريمة هي الوسيلة التي اختارها. السجن لم يسلحه بأداة أفضل! السجن غرس فيه الباعث.. بذرة الشر وما كانت ثمارها يوماً مباركة. عاد إلى الغار العتيق الذي يختبئ فيه سبعة من الشباب المجرمين الشرسين، وفي يده ثلاثة أرانب اصطادها بقوسه ونشّابته. كان هاني ماهراً منذ صغره في صنع «النقيفة»[1]. ولا زال يهوى الصيد بالوسيلة البدائية. بيد أن زوايا هذا الغار المنهدم تحضن قطع السلاح الأوتوماتيكي الحديث.. بنادق ومسدسات ومتفجرات. سمى السبعة أنفسهم (أنياب الغضب). هذا اسمهم السري. إنهم ثعالب.. ذئاب ثورة وغضب.. إنهم أنياب تريد أن تفترس أرانب الكذب والاستزلام والاهمال والفوقية والعصبية والمحسوبيات والطمع والظلم وكل جرذان آفات شرقنا البائس. عقولهم كمائن وأنيابهم سهام. رزمة من الذكاءات المسننة. لم يكن هاني القائد بينهم، ولكنه لا يقل شراسة عنهم. قال لهم يوماً: أنا تلميذ مدرسة أحد. كنت أتردد إلى (كنيسة محبة الله) في المدينة دائماً.. والدي مبشر يعظ الناس، وأنا أيضاً تلميذ السجن. أسائل نفسي أحياناً لم لم أتأثر بتعاليم الكنيسة كما تأثرت بتعاليم السجناء؟ ويجيبه واحد منهم ساخراً: لأن تعاليم الكنيسة لا تطعم خبزاً. والمثل يقول (صوم وصلي بتركبك القلي)[2] ويتابع هاني الكلام كمن يحادث نفسه:

- كأن السجن غسل دماغي.. مسح ذاكرتي.. مسخ ذاكرتي! في الكنيسة

(1) سلاح بسيط يصنعه الأولاد ولا يؤذي.

(2) قول شعبي يعني أن الصلاة لا فائدة منها.

تعلـمت عن المحبة واللـطف والتـواضع والمسامحة.. وفي السجن تعلـمت عن الكراهية والقوة والانتقام.

- أنت هكذا منذ ولدت. مفطور على العنف. لا تلـم أحداً. قال واحد من الستة.

- في الكنيسة تعلـمنا المبادئ بهدوء وسلام. وفي السجن كانت ضربات التـعذيب تغرزها في ذهننا وفي أجسادنا. هذا هو الفارق.. ربما.. لا بد من الألم لكي يتعلـم المرء بشكل جيد.. أحياناً.

- على هذا النـحو كنت تحتاج لـ«فلقة» كلما تعلـمت شيئاً من الإنجيل لتحفظه جيداً. وينفجر الجميع في الضحك.

في هذا البيت الحجري المتهدم.. في غياهب الجبال المنيعة.. ولا يصل إلى هذا المكان غير الجن.. كان ورم آخر من أورام المجتمع الخبيثة يتنامى. عندما يتغذى جسد المجتمع من الفقر والجهل والتـخلـف لا يفرز سوى الأورام الخبيثة. وما أكثر أورامنا! أجساد هزيلة تعيش على فـتات الجهل والحقد والأنانية والفساد. كان السبعة يحيون حياة الذئاب الفارة التي تجول في البراري زرافات ووحدانا.. لا منطق لها سوى الانقضاض على الطـرائد. أصبح هاني الصياد الماهر في قوسه.. وفي التـخطيط والانقضاض على المحال والمصارف والسنترات التـجارية الكبيرة. بات يملك شجاعة أبطال الملاحم والأساطير. وراح يحلـم في تنفيذ سلسلة من العمليات موقعة بتوقيعه.. نكايةً وتحدياً للدولة. والحقيقة أن العصابة التي ينتمي إليها هاني ليست من ذوي الخبرة الطويلة في الجريمة.. سبعة شباب متحمسون وأذكياء مغرورون.. متباهون بذكائهم المتهور المريض، وأكبرهم لم يتجاوز الثـلاثين.

يختبئون في الشتاء في ذلك الغار تحت الثلوج بعد أن يجمعوا حاجتهم من المؤونة لفصل الشتاء. يدرسون يخططون. وما إن ينتهي الشتاء حتى يخرجوا من جحرهم مع زواحف فصل الربيع، إلى تنفيذ ما عزموا عليه. والمستويات العالية هي الهدف.

******

9

كــلّمــا أنبـــت الزمـــانُ قنـــاةً
ركّـــب المـــرءُ للقنـــاة ســـنانـــا
المتنبي

ذات صباح من صباحات آذار الماطرة حاول ثلاثة سجناء الفرار من سجن «بريحان». وقد استطاعوا نشر قضيبي حديد ثم القفز إلى داخل شاحنة القـمامات. نجح واحدهم في الهرب لأنـه الأصغر سنـاً (18سنة)، والثـاني أصيب بطلق ناري فقتل على الفور، والثـالث كسر ساقه بيد أنـه لم يبتعد كثيراً فأدركته الكلاب. وانتظر المسكين شهراً حتى تعافى من كسره ليلاقي العقوبة تنتظره في الغرفة الزرقاء والسجن الإنفرادي. والعقاب جحيم بحد ذاته. عشرين يوماً في الغرفة الصغيرة منسكباً على بلاط الغرفة بعد أن ذاق ألواناً مرة من التـعذيب. والغاية هي التأديب وترهيب الآخرين حتى لا يجرؤوا على محاولة مماثلة. والتأديبات في سجون الشرق ليست سوى زيت يصب فوق نار النزعة العنفية في داخل المجرم. والمؤدب لا يهتم بسوى الردع والتـرهيب ليس إلا. بيد أن التأديب يتخطـى أحياناً كثيرة حدوده ليتحول إلى تعذيب شبيه بوسائل التـعذيب القديمة. والتـعذيب صديق قديم حميم للسجون.. منذ أن

كانت السجون. وكأن لا علاج للانسان الخطر سوى التـعذيب.. والحقيقة المرة الساطعة أن التـعذيب لا يزيده إلا شراً وثورة.

******

خرج ناجي من مكتبه إلى الساحة الصغيرة أمام المبنى حيث احتشدت جمهرة من الإعلاميين أمام عدد من الكاميرات.. يتبارون في فن الكلام.. مدافعين عن حقوق السجين الإنسان الذي يعذب داخل السجن. رافضين ثائرين ومستنكرين أن تكون هذه الأساليب الوحشية القديمة لا زالت تمارس في أيامنا هذه. وزحلت به الذاكرة نحو ثماني سنوات خلت.. حين قاد أحد السجناء المدعو عبد القادر الجعجول ذات يوم تمرداً ضارياً على رجال الأمن والعساكر داخل السجن، واعتدى على عدد منهم دافناً في أجسادهم مُدى حقده ونقمته. كان مخيف الجثـة ناري النظرات إرهابياً. بعد أسبوعين وحين هدأت الأجواء أخذ بهدوء من زنزانته إلى إحدى الغرف السفلية الزرقاء المعتمة، ولا يعرف أحد مكان هذه الغرف. يقال لها الغرف السفلية.. أين؟ الله يعلم. قد تكون في السجن أو في مكان آخر خارجه.. لا السجناء يعرفون المكان ولا العساكر ورجال الأمن. والسجناء يساقون إليها معصوبي الأعين. جلادو هذه الغرف المخيفة، ومنفـذو التأديبات الشيطانية فقط يعرفون المكان. واختفى عبد القادر الجعجول عشرة أيام عاد بعدها شبح إنسان.. صامتاً نحيلاً أبيض الوجه حائر النـظرات بطيء الحركة. وكان حريصاً أن لا يتعرى أمام رفقائه السجناء.. ولم يسأله أحد شيئاً. بيد أن حقداً رهيباً راح ينمو في داخله يوماً بعد يوم بارزاً في نظراته وحركاته. إقترب منه ناجي ذات يوم وجلس بجانبه، وناوله سيكاره وقال:

- خذ. نفخ سيكاره. وعاد فسأل:

- ألن تخبرني شيئاً يا عبد القادر؟

فأجاب عبد القادر بهدوء وهو يشعل السيكاره وينفث الدخان من فمه:

- أخبرك ماذا؟

- أين كنت..؟ ماذا جرى؟

-...!

- ألن تقول لي يا عبد القادر؟

صمت عبد القادر قليلاً وهو ينظر في عيني محدثه، وبدا أن لفظ الكلمات يؤلمه. ثم انفجر يصيح بكاءً كما يبكي الأطفال. وناجي يرنو إليه متعجباً لا يدري ما يقول. ثم راح عبد القادر يتمتم:

- أخذوا مني رجولتي...

- ماذا؟! يا إلهي!

- لقد ضربت على جميع أنحاء جسدي.. كل أنواع الضرب.. بالأدوات كلها. ضربت على باطن قدمي حتى سال الدم منهما، ثم أجبرت على الركض في غرفة فسيحة أرضها مغطاة بالماء الحار والمالح..

- يا إلهي! قالها ناجي ثانيةً وهو شاخص إليه بانقباض.

- واستجوبت عارياً واقفاً أمام عاهرتين يتهكمان ويضحكان علي.. بعد أن...

- بعد ماذا يا عبد القادر؟!

- لقد أسمعوني صراخ تعذيب في غرف مجاورة.. وكانت الأصوات رهيبة مخيفة جداً. ومسح دموعه عند هذه الكلمات. لقد أدخلوا قضيبي بعد

أن دهنوه بالجبنة الذائبة في قفص صغير فيه ثلاثة جرذان صائمة منذ أيام.. والباقي.. فهمك كفاية. ثم وضعت في غرفة مربعة مترين بمترين والماء في أرضها 50 سنتم، فلم أذق النوم لخمسة أيام...

كانت الكلمات تخرج من فمه متقطعة.. هادئة.. ترافقها الغصة والدمعة التي لا تنم عن توبة عبد القادر البتة.. بل عن حقد بقي يتزايد في نفسه إلى أن رأى ذات يوم رجل أمنُ يهين سجيناً ويشتمه، وما تمالك نفسه، فانقض على الجندي وضربه حتى أدخله المستشفى بين حي وميت. وكانت النتيجة أن أخذ عبد القادر إلى الغرف السفلية الزرقاء المجهولة.. وما عاد رآه أحد منذ ساعتها. وتناقل السجناء أنه مات تحت التعذيب وعتّم على الأمر.

كان هذا منذ ثماني سنوات.. وكان الجميع يدرك أن أي مشاغب سينتهي به الأمر إلى الغرف السفلية ولا أحد يسأله ماذا حدث. كان لسيرة هذه الغرف وقع وهيبة، فلا يتجاسر على التمرد غير سمين الجثة قويها.. فكانت عنصراً قوياً رادعاً للعصيانات والشغب داخل السجن.

******

كان ناجي يتابع القراءة بشوق في كراسة وليم عامر لأسابيع. عاد ذات مساء إلى البيت.. لم يكن متعباً ولا كان جائعاً.. فاستراح قليلاً وعمل له فنجان قهوة وأدار موسيقى هادئة.. ثم شرع يقرأ في مخطوط السجين المنتحر:

الأربعاء

أثناء إحدى العمليات الجراحية للقلب عام 1983 توفي لاعب التنس الأسطوري «آرثر آش» بعد أن انتقل إليه فيرس الإيدز من دم ملوث. وقبل موته جاءته رسائل كثيرة مشجعة فيها السؤال التالي: لماذا اختارك الله أنت بالذات

لهذا المرض السيء؟ فكان رد «آرثر»: يبدأ أكثر من 50 مليون طفل بلعب التنس في العالم، 5 مليون يتعلمون اللعب باحتراف، 50000 يحترفون بامتياز وتفوق، 5000 يظهرون في دائرة الضوء، 500 يصلون لأول بطولة، 50 يصلون لبطولة ويمبلدون، 4 يصلون للدور قبل النهائي، اثنان منهم للدور النهائي. وحينما أمسكت بكأس العالم لم أسأل الله لماذا اختارني أنا! واليوم.. وفي مرضي هذا.. لا ينبغي أن أسأل الله لماذا أنا يا رب؟

دروج الحكمة

الخميس

كارمن ترقص في شوارع إشبيلية. شعرها أبيض ولون عينيها براق. يا طفلات اسدلن الستائر! تلتف حول رأسها أفعى صفراء.. وتمضي وهي تحلم بالرقص.. مع عشاقها لأيام خوالي. يا طفلات اسدلن الستائر! الشوارع مقفرة.. وفي أعماقها نلمح قلوباً أندلسية تبحث عن أشواك أندلسية. يا طفلات اسدلن الستائر.

دروج الحكمة

الجمعه

تميز الانسان عن سائر المخلوقات بالعقل الذي وهبه إياه الله. واستخدم هذا العقل للخير.. فأثمر عبقرية واختراعات قصرت المسافات وجعلت المستحيل حقيقة. وقد يستخدمه كذلك للشر.. فتكون النـتيجة من البشاعة ما يجعل الشيطان يقف حائراً مدهوشاً! الإنسان أذكى المخلوقات ولكنه أكثرها حقداً وانتقاماً، ويفعل بأعدائه ومبغضيه ما تـقصر عنه مخيلة الجن والإنس معاً. ههنا بقعة من الجانب الأسود للابداع الانساني.. وسطور غير مشرّفة

فوق صفحات الوجود.. هي وثائق تدينه أمام العرش العادل. لقد صنع العقل البشري أفظع أدوات التعذيب عبر كل درجات تطوره. فسعى حكام التاريخ والملوك لابتكار الآلات والأدوات التي تجعل المتهمين يتمنون الموت ألف مرة على العذاب القاسي الذي ينزل بهم. لقد لجأ الانسان للتعذيب منذ القديم. قد يعذب شخص ما عقاباً على جريمة ما، أو لإجباره على الاعتراف. وقد يكون التعذيب لمقاصد أخرى كتخويف الناس أو ترويع العدو. وأحياناً كثيرة يكون مجرد هواية ومتعة للبعض من المرضى... يقول أحد «مفكري» اليونان القدماء تيروكورال الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد: «معاقبة المجرمين بالموت المباشر أشبه بأكل الثمار غير الناضجة، فكما أنه يترك الثمر حتى ينضج قبل الأكل كذلك يجب ترك المجرم يتلوى من العذاب الشديد قبل الموت».

السبت

قامت الدنيا ولم تقعد عندما كشف تحقيق أجرته إدارة الرئيس الأميركي «باراك أوباما» أن وكالة الاستخبارات الأميركية CIA تعذب المعتقلين عبر رش الماء البارد عليهم، أو إجبارهم على الوقوف لساعات طوال، أو حجزهم في غرف ضيقة وترك الإنارة قوية ليل نهار.. وأحياناً بالضرب المبرح. وصنّف التحقيق أن هذه الممارسات تدخل في خانة التعذيب والانتهاك الصارخ لجميع الأعراف والمواثيق الدولية. ولكن الحقيقة باتت ساطعة كالشمس أن الإنسان عبر عصوره الطويلة أتقن هذا الفن الغريب الرهيب أيما إتقان.. فن التعذيب.

الأحد

رأى أحد أمراء ألمانيا القدماء في منامه ثلاثة فئران، واحدهما بدين والثاني هزيل والثالث أعمى. فاستدعى الأمير عرافة غجرية بارعة لتفسر له مضمون هذا الحلم. وبعد أن فكرت جيداً قالت: الفأر البدين هو رئيس وزرائك، والفأر الهزيل هو شعبك، والفأر الأعمى هو أنت.

دروج الحكمة

الاثنين

قرع العاشق باب معشوقه يوماً. فسأل المعشوق من الداخل: من في الباب؟

أجاب العاشق: هذا أنا.

فقال المعشوق عندئذ: عد أدراجك. هذا البيت لا يتسع لي ولك.

وهام العاشق الخائب في الصحراء. فكر وتأمل أياماً كثيرة.. ماذا تعني كلمات المعشوق؟ وعاد أخيراً وقرع الباب مرة أخرى. وسأل المعشوق من الداخل:

من في الباب؟ فأجاب العاشق: هذا أنت. وانفتح الباب من فوره.

دروج الحكمة

الثلاثاء

يغرز طرف الشوكة الحديدية تحت الذقن والطرف الآخر في أسفل الرقبة. يربط حزام جلدي حول الرقبة بإحكام لكي يشل رأس الضحية عن الحركة فيرتخي بثقله فوق الشوكة ولا يستطيع الخلاص منها.. في ألم شديد.

كانت تستعمل هذه الأداة في أوروبا القرون الوسطى لاستنطاق المتهمين بالهرطقة والكفر، وغالباً ما يكونون من الابرياء السيئي الحظ.. الذين انتهى بهم

الأمر هناك لضغائن أو عداوات شخصية. وتسمى هذه الأداة بشوكة الهراطقة.

الاربعاء

هذه المرشة تأخذ تصميمها من أداة مشابهة يستعملـها القساوسة والرهبان لرش الماء المبارك على النـاس لمنحهم البركة. ولكن في هذه الحالة.. عوض استعمال ماء البركة تـملأ المرشة بالرصاص المنصهر أو بالزيت المغلي، ويصب داخل معدة الضحايا، ويرش على ظهرهم وأعضائهم الحساسة.

الخميس

لا تكثر من معاركك ولا انتصاراتك.. لئلا تدرب خصومك على خطط قتالك.

دروج الحكمة

الجمعه

قدّم ذات يوم سجينان إلى تنفيذ عقوبة الاعدام في حقهما. سئل الأول: ما هو طلبك الأخير؟ أجاب: أن أرى أسرتي في لحظاتي الأخيرة. ثم سئل الثاني: وأنت ما هو طلبك؟ فأجاب بنبرة حاقدة: ألاّ يرى هذا الإنسان أي فرد من أفراد أسرته!

السبت

جلست لأكتب بعد أن نام الجميع. عند الثـالثة بعد منتصف الليل. أنرت شمعتي وأمسكت قلمي فيبست يدي، وللحال شعرت بأني لست وحيداً.. سرت قشعريرة في بدني، وانتصب الشعر في رأسي. حاولت أن ألتفت إلى الوراء فلم أقدر، وإلى اليمين واليسار فلم أقدر. جمد الدم في عروقي وتباطأت دقـات قلبي حتى كادت تنقطع. حاولت أن أنهض فما استطعت،

وأن أفتح فمي ففشلت، جمدت كالحجر. وأخيراً أملت وجهي يمنةً فرأيتها!

عادت القشعريرة إليّ. أصابعي تأبى أن تطيعني فلأسترح. هي. هي. ما تغير فيها شيء منذ جاءت لأول مرة. وذلك الجرح الواسع في نحرها لم يلتئم بعد. والدم ما زال يسيل منه. وذلك الحزن العميق الجامد في عينيها الواسعتين ما برح عميقاً جامداً ورهيباً. شعرها الأسود الطويل ما زال مسدولاً على كتفيها. ونهداها نافران من تحت ردائها الأبيض الشفاف. يسراها ما زالت على نحرها كأنها تحاول وقف الدم المتدفق من ثقب جرحها الهائل. وجهها كالعاج لا حياة فيه. لكن عينيها.. رفعت نظري إليهما فخيل إلي أن كل أحزان البشرية وآلامها تحدق إلي من خلف أهدابهما.. جامدتان لا تتحركان.. لكنهما أعمق من اللجة. لا انتقام فيهما ولا ثورة ولا مرارة، فقط حزن لا ينتهي. لماذا تهجم علي الآن مشاهد تلك الليلة الرهيبة؟! كالقرينة.. كلعنة لا تريد أن تفارقني. ستبقى تلك الصورة في عاطفتي تكبر حتى تمزقني.. كالماسة هي حبة رمل صاغت الأيام حولها هيكلاً من الألم.

وسؤال..! أهو توسل..! لماذا تتوسل إلي؟ وماذا أستطيع أن أفعل من أجلها؟ ما أرهب الحزن العميق الصامت! هذه المرأة هي الأقنوم الثالث للحزن والسكوت. يخيل إلي أنها لو فتحت فاها لتفجر الحزن من عينيها كالسيل الجارف. وحينئذ لما ارتجفت أعصابي. لكنها ساكتة.. وسكوتها يخيفني. وأنا أيضاً ساكت، ولكن سكوتي لا يخيف الناس، أما سكوتها هي فله رهبة وسطوة. وقفت بجانبي، لا أدري كم طال وقوفها، أثانية أم دهراً؟ وكما ظهرت بغتة رحلت بغتة! وتركتني مرضضاً كأن نسراً رماني من قبة السماء. غريب! كلما حلّت.. ضباب كثيف يكتنف أفكاري. والأكثر غرابة أنه

كلـما طال وقوفها بجانبي شعرت بالضباب ينقشع رويداً رويداً عن أفكاري. وإذ يوشك الضباب أن ينقشع عن أفكاري تماماً.. أطلبها فلا أجدها[1].

الأحد

قطع رجلان حطباً طوال النهار. وعمل الأول بكد وجهد ومن دون توقـف، فجمع في آخر النهار كومة ضخمة. وأما الثـاني فكان يقطع الأشجار خمسين دقيقة ويستريح بعدها عشر دقائق. وكانت كومته أكبر بكثير من كومة الأول! فسأل الأول زميله الذي يستريح: كيف استطعت أن تقطع حطباً أكثر مني؟ أجابه: عندما كنت أتوقف للراحة.. كنت أسن فأسي.

دروج الحكمة

الاثنين

المخلّعة! كلمة ذات سطوة مرعبة. صممت هذه الآلة لغرض خلع وتمزيق كل جزء من جسم الضحية. حيث يستلقي الضحية على هذه الأداة ويتم ربطه من المعصمين والكوعين والكاحلين.. ثم تتم إدارة البكرات الموجودة عند طرفي المخلـعة في اتـجاه متعاكس مما يؤدي إلى شد الجسد وتمديده لدرجة فظيعة حتى تتقطـع الأوصال وتتمزق العضلات وتنفجر الأوعية الدموية. ناهيك عن المسامير الطـويلة البارزة في كل شبر من هذه الآلة.

يروي التـاريخ أنـه تم تعذيب طفل مسيحي أمام أبيه بهدف إجباره على تقديم اعترافات. وعندما بدأت مفاصله الصغيرة الهشة تتمزق من الشد والتـمديد قرر الجلادون أن ذلك غير كاف ولا يؤلم كثيراً!! فأشعلوا النـار تحت المخلـعة حتى يشوى الطـفل وهو حي كما تـشوى الخراف. والذي

(1) عن ميخائيل نعيمه بتصرف.

حدث كان مفاجأة كبيرة!! لقد انطفأت النـار من كثرة الدماء التي تدفـقت من جسد الصبي.. وكلـما أشعلوها ثانيةً أطفأتها الدّماء.. حتى توفـي أخيراً بعد أن تمزق جسده الصغير إلى أشلاء.

الثلاثاء

أدخل المتقدم الأول:

- إختبار بسيط نجريه عليك قبل أن نسلمك العمل الذي تقدمت له.
- حاضر.
- حسناً. ما مجموع اثنين واثنين؟
- أربعة.

ثم أدخل المتقدم الثـاني:

- هل أنت جاهز للاختبار؟
- نعم.
- حسناً. ما مجموع اثنين واثنين؟
- المجموع هو ما يقوله المدير.

وحصل المتقدم الثـاني على الوظيفة.

دروج الحكمة

الاربعاء

إذا لـم أحترق أنا، وتحترق أنت.. فلا سبيل للخروج من الظلام إلى النور. دعني أحترق.. وأحترق حتى تصير جثـتي رماداً.

دروج الحكمة

الخميس

يحتوي هذا التابوت المرعب في داخله على مسامير طويلة.. موضوعة بعناية حتى لا تخترق أي جزء حيوي في الجسم كالقلب أو الرأس أو الرئة فلا تحدث الوفاة بسرعة.. ويبقى الضحية يتعذب ويتلوى في الداخل لأطول وقت ممكن. يحشر الضحية في داخله ثم يغلق باب التـابوت، والداخل مبطـن بالفـلـين العازل للصوت فلا يسمع صراخ أو تأوهات الضحية، وهو كذلك لا يسمع أي شيء من الخارج ولا يرى حتى نقطة ضوء. وهذا يضاعف العذاب الجسدي. ابتُكر هذا التـابوت المرعب في إحدى قلاع مقاطعة «نورنبرغ» الألمانية، ولاقى انتشاراً واسعاً في مملكة إسبانيا التي قامت بعد سقوط الأندلس حيث كان يسمى هناك بـ «العذراء» لأنـه كان يتم تصميمه على هيئة السيدة مريم العذراء.

السبت

لا يجرؤ أحد على البحث عن الحقيقة. والذين يبحثون عنها لا يجرؤون على اكتشافها. والذين يكتشفونها لا يجرؤون على إعلانها... والذين يعلنونها لا يجدون من يصغون إليها.. والذين يصغون إلى الحقيقة عاجزون عن فعل أي شيء.

دروج الحكمة

الأحد

أبو عصام رجل في بحر خمسينيات عمره، دخل السجن في قضية مخدرات.. وحكم خمس سنوات. وفي بداية السنة الثالثة في السجن أصيب بجلطة دماغية شلت جسده بالكامل! رجع من المستشفى بعد أسبوعين.. وما

عاد قادراً بعدئذ على تحريك أطرافه.. فقط حركة بسيطة في الرأس. فصاروا يحملونه على حمالة كحمالة الميت من الغرفة إلى الحمام إلى الباحة ليرى السماء. ولا زال أبو عصام في السجن ينهي مدة حكمه.. وقد رفض ذووه أخذه، ولا تدري الإدارة ما تعمل به. فصار عالةً على سجناء زنزانته يتناوبون على إطعامه وغسله وتغيير حفاضاته.

الاثنين

إنها كرسي غـرست المسامير في كل نقطة منها ليصل عددها إلى 1300 مسمار. يجلس عليه الضحية عارياً ويربط بواسطة الأحزمة الجلدية حتى لا يستطيع الحراك. تخترق المسامير كل جسده حتى الذراعين وأخمص القدمين والخصيتين، وكثيراً ما توضع أثقال فوق جسم الضحية حتى تزيد الثـقل نحو الأسفل. ومن أجل مضاعفة العذاب أحياناً كان يتم تسخين الطـبقة الحديدية التي تحتوي على المسامير حتى يلتصق اللحم بالحديد وتلتصق المسامير داخل الجسد. مما يجعل النـهوض عن هذا الكرسي عذاباً آخر.

الثلاثاء

شكل قلب الإنسان يشبه المثلث، وشكل الأرض يشبه الدائرة. القلب رمز لحاجات الإنسان، والأرض رمز لمسرات الحياة. فلو وضعنا الدائرة داخل المثلث ولامست جدران المثلث.. فإن الزوايا تبقى فارغة لا تصل إليها الدائرة لتعبئها. هكذا العالم وملذاته لا يستطيع أن يشبع قلب الإنسان شبعاً كاملاً.

دروج الحكمة

الجمعة

لقد كان لأوروبا القرون الوسطى نصيب الأسد في ابتكار الأدوات القاتلة،

ولكن عالمنا المشرقي في ذلك الوقت لم يتأخر عن اللحاق بركب هذه الاختراعات والابتكارات. فكان للشرق الشرف في ابتكار الخازوق الذي بقي استعماله حتى أواخر القرن التاسع عشر في بلاد الشام والدولة العثمانية بوجه عام. والخازوق من أكثر الطرق بشاعة في الاعدام ومعاقبة المذنبين. إبتكره العثمانيون واشتهروا به. ثم أخذه عنهم حاكم رومانيا الشهير (فلاد دراكولا). وهو وتد ذو نهاية حادة يثبت في الأرض ويجلس الضحية فوقه بعد أن يتم إدخال الخازوق في فتحة الشرج. وتربط يدا ورجلا الضحيّة بإحكام حتى لا يستطيع الحركة، ويترك على هذه الحال معلقاً ينزلق ببطء وهو يتعذب ويصرخ من الألم المبرح. أحياناً كثيرة يتم إدخال الخازوق بطريقة تمنع نزيف الدم والموت الفوري، وبالتالي إطالة معاناة الضحية لأطول وقت ممكن. وإذا كان الجلاد ماهراً فإنها ستصل إلى يوم كامل.

بعد دخول الأتراك العثمانيين أرض العراق تم استخدام الخازوق على نطاق واسع وتفننوا في القتل به، وأجروا الدراسات حول استخدامه. وكانت الدولة العثمانية تدفع المكافآت للجلاد الماهر الذي يستطيع أن يطيل عمر الضحية على الخازوق لأطول مدة ممكنة. حيث يتم إدخال الخازوق من فتحة الشرج ليخرج من أعلى الكتف الأيمن دون أن يمس الأجزاء الحيوية من جسم الإنسان كالقلب والرئتين بأذىً يؤدي إلى الوفاة بسرعة. أما إذا مات المخزوق أثناء عملية الخوزقة، فيحاكم الجلاد بتهمة الاهمال، وقد يتعرض لتنفيذ العقوبة نفسها عقاباً له لإهماله.

الأحد

عندما اقترب السياف من والدة نيرون شاهراً سيفه ليقتلها، تنفيذاً لإرادة

ابنها نيرون! وقفت أمامه وبسطت ذراعيها بشجاعة بطولية وقالت: إضرب البطن الذي حمل هذا الوحش المسخ.

دروج الحكمة

الثلاثاء

بقعة مخزية أخرى بارزة في التعذيب هي سجن أبو غريب[1] الذي مارس الضرب على أشكاله بقبضات الإيدي وأنابيب الكاوتشوك التي بداخلها قضيب حديدي، والحبال والهراوات والسياط. واستخدم أيضاً الكماشات والملاقط لشد رؤوس أصابع اليدين والرجلين بالعنف الشديد. ومورس أيضاً نزع أظافر الأصابع والضغط على العيون وهي معصوبة.. التعليق في السقف لساعات.. تعليق الضحية بمروحة في السقف ثم تدار المروحة ويضرب الجلاد الضحية كلما صارت أمامه.. الضرب بشحنات كهربائية في مواضع حساسة من الجسد.. حرق أجزاء من الجسد بواسطة السجائر أو المكواة الكهربائية أو الصفائح المعدنية المكهربة أو الغاز الملتهب.

ومارست سجون الشرق أيضاً ربط الضحية على صليب معدني ثم برمه فوق النار كما حالة شي اللحم.. إدخال رأس الضحية في علبة مقفلة تخترقها الأشعة فوق البنفسجية الساطعة مما يؤدي إلى إحراق الجهاز البصري.. إدخال الضحية بعد التعرية من الثياب في خزانة معدنية محماة وممتلئة بالبخار الساخن، ويتم تبريد الخزانة بشكل مفاجئ.. إعتداءات جنسية باستخدام وسائل مادية أو كهربائية.. سلخ الجلد أو تشطيبه بواسطة الأدوات الحادة.. زرع المسامير في الجسد.. إجبار الضحية على رؤية مشهد تعذيب أو

(1) ويحمل الآن اسم سجن بغداد المركزي، يقع قرب مدينة أبو غريب غرب بغداد، واشتهر هذا السجن عندما بدأت قوات التحالف تستخدمه بعد احتلال العراق.

إسماعه صراخ تعذيب الآخرين.. التعرية أمام الجنس الآخر.. الحرمان من النوم (التسهير) والغذاء والماء والتغوط والعناية الطبية.. الاعدام عن طريق تفجير الإنسان.. الموسيقى الصاخبة بشكل متواصل للتأثير على الحواس.

الأربعاء

كان يرقص ويغني طافراً من شدة الفرح في ذلك الصباح. سألته: ما سبب بهجتك اليوم؟ أجابني: إني مسافر في رحلة سياحية رائعة. فسألته متعجباً: وهل حصلت على إخلاء سبيل؟! أجاب: لا. ولكن «الباش» أذن لي أن أغمر زوجتي وأولادي في زيارتهم لي اليوم.

الخميس

أولئك الذين يعانقون الوهم باسم الدين
فيقتلون ويقتلون
الملحد قد يحصل على بركة الله أيضاً فلا تفخر بدينك،
إنـه يوقد في خشوع مصباح العقل ويقدم تمجيده.
لا للكتب.. ولكن لكل شيء طيب في الإنسان.
إن الطائفي يلعن دينه
حين يقتل إنساناً من غير دينه
وهو لا يقوّم السلوك على ضوء العقل
ويرفع في المعبد العلم الملطخ بالدماء
ويعبد الشيطان في صورة الإله!
كل هذا الذي تم عبر الأحقاب والعصور
مخجل ووحشي.. قد وجد ملاذه في معابدكم التي تحولت إلى سجون

لقد سمعت أصوات أبواق التـدمير تـبلـغ الزمن
بمكنستها الجارفة.. لتكنس كل هذه المهملات.
كل ما يحرر الإنسان يحولونه إلى قيود!
وكل ما يوحده يحولونه إلى سيوف
وكل ما يحمل الحب من النـبع الخالد يحولونه إلى سجون
يحاولون اجتياز النـهر في سفينة مثقوبة!
يا إلهي دمر الدين الزائف
وانقذ الأعمى
ودمر المعبد الملطخ بالدماء
ودع هزيم الرعد ينفذ إلى سجن الدين الزائف
واحمل إلى هذه الأرض التـعسة نور المعرفة.

دروج الحكمة

السبت

سجون عربية كثيرة مارست الأساليب التـعذيبية الشديدة.. التي تـلحق الأذى الجسدي والنـفسي بالانسان، وتمتهن آدمية الإنسان. ويروي سجين في أحد سجون الشرق.. أنـه نظر يوماً من فتحة صغيرة تطل على زنزانة جاره السجين، فرأى أن حالته قاربت حدود الموت.. ورأى خصيتيه مسلوختين من الصعق الكهربائي.. وكان يمده بورق التواليت كي يجفف الدماء التي كانت تسيل من أعضائه التناسلية. وفي سجن آخر كانت النـساء والمعتقلون السياسيون يعرون من ثيابهم أثناء التحقيق في المراكز التابعة لأمن الدولة. مارست سجون الشرق الاعتداء على زوجة المعتقل أو أخته أمام عينيه..

وضع الحذاء في فم الموقوف.. وضع الرأس في المرحاض.. نتف شعر الذقن والصدر عبر شده بقوة.. تغطيس الرأس في الماء الملوثة.. الطعام الملوث بحشرات مما يؤدي إلى تقلصات معوية يرافقها مغص شديد.. وعندما يموت الموقوف تحت التعذيب، تجبر السلطات عائلة الميت على دفنه فوراً، ودون إقامة مراسم التشييع الطبيعية. وتجبرهم أيضاً على توقيع تعهّد على عدم إخبار الناس بظروف الوفاة. وفي هجوم إرهابي في إحدى المدن العربية اعتقل أحد المشتبه بهم وهو رجل دين، وأجبر على الاعتراف بأنه أحد الفاعلين فأبى، فوضعوه داخل البراد مع عشرات من ضحايا الهجوم نفسه. وفي إحدى الغرف المظلمة التابعة لأمن الدولة غطس الضحية في ماء بارد جداً لمدة ثلاثين دقيقة.. ثم غمس في الماء الحار جداً مما جعل مسامات الجلد تتفتح.. عندها مسح الجسد بأنواع مختلفة من الفلفل والبهارات إمعاناً في الإيلام. اعتقل أحدهم من قبل جهاز أمني تابع للدولة، فراح يتعرض لتعذيب شديد لأكثر من أسبوع لانتزاع اعتراف مسجل منه أنه يحوز سلاحاً لأغراض إرهابية، وأنه مدفوع من قبل المخربين. ورفض. فعلقوه كالذبيحة بعد أن طوي جسمه وربط رأسه بين فخذيه، ثم انهالوا عليه بالضرب بالهراوات الغليظة. وبعد تكرار عملية طي الجسم هذه أصيب بالشلل في النصف الأسفل من الجسم. ربما بسبب الاجهاد على النخاع الشوكي أو بسبب كسر في الرقبة. وبعد إخبار الوزير بهذا التطور أمر بتعذيبه في الجزء الأعلى من جسمه، أي الجزء الذي يشعر به. وبدأت الضربات تصيب الرأس بعد أن كانت مسلطة على باقي الجسد. واستمر التعذيب على هذا المنوال، ولم يهنأ بال الوزير حتى جاء وحضر بنفسه جلسات التعذيب. وفي إحدى

الجلسات التي حضرها الوزير أصيب الموقوف بضربة عنيفة في رأسه سببت نزيفاً في المخ.. فقد الوعي ودخل في غيبوبة. أكد الطبيب أنها ضربة قاتلة، فسارع الوزير واتصل بمجلس القضاء الأعلى لترتيب القضية و«لملمة» الموضوع بوسيلة ما.. كما دائماً.

الأحد

السعادة! هل فكرت كم أسالت هذه الكلمة المرعبة دموعاً ودماءً؟ لولاها لكنا ننام بهدوء.. ونعيش كما يحلو لنا.

دروج الحكمة

الاثنين

قد مر ألف عام والحزينة أوفيليا تتجلى فوق النهر الداكن الطويل شبحاً أبيض يرفرف على سطح الماء...

مر أكثر من ألف عام والمقهورة أوفيليا تهمس بهذيانها الرائع لنسمات المساء... أوفيليا أيتها الشاحبة الندية، فاضت روحك الندية وسط المياه الجارفة. الحب.. الحرية.. السماء.. أي حلم كنتِ أيتها الطفلة العذبة الرقيقة.. تذوبين فيه كقطعة ثلج وسط لهيب نار مستعر.

دروج الحكمة

الثلاثاء

سلة من فنون.. ووسائل التعذيب التي مارسها الإنسان ويمارسها ضد أخيه الإنسان بكل وحشية وبشاعة. لا شيء يبرر التعذيب.. مهما كان المجرم شريراً. يجب ألا يتخلى الإنسان تحت أي عنوان أو مسمىً عن إنسانيته التي من أجلها سمي إنساناً. للأسف الشديد لا زال التعذيب قائماً في أيامنا الحديثة

هذه.. وفي هذا الزمن من الحضارة والرقي والعولمة. من أميركا إلى أفريقيا حتى أوروبا فالشرق الأوسط والأقصى. والوحشية تصدر أيضاً عن الناس العاديين! غريب! كلما زاد الإنسان تقدماً تكنولوجياً زاد تخلفاً أخلاقياً. فكثيراً ما نسمع عن أم تكوي ولدها بالحديد الساخن، وأب يحرق ابنته بالبنزين، وزوجة تسلخ جلد زوجها أو تقطع عضوه التناسلي. ويبدو أنه مهما بلغ الانسان من مدنية وتحضر فالهمجية والوحشية باقية لا تزول، بل تبقى كامنة مختبئة تنتظر الفرصة ليطلق لها العنان. وقد صدق كارل ماركس إذ قال إن حضارة المجتمع الغربي لا تزال في البدائية الوحشية. هل يجوز أن يبقى التعذيب في أيامنا هذه؟ ونحن على عتبة الألفية الثالثة.. لماذا؟! الجلاد المعذب مجرم هو الآخر. هناك من يعذبون وهم أبرياء.. ولكن المجرمين أيضاً يحتاجون لعناية الانسانية بهم. العنف لا يمنع الجريمة، العنف يولد العنف. العنف مضخة للعنف! العنف تربة خصبة لنمو الحقد والكراهية والتسيب وشهوة الانتقام والعبثية. العنف نحو المجرم يقتل فيه أي رغبة في التوبة يمكن أن تبحث لها عن وجود.

ثم قرأ ناجي هذه العبارة في آخر هذا النص: هذه الأشياء التي أخطها يا من تقرأني الآن منسوخة من كتاب (العنف في حضارة الانسان) للكاتب مل ستيوارت، ترجمة الدكتور أنيس لبكي، الدار الوطنية للأبحاث والنشر[1]. لقد كان ناجي يقرأ نصوصاً منسوخة من هذا الكتاب بقلم وليم عامر. كانت النصوص مستفيضة في جوانب ونواح متعددة. ترى لماذا يكتب وليم عن التعذيب؟! ما هو الجذاب في هذه النصوص حتى ينسخها.. إن هي إلا

(1) هذا الكتاب لا وجود له، وهو من ابتكار مخيلة الكاتب.

إسقاطات وجدانية للصورة السالبة في ذاته! إن مناخ السجن والسجناء يحمل لقاح الميل العنفي إلى المزاج.. حتى يحبل بالجريمة أخيراً. أترى يعالج السجين قلبه بـ «التي كانت هي الداء؟» عولجت الجراح قديماً بالكي.. والنفس المجروحة بالميل الشرير هل تشفيها المشاهد الأكثر شراً أم تزيد الجرح التهاباً وتقيحاً؟! أم هو يريد تعبئة وقته وأوراقه لا أكثر! وتابع ناجي إلى نهاية هذه النصوص الطويلة وطوى المخطوط جانباً.. وجلس إلى حاسوبه ودخل إلى الفايسبوك آملاً أن يتحادث مع سحر. لم تكن فتحت الخط، فخرج إلى الشرفة ونفخ سيكاره.. ثم عاد واستراح قليلاً وهو ينظر شيئاً على التلفاز. ومرت ساعة عاد بعدها إلى حاسوبه وانتظر دقائق حتى فتحت الخط معه.. ها هي! وبادرت هي أولاً:

- مرحباً يا رجل. كيف أنت؟

- مرحبا سحر. أنا جيد.. وأنت؟

- ممتازة. ما جديدك؟

- لا شيء غير المراوحة. كنت أقرأ الآن عن موضوع التعذيب. هل فكرت في موضوع التعذيب في السجون؟

- جيد! هذه ناحية هامة.. شكراً لك يا ناجي. هل تعرضت أنت يوماً للتعذيب في السجن؟

- لا. ولكني عرفت أشخاصاً عذبوا. رأيت آثار التأديب في أجسادهم.

- العقاب في سجوننا يا ناجي هو تعذيب مخيف، أليس كذلك؟

- عندما يصنع السجين شغباً وعنفاً في داخل السجن مثلاً.. ألا ضرورة للتأديب؟!

- ولماذا يُحدث السجين شغباً في السجن وهو أصلاً في حالة تأديب وعقاب؟

- لديه مطالب..!

- هل يحدث السجين شغباً بغير حق أم أن مطالبه محقـة؟

- أحياناً محقـة وأحياناً لا.

- إذا كانت محقـة يجب أن يأخذها. أو غير محقـة.. يكفي السجن الانفرادي لأيام كتأديب.

- أنت يا سحر تعيشين خارج السجن.. لم تشاهدي قط سجيناً يحدث شغباً.. إنه يتحول إلى عملاق هائج يخيف رجال الأمن أنفسهم. وأنت لم تري كذلك العنف الجماعي داخل السجن.. وعشرات من السجناء الذين تحولوا إلى مسوخ عملاقة لا يقف في وجههم شيء. إن أحدهم إذا ضرب الجدار بقبضته يهده، ويقذف الخزانة الحديدية كأنها الكرة.

- أكرر وأقول.. السجن الانفرادي يكفي كعقاب.

- والمحرضون المتآمرون ماذا نعمل بهم، وهم يخططون للعصيانات والشغب بصورة دائمة؟

- تعطى لهم مطالبهم.

- أنت تبسطين المسألة يا سحر.

- لماذا لا يحدث عصيان في السجون الأوروبية كثيراً.. مرات نادرة لا تذكر. أما عندنا في هذا الشرق البائس فما أكثر العصيان في السجون وخارج السجون.

- لن أقبل بهذا.. لقد غلبتني هذه المرة أيضاً. القضية ليست قضية مطالب،

القضية قضية مزاج وطباع الإنسان الشرقي عموماً. الشرقي غاضب دائماً بعكس الإنسان الغربي. ولهذا فالثورات والتمردات كثيرة في مجتمعنا وفي سجوننا.

– ما سبب الثورات يا ناجي؟ المزاج الشرقي الغاضب بطبعه..! لا أظن. فلو لم يكن هناك ظلم وقمع وإرهاب وقيود وخوف وحرمان وجهل وتعصب في مجتمعاتنا لما كان الغضب في الشارع. أليس هذا صحيحاً؟

– لديك حق بلا شك في ما تقولين. مهلاً جاءتني رسالة الآن. أتأذنين لي بأن ألقي نظرة؟

– هيا. سأنتظرك.

ودخل ناجي إلى الرسالة ليرى ما هي.. فإذا هي من مجهول سمى نفسه (مجهول) وصورته كذلك مبهمة غامضة.. يطلب الانضمام كصديق. فرد ناجي على الفور وقبله كصديق. وتابع الكلام مع سحر. وما هي سوى دقائق حتى ظهر هذا الـ «مجهول» على زاوية الاتصال والمحادثة.. فبادر ناجي إليه وهو لا يزال يكلم سحر:

– هيه.. أيها المجهول ألن تعرفنا بنفسك؟

– لن أعرفك بنفسي ولكن عندي ما أقوله لك.

– ماذا تريد أن تقول لي أيها المجهول؟

– أحذرك بلهجة جادة وشديدة أن تبتعد عن الصحافية سحر سالم.

★★★★★★

10

إننا نطيل الكلام عندما لا يكون لدينا ما نقوله،
ونختصر عندما نملك ما نقوله.
أندريه شينيه

إنها الحادية عشرة تماماً قبل الظهر.

كانت سحر جالسةً على الكنبة الجلدية الوثيرة في بهو الانتظار في مبنى الوزارة. وحضر معها المصور، بيد أن السكرتيرة أكدت لها أن معاليه لا يريد اللقاء إعلامياً، فعاد المصور بأدواته إلى السيارة، وأذعنت سحر وجلست تنظر إلى التلفاز المسطح الكبير المعلق على الجدار الخشبي المزخرف. عيناها عصفوران تائهان في مشاهد التلفزيون.. والحيرة براجة تحاول أن تنبئها بقصد الوزير من هذا اللـقاء.. والعقل طريدة عالقة في شبكة الأفكار التي تريد طرحها عليه. شعرت أن كل شيء تبخر من ذهنها.. تماماً كما يشعر التلميذ عند بدء الامتحان. أخذت ورقةً تريد أن تضع رؤوس أقلام، فانتصبت السكرتيرة كشبح أمامها بابتسامة بروتوكولية وقالت لها:

– الوزير بانتظارك. تفضلي آنسة سحر.

– شكراً. قالت سحر. ووضعت القلم والدفتر في حقيبتها وسارت وراء

السكرتيرة.. وهي تـنقل بصرها ذات اليمين وذات اليسار.. مأخوذةً بالهندسة الداخلية الحديثة للمكان. رأتها السكرتيرة تنظر إلى المصابيح المدلاة من السقف بأشكال غريبة لطيفة، والتماثيل الخشبية التي تشبه الأجسام الفينيقية، والرسومات الكبيرة بالألوان القاتمة المعلقة على الجدار. وهذه الغرابة في الديكور تخلق مناخاً تراثياً تاريخياً بعض الشيء. ظنت سحر للحظة أنها في وزارة السياحة والآثار. قالت لها السكرتيرة:

– لم ينتهِ الديكور بعد. هذا كله من ذوق الوزير. هو يدير الشغل بنفسه.

– إنه فنان. قالت سحر. وأوصلتها السكرتيرة إلى مكتب الوزير وفتحت لها الباب. ولجت سحر إلى الداخل وهي تنظر في موزاييك الباب ونمنماته.. فإذا هو تحفة زخرفية مثيرة.

– أهلاً بصحافيتنا اللامعة سحر. تفضلي اجلسي.. وأرجوك خذي راحتك بالكامل. قال الوزير واقترب منها وصافحها.

– صباح الخير معالي الوزير. قالت سحر وهي تمد يدها للمصافحة. وقد جذب بصرها السيكار لأول وهلة والخاتم الثمين في الخنصر والعطر الرجولي الجذاب.. أناقة من الدرجة الأولى!

ثم جلست في زاوية مقابل الواجهة الزجاجية لترى مشهد الأبنية العصرية في وسط المدينة.. وهي ثمرة مخيلة معماريي مرحلة ما بعد الحرب.. ورفوف الحمام تسافر بحرية من سطح إلى سطح كما تسافر أحلام الشباب الثائر من خيبة إلى أخرى. وجلس الوزير أيضاً مقابلها وقال:

– أنت صحافية ناجحة يا سحر. الله يقويك. عملك رائع. تأتين بحقائق مثيرة يجب أن تصل فعلاً للرأي العام.

ولكنك تقفين إلى جانب السجناء ضد الدولة.. كأنهم ضحايا يا سحر والدولة هي الجلاد! قال هذا ودخل مباشرةً في صلب الموضوع.

- إستنتاجك فيه شيء من الحقيقة يا معالي الوزير. قالت سحر بشجاعة. وعكست كلماتها المفاجأة في ملامح الوزير. فسأل:

- هل أصبح الجلاد ضحيةً يا سحر؟! من الذي يرتكب الجرائم.. الدولة أم المجرم؟!

- بل السؤال الأدق: من الذي وفر بيئةً تستدرج الإنسان الطبيعي لكي يصير مجرماً؟ هنا بيت القصيد يا معالي الوزير.

- الدولة تكافح الجريمة يا سحر ولا تساعد على انتشارها.

- من هو المسؤول عن الجهل والفقر في المجتمع؟

- الدولة طبعاً.

- ووجود الشرائح المجتمعية الفقيرة والمتخلفة.. الكبيرة عندنا.. مسؤولية من؟

- الدولة أيضاً.

- الإحصائيات تقول إن 70 ٪ من الجريمة في بلدنا هي في هذه الشرائح الفقيرة والمتخلفة.

- ولكن معركة الدولة مع الفقر والجهل معركة طويلة. وهذا مرتبط باقتصاد البلاد وتوفر الميزانيات، ويتأثر أيضاً بالسياسة. أنت تحتاجين للمال لحل هاتين المشكلتين. هناك عمل جاد للدولة في هذا الاتجاه.

- ناحية أخرى يا معالي الوزير، وهي الأهم.

- ما هي؟

- فشل السجن كمؤسسة عقابية رادعة للجريمة.

- أوضحي.

- إساءة استخدام السجن يجعل منه مشكلةً لا حلاّ. الإدارة السيئة للسجون تجعل منها تربة خصبة لانتشار وباء الجريمة. والسكين إذا أسيء استخدامه يجرح ويقتل.

- الأخطاء الإدارية موجودة في كل مكان، فهل يعني هذا فشل الإدارات كلها؟

- الخطأ في إدارة السجن كارثة يا معالي الوزير! كما الأخطاء في بعض الإدارات الأخرى. والخطأ في السجن أحياناً يدمر إنساناً كان بالامكان إصلاحه وشفاؤه.. يدمر عائلةً بل مجتمعاً بكامله.

- قد تكونين على حق. ولكن أداءك في موضوع السجن.. يحرض السجناء ولا يساعد في تصحيح هذه الأخطاء التي تتحدثين عنها.

- ماذا أقول يا معالي الوزير.. ومن أين أبدأ؟ شاب في العشرين ارتكب جريمة قتل لأنه غرّ أرعن لم يكن يعي ماذا يعمل. ينال حكماً خمسةً وعشرين عاماً، ثم يخرج في الخامسة والأربعين من السجن. لقد انتهت حياته! يخرج وفي قلبه وعقله كره للناس والدولة والمجتمع.. زائد خبرة في الجريمة تعلمها في السجن. يخرج والأغصان المثمرة من عمره قد ماتت، هذا ولم يُعمل على الجانب النفسي.. بل الشفاء النفسي في شخصه داخل السجن. لقد قتلنا نحن إنساناً آخر بدورنا فصرنا شركاء الجريمة!

- وماذا نعمل بقانون العقوبات، هل نمزقه ونرميه في القمامة؟! سأل الوزير مندهشاً.

- عندما يكون الهم الوحيد تطبيق الأحكام القانونية وليس بناء الإنسان.. هنا خطأ المبدأ المنطقي. يجب أن يكون الإنسان الهم الأول ثم القانون. لأنه عندما نطبق القانون ولا نبني الإنسان لا نعود نحمي المجتمع من الجريمة بل نغرس جرثومةً خبيثة أخرى في جسد المجتمع. الإنسان أولاً يا معالي الوزير.

فدهش الوزير من جرأة سحر على صغر سنها.. وتنحنح مرتبكاً لا يدري ما يقول. ثم أجاب بصوت أجش:

- هنا دور الجمعيات الإنسانية وذوي الاختصاص منها. نحن نعمل على السماح لكثير من الجمعيات بالدخول إلى السجون.. وتغطية هذا الجانب الاجتماعي النفسي في السجن. ووزارة الشؤون الاجتماعية تدرس ملف السجون من هذه الناحية.

- متى يا معالي الوزير.. متى؟ الكوارث واقعة.. مستمرة. يكفي هذا البلد درس ونقاشات وسجالات وآراء ونظريات. واقع السجن يحتاج لحل سريع قابل للتنفيذ.

- أنا معك في كل ما تقولين. وأنتم المواطنين تريدون الأشياء دائماً بسحر ساحر. لو كنتِ في موقع مسؤول فتري الصعوبات الجمة التي تعترضنا.

- المواطن موجوع يا معالي الوزير.. إنه يلوك آلامه مع طعامه، ويشرب همومه ومصائبه في كوب شرابه. المواطن يريد خلاصاً ولا يفكر بالعقبات والصعوبات.. ولا السجالات والصراعات داخل أطراف الجسم الحاكم.. ولا حتى في كيفية مجيء الحل.. يريد الخلاص وكفى.

- والدولة ليست غافلةً عن وجع المواطن يا سحر.. إننا نعمل جاهدين لإيجاد الحلول.

- لقد فات الأوان يا معالي الوزير.. فات الأوان. وبلعت سحر غصتها عند هذه الكلمة، وحبست دمعتها.

- فات الأوان على ماذا؟! سأل الوزير متعجباً. وأجابت سحر:

- عندما ينكسر الزجاج لا يمكن جبره ثانيةً.

- أنت هكذا دائماً تعملين من الحبة قبة. الدولة ليست إلهاً! وهي تعمل ما يمكنها فعله.

- الذي يضرب بالعصي ليس كالذي يعدها. هل سمعت يا معالي الوزير بـ هاني سالم؟

- لا!

- إنه أخي.

- أخوك! ما به؟

- كان إنساناً طبيعياً مثل كل البشر.. وحدث «خطأ» كالأخطاء التي نتحدث عنها الآن.. خطأ إداري! وأوقف للاشتباه به في رمي قنبلتين ليلاً وأحداث شغب في تظاهرات كان موجوداً في واحدة منها. أوقف ثلاثة أشهر. وذاق من التعذيب الأمرّين.. وترك التعذيب تشويهاً كبيراً في جسده. ولكنه خرج من السجن شيطاناً رجيماً.

- أعطيني رقم أخيك. سأكلمه.. سأعاقب كل الذين أخطأوا بحقه.

فضحكت سحر عندها ضحكةً ساخرة، وقالت:

- أما قلت لك فات الأوان يا سيدي الوزير.

- لماذا فات الأوان؟ هل حدث لأخيك مكروه لا سمح الله؟!

- هو في دائرة هذا المكروه المحتمل. لقد أصبح أخي مجرماً كبيراً..

رئيس عصابة خطيرة. ونار شره هذه مصدرها الوحيد هو أتون الكره المتقد في ذاته ضدكم يا معالي الوزير.

صمت الوزير متأثراً من كلمات سحر. ومرّت ثوان لا كلام فيها.

– كيف تحبين القهوة يا سحر؟ سأطلب لك فنجان قهوة. قال الوزير قاطعاً حبل الصمت.

– وسط. أجابت سحر. وعاد فسأل:

– وأين أخوك الآن؟

– في جهنم الحمرا.. وهل نعرف في أي بقعة قذرة هو الآن؟ إنه كالميت في نظرنا. ولم تتمالك سحر عن البكاء.. فترقرقت عيناها بالدموع.

– أخوك مأساة حقيقية. شكراً لك يا سحر.. لقد بحت الآن بحقيقة ألمك.. وهذه المأساة هي وراء كفاحك الشجاع هذا. لن أترك قضية أخيك لمهب الريح. أعدك يا سحر سأتابع الموضوع، وسأعاقب من وراء هذا الاهمال المخيف. وعندما يمثل أمام القضاء سأوكل أفضل المحامين، وسأعمل جاهداً لأجل تخفيف الأحكام. فقاطعته سحر بسؤال يائس:

– وهل يبقى أخي حياً لحين مثوله أمام القضاء؟

– ماذا أقول لك يا سحر.. كان الله في عونكم.. أرجو من كل قلبي ألا يصيبه مكروه. الخطأ وقع وها نحن نحاول ما نستطيع لإصلاح الأمر تفادياً للأسوأ. وأقول لك الصراحة إنك فتحت العيون بأدائك على مآسي كثيرة موجودة في السجون، وهناك الكثير من مثل مأساة أخيك.

– لا أريد منك المديح يا معالي الوزير. الحاجة ملحة لإيقاف هذه المآسي الكثيرة التي تعرفونها.

- لا تتهكمي.. قلت لك إن الإصلاح يحتاج الى وقت.

- الإصلاح في ظل هذه القوانين ليس إصلاحاً.

- ما هذا أتريدين أن تعملي ثورةً.. وتضعي قانون عقوبات جديداً يا سحر؟

فقالت سحر وهي تمسح بأناملها الرقيقة رطوبة وجنتيها، وقد استعادت صفاء صوتها. وفي الوقت نفسه يدخل مضيف القهوة ويضعها على المنضدة، ويخرج بهدوء، ويشكره الوزير. ثم سألت سحر:

- كيف تؤدب ابنك يا معالي الوزير؟

- أتشبّهين الجرائم بأخطاء الأولاد؟

- أنت تضربه في مكان لا يؤلمه ولا يؤذيه. وعندما تؤدبه تكلّمه وتشرح له أسباب التأديب. وبعد التأديب تقدم له المحبة لتقول له إنك لا تحب أن تضربه أبداً.. وإلا فأنت تغيظه وتدفعه للخطأ ثانيةً نكايةً بك.

- التشبيه غريب يا سحر.. هناك مجرمون خطرون.. إرهابيون.. وما تقولين مستحيل! لا بد من القسوة والقبضة الحديدية وإلا انفلت التماسك الأمني.

- لا زلت أتحدث عن التأديب. وأعني تأديباً لا يهدم الحياة. وترافق التأديب عملية الإصلاح والبناء النفسي الإختصاصي. الأحكام التي تتجاوز العشر سنوات تأديب يهدم الإنسان يا معالي الوزير.. المؤبد قاتل للإنسان يا معالي الوزير.. الإعدام إرهاب فظيع بحق الإنسانية يا معالي الوزير.

- مهلاً! يبدو أن لديك نظريةً في القانون. على هذه الحالة سنأتي بقضاة وحقوقيين لطرح نظريتك أمامهم. هذه ثورة واضحة على القانون!

- لماذا أنتم التقليديون تخافون من كل جديد.. وتنعتونه بالثورة أو الصرعة أو البدعة؟!

- لأنكم أنتم المجددون تريدون الإصلاح عن طريق الهدم السريع.. ولا تتنبهون أن إعادة البناء تحتاج لوقت طويل. فما دام الوقت طويلاً.. فلا للهدم ونعم للإصلاح المرحلي.

- لقد عدنا الى نقطة الصفر.

- لن آخذ من وقتك أكثر يا سحر. لديك عمل وأنا كذلك. أريد أن أقول لك إن أسلوبك هذا يؤدي إلى المتاعب والتأزم.. وقد لا ينتهي إلى ما تريدين أن تصلي إليه.

- السجون الإصلاحية؟! هل هذا مستحيل؟

- السجون الإصلاحية! مممـم.. فكرة ممتازة.. لا بأس. ولكن أتمنى عليك الآن أن تخففي من هذه الحركة الثائرة.. لطّفيها قليلاً.. هذا حالياً ليس في صالح السجين.. وقد لا يكون في صالحك أنت. أقول هذا لمصلحتك. وأنا أخاف عليك أيضاً يا سحر.

- ممن؟

- قد يكون ثمن جهادك باهظاً.. وباهظاً جداً. إذا أصبح السجن بركان ثورة فإن الحمم ستشعل المجتمع بكامله. أريد أن آخذ منك وعداً.. والآن.. أنك ستغيرين أسلوبك.

- لا أستطيع يا معالي الوزير. الصحافي ناقل لأخبار المجتمع. وناقل لأوجاعه وشكواه أيضاً.

- خففيها قليلاً يا سحر.. سمعي الكلمي يا سحر سالم. الوضع في السجون نحو أزمة!

فانتصبت سحر عندئذ بعد أن رشفت آخر رشفة من القهوة وهي تقول بثقة وشجاعة:

– ما تطلبه مني مستحيل. أنا لست من الذين يخونون مبادئهم وقناعاتهم. هناك مصالحة.. بل تحالف وزواج عميق بيني وبين قضيتي. أعذرني يا معالي الوزير. واقتربت من الباب. فقال الوزير:

– ستتعبين وتتعبيننا معك يا سحر. مع السلامة، سررت بمعرفتك. سأعود وأتصل بك أيضاً، وسأحاول ثانيةً.

ثم خرجت من عند الوزير وهي تهمس في قلبها: «لا شيء مفيد في هذا اللقاء إلا ما يخص أخي هاني».

******

تجاوز الليل منتصفه.. ذات ليلة لطيفة من ليالي حزيران الصافية المنعشة. ورائحة الليل في حزيران رسول مبكر لفصول الحر الطويلة. كانت سحر تشاهد برنامجاً تلفزيونياً. كوب النسكافيه إلى جانبها.. متكتلة على ذاتها فوق الأريكة كحشرة الخنفساء.. على الشرفة تحت شجرة الجوز الوارفة. الحاسوب في حضنها، وعيناها تجولان جيئةً وذهاباً بين الشاشتين. هذا زمن التكنولوجيا! زمن الأزرار والأرقام والمعلومات، والبرامج السريعة التي أذابت المسافة بالكامل بين البشر. هذا زمن النشاط العقلي المبرمج للإنسان.. وليس النشاط الحر المبدع! وصناع الكمبيوتر باتوا هم أنفسهم أسرى الكمبيوتر. وهذا بلا شك على حساب الحركة البدنية. وفجأةً! يرسل الموبايل إلى جانبها اهتزازاته معطياً إشارة وصول رسالة. أخذت الموبايل وقرأت: «أنا هاني ادخلي على الفيسبوك يا سحر أريد الانضمام كصديق. ونتحادث». فطار قلب سحر من الفرح، ودخلت بسرعة إلى الفايسبوك فإذا إشارة هاني على الشاشة وردت عليه بالموافقة. وخلال ثوان فتح الأخوان الخط ليتحادثا، ورأت سحر كلمات

أخيها هاني تظهر في خانة التواصل بتلك اللغة المستحدثة التي هي خليط من الأرقام والحروف. في الفن تتحول الألوان إلى لغة.. وفي الشعر تحول الحرف إلى لون.. وفي التكنولوجيا تحول الرقم إلى حرف. ولم لا؟ اللغة مبتكر رمزي للتواصل.. لا أكثر.. والهام أن تصلك فكرتي بأي رمز.. حرفاً كان أم رقماً أم لوناً.

– مسا الخير يا سحر كيفك؟ كان هاني هو البادئ بالمحادثة على الفايسبوك.

– منيحا. وأنت كيفك؟ أجابت سحر.

– بأحسن حالاتي. عم تابع أخبارك الرائعة عالتلفزيون. أنا فخور فيكي يا سحر. خصوصاً هون بين الشباب. ما شالله صرتي إعلامي مشهوره. صرتي نجمي. عندك طله عالشاشه. بس عم تتعبي عالفاضي.

– طمّني عنك يا خيي. وينك؟ شو عم تعمل؟ ما بدك تعقل وترجع إنسان طبيعي متل كل الناس. بيكفي جنون يا خيي بيكفي. بيكفي شر وفجور. حرام عليك نحنا.. وحرام عليك أنت كمان.. ويلّي بي حبوك. عم تلعب بي حياتك. عم بتقامر بي حياتك. وكرمال شو؟

– مش عم بحكيكي تا تسمّعيني مناحات وتعمليلي وعظا. كان في ما إحكيكي. صعبتو عليي وقلت خليني طمنهون عني. مش أكتر. بيي كيفوه؟

– بيك حزين وقلقان وخيفان.. بيك مريض نفسياً.. مش عايش حياة طبيعي. كلو بسببك.

– كلو بسبب هالدولة الـ...

– طريقتك ما بتعطي نتيجي. آخرتك بالحبس. أنت مطلوب من القضاء.. وما رح تقدر ترجع تعيش حياة طبيعي. لأنو لي عم تعملو كتير كبير.

– طريقتك إنتي ما بتعطي نتيجي. وما تذكّريني بي وجعي. التعذيب اللي دقتو شوّه حياتي الطبيعيي. يعني عالحالتين ما رح إرجع عيش حياة طبيعيي.

– يا حبيبي يا هاني. يا حبيب قلبي إنت.. يا نور عيون سحر.. أنا كتير مشتاقه إلك.. وجّك ما عم بي فارق خيالي. أحياناً بتذكر لما كنا ولاد، بتذكر هديك الأيام؟ وغيرتك عليي من نظرات الشباب.. لما كنا نلعب بالعماره المهدّمي من إيام الحرب. وبذكر منيح لما حط وسام إبن الجيران إيدو عا صدري ورحت إنت طارقو بوكس عا تمو.. وركض عالبيت وهوي عم يبزق الدم بي إيديه.

– مبلا بتذكر يا سحر. ما تلعبي على عواطفي هلق وتخليني حن للماضي. طريقي هيدا كأنو قدر حتمي ما بقدر غيرو.

– بتعرف مين سألني عنك من ِمدّي؟

– مين؟

– دلال. وقالتلي وين خيك مختفي؟ ليش صار فيه هيك هاني وتغيرت حياتو فجأة؟! أنا عم صليلو كتير. قالت دلال هذا وهي تخفي معرفتها بموضوع هاني.

– شو قلتيلا؟

– شو بدي قول. قلتلا هاني قاطع بأزمه حالياً. وهالمشكلي اللي هوي فيا، متل كل مشاكل الناس، لابد في إلها حَلّ.

– شو قالت؟

– قالت: شو هالأزمه يلي ما عم تخلص.. هاني إلو سنين ضايع.. مشرد.. ومختفي؟! يبدو إنو هاني محينا من ذاكرتو بالمره.

– إذا شفتيا مره تانيي يا سحر قوليلا تنساني نهائياً.. لأنو أنا أخدت قرار نهائي بي هالموضوع. وطريقي صارت بي غير إتجاه. ولحي عليها ولو هالشي ضايقها.. ضايقها كتير. لازم تنساني دلال يا سحر لازم.

– إنت عم تنتحر يا هاني. اليأس وصلك للانتحار. مشكلتك أهون بكتير من مشكلة غيرك. الفرص بالحياة قدامك بعدا متاحه. ليش هالغضب المجنون هيدا؟! ليش ؟!

– ما تحكي معي بي هالطريقة يا سحر. الحقد بي قلبي منو إلا ظل للتشويه يلي بي جسدي. والظل ما بي فارق صاحبو. يمكن الصلا بتنفع بي حالتي. انا ما بقا أعرف صلي. نشفت مية الإيمان بجرار قلبي. صليلي إنتي يا سحر.

– ليش أنا ناسيتك بي صلاتي يا خيي. إلي زمان ما رحت عالكنيسي.. بس أنا عم صلي كتير. حزور كمان مع مين كان عندي لقاء من كام يوم؟

– كعيت؟

– مع الوزير.. وقلي إنو إذا مِثِل هاني خيك أمام القضاء رح وكّل إلو محامي لتخفيف الحكم عليه.

– شو عم بتقولي ؟! هيدا فخ يا سحر! عم يستدرجوكي ويستخدموكي تيوّقعوني بالكمين. رح إمحي الاتصال معك عالفيسبوك. وما تحاولي تتصلي فيي أبداً. باي.

صدمتها كلمات أخيها. لم تنتبه إلى هذه الناحية قط! معقول جداً.. أن يكون اللقاء مع الوزير مكيدةً تستهدف هاني. «لا.. لن أكون صنارةً لاصطياد أخي» همست في سرها. وضعت وجهها بين كفيها وشرقت بدموعها. صار قلبها يخفق بشدة.. جف حلقها.. فدلفت إلى المطبخ وشربت قليلاً من

الماء. وفي طريق عودتها إلى غرفتها رأت صدفةً هاتف أبيها على المنضدة في غرفة الجلوس يضوّء في العتمة معلناً عن وصول رسالة.. وأنور في غرفته يغط في نوم عميق. فاقتربت من دون تفكير ونظرت في الموبايل ولم تمسه بيدها. فذعرت الفتاة! وارتعدت فرائصها.. إنه رقم موبايل ناجي العرم! تعرفه جيداً.. حملقت جيداً في الرقم لا تدري ما تعمل. مدت يدها تريد أن تجيب.. ثم عدلت عن رأيها. وتوقف الاتصال بسرعة. «ناجي وأنور يعرف واحدهما الآخر؟! ساءلت نفسها، أم هي مجرد صدفة.. وناجي أخطأ في طلبه الرقم؟! وإذا كان هناك معرفة فمنذ متى؟ ولماذا لا يقولان لي؟! هناك شيء ما بين الرجلين لا أعرفه أنا! كلاهما يريد إخفاء أمر ما عني! ما هو هذا الأمر؟! ماذا يدور من وراء ظهري؟ الماء ينساب من تحتي وأنا غافلة! من هو ناجي العرم، ومن هو أنور سالم، بل ربما من أنا؟ هل جئت من كوكب آخر؟» ويدور العاصف من التساؤلات الوجودية المؤلمة في قلب سحر. لا زالت تحاول استيعاب صدمة كلمات أخيها على الفايسبوك فإذا هذه أعنف من سابقتها. تشبه الأيام أحياناً ملاكماً ذكياً يوجه أولاً لكمةً خفيفة يجس بها نقطة ضعف الخصم.. ثم يتبعها بأقوى منها في نقطة الضعف هذه. لا زالت الحياة تلاكم سحر، ولا زالت سحر تعارك الحياة وتجاهد. جلست على الكنبة ذاهلةً عاجزة.. وعيناها مسمرتان في الموبايل.. وانفجرت شظايا الأفكار من بركان ذاتها، والحمم من عينيها.

حثت سحر والدها أنور كثيراً أن ينخرط في لجنة الخدمة الدينية داخل السجون، ولكن أنور سالم لم يتحمس كثيراً للفكرة. وكان يحاول الانسحاب بدبلوماسية أمام إلحاحها. وتتعجب هي من هذا التخاذل الغريب! كانت

تجهل آنئذ أن السجن نقطة واخزة في ذاكرة أنور، وأنه قبعة تخبئ سحراً قد يحرمه منها في المستقبل. ولكن بعد أن خبرها أنور بسر أبيها وأمها.. وأنه خالها.. أدركت نقطة الضعف هذه، وكفت عن إلحاحها.

وأما حياة أنور سالم، وبعد أن ولده التجديد الولادة الثانية[1]. أصبحت حياته مشرقةً مؤثرة، ما خلا قضية ابنه هاني. كان الجميع يتحدثون عن هاني. ويقولون: «الله يساعد أنور عا ابنو» «إبن الآدمي شيطان» و«عا مين طالع هالشيطان هاني» و«ما بتنزل المصائب إلا عالأوادم»...إلخ والناس لا شغل لهم غير نسج الحكايات عن مآسي الآخرين ومشاكلهم. أصدقاء أنور متعاطفون.. والمبغضون شامتون. ليس لأنور أعداء! لم يؤذ أحداً قط. بيد أن هذا التغيير في حياته نحو التدين والتقوى والالتزام المخلص لمبادئ الإنجيل.. كان هو الآخر مادةً جيدة لصوغ الاستنتاجات والأقاويل. خسر بعض معارفه بسبب تدينه.. والمرء لا يستطيع أن يحوز على رضى الجميع. أنور مرتاح الضمير.. قلبه عامر بالسلام والطمأنينة.. يحب يسامح ويصلي.. يعكف على دراسة الكتاب المقدس.. ولا يهمل اجتماعات العبادة في الكنيسة. ضاقت مساحة حراكه اليومي بعد تغييره.. فتشارك التدين والسنون على إدخاله من بوابة الشيخوخة. العمل والبيت و(كنيسة محبة الله) ثالوث عالمه القلق.. ويمامات ثلاث تؤنس وحشته المتعبة. حتى زياراته للأقارب باتت شبه معدومة، لقد أسر الخزي رجولته.. لا يريد أن يسأله أحد عن هاني! نظرات الناس كنظرات المستنطق العنيد.. ملحة.. مذلة. هذا السؤال يذوّب في قلبه إكسيراً غريباً من المشاعر الحزينة. وقلائل هم المتفهمون لحالة أنور.

(1) 2 كورنثوس 5: 17.

خادم الكنيسة فوزي هليط أدرك عمق معاناة أنور، فزاره.. وآساه.. وشجعه.. وأشركه في خدمات الكنيسة ونشاطاتها التي كانت مصدر عزاء. وطلب الخادم فوزي من جميع أعضاء الكنيسة ألا يتحدثوا عن هاني. وكان الجميع يصلون لأجله.

- إسترح يا أخي أنور. ماذا سنشرب القهوة أو النسكافيه.

كانت هذه كلمات الراعي فوزي هليط لأنور سالم.. بعد أن دعا الأول الأخير إلى فنجان قهوة في الطبقة الثانية من مبنى الكنيسة. عبرا الردهة إلى الشرفة الفسيحة ذات القناطر الحجرية ودرابزين الفيرفورجيه الزيتي، المطلة على السفح الأخضر الذي يتلاقى مع السهل الساحلي الضيق عند قناة المياه.. وعلى الجسر الذي يربط جناحي الوادي. رفّ من الحمام حط على العشب الأخضر في الحديقة ثم طار كما يطير المزاج ويحط مرات عديدةً في النهار. الراعي فوزي هليط رجل في أواخر أربعينات عمره.. مرن التفكير.. رقيق العاطفة.. تبعثرت هموم رعيته بين أقلامه وأوراقه. ملامحه مريحة صلعته شقراء ونظارتاه تبرزان زرقة عينيه جيداً. تكلم وهو يعبث بسكسوكته القصيرة نصف الشائبة. فأجاب أنور وقد هم بالوقوف باسطاً راحته:

- لا أقبل. دعني أحضره عنك. شكراً لك يا أخي.

- أتظن أن الخدمة رمي المواعظ على الناس وكفى يا أنور؟! أدرك جيداً ما أنت فيه. أنت حاضر في رأس قائمة صلواتي. ثق في الرب يا أنور.. وسلمه الأمر بالكامل.

- أنا فعلاً بحاجة لصلاتك يا قسيس. مصيبتي تبدو أن لا نهاية لها. مصيبتي!! ويضحك أنور هازاً رأسه.. ساخراً من نفسه. فيقول الخادم فوزي هليط:

– لكل مشكلة حل يا أخي. عهدي بك قوياً.. صابراً.. فاهماً لمعنى الألم في حياة الإيمان.

– لقد تعب قلبي من التجارب. تذهب تجربة وتأتي أختها «تا تاخود شقلي عنها». تعب أعصاب ووجع قلب بصورة دائمة.

– أعتقد.. أنك محبوب.

– محبوب! بلى محبوب. وأولادي! أليسوا محبوبين هم أيضاً؟ أنا مربّ فاشل يا قسيس. لسان حالي كلسان حال عالي الكاهن وصموئيل النبي[1]

– لا أظن أن ما تقوله ينطبق على سحر أو وائل. أنا أرى أنك مرب ناجح. سحر ووائل صدقني جوهرتان يا أنور، هما كنز عظيم وميراثك في هذه الدنيا. حماهما لك الله.

– شكراً يا قسيس.. شكراً لك. الله يخليلك ولادك.

– هل سمعت خبر البارحة مساءً في نشرة الأخبار؟ القلائل الأمنية تزداد كثيراً في الآونة الأخيرة.. وهناك تنبؤات بالمزيد. وعمليات السطو الثلاث في ثلاثة سنترات موقعة بـ «أنياب الغضب». والمسروقات بمئات آلاف الدولارات. أي غضب هذا يعبر عن ذاته بالسطو والنهب! قال هذا لكي يتحدث قليلاً بالاجتماعيات والشأن العام لا أكثر.

– أجل أسمع الأخبار.. وأتابعها باحثاً في نصوصها ومشاهدها عن نبأ هاني. ثم تابع وصوته تقطعه الغصات، صدقني يا قسيس أشعر أن لولدي هاني يداً في كل هذه القذارات التي يصدح بها الإعلام في هذه الأيام.

– هاني؟! بالمناسبة.. أهناك جديد عنه؟

(1) سفر صموئيل الأول 2: 12 و8: 3.

- لا جديد يا قسيس. إني خائف جداً من المستقبل. سيأتي ذلك اليوم الأسود لا محالة.

- لا سمح الله. لا تكن متشائماً يا حبيبي.. دع شمعة الإيمان تنر ظلمة إحباطك غير المقبول هذا.

- ولدي حاقد يائس. والحاقد اليائس يعمل أشياء كبيرة مخيفة.. ولا يحسب حساب العواقب.. هو يظن أن لا شيء يخسره.

- سحر ما شاء الله صحافية لامعة.. ذكية وجميلة. الله يخليلك إياها. قال الراعي فوزي لكي يبتعد عن موضوع هاني.

- سحر! ويتنحنح أنور هازاً رأسه ثانية. ويعود الراعي ويسأل مستغرباً:

- ما بها سحر يا أنور؟ الناس كلهم في سيرتها. مالئة الدنيا وشاغلة الناس.

- موضوع بحثها الذي تعمل عليه يا أخي. إنها مهووسة بالسجن والسجناء.. وكله بسبب هاني. منذ أن أوقف هاني.. والمشاكل تتوافد طوابير إلى بيتي يا قسيس. هاني ضحية السجن وها سحر بدورها تصبح ضحية السجن أيضاً. أي غول مخيف هو السجن. السجن غريمي يا قسيس! قال أنور ونبرة صوته تعلو قليلاً.

- أحب أن أحادث سحر. هل تعطيني رقم هاتفها لقد اشتقت إليها.

- نعم بالطبع.. سجل.

وأخذ الخادم ينقر الرقم على موبايله. وهو يقول:

- لولا إبنك هاني وهوس سحر بالسجن لألححت عليك أن تشارك في خدمة الكرازة في السجون.

- قلبي حزين جداً، والقلب الحزين لا يقدر أن يخدم بحرية.. خدمةً مثمرة.

– ربما في الخدمة تتعزى وتنسى قليلاً. الخدمة تشبه بطاريةً تشحن حياتنا بطاقة عظيمة من التعزية والإيمان.

– وهل أنسى ولدي ومستقبله الذاهب إلى المجهول؟

– لن تحب ابنك أكثر من الرب يا أنور. ضع ولدك بين يدي الله القدير.

– حلمي أن يكون أولادي للرب. وأنا واثق بل ومتأكد أن سحر هي المفتاح. لسحر تأثير كبير في وائل وهاني معاً. إذا ربحت سحر للرب كسبت المعركة. ولكن كيف السبيل إلى ربح قلب سحر؟ كيف؟

– لا تستخدم حكمتك أنت يا أنور؟! تجديد الإنسان عمل إلهي.. روح الله هو الذي يتوّب المرء. وأنت تقوم بواجبك على ما يرام. ما يجب أن تفعله دائماً ولا فائدة من سواه.. هو الصلاة. ونحن جميعاً نصلي لسحر وهاني كليهما.

يتأفف أنور وهو ينظر إلى الأرض هازاً رأسه ثانيةً. ويحك صدغه بسبابته ويتابع فيقول:

– أنا لا أتوقف عن الصلاة يا قسيس. وأنت عارف بهذا. ولكني أحب سحر محبة قوية.. وأريد أن أربحها للرب. وسأجد طريقةً ما.. خصوصاً بين هذه الأشياء التي تهواها. سأستخدم هواياتها لاجتذابها. يقول الرسول بولس: «إذ كنت محتالاً أخذتكم بمكر»[1] لا بد هناك طريقة ما.

– بلى.. واضح أنك تحب سحر بشكل يتجاوز الحد. قال هذا وهو يبتسم بلطف.

– وأنا أيضاً خائف عليها. من جنونها وهوسها. كأنها نسيت أنها امرأة. في عمرها تبحث الفتاة يا أخي عن شاب تهواه ويهواها! أما هي فقد جعلت من السجن فتى أحلامها!

---

(1) الرسالة الثانية إلى كورنثوس 12: 16.

ويستمر الحديث أيضاً بين الراعي فوزي هليط وأنور سالم في جلسة من جلساتهما على فنجان قهوة. والحقيقة أن الراعي كان يحب أنور، ويرتاح له كثيراً، لأنه من الأعضاء غير المتعبين في الرعية. والتزام أنور بالكنيسة لافت. كان أنور قارئاً نهماً للكتاب المقدس وحافظاً لنصوصه، ودائماً يأتي بالأسئلة الصعبة للراعي ويستمتع الاثنان بإيجاد الحلول والأجوبة المقنعة. وكان الراعي بدوره يتعزى ببساطة وعمق صلاة أنور.

وفي تلك الليلة التي رأت فيها سحر رقم ناجي في موبايل أنور طار النوم من عينيها.. شعرت كأنها تعيش كابوساً لا نهاية له. ما تكتشفه تباعاً عن حياتها لا يحدث إلا في الأحلام! رأت بوضوح أن الشعاعين أنور وناجي تقاطعا في نقطة أكيدة حتمية، والاتصال ليس مصادفة البتة. راح الفأر يلعب في عبها.. رأسها يؤلمها.. والتوتر يؤرقها. وسر هذا الاتصال الغريب من ناجي في تلك الليلة أن أنور ألحّ على ناجي غير مرة سائلاً عن موضوع التهديدات.. التهديدات الغامضة التي تحوم.. كما تحوم الأسماك المفترسة حول طرائدها. لم يفتش أنور سحر عن التهديدات لأنه أراد أن تبوح هي بها من نفسها. واتصال ناجي في تلك الليلة، وهو الأول منه إلى أنور، كان لضرب موعد وبحث مسألة هذه التهديدات. والذي لم يتوقعه الرجلان هو اكتشاف سحر الأمر. في الصباح أظهرت سحر نفسها كأنها بحالة جيدة أمام أنور.. بيد أن قلبها أتون يستعر. لقد انتفض عناد كبريائها.. وصممت عميقاً أن تبحث عن العقدة التي تربط خيطي أنور وناجي للوقوف على حقيقة اللغز. وأرادت أن تعرف مضمون هذا الاتصال.

جاءت بالقهوة إلى والدها في فراشه باكراً.. ثم همت بالخروج من الغرفة وهي تقول له:

– لقد رن هاتفك مرتين البارحة.

– ممن الاتصال؟ سأل أنور بعفوية. وأجابت بمكر:

– لا أدري. وهل من عادتي أن أعبث بهاتفك؟

خرجت من الغرفة وأحضرت الموبايل لأبيها بطريقة طبيعية جداً حتى لا يشعر أنور بشيء.

– خذ هذا هو الهاتف. وأخذ منها الموبايل ونظر فيه.. فاكمد وجهه وازرقت شفتاه. وأدركت اضطرابه، فخرجت من الغرفة كأنها غير مبالية. وفيما أنور ذاهل حائر في أمره.. ويسأل نفسه هل اكتشفت سحر الأمر أم لا؟ هتفت سحر:

– أنا خارجة إلى العمل يا أبي. أتريد شيئاً؟

– لا. لا يا ابنتي، إنتبهي لنفسك. أجاب أنور، وقلبه يحدثه بأن سحر تتظاهر بالجهل. فانتظر خمس دقائق وسمع إغلاق الباب، واتصل بناجي وهو لا يدري أن إغلاق الباب خدعة! وسحر واقفة في الممر خارج الغرفة تختلس السمع.

– ماذا فعلت يا ناجي؟!

أنا أتصل بك لا أنت. لا أدري.. قد تكون رأت رقم هاتفك عندي ليلة البارحة واكتشفت أمرنا. كان أنور غاضباً بنبرته مضطرباً ولا يريد أن يرفع صوته.

– ماذا تقول يا أنور؟! أجاب ناجي على الخط.

– يبدو عليها كأنها علمت. وحدسي ينبئني بأنها عرفت فعلاً. يا إلهي لقد خسرت ابنتي. وما كنت خائفاً منه من زمان حدث.

– الشمس الساطعة لا يخفى نورها أبداً يا أنور. ومخاوفك ليست في محلها.

- إذا عرفت أنك أبوها ستهجرني وتأتي إليك. بلى.. ستهجرني. وصار يبكي كالأطفال. وسحر تسمع بكاءه خارج الغرفة.

- أنا لست أباها يا أنور.. لست أباها.. هذه هي الحقيقة التي أريدك أن تعرفها من زمان.

- لست أباها!! ما هذا الذي تقول يا ناجي؟ وترتجف يد أنور ويكاد يسقط الموبايل أرضاً.

- إسمع نلتقي مساءً في مقهى الساحة القريب من التمثال.

- لا.. ظهراً الساعة الثانية عشرة. ليرتاح قلبي إلى أن سحر في عملها. قال أنور وهو في حالة من الذهول التام. توقف دماغه عن التفكير.. كأنه سجين محكوم لسنوات وفجأةً يسلمه آمر السجن ورقة إخلاء السبيل. شلته المفاجأة. أقفل الخط. وبقي يتابع شرب القهوة.. محاولاً أن يهضم بها كلمات ناجي.

وقفزت سحر كالغزال من الباب الخلفي.. ووصلت إلى عملها في الصحيفة. ولم تستطع أن تجمع فكرها للعمل. أنهت بعض الأشياء الهامة بسرعة، وهي تنظر إلى ساعتها بين الفينة والأخرى بشوق واضطراب. وما إن حانت الحادية عشرة حتى وثبت إلى سيارتها ورجعت إلى البيت، وركنت السيارة على بعد رمية بصر، تحت فيء السنديانة الغضة. أطفأت المحرك وقبعت تعد الدقائق والثواني على نار شوقها وغضبها المضطرم. ورأت أنور يخرج من المبنى وتحادث مع الناطور ثم استقل سيارة أجرة وانطلق.. فانطلقت سحر بالهوندا الشمبانية وراءه.

- ما هذا الذي قلت لي على التلفون يا ناجي؟! نسي أنور أن يحيي ناجي وبادر بالسؤال ونار تغلي في أحشائه. فأجاب ناجي بهدوء بعد أن أمسك يد أنور بيمينه وألقى بشماله فوق كتفه.

– إهدأ يا أنور. إهدأ قليلاً أرجوك.

– كيف أهدأ وأنت قد فجرت اليوم هذه القنبلة في وجهي؟

– هناك قضية عالقة بيني وبينك يا سيد أنور. غرسها الماضي وأنضجتها السنوات الطويلة. لقد آن أوانها. لصالحنا جميعاً.. أنت وسحر وأنا.

– أنا لا أحب الغموض. وأنا لا زلت أذكر صمتك الغريب المحير أمام القاضي. قلبي يكاد يتوقف.. هيا تكلم.

– صمتي.. أم يأسي يا أنور؟

– أنت تكذب يا ناجي. ماذا تدبر؟ أنت مخادع! ماذا تريد من سحر؟

– ما الغاية من الكذب يا أنور.. ما فائدة الخداع الآن؟ لقد أمضيت في السجن عشرين عاماً؟ إذا كانت سحر ابنتي لا أكذب.. بل أطالب بها وأسعى لاستردادها.

فأجاب أنور وقد انتصب والانفعال يرجف قامته من أم رأسه حتى أخمصيه، لافتاً أبصار الحاضرين:

– إذا لم تكن ابنتك فابنة من هي يا ناجي؟ إبنة من.. إبنة من؟ قال هذه الكلمات.. واصطدمت عيناه بعيني سحر واقفةً قبالته على بعد أمتار والدموع تنهمر من عينيها.. والغضب الحزين يلتهم الدموع المرة.

******

11

ضحكاتهم المرتفعة انفجــارات تهز رأسي، نصف الكأس فارغ، والشفة تقبل السيكارة. أريد سنونوةً أطلقها بعيــداً، أريد حلماً يزرعني حياة، حضناً يغمرني طفلاً.. أريد أرضاً تلتقطني قبضـة تراب.

أحد السجناء

«أحب وأقرب الناس إلى قلبي كاذبون! جميعاً كاذبون. مراؤون؟؟؟»

كانت هذه صرخة سحر المُرة في ردهة المقهى.. منتصبةً كالمارد في وجه ناجي وأنور.. وقد شلّت المفاجأة البصر والبصيرة في وقعة مربكة لم يحسبا لها الحساب. أراد أنور أن يقول شيئاً وخانته الألفاظ! فاكتفى بأن راح ينظر إلى دموع سحر بنظرات الأسى والمحبة ولا يدري ما يقول. أضافت سحر وهي تمسح دمعاتها والغيظ بارز في اضطراب حركاتها:

– تكلما.. لماذا أنتما ساكتان؟ ما أنتما؟ من أنا؟ إبنة من أنا يا أبي.. ويا...؟

بلعت الكلام لثوان.. ثم استدارت وخرجت غاضبةً وهي تكلم نفسها:

– لا.. لا أريد جواباً. الجواب يشبه النكتة الآن. صمتكما أبلغ بكثير.

أراد أنور إيقافها.. وناداها.. فأمسكه ناجي بيده وقال له:

– إبق أنت. كلانا متعادل الآن. لم يعد هناك داع للاختباء يا أنور، سأقول لها كل شيء.. الآن، وأنت فيما بعد. لا يشفيها غير الحقيقة الكاملة. فأذعن أنور.. وارتمى فوق الكرسي واضعاً رأسه بين راحتيه وهو يتمتم:

– آه منك يا سحر. يا حبيبة قلبي يا سحر.. لقد خسرتك يا ابنتي، أجل لقد خسرت كل شيء. لا تخبرها شيئاً عن والدتها يا ناجي.. لا تخبرها.. أرجوك.. أرجوك.

فقال ناجي وهو ينطلق في إثر سحر:

– بل ربما ربحتها الآن يا أنور. الحقيقة الكاملة هي العلاج الوحيد. والحقيقة ليست كما تعرفها أنت يا أنور.. صدقني.

والجالسون في المقهى ينظرون ما يجري بصمت وذهول.. كأنهم يشاهدون لقطةً مؤثرة في فيلم شيق.

أمسك ناجي يد سحر وهي تهمّ بفتح كونتاك محرك الهوندا:

– لن تقودي السيارة وأنت مضطربة هكذا.

– إبتعد عني أيها المخادع. أجابت بغضب وصوت عال.

– لك الحق في أن تغضبي يا سحر، ولكن أنا سأقود السيارة الآن.

– قلت لك دعني وشأني.

– أما طلبت مني يوماً أن أروي لك حكايتي؟

– ليس هناك حكايات.. بل كذب في كذب.

– ما كنت أنوي أن أخبرك شيئاً.. لا أنت ولا أنور. صدقيني. وتعرفين أني كنت أحاول الابتعاد.. وأنت كنت تلحين. ولكن يبدو أن السماء لم تكتب نهاية هذه الحكاية القديمة بعد.

لم تنبس ببنت شفة. أقنعتها كلماته القليلة. لكلام ناجي في قلبها تأثير السحر. قال لها:

- هيا قومي اجلسي إلى جانبي، وأنا أقود إلى مكان لطيف ونشرب شيئاً «يروّق الراس». فسألت بنبرة حادة:

- وأبي؟

- لن يأتي الآن. هو أيضاً يجهل الحقيقة الكاملة. إنه يحبّك ويخشى أن يخسرك. ولن يحدث هذا بالتأكيد.

وانطلقت السيارة بهما عبر الطريق الساحلي صامتين! وأراد ناجي بهذا الصمت فسحةً لهدوء مشاعرها وسكون غضبها. وانعطفت السيارة في طريق فرعي منحدر إلى الشاطئ الصخري.. وبدأ صوت هدر الأمواج يصل إلى سمعهما كأنه الموسيقى التصويرية تشد أعصاب المشاهد عند لقطة مثيرة. ركن ناجي السيارة في موقف السيارات.. ثم فتح الباب لسحر التي غلب شعورها بالطمأنينة الآسرة نحو ناجي على غضبها عليه. أمسكها بيدها وسار بها بلطف إلى الداخل.. وجلسا عند الواجهة الزجاجية في زاوية ذلك المقهى الهادئ المعلق في صخور الشير.. والأمواج تصخب وتتكسر تحتهما كما تتحطم الظنون والأوهام فوق صخرة الحقيقة.

- نريد قهوةً مع سكر على حدة لو سمحت، واثنين ماء. قال ناجي للنادل.

- أنا أنتظر حكايتك. قالت سحر. وكلماتها تشبه كلمات زكريا بعد زمن صمته[1] ومدت يدها تمسح رطوبة وجنتيها.. وتمسح أيضاً توترها وانفعالها تماماً كما تمسح الغبار عن المنضدة! راح ناجي يرمق عينيها العسليتين

(1) إنجيل لوقا 1: 64.

تصفوان، وهما أجمل دامعتين، ووجهها يستعيد نضارته وكلماتها التماسك. أُخذ برباطة جأشها.. والكيفية التي تغالب بها ضعفها. أبت أن تبقى ضعيفةً.. فأخذت زمام المبادرة وقالت أيضاً:

– ليت دموعي أمواج هادرة تحطم الصخور بعنفها! دمعاتي عاجزة أمام صخرة الحقيقة المرة التي أعيشها.

– لست أنت وحدك من تشعرين بالعجز. أنا عانيته لعشرين عاماً. كنت ميتاً يرى ويتنفس.

– ما هذه الدوامة المضحكة المبكية في آن؟! أمي قتلت ولم أرها قط، والذي كان أبي لم يعد أبي.. وها أنت الآن مشروع والد لي؟! ثم أراك تنكر هذا.. يا لسخرية الأقدار! ما هذا يا رب؟ إرحمني يا إلهي.. ارحمني! صمتت قليلاً وعادت فسألت:

– لماذا كان يقول لك أنور إنك أنت أبي؟ من منكما أصدق يا ترى؟ إرحموني يا ناس وقولوا لي من أنا! كانت كلمات سحر تشوبها الغصات بين الفينة والأخرى. أجاب ناجي:

– أدرك جيداً ما تشعرين به يا سحر. أنور خالك هو الذي رباك.. إنسان وهبك محبته وحياته بالكامل، إنه أب حقيقي. ما يحدث معنا ليس لنا يد فيه، إنه قدر سماوي. لقد التقيت بك صدفةً في أول يوم عمل لي في الجمعية، ثم رأيت صورتك على صفحة الفيسبوك مع أنور سالم وحسبتك ابنته، وعندما أردت الانسحاب أبيت وألححت علي.. وشيء آخر أيضاً ألح علي. ولكن عندما أخبرتني أن أنور ليس والدك.. فهمت كل شيء.

عندها حدقت سحر ملياً في عيني ناجي الغامقتين.. وكانت نظراتها ذكية..

مخيفة.. تريد الصدق في كلماته، وفي الوقت عينه لا تريده! كيف يطلب المرء الشيء أحياناً ونقيضه؟! خليط غريب من المشاعر يمور به وجدانها المرهق. سألت وهي تهمس في قلبها «قد أخسر حبيباً في هذه اللحظة ولكن أربح والداً»:

- هل أنت والدي يا ناجي العرم؟

لم يجب ناجي على الفور. أبعد عينيه عن عينيها ونظر إلى الأفق وهو يسحب السيكارة من علبتها ويشعلها.

عادت وسألت ثانية:

- هل أنت أبي؟

عندها وصل النادل ووضع القهوة على الطاولة وانسحب.

- ما سمعتيه مني أمام أنور هو الحقيقة. لا.. أنا لست والدك. قالها بحزم.

- إذاً أنا مجهولة المصدر. ماذا يعني هذا؟ سألت.. وباتت عواطفها كمصب النهر في البحر ليس مالحاً ولا حلواً. فرحت لأنها احتفظت بحبيب.. وحزنت لأنها فقدت أباً. وأجاب ناجي:

- سحر أنت فتاة ناضجة وذكية. في الحياة ما نستطيع أن نتحكم به وما لا نقدر أن نتحكم به. الظروف التي جئت بها إلى هذه الدنيا ظروف صعبة. وهذا التيار الذي قذف بك إلى الحياة قذفني أيضاً إلى نفق مرعب امتد لعشرين سنة. جمعنا القدر في الماضي مرة.. ويبدو أنه أراد أن يجمعنا ثانية. أنت وأنا ظلان متلاحمان.

- أتؤمن بالقدر يا ناجي؟ في هذا السؤال كان قد سكن اضطرابها بالكامل.

- أجل.

- أنا أؤمن بالرب. الله وحده سيد الظروف.. وسيد التاريخ.. هو خطط لاجتماعنا.

- الاختلاف بيننا في التسمية لا أكثر، في الشكل لا في المضمون.

- أنا أؤمن أن خطط الله ليست عبثية. هناك قصد إلهي في كل ما يحدث في حياتنا.. معاً.

- أرى أنك قد استعدت هدوءك. هل بإمكاني أن أبدأ؟

- نعم يا ناجي. أريدك أن تقول لي كل شيء. لأني ما عدت أحتمل مفاجآت، كل أربع خمس سنوات مفاجأة جديدة تهد عزيمتي. حسبي تيه وضياع.

رشف ناجي رشفةً من القهوة، ونفخ نفخةً من سيكارته بهدوء.. وتكلم:

- والدتك سحر سالم الكبيرة هي أخت أنور سالم.

- هذا ليس جديداً.

- كانت رحمها الله فتاةً جذابة، كانت قبلة أنظار شبان المحلة. أحببتها منذ سني مراهقتي أيام البكالوريا، وكانت أيام حرب، أما هي فلم تكن تشعر بوجودي حتى. طموحاتها كانت خيالية.. ما كانت تخالط أحداً من شباب جيلها، وأصدقاؤها أكبر منها بخمس وعشر سنوات. لم تكن ذكية في الدراسة، وأما في الأمور العملية فشخصيتها كانت قويةً شجاعة.. وساعيةً دائماً للحياة العالية. حاولت التقرب منها في البداية فصدتني بقسوة.. كانت بالنسبة إليّ قلعةً منيعةً يصعب اقتحامها. وحاولت كثيراً أن أنساها.. وقدري معها قاطعُ طريق كانَ يكمُن لي في سيري في هذا العالم.

عند هذه الكلمات شعرت سحر بانجذاب قوي للموضوع.. وإثارة. صار قلبها يخفق ولا تدري لماذا.

كانت تلتهم حديث ناجي التهاماً.. كما دائماً. وسألت:

– أما كانت تهوى شخصاً ما.. مميزاً؟

– في الحقيقة.. لا أعرف إذا كانت أحبت رجلاً ما. ولكن الوقائع تقول إنها كانت كالفراش تتنقل بين شاب وآخر.. ولا تبقى مع أحدهم أكثر من ثلاثة أشهر.. ويختفي ليظهر الآخر. أنا لا أريد أن أدين والدتك يا سحر.. أريد أن أقول لك الحقيقة فقط.. لترتاحي أنت ونرتاح جميعاً.

– متى رأيتها للمرة الأولى؟ عادت سحر وسألت كأنها تريد استكشاف عالم ناجي العاطفي.

– منذ أن جاؤوا وسكنوا في حينا. كنت يومها في السادسة عشرة من عمري.

– ما الذي جذبك فيها غير جمالها. سؤال آخر ذكي.. تريد به أن تعرف موازين ناجي ومقاييسه بين جمال النفس وجمال الشكل.

– الحب الأول في الحياة، وعادةً ما يأتي في المراهقة، هو حب رومنسي. ثم تتحرر الغريزة تباعاً مع نضوج الشخصية من أجنحة الرومنسية لتحط على أرض الواقع.

– كان حبك رومنسياً إذاً؟

– كان حباً جارفاً! ملك علي عقلي وقلبي. ولم استطع معه النزول إلى الواقع.

– وكان حبك أيضاً في غير محله.

– لم تكن تستأهل حبي البتة. أجل. أهذا ما تقصدين؟

– أنت تتكلم بالسيّئ على أمي. هل كانت أمي حقاً سيئة؟ لم يقل لي أنور هذا!

- يقال إن الحب أعمى.. لأن العاشق لا يرى عيوب حبيبه. أنا لم أكن أعمىً! بل أشد بصراً من الجميع، لأني رأيت في سحر أمك ما لا يراه الآخرون.

- ماذا رأيت فيها؟

- رأيت فيها تلك المرأة الطموح بلا حدود.. تطلب الحياة والسعادة.. تريد عمرها ربيعاً لا ينتهي. كانت تضج بالشباب والأنوثة.. شجاعةً قوية الشخصية مثلك تماماً، عصامية، مسامحة، طيبة القلب. لم تكن متكبرة.. بل كانت فريسة خيالاتها وأحلامها. وأحلامها هذه تشبه نسوراً رفعتها إلى شامخ وهوت بها إلى الحضيض.

- أنا أيضاً فتاة طامحة.. ولكن ليس كطموحات أمي بلا شك. حدثني قليلاً عن مرحلة ما قبل الزواج.

- قلت لك صدتني في البداية. وكانت الغيرة تنهش قلبي كلما شاهدتها خارجةً مع أحدهم. هذا بدراجة الكتانا 1100 النارية التي كانت طُعماً جيداً لجذب الفتاة في ثمانينات القرن الماضي، وآخر بسيارة «سبور» حديثة الطراز، وآخر بتأنق ودونجوانية على أحدث «صرعه»، وآخر بنجوميته في ميادين الرياضة والكرة الطائرة. صدقيني لا أذكر أني رأيتها مع شاب مرتين، في النادي وفي السينما وعلى شاطئ البحر وفي السّهرات. كنت أعلم جيداً أني لست فارسَ أحلامِها. كنت أرى نفسي جرادةً أمام هؤلاء الشبان المغرورين بمالهم وحلتهم ومقتنياتهم. هكذا كنا شباب الثمانينات.. شباب الحرب. السيارة «السبور» والدراجة النارية والأناقة الجذابة والسخاء مفاتيح قلب المرأة. لم تكن العلاقات الجنسية حرةً كما هي الآن.. ولكن العلاقات الرومنسية كانت موضة تلك الأيام. الله يا زمن! الذي يحدثك الآن لم يذق من حلاوة تلك

الرومنسية شيئاً.. لقد كان حبي لأمك جنتي الأولى.. وسجني الأول.. وكانت هي إلهاً مستبداً وسجاناً قاسياً.

- أنت رجل عاطفي تحب بقلبك لا عقلك.

- وهل العقل يحب؟

- العقل يوجه العاطفة في طريق صحيح.

- عندما يقدر العقل أن يسيطر على الحب لا يعود الحب حباً. لأن الحب ضباب عاصفة ونار.. طاقة لا نقدر أن نقولبها في حدود، أو نعلبها في نظرية. بل الحب خارطة طريق لإرشاد العقل إلى الشريك الآخر، وحيث لا حب يعجز العقل عن الاختيار.

- برأيي يتعاون الاثنان في الاختيار.

- صدقيني.. حيث الحب.. لا يستطيع العقل شيئاً.

- أليس هناك من تمييز بين الحب والهوس.. العشق.. الغرام؟

- هذه مسميات لشيء واحد هو الطاقة الوجدانية إلى الحياة والشباب. وهذه التسميات إن هي إلا أنواع من الحب تعبر عنها الشخصيات والطبائع المتنوعة للبشر. هذا يحب برومنسية.. وذاك بشبق.. وذلك بجنون. الإنسانية أمزجة وطبائع.

- أنت أقوى حجة مني اليوم. أنا غاضبة وحزينة. عد إلى موضوعنا.

- حسناً. إن المرات التي تقابلنا فيها قبل الزواج قليلة. كانت تمر إزائي ويحدث في داخلي انفجار وهي لا تسمع دوي الانفجار! كنت يائساً. هي من بادر فجأةً وتقربت مني في ساعة شؤم كانت. وأذكر جيداً ذات ليلة.. كنت عائداً إلى البيت في الساعة الحادية عشرة ليلاً من الدرس والعمل على مشاريع

الجامعة عند صديق لي، عائداً سيراً على الأقدام في ليلة صافية مقمرة.. وفجأةً! رأيت سيارة جيب تابعة للحزب تتوقف عند مدخل البناية ويترجل منها عسكريان.. ويفتحان الباب الخلفي على عجلة.. ويخرجان سحر سكرانةً تترنح! حملاها ووضعاها على الدرج قرب باب المصعد.. وانطلقا بسرعة قبل أن يراهما أحد.

جئت إليها وكانت فاقدة التركيز بالكامل لا تعي كلماتها. تمتمت وقالت لي: «جارنا ناجي! وينك يا زلمي.. تعال مارس الجنس معي يا ناجي.. ألا تراني مثيرةً يا ناجي.. تعال.. تعال» جرحت عواطفي بقوة وشعرت بالأسى تجاه هذه الفتاة التي أحبها حباً عظيماً.

تملكتني رغبة قوية للبكاء.. لا أدري لماذا. أه لو تدرين عمق الصراع الشيطاني الذي عانيته في لحظتها. إنها الفرصة المثالية للثـــأر! إمرأة أحبها تقدم لي جسدها مجاناً.. بعد أن أذلتني مرات.

- ألم تشعر بالنفور منها.. والقرف؟

- لا البتة. أشفقت عليها. الحب الحقيقي يستر العيوب.

- ذكرتني بآية في الإنجيل: المحبة تستر كثرةً من الخطايا[1]

- أخذت يدها فوق كتفي ويدي الثـــانية لفقتها على خصرها وأدخلتها إلى المصعد، إلى الطبقة الثـــالثة. قرعت الباب وفتح والدها.. جدك. وكانت المفاجأة! ولكني لاحظت جلياً في انفعاله وارتباكه أن هذا الموقف ليس جديداً عليه. وضع يده على فمه وصار يبكي ويرجوني أن أبقي الأمر سراً: «أستر علينا ألله يستر على عرضك يا ناجي يا آدمي». كان يهذي والدموع

(1) رسالة بطرس الأولى 4: 8.

في عينيه وأنا أضع سحر فوق فراشها في غرفة نومها، وتتلفظ بهذياناتها هي الأخرى.

عند هذه الكلمات راحت سحر الصغيرة تبكي.. وتبكي.. وهي تنظر إلى الطاولة حيناً وإلى الأفق البعيد أحياناً. قالت:

- كتبت علي الدموع كل العمر. فسألها ناجي بلطف وهو يضع راحته فوق أناملها:

- إذا كان الكلام يضايقك الآن. نتكلم لاحقاً يا سحر.

- لا. تابع أرجوك.

- مرت الأيام وهي لا زالت تزور أفكاري دائماً. وكنت أظن أن الأيام تنسيني إياها. والحقيقة إني لا زلت أحبها حتى طيلة أيام السجن. إلتقيتها صدفةً ذات يوم.. وفوجئت بها تقترب مني وتحادثني.. وكأن صداقة قديمة كانت بيننا. والحقيقة المرة التي عرفتها فيما بعد.. هي أنها كانت تبحث عن خلاص لمأزق علقت فيه.. فوجدت فيّ الحل المناسب لمشكلتها.

- ما مشكلتها؟ وصمت ناجي لثوان قبل أن يجيب:

- أنا حريص على دموعك العذبة يا سحر. يبدو أن تفاصيل الماضي كله سوف تبكيك.

- أريد أن أعرف كل شيء. تابع.

- كنتِ قد تكونتِ في أحشائها من سواي.. فراحت تبحث عن زوج ترتبط به لستر الفضيحة.

ومرّت ثوانٍ طويلة. وسألت سحر:

- كيف تأكدت أنه من سواك؟

– ولادته خلال ستة أشهر ولادةً كاملة. وهي كانت تعرف أني سأكتشف الحقيقة عاجلاً أم آجلاً.. بيد أنها كانت تراهن على حبي الكبير لها. كانت واثقة أن هذا الحب لن يفضحها، وسيكون خرقةً لمسح آثامها كلها. الفضيحة تؤذي الزوج والزواج، وهي عار كبير لي! كانت منها سياسة أمر واقع محكمة. ليس أمامي إلا الاذعان والسكوت. لقد استعملتني واستعملت حبي لإنقاذ نفسها وإنقاذك أنت.

– ليتني لم أولد.. ولم آت إلى هذه الدنيا.. دنيا الشقاء والعذاب. قالت سحر وهي لا زالت تبكي. وتابع ناجي:

– كان حفل الزفاف يشبه المأتم. لقد عارض أقربائي هذا الزواج، ونصحوني كثيراً قائلين إن سمعة الفتاة ليست طيبة.. وحياتها نحو الجنوح. ولكن حبي الكبير راهن على تغييرها وإصلاحها.. وكان رهاني ورهانها هي أيضاً خاسرين.

– أنا الخاسر الأكبر في هذه المراغة التاعسة.

– كنت أنا الطائر المغرّد الوحيد في سهرة العرس.. وهي لم يبدُ عليها الابتهاج... شعرت بأني أمير الزمان.. وكل مال الدنيا لا يساوي شيئاً أمام الوجه الذي زاده التبرج رونقاً وبهاءً. كنت وإياها نرقص في وسط الردهة والشباب والصبايا يتحلقون حولنا كما تتحلق الأحلام حول أمنية واحدة وهم يصفقون ويهتفون. ويصدح الستيريو بأغاني وليد توفيق وسمير حنا وأحمد دوغان وعازار حبيب وسامي كلارك وسميرة توفيق بتلك الأغاني التي لا نشعر ببهجتها إلا عندما نعيشها. أتعلمين يا سحر أن هذه الأغاني التي يختارونها للأعراس تشبه المازة التي تفتح الشهية قبل وصول الطبق إلى المائدة.. إنها

«تفتح النفس» على الزواج. وعندما أسمع اليوم هذه الأغاني تقفز ذاكرتي فوراً الى الثمانينات وفصولها المراهقة. ذاكرتي جحيمي ونعيمي يا سحر، في قلبي حنين آسر لتلك الأيام. «بدنا نتجوز عالعيد، الليلي بدّي أتجوز، الليلي الليلي يا ويلي شو بدو يصير، شفتا بشريطة ومريول قلت زغيري عالجّازي، نوينا عالجازي نوينا، يخرب زوقِك شو حلوي، قومي تنرقص يا صبيّي، كنا سوى... إلخ» هذه وغيرها من أغاني الثمانينات التي كثيراً ما صدحت بها الأعراس والملاعب آنذاك. الله يا سحر.. صدقيني عيناك أحيتا فيّ روح تلك السنوات الضائعة من عمر شباب جيل الحرب.. جيلنا. هذا الجيل الذي ما كان يعرف ما يريد.. تسافر أحلامه من خيبة لفشل لهزيمة. الذاكرة محتها الحرب، والحاضر يلفظ أنفاسه الأخيرة، والمستقبل فراشة يركض وراءها طفل لا يقدر أن يمسك بها.

– وهل شباب اليوم يعرف ما يريد؟ هكذا الشباب دائماً باحث عن الجديد.. عن المغامرة. أحلامه دائماً مختبئة في خوابي المجهول. كأمي تماماً كما تخبرني الآن.

– كانت الدولة غائبةً والميليشيات يتقاسمون مناطق النفوذ.. وشهادات الجامعة معلقةً على الجدر.. وفرص العمل معدومة.. والبغض الطائفي في أوجه.. والزعران القبضايات نجوم الشارع.. والحرب تخمد في مكان وتنفجر في مكان آخر.. وباتت وصمة الشباب اللبناني في العالم كله (إرهابياً).

– أتتحدث عن أيامنا هذه أم الثمانينات؟

– قلّة فرق أليس كذلك؟

– الهامّ.. كيف كان زواجكما في البداية؟

- سرعان ما أدركت أن سعادتي التي كنت أتوخاها وهم وسراب، وأني في واد وأمك في واد.. وتثبت لي أنها لا تقدر أن تحبني. كان سير الزواج أعرج، والخطوات مرتبكةً خائفة. راهنت على تغييرها وقلت تحبني مع الأيام.. وأستطيع بحكمتي وصبري أن أنسيها هوسها ومغامراتها. لقد مرت الأيام بسرعة ولم أذق طعماً للبهجة في هذه الأشهر القليلة لزواجنا.. وزواجنا لم يتخطَّ العام. ولادتك السريعة أماطت النقاب عن الخديعة التي علقت فيها.

- أتريد أن تقول لي إنك قديس وأمي شريرة؟ سألت سحر.

- إسألي أنور.. هو يعرف أخته أكثر مني. أمك طبخت طبختها لسبب وجود طفل في أحشائها.. لا تريد التخلص منه ولا تريد الفضيحة.. يبقى الحل في إيجاد أب لهذا المولود الجديد. قد يكون التمسك بالطفل علامة الحب نحو والده الحقيقي!؟ كانت دائماً مضطربةً عصبية المزاج طوال شهور الزواج. لم يكن الحب في الفراش طبيعياً كزوجين عريسين، كان هناك جدار مخيف بيننا. كانت مزاجية.. يقلب مزاجها مرات في اليوم الواحد، لدرجة أني حسبتها مصابة بالسكيزوفرينيا.

- ما سبب هذه الحالة؟

- الكلام يأتيك. جاءت ذات يوم وقالت لي: «أنا حامل»، فأجبتها على الفور ساخراً: «وهل حبنا قوي كفاية حتى أثمر بهذه السرعة؟» عرفت أني لست مبتهجاً بهذا المولود الآتي. حادثتها بصراحة بأني أريد زواجاً سعيداً.. وسوف أغفر لها بشرط أن تعينني هي وتمد لي اليد لكي نبني معاً زواجاً ناجحاً. كانت معي هكذا في الكلام.. وأما في الفعل فقد كانت في عالم آخر. كانت مسبيةً لشيء آخر مخيف لا تقدر أن تتحرر منه.

– ما هو هذا الشيء المخيف؟

– أمك يا سحر كانت متورطةً بالدعارة والمخدرات منذ ما قبل الزواج بكثير. وكانت تتعاطى المخدر في البيت وبالسّر عني. ولكن في نهاية المطاف اعترفت لي.. وباحت بأن ابن الاقتصادي الكبير س.ع. كذب عليها وخدعها بالوعود.. واستعملها في تهريب كميات كبيرة من المخدرات.. وهذه العمليات ورطتها فيما بعد بالدعارة.

– لماذا باحت لك أخيراً؟

– كانت منهكة.. وأرادت بالزواج الهروب إلى الأمام.. الزواج ينقذها من الوحلة التي كانت تعيش فيها. بيد أن هذه الوحلة كانت رمالاً متحركة فجرفتها وجرفتني معها.

– وأنور.. أكان يعرف حياتها البائسة هذه؟

– أنور عمل المستحيل لإنقاذ سحر من جنوحها المخيف ففشل. سحر أتعبت العائلة كثيراً. ألسنة الناس لا ترحم. أوقِفت أمك رحمها الله مرتين لدى شرطة الآداب وجهاز مكافحة المخدرات. وجدك أُذِلّ عند أصحاب النفوذ لإنقاذها.

– أنت كنت تعرف حقيقة أمرها وبقيت تحبها. ما نوع هذا الحب؟ سألت وهي لا زالت تريد استكشاف كوامن ناجي.

– من من البشر معصوم من الخطيئة؟! كنت متيقناً أن سحر تائهة ضائعة.. وكانت بحاجة لحب حقيقي ينتشلها مما هي فيه. وكلما كانت تصدني كان كياني كله ينجذب إليها. شيء أقوى مني.

– ولكن النتيجة تقول إن حبك هذا ليس سوى هوس أدى في نهاية الأمر إلى هلاكها وهلاكك! أليس كذلك؟

– لم تصل الأمور إلى «خواتيمها» بعد.

– لم أفهم!

– حكايتي مع سحر لا زالت مستمرة.. لا السجن أوقفها، ولا محاولة هروبي. السماء لم تقل كلمتها الأخيرة بعد، والعلامة لقائي بك أنت ابنتها.

–...؟!

– كنت عائداً في ذاك المساء المشؤوم إلى البيت بسيارتي، وكان المطر وكيفاً. كان يوماً شاحباً من أيام تشرين الثاني في أواخر الثمانينات. كنت أقود على مهل.. متوتراً حزيناً من الزواج البائس الذي أعيشه منذ شهور. دخلت البيت وسحر غير موجودة! اتصلت ببيت أبيها ولا يعرفون عنها شيئاً. ثم اتصلت بمن يمكن أن يعرف أين هي فعدت خائباً. وانتظرت قلقاً مضطرباً لساعات.. حتى الحادية عشرة. واتصلت ثانيةً ببيت أهلها وقلت لهم أريد أن أخبر الشرطة. فلاح الارتباك وعدم المبالاة في ردة فعلهم. قالوا: «هي زوجتك فاعمل ما تراه مناسباً واتصل بنا وطمئنا». شعرت بأني خذلت لأواجه المصير لوحدي. وبينا أنا في حيرتي وذهولي رن الهاتف: «زوجتك في آخر الشارع اليوناني المفرق الثاني البناية الخضراء التي تحتها (سناك أبو عصام) في الطابق الثالث. هي تحتاج لمساعدتك الآن»، ثم أقفل الخط. كانت الخطوط يومذاك ميكانيكيةً ثابتة. لم يكن أمامي إلا الذهاب إلى هذا العنوان. دلفت إلى سيارتي وانطلقت إلى الشارع اليوناني. لم يكن المتصل كاذباً! لا أدري من هو، وما الهدف من اتصاله هذا. قلت هذا في التحقيق آنذاك. فجأةً عند المفرق الأول رأيت سحر تدخل مع رجل أنيق في سيارة أودي جديدة بسرعة. تأكدت أنها هي من طريقة مشيها والجزدان الذي كانت تحمله والسترة الحمراء القصيرة

وندائها لي عندما رأتني. كانت المسافة عشرين متراً لا أكثر. ولكنها كانت «منكوشة» الشعر عصبية الحركة كأنها خائفة. تحادثا بسرعة ودفعها إلى داخل السيارة وانطلقا قبل أن أصل إليهما.

– كيف كان شعورك لحظتها؟ سألت سحر.

– لم أشعر بالغيرة البتة.. بل أدركت أننا هي وأنا نشكل فريقاً بائساً ضعيفاً مهجوراً. ليس لها غيري يحميها مما هي فيه.

– ماذا حدث بعدها؟

– سيارتي من نوع (فيات ريفاتا) وهم (أودي كواترو) ببابين، وأنا كنت مراهق سرعة و«تشفيط». وأطلقت نسور مواهبي إذ ذاك من أقفاصها.. وكان خوفي عليها أعظم بكثير من خوفي على نفسي. تقمصتني شجاعة غريبة، وأنا لست رجل «زعرنات» ومشاكل. ولكن إكسير الحب الكبير سحرني أميراً كأمير الزمان الذي حارب الجيوش والعمالقة لإنقاذ حياة حبيبته الولوع. بدأت الأمطار تزيد. كانت بداية شتاء بارد عاصف في ذلك العام، وكانت المصابيح الكهربائية مضاءة في الشوارع، وأطلقت طريدتي سيارة (الأودي) العنان لسرعتها عبر الطريق الساحلي نحو الشمال. طاردتها زهاء نصف ساعة في ذلك الليل الماطر.. ثم عطفت فجأةً إلى الشرق وتبعتها.. نحو التلال والوهاد المظلمة.. وقد تناثرت الأضواء البعيدة على السفوح كتناثر نيرات المجرات في الفضاء الواسع.. وكل رزمة من الأضواء تشكل قريةً على حدة. فجأةً! رأيت في المرآة ورائي سيارةً تومئ لي وتحاول ضربي، فشُغلت بها للهروب منها.. وما هي سوى دقائق حتى اختفت سيارة (الأودي) عن عيني كسحر ساحر! واجتاز عني الذي كان ورائي.. ونظرت يميناً وشمالاً.. ولا شيء غير التلال والجلال.

- إنها مطاردة جيمس بوندية! قالت سحر مازحةً.

- لا داعي للتهكم. إنها مأساتي.. وهي كذلك مأساتك. تابعت القيادة حتى انكشف لي الطريق البعيد ولا سيارة أمامي. أوقفت المحرك وركنت السيارة جانباً، وحدثت نفسي بالرجوع. وبينا أنا خائر خائب.. رأيت ضوءاً عند رأس التلة يضيء لثوان ثم يعود وينطفئ كأنه يومئ لي. كنت قد صرت لعبتهم.. وطريدتهم.. كانوا يستدرجونني. وانطلقت ناحية الضوء في أعلى التلة.. وكنت بعيداً عن القرى.. وكان في أعلى التلة مفرقان.

- إنك تخبرني تفاصيل جانبية كثيرة.

- لأقول لك إني وأمك ضحيتان لمكيدة شيطانية محكمة. خطة بشعة حاكتها أصابع الكبار الأشرار. عصفوران بحجر واحد. مشاهد تلك الليلة الرهيبة لن أنساها ما حييت.

- من هم هؤلاء الكبار؟

- الكبار هم المجرمون الحقيقيون. المجرم الحقيقي هو العقل المفكر القادر على التأثير على شريحة كبيرة من الناس. والمجرم الوهمي هو العقل المنفذ وغير القادر على التأثير في شيء. العقل المفكر يشعل النار، والعقل المنفذ كبش المحرقة. المجرم الحقيقي يؤذي مجتمعاً والوهمي لا يؤذي غير نفسه. المجرم الحقيقي يفسد الناس ويعود فيستعملهم درجات لسلّم مجده، المجرم الحقيقي هو الذي لا يجرؤ القانون أن يصوب إصبعه إليه.

- الذين ينفذون الجرم على الأرض أدوات بائسة شقية.

- المجرمون الكبار كالأشباح لا يستطيع القانون أن يراهم لأنهم كالطاقة لا نراها ولكن نشعر بها.. وتأثيرها كبير رهيب. الذي يخيف ليس الإنتحاري

الذي يفجر نفسه بل الذي ربى جيلاً على ثقافة الانتحار. لا يخيف الشاب الذي أقدم على جريمة لكي يثبت لذويه أنه أصبح رجلاً.. بل المخيف هو البيئة التي ربت أجيالاً على ثقافة (السجن للرجال)، لا يخيف الإنسان الذي قتل أخته لسبب جنوحها.. بل المخيف هو الثقافة التي تبيح قتل المرأة الجانحة بدل محبتها وإصلاحها.

– أكمل حكاية أمي.

– نعم. وصلت عند المفرقين فلم أر شيئاً! كمن يلاحق السراب. نظرت في طريق جهة اليمين.. ظلمة حالكة، ثم لجهة الشمال فإذا الضوء من بعيد يومئ لي لأتبعه. والغريب إني لم أشعر بالخوف في تلك البرية المقفرة. كنت مسوقاً بغباء.. أو بطمأنينة اليائس.. أو برغبة ملحة ربما لأصنع المعجزات.

– أو بالخوف على الحب الذي انتظرته سنوات أن ينتهي بمأساة.

– قدت سيارتي نحو الضوء فإذا درب شبه ترابي ضيق رطبته الأمطار الخفيفة. فانحدرت على مهل خمسين متراً لأنتهي أمام بيت حجري قديم كبير وأمامه باحة ترابية فسيحة.. وبروجكتور واحد معلق في عالي عمود الكهرباء الخشبي موجّه نحو الباحة. سيارة رينو لوكار وحيدة مركونة في وسط الباحة منطفئة. أين الأودي؟ اختفت. أوقفت سيارتي قربها، ونزلت وشممت رائحة المحرك فإذا هو لا زال ساخناً! وبسهولة حظيت بالباب الرئيسي لهذا البناء الكبير المنعزل عن القرى. رأيت ضوءاً وأنا أصعد الدرجات.. كان الباب شبه مغلق.. دفعته فانفتح واتجهت ناحية الضوء. دخلت الردهة الفسيحة في وسط هذا البيت.. كان النور قوياً.. لا حس ولا حركة.. كأن سكان هذا المكان أشباح. سمعت فجأةً أنيناً خافتاً.. ودق قلبي بشدة، كنت في حالة هياج نفسي

قوي، وما شعرت بخوف على نفسي قط. كان هناك باب في آخر الردهة.. دخلت منه فإذا الغرفة مظلمة.. مددت يدي إلى الحائط باحثاً عن مفتاح النور وأضأت الغرفة، فإذا المشهد الذي لن تمحوه السنون من ذاكرتي. أمك سحر في أرض الغرفة سابحةً بدمائها!

- خطر لي سؤال يا ناجي. القضاء حاكمك بهذه الجريمة.. وأنت لا زلت تدعي البراءة. ألا يحق لي أن أطلب منك الدليل؟ أليس هذا حقا مشروعاً؟

- أما قلت لك إن السماء لم تقل كلمتها بعد. إذا كان للسماء قصد ما فهي سترسل الدليل حتماً.

- حسناً. أعذرني يا ناجي.. لا يعني هذا عدم ثقة بك.

- كان المشهد مرعباً.. صرخت! وانحنيت فوقها أجس شريان عنقها ونبض معصمها فإذا الروح يرف في جسدها. فحملتها على ذراعي.. وكان جسدها ساخناً.. لكي أطير بها إلى إحدى مستشفيات الساحل. وفجأةً سمعت صوت محرك السيارة المركونة في الباحة يدار وتنطلق بسرعة بعيداً عن المكان. نزلت إلى سيارتي.. ثم سمعت ثانيةً صوت سيارات الشرطة.. صوتاً عميقاً لا زال بعيداً. هكذا كأنها خرجت من سحر! فأدركت أني وقعت بغباء في كمين ذكي لإلباسي جريمةً بشعة كهذه. كان المطر يقوى.. رأيت ثلاث سيارات شرطة بأنوارها الزرقاء في السفح المقابل في طريقها إلي. ذعرت! وحرت في أمري. هكذا فجأةً ظهرت الشرطة؟! شل الذعر تفكيري. تملكني شعور عميق بأن السيارات الثلاث متواطئة مع القتلة الحقيقيين. وتحولت شجاعتي إلى جنون.

- أي زمن شقي دار عليك يا ناجي!

- نزلت بزوجتي وأنا أتحسس جسدها الساخن إلى القبو في أسفل البيت..

ووقفت في وسط العتمة لدقائق لا أدري ما أفعل. شعرت بالدماء الساخنة بين أناملي وعلى ساعدي. قلت في سري لا بد معهم كلاب.. والصوت يقوى شيئاً فشيئاً. فنزلت ثانيةً على درج حجري إلى حديقة تحتية في الجهة المعاكسة لباحة البيت.. ومنها إلى الحقول المحيطة في منحدرات خفيفة إلى الوهدة.. والمطر يقوى. سمعت صوت الكلاب عندما صرت على بعد مسافة، فقمت بخدعة الكلاب.. مزقت قطعة قماش من ثوبها ولوثتها بدمائها ورميت بها يميناً بعيداً.. وقطعةً أخرى رميتها شمالاً. ولكني فجأةً لم أعد أسمع نباحهم. ثم مشيت في البرية ليلاً.. حاملاً جسد زوجتي الميتة لخمس ساعات ودماؤها تسيل على يدي وثيابي. عندما أتعب أضعها برفق تحت شجرة.. وأجلس أنظر وجهها تسيل فوقه قطرات المطر وقطرات بكائي.. «لا ترحلي يا سحر.. لا تتركيني باكراً يا سحر». وأهذي فوقها كالبهلول وأنا أزيح خصلات شعرها عن وجهها.. ولا أدري ما أنا فاعل وإلى أين أنا ذاهب. كنت أسمع عواء الوحوش بعيداً.. وخفت أن أدفن زوجتي في بطون الضباع الجائعة.. طوال الليل كنت أسمع أصوات الوحوش.. كان الموقف لا يوصف. وعندما أبدأ أشعر بالبرد أقوم بها وأتابع السير. كنت أريدها أن تعيش. كنت أجاهد للوصول إلى الطريق المعبد. وبدأت شعاعات الفجر تطل على الوادي فرأيت الطريق من بعيد، وجاهدت جهادي الأخير للوصول إليه. وبدأ اليأس يتسرب إلى قلبي من إمكانية إنقاذها. وضعتها بين الحشائش ورحت أنتظر السماء ترسل لي خلاصاً. فإذا سيارة (بيك آب) لأحد مزارعي القرية.. أوقفته واقتنع بطيبة خاطر أن ينقل زوجتي إلى المستشفى! ولم يسألني شيئاً عما جرى، ولا ذعر من منظري والدماء على جسدي، وسريعاً عرفت لماذا. عند أول مفرق كان

هناك حاجز مخابرات.. وكان المزارع أحد رجالهم! وسقت مقيداً والأدلة كلها ضدي. كان ذلك الشروق بداية ليل مأساتي التي دامت عشرين عاماً.

- كان هذا كميناً من المخابرات للإيقاع بك.. وإلباسك التهمة؟!

- أنا لست قاتلاً يا سحر. لقد سجنت ظلماً.

- ومن هو القاتل؟!

- أحد الكبار! الكبار الأقوياء.. الذي يتصرف برجال الأمن والقضاء والأعمال كأدوات لمصلحته.

- لماذا أحد الكبار يريد قتل سحر وإلباسك الجريمة؟ كانت أسئلة سحر جونيور باحثةً عن الجواب الذي يشفي حيرتها. وأجاب ناجي بعد أن معس سيكارته في المنفضة وبل ريقه برشفة من القهوة:

- سحر كانت متورطة مع عصابة دعارة ومخدرات.. وليس أي عصابة! هذا مثبت في التحقيقات وجلسات المحاكمة. أحد الكبار هذا كان المظلة البيضاء التي تغطي الأعمال السوداء. كان يسقيها من خمرة وعوده الكاذبة التي أسكرت أحلامها المغامرة.. ويستعملها لتهريب الممنوعات في البلاد وخارج البلاد. إنه الإقتصادي المعروف س.ع. وقد خرج هو ورجاله من القضية بيضاً كالثلج. وأما القاتل المنفذ فلا زال مجهولاً حتى اليوم.

- هذه هي حقيقتي إذاً.. إبنة زنىً! عاودتها نوبة البكاء. وأضافت:

- لا زلت أريد دليلاً قاطعاً على البراءة. وأنت لست بريئاً في عيني أنور أيضاً.

- شكك مشروع.. وأنا أنتظر السماء لتقول كلمتها.

- كيف جرت المحاكمة؟ ألم يكن هناك محام؟ وشهود؟ ألم تدافع عن نفسك؟

- الذي أقوله لك قلته لمحاميّ وقدّمه في مرافعته. كانت الأدلة كلها ضدي. وأحد الكبار هذا دبر شاهدي زور.. ودفع المال للقاضي.

- يا إلهي! هذا فظيع! ولكن أنور موقن أنك أنت القاتل.

- أنور يعرف أمك أكثر مني.. هو أخوها. يعرف طباعها وأحلامها وجنوحها، فاستنتج أني قتلتها غيرةً لسبب ماضيها.. وهذا استنتاج المحكمة أيضاً. كانت تريد أن تتخلص فعلاً من الماضي وتعيش الطمأنينة الزوجية.. بيد أن ماضيها انقلب عليها وغدر بها.

- ألم يكن هناك وسيلة ما. ألم تستأنف الحكم؟

- بلى. والجمعية ساعدتني جاهدة. كان تأثير أحد الكبار هذا قوياً. المماطلة والتسويف والتأجيل أشباح تحيط بملفّي وترصده.. حتى بات من يمسه تلاحقه لعنة اللعنات مدى العمر.

- أنت سجين بريء نمت في السجن عشرين عاماً! ألا تريد استرداد حق ما.. إذا كان هناك حقوق؟

- ماذا يفيد الآن. الأعوام العشرون لن ترجع. عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء. لقد اغتالوا مني شبابي يا سحر.

- لم ينته شبابك بعد يا ناجي. والحياة لا زالت أمامك.

- في السنة الأولى من السجن كنت أساق إلى مكان مجهول كل شهرين تقريباً. هناك في غرفة فسيحة.. كنت أعرى كما خلقني إلهي وأرفع بالبلانكو إلى أعلى.. ويقف ورائي أربعة رجال يحملون كل واحد عصاً غليظة غلظ إنشين. والمحقق قبالتي يحمل ورقة وقلم.. ولا شيء يقوله سوى: «قتلتها لأنها خانتني» وعندما أرفض التوقيع على ورقته كان الأربعة ينهالون علي

بالضرب على بطنيّ وفخذيّ من الوراء. وأضرب حتى لا يعود يسمع صوت صراخي. كان يقول لي المحقق: «ليك يا أخو هيك هيك.. أعرف أنك بريء! ولكنك ستعترف بأنك القاتل بالمنيح بالوحيش. لن تخرج من بين يدي إلا باعتراف وتوقيع».

- يا إلهي أنت أيضاً عانيت التعذيب؟ ولكنك أنكرت لي ذلك؟

- لكي لا تسأليني لماذا. وكنت أريد أن أنسى الماضي بالكامل. أخيراً.. ولسبب قرفي من الضرب على مدى سنتين كاملتين وقعت على الورقة. ولكني عدت بعدها وأرسلت إلى القاضي بواسطة الجمعية أني اعترفت تحت ضغط التعذيب. ومنذ ذلك الحين وملفي يسافر من تسويف إلى تأجيل.

- ألا يوجد حقد في قلبك؟ ألا تفكر بالانتقام؟

- الانتقام! وضحك ناجي بنغمة سخرية يائسة.

من هو عدوي لأنتقم منه؟ عدوي الذي تلاعب بالشرطة والمخابرات والقضاء يفعلها الآن أيضاً. لقد أعطاك الاقتصادي الكبير س.ع. عمره من زمان. ثم هل أثأر لأعود وأقضي شيخوختي في السجن. عدوي من الكبار! ثم الخسارة الزمنية وقعت ولا مجال لاستردادها.

بيد أن سنوات السجن الطويلة المزمنة كافية لاستئصال كل أنواع المشاعر من الوجدان: مشاعر الحقد أو مشاعر المحبة.. الفرح أو الحزن. وكأن السجن يغسل القلب و«يفرمته» كما يفرمت الكمبيوتر.. قلبي فارغ نظيف من جديد كالصفحة البيضاء. خرجت من السجن بتصميم ثابت أن أطوي تلك السنوات السوداء وأنسى. إلا أن السماء لم تكمل فصول الرواية بعد، والنهاية باتت وشيكةً.. عرفت هذا لحظة رأيتك مع أنور على صور الفيسبوك للمرة الأولى.

******

12

«الحلقة الأولى: طائر الفينيق الأحمر عاد بالحرف اسماً.. والاسم تحول جبلاً صغيراً. حطّ هناك وصار عجوزاً دهرياً القبة العتيقة. أبو طوني».

«هذا عنوان مكان الحرف الأول من كلمة المرور المؤلفة من أربعة حروف متناثرة في أربعة أمكنة مختلفة. كل حرف في عنوان، والحرف الأخير سيقودك إلى مكان وجود رسائل الرئيس الراحل بشير الجميل العاطفية السبع إلى برباره نيومن. هذا هو عرضي الأخير عليك. إذا لم تصدق فأنت الخاسر. الموضوع يستحق المغامرة. وهنا تثبت لي قوتك كصحافي باحث جدير بحمل الحقيقة إلى الناس» توم شارف، نيويورك.

كانت هذه رسالة الصحافي الأميركي توماس شارف إلى الصحافي اللبناني فايز العرب.. يقرأها فايز من الإيمايل مباشرةً على الهاتف..

وسحر معه على الخط تسمع مضمون هذه الرسالة الغامضة والمشحونة بالتحدي:

- هذا الصحافي غريب الأطوار حقاً! قالت سحر. ها هو يعود إليك بعد أن نساك لأشهر.

- أرأيت.. ماذا يريد هذا الأميركي يا ترى؟ أتصدقين حقيقة هذه الرسائل؟

- الموضوع برأيي مثير وشيق. إنه يستفزك.. ويحرّك شهية البحث عندك في رموزه وأحاجيه.

- ولكن أين تكمن قيمة هذه الرسائل.. برأيك؟

- ألم تقرأ كتاب برباره نيومن (حب وموت في بيروت[1])؟

- لا!

- بالامكان قراءة هذه الرسائل على ضوء الكتاب لتبيان صدقها. الكتاب يتحدث بالتفصيل عن العلاقة بين بشير ونيومن. والتأكد من مصداقيتها أمر سهل. وإذا كان فيها ما يؤذي آل الجميل نبقيه، وأما الأسرار السياسية فتضفي عليها قيمةً أعظم. بدأت الآن أشعر بالإثارة نحو هذا الموضوع. يمكن أن يثمر البحث مقالاً أو تحقيقاً تلفزيونياً إذا كان هناك شهود، وقد يكشف غموضاً ما في حقبة الحرب. أحب أن نتعاون.

- لهذا السبب اتصلت بك طالباً رأيك ومساعدتك. خصوصاً أمام هذا الترميز والغموض الذي لا أحبه.

- أنا بعكسك أحب الرموز كثيراً. الكتاب المقدس يستخدم الرموز بكمية هائلة، وأنا متدربة على حلّها.

- على هذا النحو سأريح نفسي من التفكير في الرموز. وهي ليست كثيرة.. أربعة على ما يبدو.

- كيف؟

- كلمة المرور أربعة حروف وكل حرف في عنوان مشفر في رمز. إذاً أمامك أربعة عناوين أمكنة مرمزة.

---

(1) كتاب (حب وموت في بيروت)، برباره نيومن، عن دارالاتحاد. تاريخ 1/ 1/ 1994.

- ولكن لم يحدد نوعية هذه الأمكنة ووجهتها.. ومدى انتشارها وابتعادها الواحد عن الآخر.

- صحيح.

- هذا يعقد المسألة. هل العناوين شوارع.. بيوتاً.. مقاهي.. مكتبات؟ هل هي في المدينة.. أم في إحدى القرى.. أمكنة عامة.. أمكنة خاصة.. أمكنة دبلوماسية؟ لا تحديد.

- أعتقد أن التفكير في الرمز كفيل بحل العقدة.

- إذاً أمامنا الآن الرمز الأول لنحصل على الحرف الأول من كلمة المرور. لا أكثر.

- أجل.

- وليس هناك زمن محدد للوصول إلى كلمة المرور هذه؟

- الرسالة لا تتحدث عن زمن أو مهلة.

- غموض هذا الموضوع مثير جداً. أنا متشوقة لاكتشاف هذا اللغز. سنفتش معاً. وسأتصفح كتاب برباره نيومن مع كوني قرأته من سنوات. هو عندي في المكتبة.

- شكراً لك يا سحر. صدقيني أشعر بالاحراج نحوك.

- لماذا؟

- أنا لم أساعدك بشيء في موضوع السجن.

- لم أطلب منك المساعدة أصلاً. لا داعي للإحراج يا فايز. هيا لنتكّل على الرب ونرَ إلى أين يصل بنا غرام رئيسنا الراحل والصحافية الأميركية باربره نيومن. هل من أمر آخر؟

– سلامتك. وأكرر شكري.

– حسناً. إلى اللقاء.

– إلى اللقاء. سنتواصل.

أقفلت سحر الخط وراحت تقرأ الجملة المشفرة مرات ومرات:

«الحلقة الأولى: طائر الفينيق الأحمر عاد بالحرف اسماً. والاسم تحول جبلاً صغيراً. حطّ هناك وصار عجوزاً دهرياً. القبة العتيقة. أبو طوني». وسحر كانت من أيام حضورها اجتماعات الشبيبة في كنيسة (محبة الله) قد أخذت دروساً قليلةً في تفسير الكتاب المقدس. ومن أهم ما درست آنذاك تقسيم المقطع المنوي تفسيره إلى وحدات موضوعية تسهل فهمه. تذكرت هذا المبدأ الآن.. وأخذت ورقةً لتقسم هذه الجملة إلى أجزاء. فإذا أمامها ستة أجزاء:

1 – طائر الفينيق الأحمر.

2 – يعود بالحرف اسماً.

3 – الاسم يتحول إلى جبل صغير.

4 – طائر الفينيق صار عجوزاً دهرياً.

5 – قبة عتيقة.

6 – أبو طوني.

وبعد عشر دقائق من التأمل العميق في هذه الفقرات الست استطاعت أن تفهم الفقرة الأولى. إنها تعني: فينيقيا. واللون الأحمر يعني الصباغ الأرجواني. فأخذت الموبايل واتصلت بفايز لتخبره بما وصلت إليه.. حتى يبني هو على قراءتها. ثم أمضت أمسيتها مستلقيةً فوق السرير تتصفح كتاب

نيومن. وقد لاحظت البون الشاسع بين العنوان والمضمون، فالعنوان يوحي بأن المضمون قصة حب عاصفة بين حبيبين مثاليين. وانتهى الكتاب بالموت الذي وضع خاتمةً حزينةً لهذه القصة. بيد أن المضمون يتمحور حول علاقة عابرة من حيث الظاهر لأن لا تفصيلات بالعمق. فصول الكتاب تتحدث عن أحداث واجتماعات ولقاءات سياسية ودبلوماسية مع صحافيين وسياسيين لبنانيين. وهذه العلاقة «النزوة» بين بشير ونيومن جاءت ضيف شرف في حلقة من حلقات الكتاب. كانت سحر تعرف أن الكتاب ليس قصة حب.. بل هو قصة حركة القوات اللبنانية السياسية مع بشير في حقبة معينة من الحرب. وبسهولة يدرك القارئ أن غاية وضع الكتاب إعلامية سياسية لا قصة حب. ثم أرجعت الكتاب إلى مكانه في المكتبة. وعادت تقرأ أيضاً عنوان الحلقة الأولى المشفرة:

«الحلقة الأولى: طائر الفينيق الأحمر عاد بالحرف اسماً. والاسم تحول جبلاً صغيراً. حط هناك وصار عجوزاً دهرياً. القبة العتيقة. أبو طوني». وقرأتها مرات حتى حفظتها عن ظهر قلب. وأوت إلى فراشها وهي تلهج بمقاطع هذه الأحجية. وفجأةً شعرت بحاجة غريبة للصلاة! ونادراً ما تشعر بتثقل قوي للصلاة. كانت أيام زمان تصلي كل يوم، ولكن عندما دخلت الجامعة شحت أوقات الصلاة عندها وكذلك التزامها بالكنيسة. بيد أن جذوة الإيمان لا زالت تتوقد في وجدانها. مدت يدها وسحبت الإنجيل الذي تضعه تحت فراشها.. وفتحت رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس الفصل الثاني، وشرعت تقرأ:

«فتقوَّ أنت يا ابني بالنعمة التي في المسيح يسوع... فاشترك أنت في

احتمال المشقات كجندي صالح ليسوع المسيح... لا يكلل إن لم يجاهد قانونياً... فليعطِك الرب فهماً في كل شيء... إن كنا نصبر فسنملك معه...» وضمت الإنجيل إلى صدرها وهمست: «إلهي الحبيب.. أنت ترى تعبي وجهادي.. وأنت تعلم أنك حاضر في عقلي وقلبي دائماً.. وإن كنت قويةً لأنك أنت تقويني.. هبني نعمةً لاحتمال المشقات كجندي صالح.. واعطني أجاهد جهاداً قانونياً صحيحاً.. وفهماً في كل شيء.. حتى أفهمك أنت أولاً وأفهم ما تريده لحياتي. وهبني أخيراً نعمة الصبر لاجتياز برية الحياة وادي البكاء والدموع هذه.. لأني أريد أن أربحك في ختام الأمر.. وأنت ضالتي المنشودة.. آمين».

******

قفزت سحر من سريرها باكراً وهي تهلل: «وجدتها»! «فينيقيا.. الحرف» إنها مدينة جبيل الفينيقية! كأن حلماً كأحلام يوسف.. ورؤياً كرؤى الأنبياء.. أو ملاكاً جاءها ليلاً وهمس في أذنها بسر هذا اللغز. أخذت الورقة تريد فك باقي المقاطع. وخلال ربع ساعة كان اللغز قد بات واضحاً وضوح الشمس:

- طائر الفينيق الأحمر: فينيقيا.
- عاد بالحرف اسماً: الفينيقيون ابتكروا الحرف. والأوروبيون سموا مدينة الحرف الفينيقية (بيبلوس).
- الاسم صار جبلاً صغيراً: جبيل هي تصغير كلمة جبل في اللغة العربية.
- أبو طوني: الرجل المقصود.
- القبة العتيقة: تحت القنطرة الحجرية.
- صار عجوزاً دهرياً: قرب القلعة التي بناها الفينيقيون في جبيل.

وأمسكت الموبايل ونقرت رقم فايز.. وصاحت في وجهه: «هيا انهض بسرعة لنذهب إلى قلعة جبيل فهي الحلقة الأولى من كلمة المرور». وأجاب فايز وهو يتذمر على من صحّاه في هذه الساعة المبكرة.

- هل أنا حالم يا سحر أم أنت حقيقة؟ سأل فايز وهو يتثاءب طويلاً.

- لست تحلم يا فايز. لقد فككت عقدة العنوان، وهو قرب قلعة جبيل الأثرية عند رجل يدعى (أبو طوني).

- واليوم تريدين أن ننطلق؟

- أتحتاج لسؤال؟ هيا جهز نفسك. إني متشوقة للحلقة الثانية. وسنقضي كل النهار في مطاعم وملاهي جبيل وعلى الشاطئ الأثري الجميل.

- كيف نذهب. بسيارتي أم سيارتك؟

- هذه المرة بسيارتي. واعتبر نفسك مدعواً على الغداء في أحد مطاعم جبيل الرومنسية.

- ما هذا؟! المشروع مشروعي.. وأنت متحمسة أكثر من اللزوم!

- قلبي يحدثني بمفاجآت في هذه الرسائل. لقد سهرت الليل على كتاب نيومن.. لا حب فيه ولا رومنسية.

- إسمعي..كنت أفكر أن أترك لك البحث وأنسحب أنا من الموضوع.. ما دمت متحمسة هكذا.

- لا يا فايز. هذا مشروعك، وأنا مساعدة لا أكثر. هيا بلا كسل.

وبعد ساعة كانت الهوندا الشمبانية تنهب الأوتوستراد شمالاً إلى مدينة الحرف والقلعة الفينيقية العملاقة.. تقودها سحر وفايز العرب إلى جانبها.. في يوم رائع من أيام أيلول الطيبة النسائم. سأل فايز:

- هل المكان واضح عندك.. وتعرفين جيداً أين نقصد؟

- بكل تأكيد. أجابت سحر. ألم تأت إلى جبيل من قبل؟

- بلى. ولكن أعني العنوان الذي نريد.

- باختصار. قرب القلعة، أبو طوني.

- ومن تراه يكون أبو طوني؟

- إما صاحب مطعم.. أو حانة أنتيكا وأثريات.. أو فنان.. أو بائع تذكارات.. شيء من مثل هذه المهن المتناثرة في السوق العتيق وحول القلعة.

ومر الوقت بسرعة.. ووجدا نفسيهما في جبيل.. وركنا الهوندا الشمبانية في موقف السيارات القريب من ساحة جبيل. ثم ترجلا وسارا إلى أحد محلات الحلوى. تعال نأكل الكنافه. لا زلنا بلا فطور. وأكلا الكنافه ثم سارا ثانيةً إلى القلعة. قالت سحر لفايز:

- ما هي احتمالات الحلقة الثانية من كلمة المرور؟

- ما رأيك أنت؟ أجاب فايز وكأنه هو المساعد في العمل لا القائد. شخصية سحر القيادية كانت مهيمنة.

- إحتمال أول أن تكون العناوين الأخرى هنا في معالم جبيل.

- والاحتمال الثاني؟

- أن يكون في مدينة أثرية أخرى في لبنان.

- والاحتمال الثالث؟

- في نقطة سياحية ساحلية أخرى.

- جونيه.. صور.. صيدا؟

- أو ملعب فؤاد شهاب الرياضي.. سوق الزوق القديم.. وسوق البترون القديم.

– إلى أين يريد أن يصل بنا هذا الأميركي التائه؟

– لا أدري. علينا أن نصبر إلى النهاية.

ثم وصلا إلى نهاية السوق، ودخلا أحد محال الأثريات. وسألت سحر:

– عفواً. نبحث عن رجل يدعى أبو طوني. هل بإمكانك المساعدة؟

وسار صاحب المحل إلى خارج الباب وأشار بيده:

– المحل الثالث من زاوية القنطرة.

وأتيا إلى المحل المقصود. سأل فايز:

– نريد رجلاً يدعى أبو طوني. وأجابَ الشاب النحيل الجثّة:

– سيكون هنا خلال ساعة. هل تريدان أن أترك له خبراً؟ ونظر فايز وسحر واحدهما في الآخر. وقالت سحر:

– لا. سنعود بعد ساعة.

وبعد ساعة أمضياها بين الأزقة الحجرية وعلى الشاطئ الأثري الساحر.. وسحر تلتقط بالموبايل الصور والمشاهد الرائعة. وسارا على السنسول.. ومرت ساعتان ولم يشعرا بالوقت لجمال المكان وسحره. ثم عادا إلى محل أبو طوني. وكان بانتظارهما. ومد فايز يده، وسأل وهو يبتسم:

– حضرتك أبو طوني أليس كذلك؟ وأجاب أبو طوني:

– لقد وصلت. هأنذا.

– أنا فايز العرب صحافي في جريدة...

– يكفي. حسناً.. عرفت من أنتما. وصعد إلى الطبقة العليا لدقائق.. ثم نزل حاملاً ظرفاً. وقال:

– جاءني منذ أسبوع شابان وقالا لي: هناك مسابقة صحفية تشبه الرالي

بايبر. حلقات وبحث وأسئلة ثقافية عامة. هل تمانع أن تكون أنت المحطة الأولى. وعرضا علي المال. فرفضت. وسأل فايز على الفور:

- هل كان من بين الثلاثة رجل أجنبي.. أميركي مثلاً. فأجاب أبو طوني:

- لا. لم ألحظ هذا.

- هل هذا كل شيء؟

- أجل. وهذا هو الظرف الذي يحوي أسئلة المحطة التالية. وأمسكت سحر على الفور الظرف وأدارت ظهرها وخرجت. ثم فضت الظرف وقرأت:

«مبروك لك الحرف الأول من كلمة المرور م وإلى الحلقة الثانية: الملائكة الستة جاؤوا من بلاد القيصر ليحرسوا مدينة الفجر. المرأة الحبلى. محمد حسين جعفر». وراحت تردد في قلبها «الملائكة الستة.. الملائكة الستة.. الملائكة الستة» ثم انتبهت لصوت فايز:

- شكراً لك يا أبو طوني عزبناك. هيا يا سحر.. هذا كل شيء. وكانت سحر تتمتم:

- الملائكة الستة.. الملائكة الستة يا سحر...

- ما بك؟ ألا تريحين عقلك قليلاً. خبئي الورقة الآن.. وعلى الغداء نفكر في الرمز التالي.

- الملائكة الستة.. يا سحر.. الملائكة الستة..

واندفع فايز إلى سحر بروح الدعابة ليأخذ منها الورقة والظرف عنوةً:

- هاتي هالورقة لهون يا بنت.. وخلينا نكزدر وننبسط شي نتف..

واستدارت مهربةً الورقة منه.. فوقع بصرها على كارت سياحي معلق على باب المحل الملاصق.. والصورة صورة أعمدة بعلبك الستة. وصرخت سحر

كالمجنونة «وجدتها!» (بعلبك). وذهل فايز من ذكائها وسرعة خاطرها. سألها:

- ماذا وجدت يا مجنونة؟

- الملائكة الستة هم أعمدة قلعة بعلبك. إقرأ يا فايز: ملائكة ستة جاؤوا من بلاد القيصر. بلاد القيصر تعني الرومان.

- أنت أذكى فتاة عرفتها يا سحر. أنت مدهشة.

- وغداً إلى بعلبك.

- غداً مستحيل! غداً يوم الأحد.

- الأحد يوم عطلة.. قد نعوّق.

- الاثنين.

- وهل أستطيع الانتظار للاثنين؟!

- ولكنك لم تفكي الفقرة الباقية من اللغز.

- وهل عندك شك بقدرتي؟

- لا.. لا.. بالتأكيد لا.

ثم تنزها في أزقة المدينة القديمة.. وعلى الشاطئ قرب الصخور.. ودخلا القلعة.. وزارا متحف الشمع.. ووقفا أمام أحد الرسامين ورسمهما بحركات أنامله الرشيقة خلال عشر دقائق. ثم دخلا المحال التجارية وتسكعا حتى حان وقت الغداء. تناولا الغداء في مطعم سياحي تراثي الديكور والزخارف والأجواء.. تحت القناطر الحجرية العتيقة.. وعلى أنغام الموسيقى الرومنسية الهادئة. ثم عادا بعد الغداء إلى بيروت.

******

ويتصل فايز بسحر مساء الأحد ليعتذر عن الذهاب إلى بعلبك يوم الاثنين لأسباب عمل قاهرة. وطلب التأجيل للثلاثاء. ويمر يوم الاثنين بالنسبة لسحر كل دقيقة بسنة. ويعود فايز مساء الاثنين ويعتذر ويرجوها أن تقدر ظروفه وتقبل التأجيل يوماً آخر بعد، فأذعنت وأعصابها مجمرة لاهبة تشوقاً للذهاب. وأمضت مساء الأحد تحاول اكتشاف معنى الكلمة (المرأة الحبلى) وفشلت. وحاولت أيضاً يوم الاثنين.. وفشلت أيضاً. كان بإمكانها أن تسأل أحداً من زملائها في العمل.. أو تدخل على الإنترنيت.. وكبرياؤها حال دون ذلك. أرادت أن تحل اللغز لوحدها بكامله. وهكذا أشرقت شمس صباح الأربعاء ولم تكتشف سحر معنى التعبير (المرأة الحبلى). قال لها فايز على الهاتف:

- سنزور القلعة.. ونسأل المرشد السياحي.. وسنحظى بجواب.

- لن نسأل أحداً يا فايز.

- ما هذا لا تكوني مغرورةً إلى هذا الحد. هذا المزاج الحاد في شخصيتك يتعبك كثيراً.

- بسيارة من سنذهب اليوم؟ سألت سحر.

- بسيارتي بالتأكيد. المشوار بعيد.. وأمامنا الطريق صعود. الإنفينيتي أنسب لهذه الرحلة.

- حسناً. أنا أنتظرك. باي.

- باي.

وخلال ساعة كانا قد غادرا بيروت إلى البلدات السفوحية الغربية للسلسلة الغربية لجبال لبنان. بعبدا، ضهر الوحش، عاليه، صوفر، بحمدون وصولاً إلى ضهر البيدر. السيارة مكيفة.. وفايز يعشق فيروز وصُبحياتها.. وكانت تغني

في هذا الصباح تلك الأغاني التي يتحد فيها الوطن بالحبيب.. تبدأ الأغنية بالحبيب وكأنها أغنية حب.. ثم يقفز حب الوطن ويختم الأغنية. صوت فيروز يذكر بسنين الحرب.. وبيروت القديمة.. وقيم القرية اللبنانية.. والحب القروي المخلص حتى الموت. القيم اللبنانية الأصيلة تتساقط صفراء.. فوق منحدرات النسيان.. في خريف الزمن المريض هذا.

وتوقفا في أحد مطاعم شتورا وتناولا المناقيش. وقد تكون منقوشة الزعتر.. والتبّولة والكبّه.. والأغنية الزجلية.. شتاتاً أو دُردياً أو رسوماً باقيةً من بناء التقليد الأصيل المتهدم.

ثم عادا وانطلقا إلى شمال سهل البقاع مروراً بطرف مدينة زحلة. وسألت سحر:

– ما رأيك لو نأتي ونتغدى في زحله؟

– لم لا.. إذا انتهينا بسرعة.

ودخلت الإنفينيتي مدينة الشمس.. (هيليوبوليس) التسمية رومانية. وبدأت أشباح الهياكل الرومانية والمعابد المتبعثرة تمد أعناقها إلى هذين الصحافيين المغامرين.. تستكشف أحلامهما الحائرة. قصدا القلعة الرومانية مباشرة.. وأعمدتها الستة العملاقة تريد أن تتحدى الزمن بانتصابها عنيدةً أمام صولاته المخيفة. ركنا السيارة في موقف السيارات، ودخلا القلعة ورحب بهما المرشد السياحي يسألهما:

– أهلاً وسهلاً. أنا المرشد السياحي هنا. أرجو أن تتبعاني خطوة بخطوة. أتفضلان العربية نتحدث بها أم لغةً أخرى.

– العربية يا أخي العربية. وهل نحن في اللوفر في باريس أو هياكل أكروبوليس في أثينا. نحن لبنانيان وحدثنا باللبنانية. أجاب فايز.

وقبل أن يبدأ المرشد في التطواف بهما في رحاب القلعة سألت سحر بسرعة:

- من فضلك نريد أن تدلنا على هذا العنوان في هذه الورقة. نحن صحافيان، مجيئنا إلى هذا المكان جزء من مسابقة، وهو مكتوب بأسلوب رمزي. فأجاب المرشد بلطف:

- لست خبيراً في الرموز.. ولكن لا بأس.. أحاول. فقرأت سحر:

- ملائكة ستة جاؤوا من بلاد القيصر. هذا واضح.. الملائكة هم الأعمدة الستة. بلاد القيصر أي بلاد الرومان. ولكن المرأة الحبلى ماذا يمكن أن تعني؟ هل لديك أي فكرة إذا كان مكاناً أثرياً هنا في هذه الهياكل المتهدمة؟

- المرأة الحبلى هي الحجر الحبلى في أول المدينة بلا شك. أجاب المرشد بحزم.

- الحجر الحبلى!! أجاب فايز وسحر معاً.

- ماذا ألم تسمعا بحجر الحبلى من قبل؟ وانتما صحافيان!

- أنا آتي للمرة الأولى إلى بعلبك. قالت سحر.

- وأنا للمرة الثالثة إلى القلعة فقط. ولم أسمع به.

- هذا الحجر ليس تابعاً لهيكلي جوبيتير وباخوس.. ولكنه من صنع الرومان وهو أكبر حجر منحوت في العالم.. هو لغز ولا أحد يدري ما سره. ويسمى أيضاً بالقبلة. وهو في طرف المدينة الجنوبي الشرقي في الجانب الشرقي للطريق. ثم أضاف: «الحجر موجود في المقلع الروماني الذي كانت تؤخذ منه الحجارة إلى البناء. إنه مرعب حقاً! طوله 21,5 متراً، وعرضه 4,8 متراً، وعلوه 4,2 متراً، وحجمه 422 متراً مكعباً، ويزن هذا الحجر العملاق ألف طن.

- حسناً. شكراً لك. والآن لنتجول في القلعة ونتأمل في عظمة العبقرية الهندسية القديمة. قال فايز.

وراح المرشد يطوف بهما على الأحجار والأعمدة والاجسام والمحفورات والنقوش والعتبات والمداخل والمدرّجات شارحاً ومفسراً خلفية كل جسم. وسحر تلتقط الصور لكل جميل مدهش: أعمدة، أروقة، نقوش، زخارف، قناطر... إلخ. وسألت وهي مأخوذة بالأعمدة الشاهقة السابحة في الفضاء وهي بقايا هيكل من 24 عموداً، والعمود الواحد يحتاج لخمسة رجال للإحاطة به:

- كيف كان يبنى هذا البناء؟! وأجاب المرشد:

- هذه الأبنية ستبقى لغزاً للفكر الهندسي الحديث. يقال إن آلافاً من البشر والجمال والفيلة كانت تجر هذه الصخور لبناء هذه الهياكل الجبارة. وأما عن سر العمود هذا، فإن القطعة العليا منه داخلة في القطعة السفلية المقعّر رأسها، دكر وأنتي، هكذا الأعمدة كانت تبنى حجارتها.

- حيلة ذكية! قال فايز.

- هذه واحدة من مجموع حيل كثيرة كانوا يلجأون إليها.. وكانت بديلاً لهم عن أدواتنا الميكانيكية الحديثة اليوم.

- ومع ذلك فإنجازاتهم أعظم من إنجازاتنا بما لا يقاس. قالت سحر.

ثم راح يشرح لهم من كتاب صغير في يده كيف كان التصميم الكامل للهيكل وتقسيماته وغرفه وردهاته وأعمدته وأدراجه.. فإذا هو نصف المدينة! الهيكل الكبير هو للأله الروماني جوبيتير.. وطوله 87,5 متراً، وعرضه 47,5 متراً.. يحيطه 54 عموداً عملاقاً. وأما الآن فلم يبق من هذه الأعمدة غير ما

يساوي عدد أصابع اليد. وقد تعرض هيكل جوبيتير للتهديم أيام البيزنطيين على يد قسطنطين ثم بعده ثيودوسيوس.. وجاء العرب فيما بعد وحولوه إلى قلعة مع تغييرات في الهندسة الداخلية محت الطابع المسيحي للقلعة. ثم هيكل باخوس الصغير الذي لا زال يحتفظ بجدرانه الأربعة. وكان يحيطه 50 عموداً 15 لكل من جانبيه.

ومر الوقت بسرعة، وجالوا في كل مكان وشاهدوا كل شيء. وكانت سحر سعيدةً جداً بهذه الزيارة لهذه الآثار الخالدة الساحرة. ثم خرجا بعد أن دلهما المرشد إلى مكان حجر الحبلى بدقة. وأشار فايز على سحر أن يزوروا متحف المدينة حيث التماثيل الرومانية أيضاً. ومعروف عن هذا المتحف أن الرئيس الفرنسي الراحل شارل ديغول والشاعر الفرنسي جان كوكتو من أهم زواره. كان وقتاً طيباً. ثم خرجا وأتيا إلى مكان حجر الحبلى. ولم يفاجأ فايز بهذه الصخرة المخيفة.. فقد رآها من قبل بيد أنه يجهل اسمها. وسحر راحت تلتقط صورا للحجر. ودخل إلى دكان قريب من هذه الصخرة العملاقة، وسأل:

- عفواً سيدي. نحن صحافة. هل تعرف رجلاً يدعى محمد حسين جعفر؟

- ما اسمك؟ سأل الرجل صاحب الدكان والجدية تقلص ملامح وجهه.

- أنا فايز العرب.. وهي سحر سالم من الــ NRCC.

- حسناً لقد عرفتكما. أنتما الشخصان المطلوبان. زُوّدت باسمكما منذ أسبوعين.. وأُعطيت ظرف المسابقة حتى أسلمكما إياه. تفضلا استريحا. أتريدان القهوة؟ سأل وقد انفرجت أسارير وجهه.

- أنت السيد محمد حسين جعفر؟

- أجل.

- ولكن من الذي أعطاك ظرف المسابقة؟

- صحافيان مثلكما. ألا تعرفان من هما؟

- هل أحدهما أميركي.. يتكلم الإنكليزية؟ سألت سحر.

- لا. كانا شابين لطيفين جداً. وقد جلسا وتناولا المثلجات.. وراحا يتمازحان في المستجدات السياسية.

- عجيب أمر توماس شارف هذا. قال فايز وهو ينظر إلى سحر. فقالت سحر:

- لنصبر إلى النهاية.

وخرج الرجل محمد حسين جعفر من حانته لدقائق ثم عاد وأعطاهما الظرف. وأضاف:

- زوجتي تعد القهوة. كيف تشربانها؟

- حلوة. أجابت سحر وهي تفض الظرف لتقرأ.

- وأنا وسط. قال فايز. واقترب من سحر ليقرأ معاً مضمون الحلقة الثالثة:

«مبروك الحرف الثاني من كلمة المرور **ب** وإلى الحلقة الثالثة: حارسة الخليج لا زالت تركل الكرة الحمراء بقدمها».

- دعيها الآن.. سنفكر بها على الغداء في زحله. قال فايز.

- حسناً.

ثم جلسا وشربا القهوة.. وتحادث الثلاثة في العموميات. ثم انطلقا عائدين إلى زحلة. سألت سحر:

- لماذا قسّم توم شارف كلمة المرور إلى أربع محطات متباعدة بهذا الشكل؟! ما سرّ هذا الإنسان؟

– ألا تخشين أن تكون النهاية خطيرة.. أو مخيبةً للآمال؟

– مثل ماذا؟

– أن يكون هناك جهة ما تستدرجنا لكمين.. لتوريطنا في قضية كبيرة.

– إن هذا يزيد من شوقي إلى النهاية.

– أنت مغامرة يا سحر.

– الصحافي المغامر هو الصحافي الناجح.

– فعلاً.. لا مكان للجبن في مهنة الصحافة.

– سنتجول قليلاً بالسيارة في أحياء زحله قبل أن نتغدى في أحد المطاعم.

– هل جئت إلى زحله يوماً؟

– مرةً.. في سنتي الأولى في الجامعة.

– لبشير تاريخ عظيم في هذه المدينة.

– تقصد معركة زحله؟ أنا ولدت في آخر الحرب. لا أعرف شيئاً عن هذه المعركة سوى ما قرأته في بعض الكتب.

– أنت ولدت في نهاية الحرب.. وأنا في بدايتها. كنت صغيراً جداً أثناء هذه المعركة. ولكني أذكر جيداً الشباب المقاتلين في حينها.. كانوا مدججين بالسلاح والعتاد الحربي عند ساحة البلدة.. ويأتي الكوموندكار العسكري لحملهم إلى ميادين القتال. كانت الفتيات يودعن أحبابهن من المقاتلين بالقبل والدموع.. والنساء بالمناديل والدعاآت ويقلن: «الله يحميكون يا رجال.. العذرا تحرسكون». في زحله والجبل وكل مكان. إني أذكر الكثير من مشاهد تلك الأيام.

– تاريخ لبنان الحديث مليء بالحقد والحرب والدماء.

– ترى متى يشفى لبنان من أمراضه ويتعافى.. ويصبح دولةً حديثة قوية؟

- عندما تحل عقدة الشرق الأوسط. قالت مازحةً.

- الله يبشرك بالخير. أين أصبح موضوع السجن؟

- إني ماضية فيه.

- وهذا السجين الذي حدثتني عنه.. ماذا عنه؟ ماذا عمل بعد خروجه من السجن؟ وابتسمت سحر للسؤال ابتسامة ساخر من سائل لا يدري ماذا يسأل. وتنهدت سحر وتمتمت:

- كم هي الدنيا صغيرة.. وكم هو الرب كبير.. كبير!

-لماذا تقولين هذا الكلام؟

- لأن لهذا السجين حكاية.. تحتاج لتحقيق صحفي هي الأخرى. لن تصدق من هو هذا السجين يا فايز.

- ومن يكون؟

- سيأتي الوقت المناسب لأخبرك.

- ولم ليس الآن؟

- إني أنتظر الحلقة الأخيرة أيضاً من هذه الحكاية الغريبة.

- ولهذا السجين حكاية في حلقات؟!

- ورموز ما بعدها رموز.

- أنت هكذا تشوقينني ولا تقولين شيئاً.

- صدقني.. سأخبرك كل شيء فيما بعد.. عندما تقول السماء كلمتها الأخيرة.

- وهل سيطول الأمر؟

- لا.. فالحكاية شارفت على نهايتها.

– ها أنا أنتظر إذاً.

وأخيراً زحله!

زحله عروس البقاع.. زحله جارة الوادي.. زحله قصيدة أمير الشعراء وأغنية عبد الوهاب.. قالت عنها أم كلثوم: «هي الجنة على الأرض». زحله المعالفة الكبار وسعيد عقل.. زحله الأسواق القديمة والحديثة.. زحله البردوني بمقاهيه ومطاعمه من رأس النبع حتى مدخل وادي العرايش. هذه المقاهي التي تقدم المازة والمأكولات اللبنانية الشهية والغنية بأصنافها. ولا معنى لزيارة زحله بلا تذوق الكبة الزحلاوية والبوظة الطيبة التي تشتهر بهما، والحلويات.. والقهوة العربية الأصيلة. ويعود تاريخ هذه المقاهي والمطاعم إلى أكثر من مئة عام.. حيث كانت «قهاوي» صغيرة بدائية.. تحولت مع السنين إلى مؤسسات كبيرة بخبرة ونوعية عاليتين. قال فايز لسحر:

– لن نذهب من زحله قبل أن نشبع منها.

– وهو كذلك. سنبقى هنا حتى المساء.

وهكذا كان. تناولا على الغداء الكبه الزحلاوية ومازتها ومتبلاتها.. والمشاوي.. وأكلا البوظة أيضاً.. وأطيب الحلويات الشرقية.. حتى التخمة. كان جو المطعم لطيفاً.. هادئاً رغم حركة الوافدين والخارجين على أنغام تنوعت بين الشرقي حيناً والغربي أحياناً. ثم طلبا القهوة. وقالت سحر:

– حان الآن دور اللغز.

– حسناً. هاتي الورقة. سأكتشفه أنا هذه المرة. صدقيني.

– لنرَ.

«حارسة الخليج لا زالت تركل الكرة الحمراء بقدمها». قرأاها مرتين على صوت عال.

- وهل هناك خليج غيره؟ سأل فايز.

- أي خليج تقصد؟

- خليج جونيه.. بالتأكيد. لا خليج سواه في لبنان. ومرت ثواني صمت وسحر تنظر في الورقة. ثم هتفت:

- على هذا النحو حارسة الخليج هي سيدة حاريصا[1].. أليس كذلك؟!

- الاستنتاج منطقي جداً.

- ولكن ما هي هذه الكرة الحمراء التي لا زالت تركلها بقدمها؟

- إنه التيليفريك. ينطلق من عند قدميها نزولاً إلى الخليج.. ثم يعود أدراجه صعوداً.. وهكذا دواليك. قال فايز هذا بكل هدوء واتزان.. مظهراً التفاخر على سحر.

- لقد ربحت هذه المرة يا فايز. مبروك.

- ولكن.. هل يعني لك هذان الحرفان شيئاً؟

- **م** و **ب**.. لا. أجابت سحر. هناك حرفان بعد.

- ولا أنا أيضاً. أضاف فايز.

★★★★★★

(1) تمثال السيدة العذراء فوق الجبل المشرف على خليج مدينة جونيه.

13

إن أبي وأمي قد تركاني والرب يضمني.

مزمور 27: 10

لا تعلّم اليتيم البكاء.

مثل عربي

دخلت سحر إلى مكتبها في الصحيفة وجلست أمام الحاسوب، فدخل فايز وراءها حاملاً رسالة:

– هذه الرسالة لك.. وصلت البارحة بعد الظهر.

– رسالة لي أنا؟

– أجل. سحر لن يمكننا الذهاب إلى حريصا قبل نهاية الاسبوع، العمل كثير، طوّلي بالك قليلاً.. إتفقنا؟ قال هذا وخرج.

– إتفقنا. أجابت.

ثم راحت تنظر إلى هذه الرسالة الغريبة في زمن سيطر فيه البريد الإلكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي على البريد التقليدي.. حتى بات منسياً بالكامل. كل مراسلات سحر على الإنترنيت.. فماذا عن هذه الرسالة الورقية الغامضة؟

ومن هي الجهة المرسلة يا ترى؟ كانت سحر تهمس في سرها وقلبها ينبئها أن مفاجأةً جديدةً مسجونة في هذا الظرف تنتظر يداً تحررها. ماذا هنا يا ترى؟ أنور سالم؟ ناجي العرم؟ فايز العرب؟ أم توماس شارف؟ أغلقت الباب وراء فايز وحضرت لنفسها الإسبريسو، وأدارت كرسيها إلى النافذة المطلة على الشاطئ والأشرعة في نادي اليخوت.. والأوتوستراد الساحلي الذي يدور حوله كأنه أثر ذيل حيوان عملاق زاحف. ورفوف الطيور البحرية فوق الأشرعة تذكر بقصيدة بودلير (طائر القطرس) كأنها التغطية الجوية لهذه الأشرعة الزالقة فوق الماء. فضت الرسالة وشرعت تقرأ نصاً بخط يد، مؤلفاً من صفحتين تقريباً:

«أنا المدعو خالد إبراهيم كاتب هذه السطور. تاجر كبير للمجوهرات والمخدرات والأسلحة. ألقي القبض علي منذ شهرين تقريباً لاكتشاف أعمالي الجاسوسية لعشر سنوات خلت. سحر سالم الصحافية اللامعة ربيبة أنور سالم خالها الذي تبناها وأعطاها اسم أمها. وزوج أمها، أي سحر الكبيرة، الشرعي هو السجين السابق ناجي العرم.. الذي ألصقت به تهمة قتل الوالدة وسجن ظلماً. بيد أن والدها الحقيقي الذي أعطاها قوة الحياة.. هو أنا الذي أتحدث الآن خالد إبراهيم. من زمان وأنا أراقبك يا سحر، وأتحين الفرصة المناسبة لأعلن لك الحقيقة. ليست صحوة ضمير! فأنا من هؤلاء الذين خدروا ضميرهم.. وباعوه للشيطان. والذي شدني إليك ليس الأخلاق ولا المبادئ ولا حتى الاعجاب بك كصحافية بارعة.. ولكن الطبيعة.. طبيعة الإحساس الأبوي المغروس في داخل الرجل نحو ولده.. وهذه قوة الحياة.. تفرض نفسها في نهاية المطاف، وهي أقوى من أي شيء آخر. أنا لا أريد أن أطالب

بك.. فأنا لست جديراً بك.. أنا شيطان رجيم وأنت ملاك من السماء الملائكة والشياطين لا يتعايشون. راقبتك منذ خروج ناجي العرم من السجن ولقائه بك في صدفة غريبة.. من ساعتها عنَّ لي أن أحاول الإعلان عن نفسي. ولم تسمح الظروف. إلى أن انتهى بي الأمر إلى هنا في السجن.. ولن أخرج إلا عجوزاً هرماً.. هذا إذا خرجت! أنا عرفت نساءً كثيرات ولكني لم أتزوج. وحكايتي مع والدتك حكاية مراهقين طامحين إلى الحياة العالية.. حالمين بالمجد والترف والمال واللذات. لم أحبها، وهي كذلك ما أحبتني قط. أنا أحببت جسدها.. وهي أحبت عقلي ومالي وأشغالي وطموحاتي. كانت بالنسبة لي أداةً مثاليةً لتمرير وتسهيل الأعمال المتنوعة، فالمرأة في مثل أعمالنا مخبأ أمين.. ومؤثر فعّال.. وسلاح فتاك. أمك تملك الجمال والشجاعة والطموح.. ولكنها طيبة القلب. كانت كالدبور سريعاً تطير من عنقود إلى آخر إلى أن بهرتها دوالي كرومي.. وأهدافي البعيدة. هكذا أنا شوق دائم لا يخبو.. وجوع لا يشبع.. وطموح لا ينثني. وسرعان ما فتح المستحيل لي باب كنوزه، وكانت سحر أمك كلمة المرور.. كانت هي «إفتح يا سمسم» وأنا «علي بابا» حذقاً شقياً من أشقياء أو «عليباباوات» حرب الـ 15 سنة في هذا الوطن. وقد وصلت بي طموحاتي ومغامراتي إلى أن صرت رقماً صعباً في جهاز أمن سري.. وهذا بفضل إخلاصي للاقتصادي الكبير س.ع. وغرني اللعب بالمتناقضات.. وعلقت في شبكات المعلومات السوداء.. ونهاية الخونة حيث أنا الآن. ساعدتني والدتك كثيراً في تهريب الممنوعات وكانت شبحاً.. بل لغزاً لا تحل رموزه.. وجرعةً تخدر مناعة ضباط الأمن. وهكذا كانت العلاقة قويةً في العمل وفي الفراش أيضاً. ولكني سرعان ما أدركت أنها كانت تربي جراء

طموحاتها سراً. لقد أخذت منا الخبرة والسوق والعملاء.. واستعملتنا لتبني بنفسها ملكوتها بعيداً عنا. والمدعو أجود أرزّيه تاجر أسلحة ودعارة.. ويعمل لحساب الاقتصادي س.ع. أيضاً، كانت متورطة معه في عدد من المشاريع.. تزايدت الخلافات بينهما.. وكادت أن تكشفه للاجهزة الأمنية! فاستدرجها إلى بيت سري عتيق في الجبل (عش دعارة)، واستدرج أيضاً ناجي العرم الرجل الذي تزوجته لكي تحمي المولود بأب شرعي. لقد استعملت ناجي، مرحلياً، والمسكين لا يدري أنه آت إلى كارثة ستدمر حياته. أنا اكتشفت لعبة أجود أرزية و«طنّشت» وكنت خارج البلاد يومها، ولم أتدخل. أجود أرزية ألقي القبض عليه في ألمانيا ومات في السجن في حادث قلب.. ولدي الوثائق التي تثبت هذا الكلام. أنا لا أبرئ نفسي من جريمة أمك ولكني لست القاتل.. أجود أرزية هو القاتل! وهذه ليست شيئاً أمام ما عملت! وهذه الرسالة وثيقة جيدة تفيدك في إحياء القضية وإعادة المحاكمة. وهذا العمل الصالح البسيط والتافه.. قد يجد حظوةً ما أمام عرش العدالة الإلهية.. فالعدالة الأرضية قانونها أضيق بكثير من مآثري ونجاساتي. وأنا واثق أن قلب عدالة السماء أوسع بما لا يقاس. أنا من أرسل التهديدات لك ولناجي وللسيد كميل مدير الجمعية لإبعادك عن ناجي.. بيد أني أدركت قوة الرابط بينكما. أعرف جيداً ما يجمعك بناجي هذا الإنسان الآدمي.. ظلمته الأيام والشرور.. وها أنا الآن أشارك في إضاءة هذه الشمعة الصغيرة في ظلمته الموحشة. الشاب يحبك وأنت كذلك. فلتبارك السماء لكما هذا الحب. وأرجو من الله أن يسجل لي هذا الخير الذي أعمله لك ولناجي. والسيد أنور سالم يعرف براءة ناجي جيداً لأنه يعرف أخته جيداً. ولكن علاقة المدعو أجود أرزية بـــالاقتصادي الكبير س.ع. سياسياً..

كانت كافية لقبر ناجي عشرين عاماً في أقبية «بريحان». باركك الله مع ناجي.. وليت السماء تسامحني! «بريحان» شتاء 2010».

ضمت سحر الرسالة إلى صدرها وهمست في سرها «لقد قالت السماء كلمتها.. ناجي بريء» بيد أنها ما استطاعت حبس الدموع التي انسابت فوق وجنتيها الصافيتين صفاء السماء الزرقاء. لم تنته فصول الدموع بعد، ولم توضع نقطة الختام. كانت تنظر طيور البحر تحوّم فوق الأشرعة.. كما يحوم الدراويش في حلقاتهم للوصول إلى النشوة الروحية.. وتحسدها على نشوتها المطلقة. أتبكي هذه الطيور أيضاً؟! أتتألم؟! أتشكو الوحدة واليتم والغربة؟! أم ان هذا الدوران حلقات في فضاء رحب هو الوجود الكامل الذي لا نقص فيه ولا ألم؟ «يا طير يا طاير على طراف الدني... ألله يا فيروز.. يا ليتني طير لأطير على أجنحة الحرية حيث لا ظلم ولا كراهية ولا انتقام ولا تذاؤب.. ولا انتماء إلا إلى الله وحده. لماذا فعلت هذا بي يا أماه؟ ما ذنبي أنا؟ رميتني في غربة الوجود.. وحرمتني من حقي في الأمومة والأبوة وهما حبلا صرّة الحياة في هذا العالم. لماذا.. لماذا؟»*.*

لم يعد بمقدور سحر أن تشرب فنجان القهوة.. جف حلقها. خرجت إلى التواليت حيث كفكفت دموعها وغسلت وجهها، وعادت فشربت ماءً بارداً وجلست وراء مكتبها. ودهمتها فجأةً فكرة إيجابية معزّية! لقد تأكدت الآن من براءة ناجي، وربحت حبيباً كما يشتهي قلبها.. السماء تعلن الآن إرادتها.. «شكراً لك يا رب»، قالت في سرها. وفيما هي تفكر في الاتصال به لتزف إليه ما قالت السماء.. إذا برنين هاتفها الخليوي يوقظها من أحلام يقظتها. «يا ألله.. ناجي أيضاً»:

- هل تدري؟ كنت أفكر بالاتصال بك للتو.

- حقاً! عجيب توارد الفكر هذا بيننا!

- وهل أدركت هذا الآن؟

- لا.. ولكن الآن تأكد لي أن هذا التوارد لا زال مستمراً.

- خير ماذا وراء اتصالك هذا؟

- أريد أن أطمئن وأعرف كيف كانت ردة فعل أنور على كل ما أخبرتك إياه؟

- قال لي: هذه هي الحقيقة.

- وهل هذا أراحك؟

- أجل.

- أهو ساخط علي؟

- لا بالعكس.. هو مطمئن من جهتك.. ويرتاح إليك أيضاً.

- وأنا أيضاً ارتحت لأن جلاء الحقيقة بالنسبة لأنور يريحني أنا. بيد أن أنور لن يصدق بسهولة أني لست قاتلاً ما لم...

- تقل السماء كلمتها. ألا يكفي أن أكون أنا مقتنعة ببراءتك؟!

- يكفي ولا يكفي..

- وتواصلنا هكذا لا يكفي أيضاً. يجب أن نلتقي.

- والتهديدات؟!

- لا أدري تنتابني شجاعة غريبة.. ما عدت أخشى شيئاً.

قالت هذا بمكر لأنها باتت تعرف قصة التهديدات.. ولا تدري لماذا تحفظت.. وامتنعت عن إخباره برسالة أبيها الحقيقي السجين خالد إبراهيم..

حتى تتحقق من حكايته هو الآخر.. أو ربما تريد أن ترى ردة فعله حيث لم يقدر أن يثبت لها براءته.

- أنا أيضاً أشعر بحاجة لكي نلتقي. متى؟
- غداً مساءً في مقهى الشير فوق الشاطئ الجميل.
- حسناً. إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

******

كانت سحر تقرأ جريدة الصباح وراء مكتبها. والعنوان الكبير على الصفحة الأولى:

«أنياب الغضب تستهدف الوزراء والنواب هذه المرة» ثم تابعت القراءة: ثلاثة وزراء ونائبان تحت رحمة العصابات. والمسروقات سيارات مجوهرات مال وحواسيب.. في ليلة واحدة.. والتوقيع ذاته بسبراي اللون الأحمر على الأرض.. (أنياب الغضب)» والصورة إلى جانب المقالة التي كانت تتابع تفاصيلها.. ورن الموبايل. وكان أنور على الخط:

- سحر هل تشاهدين التلفاز؟
- لا يا أبي.. ماذا هناك؟
- عمليات سطو وسرقة لعصابة أنياب الغضب!
- إني أقرأ المقالة في الصفحة الأولى.
- شاهدي التلفزيون.. لقد ذكر اسم هاني سالم مع جملة رؤساء العصابة!
- ماذا؟! حسناً.. دعني أتحرَّ الأمر كله.

أقفلت الخط وراحت تنقل بين المحطات على التلفاز في مكتبها حتى عثرت على واحدة تذيع الخبر.. وخلاصته: «أن عصابة أنياب الغضب نفذت

عدداً من عمليات سطو على منازل ثلاثة وزراء ونائبين في أمكنة متقاربة، وقد حدث اشتباك عنيف بين العصابة ورجال أمن أحد الوزراء وجرح واحد من العصابة. وبات هناك لائحة بأسماء قادة هذه العصابة: المدعو هاني سالم، وقاسم عزام وجميل طوق. وهذه العملية رقم خمسة والأكبر لهذه العصابة». فأدركت أن أخاها هاني بات قريباً جداً من الوقوع في يد السلطات. ورأت أن تتصل بأنور تهدئ خواطره. وأما مشاعرها هي فكانت بركاناً مضطرماً:

– ما الجديد في هذا الخبر يا أبي؟ حوادث سطو وسرقات عادية تحصل كل يوم.

– إسم هاني سالم في رأس قائمة زعماء وعقول هذه العصابة الشيطانية!

– ألا يوجد هاني سالم في هذا البلد غير ابنك يا أبي؟ الدنيا مليئة بالاسماء المتشابهة. أجابت سحر بذكاء لكي تهدئ قلق أبيها الذي صارت الهبّات العصبية زائرته الثقيلة اليومية. إسمع عندي كلام أريد أن أخبرك إياه اليوم مساءً. إنتظرني، وأقفلت الخط. وعادت سحر إلى المقال تقرأ بعض التفاصيل فلم تقع على جديد. شعرت بحاجة للصلاة.. فأغمضت عينيها وانحنت فوق مكتبها وصلت بقلبها: «يا رب.. لا تسمح أن يصيب أخي هاني أي مكروه جسدي.. وإذا شاءت مشيئتك أن يقع في يد الدولة فليبق أيضاً سالماً جسدياً. أيقظ ضميره واشفِ روحه التائهة. حرره من الإفكار الشيطانية ورده إلى الحياة الخيرة الصحيحة. يا إلهيَ الحيّ.. أرسل ملائكتك من السماء وأنقذ أخي.. يا سامع الصلاة.. أنت الذي أوجدت البشر في هذا العالم ليثمروا الخير والصلاح.. فإذا بهم أبدلوا النعيم بالجحيم.. وَحْلةُ الجحيمِ المتحركة تبتلع أخي يا رب.. لا تتخل عنه.. يا واسع الرحمة والمحبة».

★★★★★★

«ماذا هناك يا سحر شغلت لي أفكاري؟ هل أستطيع أن أدخل؟»

كانت هذه كلمات أنور سالم لسحر خارج باب غرفتها ولم يصبر لحين جلوسهما على العشاء.

- خير يا أبي خير.. الأخبار طيبة هذه المرة. أدخل. أجابت سحر.

- هاتي ما عندك يا ابنتي وطيبي خاطري بكلمة معزية. هل الأمر يتعلق بهاني؟

- لا. بل بناجي العرم.

- أيضاً ناجي العرم! قلت لك إن كل ما قاله عن أمك صحيح.. أمك كانت سيئة، ولكنه هو الذي قتلها.. وقد نال عقابه على فعلته. ولست مقتنعاً بعد أنك لست ابنته.

- لو كنت ابنته لعاد وأقام الدنيا وأقعدها لكي يرجعني إليه. خصوصاً وأني ثمرة حب قديم في حياته.

- أنت تحبينه يا سحر.. أنا أجزم في هذا.. وقد استطاع أن يأسر عواطفك. لقد أحبك لأنك تشبهينها.

- إذاً أنت تعرف بأني لست ابنته؟

-...!!

- وإذا كان للسماء كلام آخر؟

- كلام آخر؟!

- هل تعرف رجلاً يدعى خالد إبراهيم؟

- خالد إبراهيم!! لا.

- أنت لم تجرب يوماً أن تبحث عن والدي الحقيقي.. لأنك مقتنع بأن ناجي هو أبي وقد تخلى عني.. وقتل أمي لسبب اكتشافه الخيانة.

- صمته آنذاك كان غريباً.

- حتماً سيكون صمته غريباً! لأن حبه الوحيد والعظيم انتهى في أشهر الزواج الأولى.. وقبل أن يثمر!! لقد شعر ناجي أنه انتهى.. ما عاد يرى الأشياء بذات قيمة. لقد أظلمت الدنيا في عينيه وماتت الحياة. وسيان عنده السجن أو خارجه.. الأسر أو الحرية.

- أنا في قلبي أعرف نقاوة معدن ناجي وأصالته. ولكن الغيرة تفقد الرجل عقله.

- لقد أذابت الغيرة رجولته الجريحة في حينها.. ولكنه كان مستعداً للصفح وإعادة ترميم العلاقة. ولكن أشباح ماضي أمي الشقي كانت لعنةً تسكن بيتهما.. وقد ظنت أنها تخلصت من هذه اللعنة.. وظنت أن الزواج رقية هذه اللعنة.

- كيف تحققت من براءته؟

- لقد اتصل بي والدي الحقيقي. ونهضت سحر وسحبت الظرف من جزدانها ورمته على الطاولة.

- ما هذا؟! سأل أنور مذعوراً.

- رسالة من والدي الحقيقي. خالد إبراهيم.

- من خالد «المنحوس» هذا؟ أواثقة مما تقولين يا ابنتي؟!

- إسمع. أريد أن يبقى هذا الاكتشاف في الوقت الحاضر سراً بيننا.. خصوصاً ناجي.

وأمسك أنور الرسالة وفضّها بانفعال.. وراح يتأمل السطور والكلمات. وقالت سحر:

- خالد إبراهيم شيطان كبير من شياطين كثيرة كانت على علاقة بأمي. ألقي

القبض عليه بتهمة التعامل مع العدو. خالد هو أبي. وأجود أرزية هو قاتل أمي. وأرسل خالد رقم هاتفه في سجن «بريحان» للاتصال به. إقرأ هذه الرسالة لتكتشف أن ناجي ظلم عشرين عاماً.. ودفع هو ثمن شرور أمي وقذاراتها. يا إلهي.. أي ذرية شقية بائسة جاءت بي إلى هذه الدنيا!!

- دعك من خالد ابراهيم هذا وقولي لي الآن.. هل هناك جديد بخصوص هاني؟ فأنت مهتمة بناجي أكثر من هاني! تكلم بانفعال وهو يرمي الظرف على الطاولة.

- قلت لك أن لا شيء يؤكد أن هاني سالم المذكور في العصابة هو أخي!!

- قلبي يحدثني بأنه هو بذاته. وقد أصيب في هذه القذارات التي يعملها. إنه الآن جريح.. ولا ندري ما مدى إصابته.

- خلِّ ثقتك بالرب في محلها يا أبي. الرب طيب.

- إني أصلي الآن أن يقع في يد القضاء سالماً وليس متأذياً.

وفجأةً رن جرس الباب! «قومي افتحي الباب يا ابنتي» قال أنور بتنهد. وفتحت الباب. وطبع المشهد عند الباب فرحةً عظيمة على وجهها. وأنساها فجأةً «شريعتها» مع أنور. «سنة حلوه يا جميل! سنة حلوه يا جميل! سنة حلوة يا سحر.. سنة حلوة يا جميل!»

- من؟! سمر.. حنان.. غنوه.. سامر.. جميل.. جوزيف..!!

- مفاجأة.. أليس كذلك؟ قالت غنوه الواقفة في الباب مباشرةً، ووراءها شبيبة كنيسة (محبة الله)، شلة الصداقة القديمة، مكوكبين عند المدخل كصبية تحلقوا حول بائع الحلوى ينظرون إلى صينيته بشهوة، أو هم المجوس جاؤوا وتحلقوا حول الملك المولود وأيديهم ملآنة هدايا؟!

– يا للمفاجأة السارة! أجابت سحر.

– لقد نستنا سحر سالم الصحافية اللامعة. فجئنا لنقول لها نحن لم ننسَك ولا يومَ ميلادك.. والرب لم ينسك أيضاً. قال جميل.

– خفنا أن تصبحي سجينةً في «بريحان»، فجئنا ندفع الفدية لإنقاذك بباقة من الأغاني الروحية. قال جوزيف صاحب الصوت الرخيم.

– كيف إلك قلب يا قاسيي تنسي عشرة العمر؟ سألت حنان معاتبة.

ثم نظرت إلى الهدايا في أيديهم.. وأدركت أنهم رتبوا لها المفاجأة في يوم ميلادها.

اقترب أنور من سحر وقد سمع الجلبة عند الباب.. ودهش لما رأى حشد الشبيبة والهدايا بأيديهم. ونظرت إليه وسألت:

– هل أنت رتبت هذا؟ وأجاب أن لا. ثم فجأةً قفز الراعي فوزي هليط من بينهم كما اليمامة من عب الساحر!

– قسيس فوزي أيضاً. مفاجأة لا تصدق! قالت سحر بدهشة بالغة. أنا خاطئة كبيرة.

– أنت محبوبة يا سحر. ولكنك نسيت أن شعار كنيستنا (محبة الله). ومن يحبه الله لا ينساه أبداً. نحن قلوبنا تنسى وتخون.. وأما محبة الله فأصيلة ثابتة. لا تتعبي نفسك بشيء جئنا بالأدوات كلها: الحلوى والمشروب. قال فوزي هليط.

– لن تقدم لي عظةً عند الباب يا أخي، خلّها ليوم الأحد في الكنيسة. تفضلوا يا ألف أهلاً وسهلاً.

ودخل الشبيبة وخادم الرعية معهم. وراحوا ينشدون الأغاني الروحية

العذبة، والتلاحين التي تطرب الروح وتنسي الإنسان كربه بصفاء إيقاعها وصدق مضمونها وسلاسة تراكيبها. وقد أراد الراعي فوزي هليط في هذا العمل أن يدخل باقةً من ورود البهجة والعزاء إلى هذا البيت الذي باتت الكآبة زائرته الثقيلة الدائمة. الجميع حمل هدية تذكّر سحر بأيام الصداقة ومخيمات الشبيبة الصيفية. وحنان تعرف جيداً أن الذكريات تشجي قلب سحر. فجلس الجمع متناثرين بين الردهة والصالون. وتسامروا فسحةً من الوقت، ورنموا ترانيم الفرح والحماسة. ثم شرع كل واحد في مكانه يفتح هديته ويقدمها لها، ويشرح لماذا اختار هديته هذه. وكل هدية مرتبطة بحادثة أو موقف أو مكان.. وكانت سحر تتأثر وتبتسم والدمعة تزين ابتسامتها.

- أنظري يا سحر هذه ترنيمة أنت كتبتها منذ سبع سنوات لأولاد مدرسة الأحد. قال جميل. ثم قدم هديته داخل برواز أنيق.. مكتوبةً بالخط النسخي بيد خطاط. واقترب وأعطاها إياها. وقبلها قائلاً: ألف مبروك. وجاء دور غنوه التي قالت:

- هذا شالك الأخضر الذي عصبت به رجلي عندما سقطت عن الزلاجة على الثلج في رحلة الأرز سنة 2003 أنظري لا زالت آثار الدماء شاهدةً على محبتك يا سحر. واقتربت وحضنت سحر لدقيقة.. وترقرقت دمعتا الفتاتين، والحضور صامت. وجاء دور حنان صديقة المراهقة:

- هل بإمكانك أن تحذري يا سحر ماذا في داخل هذه الهدية؟

- دعيني أحاول أن أتذكر.

وفكرت لثوان ولم تصل إلى نتيجة. كعيت. قالت.

- لقد جئت لك بزي الهرّة (بوسّي) في مسرحية الأولاد في مخيم صيف

2004 وفتحت الأوراق وأعطتها الزي.. فوضعت سحر العينين الكرتونيتين فوق عينيها. أنتم ظرفاء ومخلصون.. كيف لي أن أشكركم؟! لقد عدتم بي عمراً إلى الوراء.. إلى أيام تلك المخيمات الصيفية الرائعة. وراحوا يتذكرون أحداثاً ونوادر وأشخاصاً ومواقف كانت ذاكرة سحر قد «كنسلتها» من زمان.

- كل هذه الأشياء مسحت من الذاكرة. ها أنتم تحيونها الآن.

- لم تمسح.. ولكنها في «الريسايكل بن» ونحن الآن نعمل لها «ريستور» وإعادة تأهيل.

ثم وقفت ماري وقالت:

- وأنا جئت بدفتر ملاحظات مخيم صيف 2004 حيث تبادلنا الأهداف والرؤى والتعهدات، وأعطى كل واحد دفتره لصاحبه. أتذكرين يا سحر؟ هل لا زلت تحتفظين بدفتري؟ سألت. وأجابت سحر:

- آه.. يا ماري. بلى أذكر.. أذكر جيداً. ولكن أين أنا الآن من هاتيك الأيام البريئة السعيدة؟ صدقوني أنا الآن في متاهة.

- هذه كلها ذكريات. وأما الآن فقد جاء دور هدية هذه المناسبة الجميلة. قال الراعي فوزي هليط. ونادى لجوزيف:

- هل أحضرت الهدية من السيارة يا جوزيف؟

ووثب جوزيف إلى وسط الردهة، ووضع على الأرض العلبة الكرتونيّة المغلفة بورق لطيف.

- هل لديك فكرة عن هذه الهدية الآن؟ سأل الراعي. ونظرت سحر إلى العلبة وخمنت:

- قد تكون قطعة ما من التكنولوجيا؟ أجابت سحر.

- إقتربت كثيراً. وفض الراعي الورق.. فإذا الهدية جهاز كمبيوتر محمول «لابتوب» من ماركة «APPLE» رمادي ساحر.

- ألف مبروك يا سحر عقبال الفرحة الكبيرة. وحضنها وقبلها.

ثم كفكفت سحر دمعاتها لتأثرها بالمحبة الصادقة. وكانت دقائق صمت من الجميع.. يرمقونها وقد كللت الدموع عينيها العسليتين الساحرتين وزادتها هيبةً.. يتوقعون منها كلمةً، وقد تعودوها أميرة المنابر في وقفاتها في الساحات والنوادي وعلى شاشة التلفزيون:

- لقد أخجلتموني بهداياكم.. وغمرتموني بمحبتكم. أنا لست أهلاً لهذه المحبة. لقد خنت الكثير من العهود.. وكل تلك الصداقات والأيام الماضية. أيام الوفاء والاخلاص.. أيام البوح وتبادل الأسرار والثقة.. أيام الخلوات وحلقات الصلاة فيها سماء تعزية وشوق ودموع متدفقة. كنت أعتقد أن كل هذه الصفحات الجميلة طوتها أنامل الزمن في ملفاتها المنسية. كنت أعتقد أن السماء اختارت لي الكآبة رفيقة عمري.. وسيري الطويل في براري دنيا الشقاء هذه. كنت أعتقد أن السماء أعطتني عينين قادرتين على التدفق أكثر من كل عيون العالم لأنها رتبت لي أسباباً موضوعيةً لهذه الدموع. لا..! يبدو أني مخطئة. هناك فسحات سعادة رائعة تبدد سحابات الحزن التي تغطي تضاريس حياتنا. يقول قاسم أمين إن السعادة كرة نركلها بأقدامنا عندما تقترب منا، ونعدو وراءها عندما تبتعد عنا. أعتقد أني ركلت سعادتي عندما كنت قريبةً منكم.. وها أنا تائهة ولا أدري أين هي. شكراً لكم.. هداياكم باقة من العواطف الصادقة. لقد أدخلتم السعادة إلى قلبي في هذا المساء. باركم الرب.

******

كانت السابعة والنصف في ذلك المساء الجميل الهادئ فوق الشير الصخري المهيب.. تهدر الأمواج تحت المطعم الرومنسي.. فيشعر الجالس فيه كأنه في سفينة تشق به أمواج البحر. قوارب صيد متناثرة بعيداً.. والشمس سهم أحمر فوق صفحة الماء يفري القوارب يميناً وشمالاً، وطيور البحر تحوّم وتطلق أصواتاً غريبةً لا هي هديل حمام ولا قعقعة العقبان، فكأنها ترقب قصة ناجي وسحر بفارغ الصبر.. وأن يبوح الواحد بحبه للآخر. الطيور كائنات عاطفية.. تعشق الحرية والجمال والطبيعة والسلام والحب أيضاً. بيد أن ناجي وسحر عصفوران ما زالا ينتظران شعاع فجر الحب حتى يشدوا أنشودة الصباح العذبة. هما بعد في عتمة القلق والريبة إزاء العثرات والمستجدات.. وفوق الكل ينتظران كلمة السماء! والسماء بدأت ترسل لهما إعلاناتها على دفعات بالتقسيط. شعر الاثنان بأن شيئاً أقوى منهما بدأ يرسم لهما درباً واحداً وحيداً في صحراء موحشة لا رجاء فيها ولا قبس أمل. سحر علقت بالسجن من جهة أخيها هاني.. وسيحررها سجين قديم من أسرها هذا. ناجي دخل سجن العزلة والغربة من جهة سحر الوالدة.. وسحر الابنة سوف تحرره من سجنه القديم هذا.

- لقد مللت الكلام التقليدي يا ناجي.. السجن والصحافة والماضي. ألا يحق لنا أن نتحدث عن المستقبل؟

- أحقاً مللت موضوع السجن؟ لا أصدق.

- لقد شارف بحثي على نهايته.. وسأقدمه في ثلاث حلقات تلفزيونية.

- أنا سعيد لأن نهاية كفاحك سعيدة. أما جهادي أنا...

- ما هو موضوع جهادك؟

– أخشى أن تكون علاقتي بك خيالاً من أخيلة الماضي، أو أن تكوني ترياقاً لشفاء من جروح قديمة، أو أن تكوني حباً مات منذ عشرين عاماً وأنا أحاول استحضار روحه من عالم الأموات. أريد أن تكون العلاقة حقيقية.. يراها الناس ويشعرون بها ويعجبون بها! ولا أريدها غانيةً تختفي في النهار وتسري في الليل الذي يستر خطواتها. علاقة تتميز بكيانها وفرادتها وأصالتها ولا شبيه لها. لا زلت أسمع صوت سحر الماضي من وادي الصدى.

– ما تطلبه حقيقي.. وصادق.. ومحق.

– أترى هذا جهادي أنا لوحدي.. أم جهادنا نحن الاثنين؟!

– أنا مقتنعة بالثانية. مهمتي أنا أن أجعل هذه العلاقة فريدةً ومميزة.

– الحواجز والمعوقات؟!

– عندما أحببت سحر الماضي.. ألم تفجّر الحواجز كلها؟! والحاجز الكبير كان سلوكها وسمعتها.

– وحاجز السنين؟

– ألا زلت عالقاً في هذا الفخ؟ إسمع.. في الكتاب المقدس عدد من القصص التي جمعت الرجل بالمرأة في الزواج. ولكنها كلها في ظروف غريبة غير طبيعية غير واقعية غير منطقية وأحياناً مستحيلة، والفروقات الاجتماعية بين الاثنين كبيرة! والقاسم المشترك الوحيد بينها جميعاً هو يد الله القديرة.. وإرادته فقط.

– والذي يجمعه الله لا يفرقه إنسان.

لا زلت تقحمين الكتاب المقدس في كل شيء.

ومد راحتيه فوق الطاولة حتى نصف المسافة.. فلاقته هي بأصابعها من

النصف المقابل، فتشابكت الأنامل العشرون بقوة وسرت كهرباء الحب في جسدين أثخنهما الشوق المزمن. وتسارعت دقات القلب.. وتلاقت النظرات ببوح أكيد فيما عجزت الشفاه الأربع عن تجسيد هذا البوح بكلمة.

- أشعر أنه عندي الكثير لأقوله يا سحر.. ولكني..

- تنتظر كلمة السماء.. أليس كذلك؟

- إني أنتظر كلمة المرور.

- كلمة مرور؟! وابتسمت سحر وهي تهز رأسها.

- ما بك؟

- وأنا أيضاً أنتظر كلمة المرور. غريب حقاً! ومدهش هذا التلاقي.. والتوازي. أنا أرى أنه منذ أن تعارفنا والسماء تقول كلمتها ونحن غبيان كبيران.

- هذه هي الحقيقة. لقد حاولت الابتعاد عنك كثيراً.. وفشلت.

- أفشلتك السماء. ما رأيك لو نتمشى قليلاً قرب الصخور.. لقد غرقت الشمس ما وراء الوجود. وبدأت العتمة تلف الدنيا. وكلام السير في الظلمة له وقع وجاذبية، ألم تشعر به يوماً. ووقفت.. ومدت يدها وأمسكته بيمينه. فانقاد لها وشد على أناملها ثانيةً وشعر بغبطة ما بعدها غبطة. وعندما سارا سيراً بطيئاً على الطريق الممتد قرب الصخور لم يستطيعا أن يتكلما لسبب النار المضطرمة في داخلهما. ومرّ الوقت بصمت. ثم أسندت رأسها على كتفه اليمين.. وتكلمت بهمس:

- هل تشعر بما أشعر به؟

- هل تشعرين أنت بما أشعر به أنا؟ أجاب.

- صدقني يا ناجي.. لم أشعر يوماً بهذه الطمأنينة والفرح. ظننت نفسي

بأني نسيت ما هو شعور الفرح منذ أيام المدرسة وسني المراهقة الأولى. يبدو أن السماء قد ذخرت لي فرحاً من نوع آخر.. فرحاً تحتاجه كل فتاة في هذا العالم.

– وأنا أيضاً يا سحر لقد نسيت كيف يكون الفرح.. نحن أبناء الكآبة كما يقول جبران. أتتخيلين عشرين سنة كآبة ووحشة؟ أنا أيضاً خبأت لي السماء في صندوقتها نوعاً من الفرح يحتاجه كل كئيب مزمن. أتدرين؟

– ماذا؟

– أنا لا زلت غير مصدق هذه السعادة الآن. أخشى أن تكون حلماً جميلاً من أحلام السجن. عندما يكتشف الفقير لسنوات طويلة كنزاً في مكان ما يصبح بخيلاً خوفاً على خسارة الثروة. نحن فقيرا فرح وسعادة منذ سنين بعيدة يا سحر.. وها قد وجدنا الكنز أخيراً.. ترى هل بمقدورنا أن نقدم الفرح والسعادة للآخرين؟ ألا يوجد بؤساء وتعساء كثيرون يحتاجون إلى الفرح. لن أبخل بتقديم الفرح والسعادة لأي غريب أو مظلوم أو يتيم أو شيخ أو مريض. لأنه لا يحق أن يستهلك السعادة من لا يريد أن يعطيها للآخرين أيضاً. وكما تقول هيلين كيلير: «الرب يريد أن يكرمنا بالسعادة ونحن بدورنا مسؤولون عن إيصالها للآخرين».

– أنت الآن تتحدث كواعظ يا ناجي. ما تقوله هو مبادئ الإنجيل. الكتاب المقدس يوصي كثيراً بالغريب واليتيم والمريض والشيخ.. وخلاصة حديثك كلمتان بسيطتان في الإنجيل (مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا)[1] هذا يؤكد لي

---

(1) إنجيل متى 10: 8.

صدق وجودك في حياتي. أنت رجل إنسان بكل ما في الكلمة من معنىً يا ناجي.

- أتعلمين.. أيضاً؟

- ماذا.. أيضاً؟

- أحياناً ينتابني فكر أن السعادة من اختراعنا.. هي سراب وليست حقيقةً موضوعية في حياتنا. نظن أننا سعداء ونظن أننا غير سعداء. أنظري الفلاح في القرية إنه سعيد في حدود عالمه، وكذلك السياسي في البرلمان. وعندما يموت الخروف يشقى المزارع أو يخسر السياسي الانتخابات فيتعس. وهكذا السعادة مدّ وجزر.. تدور وتتغير وفق المعطيات الموضوعية. إذن هي ظل للواقع وليست قيمةً مجردة بحد ذاتها! ترى هل نحن نسعى وراء سراب؟ أم هي القناعة المصدر الحقيقي للسعادة؟

- لماذا تتحدث بالفلسفة الآن يا ناجي؟ أنا أحتاج إلى كلمة بسيطة صادقة.. دافئة. ألا تعرف أن تقول لي (أحبك)؟

عندها استدارا وأصبحا وجهاً لوجه.. ورفعت سحر عينيها إلى عينيه.. وتلامست الشفاه الأربع للحظات ثم شد ناجي رأسها إلى صدره.. وهي شدت راحتيها وراء ظهره. وهمس هو في أذنها:

- أحبك. ثم همست هي بدورها.

- وأنا أيضاً.

******

يوم السبت صباحاً كانت الإنفينيتي تقل فايز وسحر نحو مدينة جونيه شمالاً.. إلى حاريصا.

- ما هي الحروف التي لدينا حتى الآن؟ سأل فايز.

- الباء والميم. ولا فكرة لدي عن الحرف الثالث.

- أعتقد أن هذا الحرف الآن سينهي القضية. لا أدري.. إني أتوقع مفاجأة ليست في دائرة حساباتنا البتة.

- هل تدري؟

- ماذا؟

- لكل إنسان في مرحلة ما كلمة مرور يعبر بواسطتها إلى المرحلة المقبلة. وحياتنا سلسلة من المراحل. وكلمة المرور هي الباب أو الفسحة التي تنبثق من الانسداد.. أو الواحة في صحراء.. أو الأمل في أوقات انعدام الرجاء. لا نستطيع أن نعيش بلا كلمة مرور. كلمة المرور هي قوة الحياة.. قوة الدفع.. شيء ما في مستقبلنا نتشوق إليه دائماً. ألا تحتاج أنت أيضاً إلى كلمة مرور لنقلة ما إلى الأمام؟

- بلى. عندما اخترت نوع دراستي الجامعية احتجت إلى كلمة مرور. وعندما عملت في الصحيفة احتجت إلى كلمة مرور. وعندما نشرت كتابي الأول احتجت إلى كلمة مرور.

- وعند اختيارنا لشريك الحياة نحتاج حتماً لكلمة مرور. ترى لماذا شَكَّلَ الله حلقات وفصول حياتنا في هذا العالم بكلمة المرور؟ أهناك جواب؟

- أعتقد أن كلمة المرور تعني جدية المنتقل من مرحلة إلى أخرى. الإنسان الذي يريد مستقبلاً أفضل يريد حياةً أفضل.. يحتاج لكلمة مرور.

الباحث عن الحقيقة.. الباحث عن الجمال.. الباحث عن العدالة.. الباحث

عن الحرية.. الباحث عن حاجات الآخرين.. هذه كلها تحتاج لكلمة مرور لأن وراءها جديين في السعي والجهاد.

– تعني أن الحياة العادية غير المجاهدة لا كلمة مرور لها. ما بال أصدقائي من حولي باتوا فلاسفةً مرشدين وواعظين لي، هكذا، فجأةً؟! رأيك فيه فلسفة.

– أنت عصبية المزاج اليوم.

– لا. ربما الشوق لأصل إلى نهاية هذه الأحجية.

– هل تعتقدين أن الحرف الثالث قد يفضي إلى الحل الكامل؟

– أتمنى ذلك.

ثم وصلا إلى حاريصا. وأتيا لعند الناطور. وقال فايز:

– صباح الخير. أنا فايز العرب وهذه سحر سالم. نحن صحافيان.

– أهلاً وسهلاً بماذا أقدر أن أخدمكما؟ وأدركا أنه ليس الشخص المطلوب. وهمست سحر لفايز:

– لا زال أمامنا التيلفريك. لنسأل عند قطع التذاكر. ثم جاءا إلى المكان الذي تقطع فيه التذاكر للصعود إلى التيليفريك.

– صباح الخير. أنا فايز العرب وهذه سحر سالم.. صحافيان.

– أهلاً. إني أنتظركما منذ أسبوع. أنتما صحافيا المسابقة أليس كذلك؟ أهلاً وسهلاً بكما. إنتظراني دقيقة. ثم اختفى لثوان وجاء بالظرف الشبيه بالظرفين السابقين، وأخذته سحر بلهفة.

– حظاً موفقاً. قال الرجل.

– من الذي أعطاك هذا الظرف؟ سألت سحر.

– شابان ظريفان جداً. وقد ركبا التليفريك أيضاً.

- هما نفسهما بلا شك. تمتم فايز. شكراً لك يا صاح.

- لا شكر على واجب. بالتوفيق.

- ما رأيك لو نركب التليفريك يا فايز؟ سألت سحر.

- فكرة رائعة قال فايز.

وقطعا تذكرتين، وركبا التيليفريك.. حيث استقبلهما البايلوت. وتحركت الآلة كطوافة تصعد بهما إلى الفضاء. ثم انحدرت بهما إلى الشاطئ الأخضر الساحر.. خليج جونيه. السفح الأخضر تحتهما كأنه سجادة خضراء معلقة على كتف الجبل، ومنشورة فوق المنحدر حتى تلامس الطريق الساحلي.. حيث تشكل الأبنية مع الطريق الساحلي زركشات الكمر لهذه السجادة العملاقة. والبحر منبسط قبالة أعينهما.. تنعكس فيه زرقة السماء صافية.. فكأن البحر أرضية رخامية ممتدة إلى الأفق.. لولا رقصات أنامل الأمواج اللطيفة عند انفلاشها فوق حصى الشاطئ. من داخل التيليفريك يدرك المرء كم هو جميل هذا الوطن! وكم هو فنان مبدع ذلك الإله الذي صنعه! على الأرض لا يرى الإنسان غير البشاعات في كل مكان.. غريب حقاً! ومعظمها من صنعه هو. ولكن عندما يرتفع ويعلو في الفضاء تختفي البشاعات لتشكل قطعاً من لوحة لغز مذهلة.. لا يرى سوى الجمال والسحر في كل ناحية. وهذا ينسحب على حياتنا وتفكيرنا في سيرنا في هذا العالم. في قلب صراعاتنا ومشاكلنا وتحدياتنا لا نرى غير البشاعات والسيئات والمنغصات.. وعندما نرتفع بتفكيرنا ورؤانا ونضوجنا وحكمتنا وقوة احتمالنا.. تتوحد البشاعة المتناثرة في كل مكان لتؤلف مشهداً ساحراً جميلاً، إن دل على شيء فهو يدل على حكمة الله غير المحدودة. كانت سحر تفضّ الظرف وتقرأ على صوت عال

لتسمع فايز الذي كان مأخوذاً بالمشهد الخلاب. «مبروك لك الحرف الثالث **ث** من كلمة المرور. ويبقى الحرف الرابع وهو موجود في حروف كلمتي الحلقة الأخيرة وهي (محبة الله). وتأمل فايز جيداً في وجه سحر وهي تقرأ هذه الكلمات في الورقة.. لقد جحظت عيناها وارتجفت شفتاها.. وارتخت أناملها حتى وقعت الورقة من يدها. فالتقط فايز الورقة من أرض التيليفريك وهو يقول:

- ماذا هناك؟! ما بك يا سحر؟!

- محبة الله هو اسم كنيستنا. الكنيسة التي نشأت فيها منذ طفولتي.

******

14

كانت هناك ثلاث نساء فيهن
خير: واحدة اختفت من العالم،
والثانية غرقت في نهر الراين،
وأما الثالثة فلم يعثر عليها بعد.
مثل ألماني

سحب ناجي الكراسة من بين كتبه.. وجلس يتابع القراءة من حيث انتهى في رواية وليم عامر الغريبة. فطالعته تلك التأملات والخواطر عينها.. مواقف شخصية داخل السجن.. ذكريات ماضية لا رابط بينها كما في غالبية فصول المخطوط. بيد أنه انتهى الآن إلى فصل ينتمي لسيرته الذاتية التي خطها في فصول سابقة. فهل يشكل هذا الفصل رأس جسر للعبور إلى لغز انتحاره في السجن؟ قرأ:

ما أتعسه من يوم! أيام السجن كلها.. أجمل من هذا اليوم الذي جاء فيه ذلك الضابط وسلمني ظرفاً لا أدري من أين! وكيف ظهر! ولا هو يدري أيضاً! هكذا على الأقل قال لي. إنها رسالة.. مشكول بها صورتان لزوجتي! صورة حالية وصورة منذ عشرين سنة، الملامح مُقنعة! واسمها مكتوب أيضاً

بخط يدها على قفا الصورة القديمة، قديم قدم الصورة، وعلى قفا الصورة الجديدة أيضاً وبخط يدها، والخط جديد جدّة هذه الصورة الجديدة. وهل أنسى خطها؟! كانت تهوى الكتابة قبل الزواج.. ووضعت روايةً غرامية من زمن الحرب باللغة الإنكليزية.. وأنا قرأت الرواية مرتين أعجبتني وشجعتها على النشر. كنت أبحث عن نفسي بين السطور، بيد أنها أكدت لي أنها ليست مستوحاة من علاقتنا. أرادت نشرها.. وفي اللحظة الأخيرة عدلت عن فكرتها! قالت لي: كتابة مراهقة، لا زالت فجة. ولكن وقع هذه الكتابة ترك آثاره فوق رمال ذاكرتي. وانبثقت الحقيقة المُرة! رحت أقرأ هذه الرسالة، قرأتها خمسين مرة! لم أفهمها! بل ربما فهمتها كلها. وكيف لا أفهمها؟! النبرة نبرتها الهجومية المكابرة.. والحروف كذلك.. والروح أيضاً.. هي هي.. الورق والحبر جديدان.. إنها رسالة مكتوبة منذ أيام أو أسابيع بالأكثر! إنها رسالة من زوجتي التي قتلتها منذ اثني عشر عاماً؟! وهل هذا معقول؟ أكابوس هو؟ أمجنون أنا؟! لم أشأ أن يقرأ أحد سواي الرسالة. رحت أحلل كل حرف وفاصلة ونقطة.. لكي أعثر على نقيض ما فهمت.. ولكن الكلمات قيدت معصميّ.. وأسرت دواخلي.. ورمتني في قفص الحقيقة الحتمية.. إن زوجتي التي قتلتها منذ سنوات بعيدة لم تمت.. ولكنها لا زالت حيةً في بقعة ما من بقاع الدنيا. وإعلان آخر أفصحت عنه الرسالة أنها غير آبهة لسجني.. ولم تكلف نفسها عناء زيارتي مرةً واحدة. والثالث نمّت عنه.. وهو رغبتها في بعثرة الأحجار القليلة الباقية في جدار حياتي في هذا العالم. بعد هذه السنين تريد أن تقول لي شيئاً؟! ما معنى هذا كله؟! قتلتها وصرت سجيناً.. لكنها حرة وتريد قتلي في سجني المخيف هذا! كنت أظنها ملاكاً من السماء

جاءت لإنقاذي من شقاوتي.. فإذا هي عزرائيل جاء لدينونتي وهلاكي! إن هي إلا شريك في مؤامرة رميي في حمأتي المزمنة هذه. ما أحبتني يوماً! فما قيمة حياتي بعد؟! أهديتها سنوات شبابي مغلفةً بالعاطفة الصادقة.. فرمتها في صندوقة الغدر والخيانة.. واختفت بها فجأةً كما يختفي الوجود لحظة النعاس الثقيل. يا للنكتة.. أية مزحة هذه بعد هذا العمر كله! قرأت في الورقة تلك الكلمات: «أنا لا زلت حية. أعمل لحساب جهاز مخابرات خارج البلاد. الحادثة المشؤومة مؤامرة! أنا آسفة هي الحياة.. الأقوى ينتصر.. الأذكى يربح.. لا تحاول التفكير بي، أو البحث عنـي. لقد خسرت وانتهى كل شيء». وانتهت كلمات الرسالة.. بل هي طـعنات.. سخريات.. خاتمة مضحكة مبكية في آن.. فلا هي مأساة ولا هي ملهاة. كلمات حادة اختيرت بعناية لذبحي من الوريد إلى الوريد. شعرت بدوار كالذي أشعر به الآن وأنا أخط هذه السطور. ملأني شعور بالقرف.. بلهو الحياة وعبث الإنسان.. تماماً كما كنت عابثاً مع فتيات شقاوتي! ما عدت مالك نفسي. لقد أدارت زوجتي اللعبة بمهارة ودهاء.. وأبدعت. أنا لعبة.. رهان.. القدر وزوجتي سيدا أمري. لا أكتب هنا لكي يسمع أحد.. ولا أشكو لأحد.. بل لأكمل فصول هذه المهزلة التي أعيشها في غربة هذا العالم، وقد اقتربت من نهايتها. يا لبؤسي وهزيمتي! ها أنا الآن أضحك وأضحك وأضحك.. أخشى عليّ من الموت ضحكاً! ولم لا؟ الموت في الضحك خير من الموت في سواه. مخيف هذا النفق الذي أعبر ولا نهاية له. اثنا عشر عاماً! فرت من وجودي فراراً..! يد حاذقة خفية تلك التي رحلت سنواتي بالتقسيط. أنا انتهيت.. انتهيت.. انتهيت.

وفيما كان ناجي يقرأ هذه الفقرة.. شعر وكأنـه يسمع شهقات بكاء بين

السطور والكلمات. هي دموع الانكسار! حكاية غامضة غريبة! ساءل نفسه. غريبة في بدايتها وغريبة في نهايتها. هل الرسالة صادقة؟ ما الغاية من إرسالها؟ هل الانتحار له علاقة بالرسالة؟! خدعة بارعة كان المسكين وليم عقدة خيوطها. وتذكر ناجي حكاية قديمة أيام كان في السجن، يوم عذب متهم عذاباً قاسياً.. وكاد يموت المسكين لكي يقر أين دفن قتيله وهو يصرخ أنه لم يقتل أحداً، وعُلم فيما بعد أن القتيل حي يرزق، وهو مسجون في جرم في سجن بلد مجاور. يا لسخرية الأقدار! شعر ناجي بحزن شديد لمأساة وليم. كم في السجن من مظاليم! وكم من أشخاص سجنوا طويلاً قبل ظهور البراءة! قوة غامضة تشد بعض الناس إلى السجن.. ولا طاقة لهم على تفادي المقدر.. إنهم عاجزون عن أن يقولوا لا للسجن ونعم للحياة الكريمة الشريفة. جدران السجون والمستشفيات ودور المجانين تؤدي دوراً متشابهاً.. عظيماً، إنها تخبئ مآسي الناس وملهاتهم.. تماماً كما تخفي عاهات المجتمع. أهي سلة القمامة؟! لا! بل هي RECYCLE BIN، والأجدى بها أن تكون المكان الذي تجري فيه عملية الترميم، وإعادة التأهيل والتوظيف. وأبقى ناجي على الأوراق الأخيرة في الكراسة لجلسة أخرى.

وأراد أن يخبر السيد كميل بهذا الاكتشاف اللافت.. ولكنه يبدو ناقصاً.. يحتاج لكثير من الأجزاء ليكتمل.. لا قيمة له الآن. وفي صباح اليوم التالي انتظر وصول السيد كميل إلى مكتبه.. فجاء وراءه وأغلق الباب. ودهش السيد كميل فسأل:

- خير.. ماذا وراءك يا ناجي؟

فأجاب ناجي وهو يضع الكراسة على الطاولة:

- وليم عامر.. كأنه يلمح هنا إلى سبب انتحاره.

فسأل السيد كميل متعجباً:

- حقاً! لماذا؟ هذا اكتشاف! سنخبر الجهات المعنية من أصدقائنا المسؤولين.

- قلت لك إن وليم وقع في مكيدة سياسية كبيرة وقد صدق ظني. زوجته التي ظن أنـه قتلها وسجن بسببها لا زالت حية.. وهي تعمل لحساب جهاز مخابرات خارج البلاد.. لقد أرسلت إليه رسالة قبيل انتحاره تخبره بهذا.

- وهل يقول في المخطوط ما مضمون الرسالة؟

- هي رسالة قصيرة غامضة.

- حسناً.. جيد يا ناجي. حمداً لله أنـي أعطيتك لتقرأ الدفتر. هل لا زال الموضوع بيني وبينك؟

- بالتأكيد يا سيد كميل.

- ولا نسخة أخرى عن المخطوط. سنخبر المحامي لكي يتابع القضية. حسناً فعلت. شكراً لك. هل من أمر آخر؟

- لا. ولكن يبدو أن وليم لم يكتب لكي يخبرنا شيئاً. ولا يطلب هنا متابعة القضية.

- هذه تفاصيل يهتم بها القضاء.

- سأعيد لك الدفتر بعد أيام.

******

كانت سحر جالسةً على المقعد الرابع لجهة اليسار وراء المنصة فوق المسرح. الثلاثة الآخرون إلى جانبها سعادة النائب ورئيس لجنة أهالي

السجناء وأحد الاعلاميين البارزين. موضوع الندوة هذه كان حول الوضع في السجون، والذي رتب هذا الحفل هو لجنة أهالي السجناء. وسط جمهرة من الفعاليات والإعلاميين وأهالي بعض السجناء.. الكاميرات من الخلف وفي الوسط.. ورجال الأمن الداخلي على جانبي الصالة وخارجها. إفتتح عريف الحفل بكلمة وامضة.. تكلم رئيس اللجنة بعدها وتلاه الصحافي البارز ثم كان دور سحر، لينتهي الحفل بكلمة سعادة النائب، ثم فسحة الأسئلة. بيد أن الحضور بدا كأنه في شبه غفوة بالمقارنة مع الحفاوة الصاخبة التي أظهرها عندما جاء دور سحر في الكلام. التصفيق الصاخب والصيحات والأيادي المرفوعة في كل أرجاء الصالة. «ألله يقويك يا شفيعة المساجين» «الله يوفيك تعبك يا سحر» «يا مسؤول يا مسؤول إسمع سحر شو بتقول» «الله سحر السجين وبس». هذه وغيرها من الصيحات التي أطلقها أهالي بعض الموقوفين والسجناء في سجن «بريحان». قرّبَ النائب فمه من الميكروفون ونظر إلى سحر وقال مازحاً:

- صار فينا نرشحك عالإنتخابات عا هالحالي. فأجابت سحر بشجاعة:

- المناصب تقيد اليدين يا سعادة النائب. في موقعنا هنا نستطيع أن ننجز الكثير.. وربما أكثر منكم أيضاً.

وعلت الصيحات والهمهمات مادحةً إجابة سحر. كانت سحر قد أعدت كلمتها على ورقة أمامها.. تقرأ منها حيناً ثم تنظر إلى الجمهور تعقّب وتعلق على ما قرأت. كانت بنبرتها الخطابية وحضورها فاتنةً مؤثرة كما في طلتها التلفزيونية. راحت تتكلم لدقائق قليلة شارحةً واقع السجين في السجون قضائياً وإنسانياً واجتماعياً ونفسياً باختصار ووضوح. ثم وصفت السجون

بأنها سجون متخلفة بالمقارنة مع سجون الغرب، وأنها فاشلة في مكافحة الجريمة، إداراتها أمنية (جيش وأمن داخلي) لا إنسانية، العمل الإنساني ضئيل ومضحك، الاصلاح النفسي والاجتماعي خجول، العمل القضائي غير عادل، الإدارة غير حكيمة، والسجن ليس أداةً عقابية تأديبية وكفى.. حتى بات السجن عندنا مقبرةً للانسان بدل أن يكون مرحلةً يستعيد فيها الانسان عافيته الفكرية والنفسية. ثم سكتت لثوان.. ينتظر فيها السامع حلا إزاء هذا العرض التراجيدي للواقع. ثم رفعت صوتها وقالت:

– سأطرح الآن أيها السادة أمام الرأي العام.. ومن على هذا المنبر بالذات.. رؤيتي لسجون حديثة صالحة حقيقية إنسانية في بلادنا الحبيبة، مناشدةً ذوي المناصب وأصحاب المسؤولية. وقد يرى آلهة القانون وعرافو السياسة رؤيتي هذه أنها بدعة البدع أستحق عليها الرجم أو الصلب. ولكني أقولها للتاريخ.. إن السجون ستنتهي يوماً إلى رؤيتي هذه.. وليس هذا تكبراً واعتداداً بالذات.. ولكنه النتيجة المنطقية لسير التاريخ. فالتاريخ لا يرجع إلى الوراء.. إنه يتمرحل باحثاً عن الأفضل.. الأفضل للإنسان! إني أرى السجون أيها السادة على هذا النحو:

– تخصيص وزارة للسجون. فلا تكون السجون تابعةً لوزارة الشؤون الاجتماعية ولا العدل ولا الجيش ولا الداخلية.

– إنشاء جيش خاص بالسجون مدرب تدريبات خاصة لحفظ الأمن فيها. فلا الجيش ولا الأمن الداخلي مولجين بأمن السجون.

– إنهاء العقوبات التالية: الاعدام والمؤبد والاشغال الشاقة والعشرين سنة. كل هذه الأحكام جريمة أخرى زيادةً على جريمة المحكوم بها.

- الأحكام أقصاها عشر سنوات.. مع العمل المتخصص للحالة النفسية والاجتماعية والانسانية للسجين.

- وقف كل أساليب وأشكال التعذيب والاستنطاق التقليدي.. واستبداله بوسائل حديثة عصرية تحترم الإنسان وكرامته.

- إنشاء مصالح ومهن ومدارس داخل السجن لكافة المهن والمعارف.. يعمل فيها السجين ويتدرب وينتج ويدّخر.

- إنشاء أبنية ملاصقة للسجون للطب والطب النفسي، مجهزة تجهيزاً حديثاً.

- السجون الاختصاصية: ثم وضع كل صنف مع صنفه. مكان لجرائم الإرهاب مثلاً.. ومكان للجرائم السياسية.. وآخر للقتل وآخر للمخدرات وآخر للسرقة والتنزوير والتهريب... إلخ.

- إدارة صيانية وبيئية وإنسانية عالية للسجون. وتلزيم هذه لشركات القطاع الخاص. لأن السجن ليس زريبةً ولا مقبرةً بل مستشفىً للانسان من مرض الجريمة.

وعلت الصيحات والتصفيقات ثانيةً أمام هذا العرض/ الرؤيا الذي قدمته سحر للاعلام للمرة الأولى.

******

كان ناجي قد أنهى كلامه مع سحر على الفايسبوك ذات مساء.. فخرج يتمشى صوب المقهى الصغير الذي يبعد شارعين من منزله. جلس على المقعد قرب الزجاج المشرف على الشارع ينظر المارة.. ويتأمل في الرسومات الجدرانية وتلاوينها المثيرة وظلالها.. وكم يهوى تظليل المجسمات.

الغرافيتي فن جديد مع جيل جديد باحث عن الجديد. لقد خرجت الفنون من صالوناتها وأبراجها التقليدية إلى الشارع: الرسم على حجارة وإسفلت الشارع.. البريك دانس رقص الشارع.. مسرح الشارع.. العزف والغناء على الشاطئ وتحت القناطر وفي القوارب وفي السوق التقليدي العتيق. لقد خطف الشارعُ الإنسان في هذا الزمن.. فركض الفن وراءه إلى الشارع! أشعل ناجي لفافة. ومرت الدقائق بهدوء. وإذا الموبايل يسلبه هدوءه:

- آلو.. سيد ناجي العرم؟ صوت سيدة ناضجة. أجاب ناجي:

- أجل.. أنا هو.. من المتكلم؟

- لدي قضية وأحتاج لخدمتك كونك عاملاً في جمعية (عطاء بسرور) وتخدم المساجين. لقد أخذت رقمك من الجمعية.

أجاب ناجي باقتضاب:

- أستطيع أن أخدمك يا سيدتي ضمن إطار العمل بما تشائين. ولكن خارج الجمعية فلا. أعذريني. ثم من الذي يحدثني؟

فأجاب الصوت الأنثوي الناضج بلهجة المتوسل الحزين. وسمع ناجي شهقات بكاء.

- أرجوك يا سيد ناجي لا تردني خائبة. قضيتي ملحة.

- هل أنت قريبة لسجين في «بريحان»؟

- أجل.

- تعالي غداً إلى الجمعية.. ونتحادث ونرى كيف بمقدورنا المساعدة.

- ألا يمكننا أن نتلاقى في بيتك؟

- عذراً يا سيدتي فنحن لا نحمل عملنا إلى البيت. كل ما يخص العمل يبقى في العمل. هل يمكن أن تضعيني الآن في الأجواء؟

- على الهاتف مستحيل! سأحاول أن أراك في الجمعية. الوداع. وأقفلت الخط.

شرب كوباً من شاي الفاكهة ثم غادر المقهى عائداً إلى البيت. وما إن دخل وأغلق الباب دق الجرس وراءه. وفتح الباب متعجباً في من يكون الآتي! فإذا أمامه امرأة أنيقة مثيرة بقدها المياس وعطرها المدوخ وشعرها الداكن المضفر. في بداية أربعينات عمرها، هكذا بدت له. جينز ضيق يكاد يتمزق فوق جسدها.. ثديان بارزان والعينان تقدحان رغبة. كان المشهد مفاجئاً لناجي! لم تبادر امرأة إليه بهذه الطريقة من قبل. من هي هذه المرأة وماذا تريد؟

- أأنت السيد ناجي العرم؟

فنظر ناجي إليها مدهوشاً.. وشعر بالحيوان في داخله ينتفض، صار قلبه يدق. وقال بارتباك:

- أجل أنا ناجي ما الخبر يا سيدتي؟

فدفعته بيمينها ودخلت بجرأة ووقاحة وهي تقول:

- لا شيء غير المتعة.. المتعة فقط. هل عندك مانع؟

ثم انطرحت على الأريكة بشهوة وهي تتابع الكلام:

- الأجواء رومنسية عندك.. سيكون الحب رائعاً هنا.

- ما هذا الذي تقولين يا هذه؟! أرأيتك من قبل؟

- ألا تريد المتعة؟

- المتعة!

- ألم ترسل أنت في طلبي؟

- أنا لم أفعل قط، وأنا لا أعرفك. هناك حتماً سوء تفاهم.

- أنت سجين عتيق.. وراهب مزمن.. أنت بلا شك بحاجة للحب.

ثم اقتربت منه وطبعت قبلتين حمراوين قرب فمه أخرستاه ولم يعد يملك قوةً للمقاومة. رائحة العطر والأنفاس اللاهبة واللمسات الحريرية خدرت مناعته. وزحفتْ ديدانُ راحتيها إلى أسفلِ بطنِهِ فشعرت بالحيوان الأليف يتوحّش. المرأة تملك فنوناً في الحب.. فأغرقته في بحر إبداعاتها... ونسي نفسه في سكرة طويلة من اللذات. واستفاق من هذه السكرة حوالى الثانية عشرة ليلاً، ووجد قربه ورقة كتب عليها: «كان وقتاً رائعاً. إلى اللقاء» وقرأ أيضاً في أسفل الورقة الامضاء واضحاً «السيدة شهوات». ثم راح يجمع شتات أفكاره ليعي ما حصل له في هذا المساء. إمرأة غريبة جاءت من حيث لا يدري لتقدم له اللذة بلا مقابل. ترى من هو الجن المارد الذي أهداها إليه في هذا المساء؟ راح يتفحص الأماكن التي يضع فيها نقوده فوجد كل شيء في مكانه. ثم رن الموبايل ونظر جيداً في الرقم فإذا هو خط ثابت:

- ليلتك سعيدة يا سيد ناجي. أظنك استمتعت بوقتك جيداً.

- هل أنت من كنت معي هذا المساء.. السيدة شهوات؟!

- أنا من اتصل بك عصر هذا اليوم طالبة خدمة. وأنا أيضاً من أرسلت المرأة الشابة إليك.

- من أنت؟

- لنقل أنا شخص يريد لك السعادة.. خصوصاً بعد عشرين سنة من الصيام.. أخبرتني السيدة «شهوات» أنك لا زلت رجلاً بكل ما في الكلمة من معنى.

- أفأنت تـراقبينني إذاً..ألن تقولي من أنت وماذا تـريدين؟

- ليس بهذه السرعة.

- لماذا؟ كنت تتوسلين إليّ عصر اليوم.. وتبكين أيضاً!

- هذه البروتوكولات من أدوات العمل. ثم الأشياء حلوة في أوقاتها.

- ما هي الخدمة التي تريدينها منـي؟

- لن أبوح لك بطلبي قبل أن أدفع ثمن طلبي. والسيدة «شهوات» هذا المساء كانت دفعة على الحساب.

- دفعة على الحساب!

- أجل. وستحصل على أجمل منها في الدفعات التـالية.

- أنت تشترينني؟! هذا ابتزاز.

- سمها ما شئت. الخلاف بيننا على التـسمية فقط. في لغتي اسمها ثمن. ولكل شيء ثمن في الحياة. وأنا تعودت أن أدفع سلفاً.

- ولكن ثمن ماذا؟!

- لا تكن عجولاً. قلت لك الأشياء في أوقاتها حلوة.

- يبدو أن طلبك هامّ يا سيدتي.. ومخيف أيضاً! هل أنت قريبة لأحد السجناء.. أو تعملين لحساب جهاز أمني؟

- كم أنت ملح! إني قريبة لسجين سابق ولن تحصل الآن على أكثر من هذا.

فحاول ناجي أن يأخذها بحيلة. فسأل:

- يجب أن نلتقي. سأتـصل بك. ما رقم هاتفك الخليوي؟

فضحكت ضحكةً ذكية ملء فمها. وأجابت:

- أعتقد أني أذكى من أن أفعل. أوه.. كدت أنسى.. الكلام سر بيننا.. ولا تـضيع على نفسك دفعات وعدتك بها.

- تـريدين أن تـعطيني ثمناً لطلب قد لا أوافق على تلبيته.

- أعتقد أن الثـمن هو الذي يحدد ذلك.

وقالت: الوداع، وأقفلت الخط. أظافر الأفكار والخواطر تخمّش وجدانه. من هي هذه المرأة؟ هل الأمر يتعلـق بسحر أم بالسيد أنور.. أم وليم عامر؟! أم بأحد السجناء.. حيث قالت إنـها قريبة لسجين سابق؟ ما نوع هذه الخدمة التي يمكن أن أسديها لها؟ شعر بعبقة في صدره.. ورطوبة فوق جبينه.. الأشياء والألغاز والأحاجي تزيد من حيرته وارتباكه. أوراق مشكولة بملف السجن.. كلها.. متاعب العمل في السجن كثيرة بسبب ارتباطها بالخارج. بالكاد استطاع ناجي النـوم.. ضجيج زحمة الصور والافكار ما ترك له هدوءاً لينام. من سحر فأنور سالم إلى وليم عامر ثم العمل في الجمعية فالسجن... وطلع الصباح أخيراً.. وأنامل شعاعات الفجر تقرع باب عينيه.

ومر يوم عمل آخر في السجن وجاء المساء ليحمل له مفاجأة أخرى. تعشى وخرج إلى المقهى أيضاً، وطلب كوباً من شاي الفاكهة، وأشعل اللفائف. وإذا رنين الموبايل على موعد معه:

- أنا أنتظرك عند باب شقـتك على نار. الصوت الأنثوي المثير نفسه.

فوثب مسرعاً إلى المنزل ليجد امرأة غيرها بالأمس.. مثيرةً كسابقتها تنتظره عند المدخل.

سألها من فوره:

- هل تعرفين السيدة التي أعطتك عنوان هذا المكان؟

- سيدة! كلا يا هذا.. ليست امرأة بل رجل.. ونقدني المال سلفاً وأوصلني بسيارة أجرة إلى هنا.

فهمس ناجي لنفسه امرأة ذكية. تريد أن تبقى مختبئة. ما سر هذه؟

- ماذا قلت يا سيدي؟

- لا شيء.. أفكر على صوت عال.

ثم كانت ليلة أخرى ليلاء كأختها البارحة.. ورمى ناجي بنفسه في لجة اللذات والمتع. وما إن استفاق في الصباح راح يفكر كيف أنه يستسلم بسرعة لهذه الإغواءات. إنه باستسلامه السهل هذا يقبض ثمن ما يجهل أنه سيبيعه لهذه المرأة الشبح. أخذ يفكر في شبابه.. في حياته الجنسية.. في العشرين عاماً بلا امرأة بلا حب بلا جنس. عشرين عاماً يفكر بالمرأة ولا يحصل عليها. الإنسان لا يموت بلا جنس! ولكنه كان نفقاً بلا نهاية. التشهي جوع وتحرق لا ينتهي.. كعليقة موسى تلتهب ولا تحترق.. كأهل الجحيم يحترقون ولا يفنون. رشفات أولى من كأس زوجته سحر التي أحبها حباً عظيماً ولم يصل بها للسكر، ثم كانت المصيبة التي أدخلته السجن. وخرج من السجن باحثاً عن الحب، باحثاً عن الجنس. وجد الجنس بسهولة.. بيد أنه لم يلتق بالحب إلا ساعة لقائه بسحر الصدفة! تحركت أشياء في أعماقه بقوة تشبه الأشياء التي أحسها منذ زمن بعيد، بيد أن لها الآن طعمها الجديد الغريب. جسم ميت دبّ فيه الآن روح. خرج من السجن.. وأول شيء فكر به هو التعويض عن سنين الحرمان والكبت الجنسي. واتصل بمايك صديق قديم.. خبير علامة في كل ما يخص طبق المرأة وتوابعه. كان مايك هذا يعيش محاطاً بالنساء..

يلاحقهن ويتصيدهن.. يتيمهن ويعشقهن.. وله ذائقة شفافة في اختيارهن. بيد أن أسفاره معهن تحوي فصولاً كثيرةً من الفشل. يذكر ناجي جيداً يوم كان مايك هذا يحوّم حول وفاء امرأة الاثنين والأربعين المثيرة.. متزوجة وابنتها في العشرين. كانت قلعةً عصية عليه. مايك لا يهوى الصغيرات لأنهن قليلات الخبرة كما يقول. فأراد أن يتصيد وفاء الأم عن طريق طلب يد ابنتها للزواج. وأدركت الأم نواياه الشيطانية. فاستسلمت له واستدرجته إلى الشاليه عنده على البحر.. وهو يطفر من الفرح لهذا الانتصار التاريخي ليضمه إلى خزانة مآثره الكازانوفية الكثيرة. درست وفاء خطواتها جيداً.. وبشجاعة وضعت له المخدر في كأس البيرة حتى غط في نومة عميقة. ثم سرقت ما في محفظته من نقود.. وعرته من ثيابه بالكامل وأحرقتها في برميل القمامة قرب الشاليه، وألصقت ورقةً على ذكره كتبت فيها: «إبحث لك عن ثقب في جدار وضع فيه هذا ولا تقرب ناحية بيتنا بعد الآن، وإلا دعوت شباب الحزب ليقتلعوه لك من جذوره.. هل فهمت؟» ثم قطعت كايبل التلفون وثقبت دواليب السيارة حتى تركته (كما خلقتني يا الله)! كان هذا درساً لا ينسى لمايك.. تركه يشعر بالارتباك والرهبة أمام المرأة لشهور. بيد أنه كان مرغوباً من النساء لظرفه وإنفاقه عليهن، وله معهن حكايات وحكايات. لم يكن مايك صديقاً أصيلاً، فهكذا أناس ليسوا ذوي أصالة ووفاء.. لأن علاقاتهم مع الآخرين تشدها حبال اللذات وتقطعها سكاكين الغدر والجحود. ليس صديقاً وإنما هو رفيق سوء. وكثيراً ما اصطحبا مايك وناجي امرأتين كصيد وفر إلى إحدى شاليهات الأول واحدة على البحر وأخرى في الريف.. وطبعاً مع المازة والأدوات. لقد علـمه مايك مذاق المرأة مع الكاس والأركيلة والأغنية الغربية القديمة.. حيث ترج الجسد والرأس نشوتان: دوخة الخمرة ورعشة الجنس.

خرج ناجي من السجن يومها وقصد الحي الذي كان يسكن فيه مايك قبل عشرين سنة.. في تلك المحلة المنعزلة عن الاكتظاظ السكاني حيث كان يعيش مع والديه. قيل له هناك إنه انتقل منذ زمن إلى محلة شرقي المدينة.. وقصد ناجي المكان. هو لا يريد أن يبتاع اللذة من المواخير والطرقات.. نفسه تأباها رخيصةً عارية متناثرةً هنا وهناك.. يريدها مغلفة بأوراق التأنق والكياسة.. مزينة بمقبلات الكلام الرومنسي الريائي! عاد يطلب متع أيام زمان مع مايك وشقراواته الفاتنات. فحصل على رقم هاتفه بعد جهد واتصل به:

- مايك أنا ناجي.. ناجي العرم. لقد خرجت من السجن منذ أشهر وأنا أبحث عنك.

فأجاب مايك بدهشة:

- ناجي!! بعدك عايش يا زلمي؟ حمداً لله على السلامة، وعلى خروجك إلى الحرية ثانيةً. كيف أنت يا رجل؟ صحتك نفسيتك مزاجك؟ أعتقد أني أعرف ضالتك الآن... ولماذا تبحث عني..

- أجل.. تخميناتك في محلها.

- يجب أن تري نفسك للطبيب أولاً يا فتى.

- أعتقد أن أجهزتي لا زالت في حالة جيدة.

وضحك مايك ضحكة كبيرة، وقال:

- إن محرك السيارة يحتاج لفحص إذا كانت السيارة لم تتحرك منذ سنوات.. حتى ولو كانت من الموديلات الحديثة. فكيف بك أنت من الموديلات العتيقة.

سأل ناجي بإلحاح:

– متى نلتقي يا مايك.. متى؟

– ساعة تشاء. أنا الآن أملك نادياً ليلياً، وأحوالي ممتازة. ستأتي إلينا وتكون طيب الخاطر. وهكذا كان.

وأشبع ناجي جوعه الجنسي بعد طول حرمان. بيد أن ظهور سحر المفاجئ وعلى غير انتظار شد تفكيره إلى الزواج. ومنذ سحر الجديدة لم يعرف ناجي امرأةً من نساء مايك الشبقات.. أدرك أنـه انحرف كثيراً في نهمه الجنسي. بدأ في التـفكير بشريكة حياة. والعوائق بدأت تظهر تباعاً وتحول بينه وبين سحر، فأراد الخلاص من حالة العزوبية والاستقرار، سحر أو غير سحر. وإذا بالعرض المفاجئ.. من هذه المرأة الغريبة.. التي جاءته باثنتين تنتميان لسرب فتيات نادي مايك الليلي فأغرقتاهُ باللذات الطيبات.

بعد أيام تعود وتتصل به من هاتف ثابت لتقول له:

– أرأيت.. أنا لا زلت عند وعدي ولا أخلّ بوفائي.

– ألن تقولي لي ماذا تريدين يا هذه؟

– هل تريد أن نلتقي؟

– بالطـبع أريد. وأريد أن أعرف ما قضيتك.

– حسناً، إنتظرني مساء الخميس الساعة العاشرة عند مدخل السيتي مول الشمالي القريب من منزلك وسأمر بسيارتي لأخذك. إتـفقنا؟

– إتـفقنا.

وراح ناجي ينتظر يوم الخميس بفارغ الصبر. جاء يوم الخميس.. وجاء المساء. وانتظر ناجي عند مدخل السيتي مول من العاشرة إلا ربعاً حتى الحادية عشرة. وكان الانتظار موحشاً. ثم رأى سيارة (نيسان) عصرية الطـراز

تومئ بضوئها إليه.. فاقترب منها.. ونزل الزجاج «أنت السيد ناجي العرم أليس كذلك؟» سأل صوت رجولي لطيف، وأجاب ناجي «نعم» فقال السائق «إصعد. السيدة في انتظارك». وخرجت السيارة بناجي وسائقها من هذا الشارع المكتظ نحو الضواحي الهادئة. وابتلعت المسافات المساكن الشعبية.. لتخرج المشاهد الطبيعية من كواليسها قامات يتنافسن في إبراز محاسنهن على وقع أشعة القمر الفضية. كان الجو صافياً والقمر بدراً.. كأن الليل نهار.. والبقعة ساحرة لا يسمع فيها غير أصوات حشرات الليل.. وصوت الدواليب فوق التراب والحصى. واجتازت السيارة طريقاً منحدراً انحداراً بطيئاً طويلاً، ثم انحرفت يميناً في زقاق طبيعي تحرسه الأعشاب الشائكة شمالاً ويميناً والوزالات المتناثرة.. ثم صعدت في زقاق اسفلتي ضيق مسافة قصيرة لينتهي بها المطاف في باحة أمام بناء غريب.. لاح لناجي أنه ثكنة عسكرية! لا شيء يدل على وظيفة هذه العمارة. الرهبة تلف المكان، والأشجار الكثيفة تغطي الأجزاء الكبيرة من المبنى. والمحلة التي اجتازتها السيارة لا يعرفها ناجي، لم يمرّ بها من ذي قبل.. وهي على مسافة أربعين دقيقة من الحديقة قرب منزله. قال له السائق:

- إنزل إلى الطابق السفلي الأول.. في الصالون ستجد من ينتظرك.

ونزل ناجي كما قال له السائق. وفجأة اختفى السائق كأن الأرض ابتلعته! وكان الصمت سيد المكان. وشعر ناجي بالخوف والريبة. دخل إلى غرفة صغيرة لها بابان عاديان لجهتي اليمين والشمال.. وواجهة زجاجية كبيرة يرى منها الدرج إلى أسفل. وفي أسفل الدرج اتجه مباشرة إلى بهو فسيح تتوسطه طاولة اجتماعات كبيرة. المكان غامض الهوية. لم يعرف ناجي أين هو. بدأ

الخوف فعلاً يلكز قلبه. جلس على أريكة جلدية مريحة ووجهه نحو واجهة زجاجية ينعكس المشهد الداخلي فيها كأنها امتداد للبهو الفسيح.. وفيما هو في تيار حيرته وريبته، يدخل رجل لم يتجاوز الخمسين.. كما بدا لناجي، لابس جينزاً كحلياً وقميصاً أسود بلا ربطة عنق، ذو ملامح جدية وشاربين دقيقين وبشرة مشرقة:

- بإمكانك أن تعتبرني أنا السيدة التي اتـصلت بك والتي تحاول أن تبرم صفقة معك. أهلاً وسهلاً سيد ناجي.

- ولكن أين أنا؟ من أنت؟ ماذا تريد؟ قال هذا وقد قام منتصباً.

- إعتبر نفسك الآن في مركز أمني سري تابع للدولة. تفضل اجلس. أرجوك.

- مباحث؟! ثم عاد وجلس.

- الهامّ. سأدخل معك في صلب الموضوع مباشرة ولن آخذ من وقتك الكثير. هناك كراس كتبه أحد السجناء السابقين في سجن «بريحان». والكراس بحسب معلوماتنا بحوزتكم أنتم جمعية (عطاء بسرور). هذه الكراسة هامة جداً بالنـسبة لنا. نريدك أنت أن تحضرها إلينا مقابل عشرة آلاف دولار أميركي تقبضها دفعة واحدة أو في شك.

فاضطرب ناجي للمفاجأة. الموقف رهيب مربك. إنه كمين! هذا خطير للغاية. راح يسائل نفسه عن مخرج ذكي ينقذه من هذه الورطة التي أحكمت أصابعها حول عنقه. أجاب بعفوية وتجاهل:

- لماذا لا تطلبون هذا الشيء من السيد كميل مباشرة. ثم لا أدري أحقـاً أنتم الدولة أم جهة أخرى!

– لا تتعبنا يا سيد ناجي. سأضاعف المبلغ إلى عشرين ألف دولار.

– المال يا سيدي...

– ثلاثون.

– يا سيدي...

– خمسة وثلاثون.

– لا.

– لا؟! أواثق أنت مما تقول؟!

– أجل. لا أستطيع ذلك يا سيدي. أرجو أن تتركوني وشأني. قال هذا مبدياً الحزم.

– قلت لك يا سيد ناجي لا تتعبنا. نحن فعلة خير لك. ولا تنس نحن نعرف كل شيء عنك. بإمكاننا اللجوء إلى وسائل أخرى تسهل لنا مهمتنا أكثر. دعنا ننه المسألة باتفاق حبي فيه النفع الكثير لك أنت الذي تحتاج للمال، خصوصاً أن الزواج العتيد من سحر سالم الحبيبة الجميلة لا يقوم بلا مال.

– ماذا؟! سحر..! أنا مراقب إذاً؟!

– ليس القصد أن نؤذيك. نريد الكراس وكفى. هذا كل شيء.

وازداد خوف ناجي لما رأى أهمية المخطوط بالنسبة لهم. وزاد من كتمان كونه قرأ نسخة عنه. وساءل نفسه هل السيد كميل يعرف أن هناك من يطلب المخطوط بهذا الثمن.. هل يدرك خطورة هذا الدفتر؟! وكان على ناجي التفكير بسرعة.. والقرار ليس بهذه السهولة. إذا قبل يخون عهده مع السيد كميل، وإذا رفض قد يتعرض للأذى. فسأل:

– أنتم تضعونني في موقف صعب. والخيار مستحيل.

- ولكن المال يسهل الأمور.. وبسرعة. المال قوة كما تعلم. ألا تريد أن تتزوج الحبيبة سحر؟ أنت بحاجة لمال. وستحصل عليه حالاً في شك أحرره لك الآن، أو نقداً إذا شئت.

- أنا لا أكترث للمال يا سيدي. المال هنا لا سلطان له البتة. أنا صادق في عملي ووفي لرئيسي. أنت تطلب مني الخيانة، وأنت تطلب مني السرقة.

- دعك من هذه الكلمات المهترئة وفكر بواقعية.. وحاجاتك يا رجل.

ففكر ناجي باحثاً عن وسيلة للتهرب من هذا المأزق. على الأقل الآن. ويخلص من هذا المكان الموحش الذي جاء إليه ببساطة وبالخديعة.

- يجب أن أحصل على وقت للتفكير قبل القرار. ثم أنا لم أسرق في حياتي ولست محترفاً. وقد أفشل وأعود إلى السجن ثانية.

- تحقيق الأحلام يحتاج لفرصة.. والفرصة لا تأتي مرة ثانية، وهي بحاجة لغامرة.

- لا تضغط علي أكثر يا سيدي.. واعطني فرصة للتفكير.

- ومن يضمن لي أنك لن تغدر بي؟

ونظر الرجل في عيني ناجي يحاول أن يقرأ ما يجول في خاطره. كانت نظرات ذكية.. ثاقبة.. مخيفة.. لا تنم عن ثقة. وهؤلاء الرجال لا يثقون بأحد، وهم مهرة في فن انتزاع المعلومات، وقراءة الأفكار في الوجوه والملامح. وتنحنح الرجل وهو يخرج السيكار من علبته الخشبية على الطاولة ويشعله بقداحته الذهبية.. وقال بإيجابية:

- حسناً يا سيد ناجي. لك ما تريد. فكر وأنا سأتصل بك. هل تحتاج ليومين لتأخذ القرار؟

- لا. أنا بحاجة لأسبوع.

- أسبوع؟!! ستفكر سبعة أيام بطولها لتحصل على ثلاثين ألف دولار؟!

- لا أفكر بالمال ياسيدي قلت لك. قراري هذا قد يخسرني مصداقيتي.. وربما كل شيء.

- عجباً! أين الخسارة وأنت ستربح كل هذا المال؟! حسناً. سأنتظر الأسبوع بفارغ الصبر. بإمكانك الذهاب الآن يا سيد ناجي.

خرج ناجي.. وكان السائق بانتظاره.. وقد انبثق من العدم. بيد أن الرجل المهيب كان يعرف جيداً أن ناجي ظن أنه نجا، وهو لن ينفذ هذه المهمة، ولن يفعل مهما كان الثمن. ولكن ناجي تنفس الصعداء عندما صعد السيارة وارتاحت أعصابه غير مصدق أنه خلص بأعجوبة من هذا الكمين. راحت الأفكار تمور في داخله: أي مأزق هذا الذي طلع له! ما هذه المصيبة الأخرى؟ توقع المصائب من جهة سحر.. فإذا هي من جانب وليم عامر.. حظ عاثر هذا يقف له نداً.. كيف يتصرف، وما هي الحكمة الآن؟ هل يخبر السيد كميل فيشير عليه ماذا يعمل؟ ثم إذا كانوا رجال الدولة فعلاً فلا مجال للهروب. ويقبل السيد كميل ويعطي المخطوط بكل بساطة إذا علم أنهم رجال الدولة؟ لا. ليسوا من الدولة.. الجمعية على علاقة طيبة بالدولة.. إنها دوامة هذه!! وغرق ناجي في لجة تساؤلاته التي لا إجابة لها.

******

نفض ناجي سيكارته على الصخرة عند «السنسول» قرب مقهى الفسطاط حيث خرج في لقائه الأول مع سحر. كان لابساً سترته، الجو لا زال بارداً قليلاً، والسير في العراء يوحي ويلهم، أفكاره أنسته برودة الطقس، القلق والحيرة

رفيقاه الوحيدان، وشتـان بين رفقة سحر ورفيقيه في هذا المساء العصيب في اليوم التالي من لقائه بالرجل المهيب ذي الشاربين الدقيقين. راح يمج الدخان في الفضاء ويفكـر. أشعل نصف اللفافات وهو يفكـر. مرت ساعة وهو يفكـر. اقترب من صاحب المقهى وطلب منه موسيقىً هادئة، واتـجه إلى الصخور وجلس.. جلس يتأمل الأمواج الصاخبة كصخب خواطره.. وبدأ يتمخض بقرار. بدت فكرةً ملهمة.. المناورة لكسب الوقت. سيقول لهم إنـه موافق ويماطل ويعدهم بأنـه ينتظر الفرصة المناسبة.. ثم يراهن على المجهول... متغيرات ما لصالحه. وفيما هو يقنع نفسه بهذه الخطة.. رن الموبايل وكان السيد أنور سالم على الخط وبصوت متهدج مضطرب:

- سحر يا ناجي!! سحر. إنها مختفية منذ مساء أمس ولم تعد.. ولا أحد يعرف عنها شيئاً. غادرت عملها ولم تأتي إلى البيت.

- ماذا تقول يا سيد أنور!؟ هل أخبرتم الشرطة؟

- طبعاً. وحتى الآن لا علم ولا خبر. خطها مقفل. وقد أذاع الإعلام الخبر ألم تسمع؟!

- ولا أحد من زملائها يعرف شيئاً؟

- ليست هي مختفية وحسب بل زميلـها فايز أيضاً.

- زميلـها فايز؟!

- لقد وعدت أن تساعدها وتحميها يا سيد ناجي. فهي الشيء الوحيد الجميل الذي يشدك إلى هذا العالم.

******

15

الاربعاء

قبل أسابيع قدمت وزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» تقريراً يحوي قائمةً بأسماء نزلاء «الفندق» الشهير «غوانتانامو».. ولحظ التقرير أعمارهم وجنسياتهم. بلغ عددهم 490 سجيناً. حوت القائمة عرباً جزائريين، وبحرينيين، ومصريين، وأردنيين، وكويتيين، وسودانيين، وليبيين، ومغربيين وغيرهم... بيد أن النزلاء السعوديين تصدروا اللائحة بامتياز، فبلغ عددهم 132 سجيناً، تلاهم الأفغان وعددهم 125، وأتى اليمنيون في المرتبة الثالثة بنتيجة 107 سجيناً. ألا تبــاً لتلك الشائعات التي تروج ضدنا قائلةً إننا لم نسجل لأنفسنا فصولاً مشرقةً وتاريخاً مشرفاً في النضال.. حتى ولو لم يكن النضال نضالنا ولا المعركة معركتنا! ولم يكن ذلك أيضاً لغايات إنسانية سامية! وفي نهاية المطاف.. ها نحن قد دخلنا التاريخ من «بوابته العظيمة» بهامات ذليلة وقلوب بائسة وظروف مشينة حقيرة.. وبأكبر عدد من السجناء في ذلك السجن القذر. في تلك الأمسية العصيبة كان ناجي جالساً إلى المخطوط يقرأ بقلق واضطراب.. بشوق ملح كشوق الشمس إلى الشروق.. الصفحات

القليلة المتبقية منه. فقد اتصل مرات عديدةً يسأل عن سحر ليطمئن باله.. ولا خبر. كان في حالة توتر عالية. شعر بمغناطيس يشده إلى الصفحات الأخيرة علَّه يكتشف سرّ أهميته بالنسبة لطالبيه. وكالعادة مع القهوة والسكائر ومنفضة وضعها فوق كتابين على الطاولة بجانب قنينة ماء بلاستيكية يبل به حلقه بعد القهوة. من شأن القهوة الآن والقراءة أن يُهدِّئَا توتره بعض الشيء.

الخميس

عندما كان الجنود الإسرائيليون يطاردون شباناً مطلوبين، اقتحموا منزلاً في أحد مخيمات رام الله، وكانت المفاجأة المذهلة! رؤيتهم لبقايا فتاة نحيلة في أواخر العشرينات.. ذات شعر غض مغبر.. وأظافر طويلة.. يغطي جسدها العاري طبقات من الوحل.. عيناها غائرتان.. تصرخ بشكل هستيري. كانت المسكينة تشاهد بشراً للمرة الأولى منذ سنين طويلة. وبعد التحقيق تبين أن سجانها وجلادها هو والدها! أبوها سجنها في هذه الغرفة منذ أكثر من عشر سنوات.. عندما رآى شاباً مراهقاً من الجيران يتقرب منها.. لقد ضبطهما يتبادلان النظرات من حين لآخر.

الجمعة

السجين رقم 2055

الزنزانة الانفرادية أسوأ غرفة في السجن. خصصت للمخالفين والمتمردين على نظام السجن ومناهجه الداخلية. وهي أيضاً محطة ترانزيت أخيرة للمحكومين بالاعدام وقد دنت آجالهم.. فيقضون فيها الساعات الأخيرة من مسيرة غربتهم في هذا العالم.. حتى يساقون إلى مكان تنفيذ الحكم. قدر لي غير مرة أن أحل ضيفاً في هذه الغرفة لمدة تتراوح بين ثلاثة أيام وأسبوعين.

وقوانين الإنفرادي صارمة جداً! يحبس فيها السجين المعاقب بمفرده ولا يفتح الباب إلا للضرورة، وفي مواعيد محددة. يمنع الاتصال الهاتفي، والالتقاء مع السجناء والزيارات، فينعزل تماماً عن العالم الخارجي. في إحدى هذه الزيارات قابلت سجيناً نزيل زنزانة مجاورة لزنزانتي.. تعارفنا وتصادقنا.. وكنا نتحادث ونتسامر ولا يرى واحدنا الآخر. قال لي ذات يوم: «كنت أعمل في وظيفة هامة في مؤسسة كبيرة، وفي لحظة غضب مجنونة قتلت رئيسي في العمل إثر مشادة كلامية حادة بيني وبينه. حكمت 15 سنة، بقي لي الآن سنة واحدة. سأعود إلى أسرتي.. إلى مملكتي الخاصة التي دمرتها في ساعة تجربة وغضب.. كانت (ساعة تخلٍّ). سأعود إلى طفلي الوحيد الذي تركته وكان عمره ثلاث سنوات، وهو الآن في ريعان شبابه. أتدري؟ ما كان يأتي لزيارتي إلا كل سنتين أو ثلاث! ودائماً أشعر بالرهبة والضعف أمامه. يختفي عن عيني ليأتي شخصاً آخر. الجدار العاطفي بيننا صدعته ثغرات الفجوات الزمنية، وهذا بناء ينمو متواصلاً كما ينمو ولدك أمام عينيك». عدت أنا بعدها إلى السجن الجماعي، وبقي صاحبي في زنزانته ينتظر نهاية عقوبته.. ثم عاد وخرج إلى السجن العادي حيث كان. كنت ألتقي به أثناء الطعام.. ونتحادث.. كان يعدّ الثواني والدقائق شوقاً إلى الحرية. قال لي: كلما قربت الحرية تباطأ الوقت بشكل مخيف.. السلحفاة أسرع منه! ثم مرت الأسابيع ولم نلتق خلالها. إلى أن سمعنا جميعاً خبر وفاة سجين بسكتة قلبية.. وشد ما كانت صدمتي وحزني عظيمين.. عندما علمت أن المتوفي هو صديقي رامي عطوه في الزنزانة الإنفرادية!

الجمعة

جميعنا سجناء! بعضنا في سجون لها نوافذها وأبوابها الحديدية. وبعضنا الآخر في سجون لا جدران لها ولا أبواب.

دروج الحكمة

الأحد

طالبت شابة من إخوتها «الذكور» بحقها في الميراث، فأقدموا أولاً على فسخ خطوبتها، ثم رموها في قبو لا يصلح لغير تربية الحيوانات. بقيت فيه 14 عاماً. ولم يجرؤ إنسان من المعارف والجيران على إنقاذها خوفاً من ذويها، إلى أن اكتشفت الشرطة الأمر. فتش منزل شقيقها، وعثر عليها في وضع مزر للغاية. كانت محتجزة في ما يشبه الزريبة المليئة بالأوساخ والقاذورات. كانت الفتاة تنام على الأرض فوق كومة أخشاب متلاصقة وضعت عليها إسفنجة بلا غطاء، ووسادة عفنة سوداء، وفوق رأسها سقف من الحديد الصدئ المليء بثقوب تتسرب منها مياه الأمطار. كانت حالتها النفسية قريبة من الجنون. وفي ردة فعلها الأولية انكمشت على نفسها وخبأت وجهها بين كفيها، ولم تنبس ببنت شفة.. وكانت حينئذ قد بلغت الـ 45 عاماً.

الإثنين

فتشت الشرطة منزل ح.م. وزوجته الثانية ح.ع. فعثروا على ابنته من زوجته السابقة واسمها (براءة) محتجزة في الحمام منذ تسع سنوات.. أي حين كان عمرها 11 سنة. كانت جالسةً على الأرض وهي ترتعد خائفة ومذعورة. بعد تحريرها قالت (براءة) إن الراديو كان الشيء الوحيد الذي يربطها بالعالم الخارجي، لذلك فهي لا تعرف شيئاً عن الكمبيوتر والهاتف الخليوي. وكانت

تقضي الوقت جالسةً على أرضية الحمام.. وأحياناً كان يوقظها أبوها في نصف الليل لتنظف البيت، فتبقى تشتغل لساعات، ثم يعيدها إلى الحمام.. بيتها الدائم.

الثلاثاء

في سوريا اعتقلت الشرطة رجلاً احتجز ابنته المعاقة البالغة من العمر 18 سنة، بعد أن قيدها بسلسلة حديدية.. في ظروف بائسة في غرفة معزولة لم تخرج منها طيلة ثماني سنوات. وقد ربط الأب كلباً بالقرب من الغرفة لمنع أي شخص من الدنو منها. كانت الفتاة ترتدي ملابس رثـة.. وساقها اليسرى مربوطةً بالسلسلة ومعلـقة بحلقة في الجدار.

قصص حدثت.. وتحدث.. وتتكرر في أي بقعة من بقاع هذه الدنيا الظالمة المظلمة. كيمياء مؤلفة من تركيبة واحدة: رجل مستبد ظالم.. وامرأة ضعيفة أو معاقة.. بيئة اجتماعية سلبية حاضنة للقيم السلبية.. وعقوبة سجن لمُدد زمنية لا حدود لها في ظروف لا إنسانية مهينة. قوة وضعف وفكر سلبي أثيم. إنها العقدة القديمة صراع القوة والضعف.. فوقية القوة ودونية الضعف. القوة لا تعبر عن ذاتها إلا ضمن أطر وديباجات فكرية قيمية ظاهرها جميل وباطنها عليل. والضعف يعبر عن ذاته بالعجز المنكفئ والإرادة الخاملة. ويُلبس القويُ الضعيف لباس قيمه وأفكاره.. لباس الإدانة لرميه في السجن.. وهو ينسج قماشاً من غطرسته يطمّش بها عيني الضعيف فلا يرى الضعيفُ قوتَه ولا ضعفَ القوي وعيوبَه. في معظم الحالات يصل الضعيف إلى حافة الجنون، لأن الجنون هو ارتداء فكر آخر بلا إدراك واقتناع.. وعمىً عن رؤية الحقيقة. ويعيش الضعيف في الظلمة مسبياً عن وجوده وصيرورته.

ما سبب هذا الظلم والكبرياء القاتل؟ هو التخلف.. والجهل، والخوف من الفضيحة.. الاستئثار بالميراث، سفاح القربى، جهل العائلة في كيفية التعامل مع الإعاقات... إلخ. لا قيمة فكرية أو أخلاقية تعطي الظلم صك براءة. هؤلاء جميعاً مجرمون وظالمون.. مهما كانت أعذارهم وقيمهم. وينبثق السؤال كانبثاق الدمعة من العين والآهة من الصدر: أين الأخوة.. الأم.. الأهل.. الأقارب.. الجيران والمجتمع؟! واحد منهم لم يسمع بالضحية! ولو سمع لا يحرك ساكناً، لا يرق له قلب، عاجز أمام سلبيته وجبنه وقيمه البالية هو الآخر؟! إنهم جميعاً شركاء في هذه الجرائم المختبئة. هذه ليست ثقافة هي سادية مقيتة. جرائم مخيفة مختبئة لأعوام طوال في أقبية الجهل والتخلف لا تكتشف إلا بالصدفة! والمبكي الآن أن هذه الجرائم المختبئة كالزواحف في أجحارها لا زالت تفاجئنا وتطل علينا كأهل الكهف بعد سنوات نومها الطويل.. ولا زال هناك المزيد من فراخ الضعف.. سجناء في بيضاتهم.. لا يستطيعون نقر البيضة بانتظار منقاد خارجي قوي.

الجمعة

كان هناك مريضان هرمان في إحدى المستشفيات في غرفة واحدة.. وكلاهما مصاب بمرض مزمن عضال. واحدهما كان مسموحاً له بالجلوس في سريره لأنه يقوى على ذلك لمدة ساعة يومياً بعد العصر. وكان سريره لحسن حظه بقرب النافذة الوحيدة في الغرفة. أما الآخر فكان عليه أن يبقى مستلقياً على ظهره ناظراً إلى السقف. وتحدثا كثيراً عن ذويهما وبيئتيهما وحالتيهما.. وعن ماضيهما الطويل.. وعن كل شيء. وكان الأول عصر كل يوم يجلس في سريره قرب النافذة.. ويصف العالم والحياة وما يراه خارج

النافذة. وكان الآخر ينتظر هذه الساعة.. لأنها تجعل حياته مليئةً بالحيوية والبهجة أثناء استماعه لصاحبه وهو يحدثه عن الخارج. في الحديقة خارج النافذة بحيرة كبيرة يسبح فيها البط.. فصنع الأولاد زوارق من مواد متنوعة وشرعوا يلعبون فيها على الماء. وهناك أيضاً رجل يؤجر المراكب الصغيرة للناس يبحرون بها في البحيرة. والجميع يتمشون عند حافة البحيرة.. وهناك آخرون جلسوا في أفياء الأشجار أو بجانب الزهور ذات الألوان الزاهية.. منظر السماء كان ساحراً يبهج العين والقلب معاً. كل هذه الأشياء الرائعة كانت تجري على فم مريض النافذة بسلاسة وجاذبية.. والمريض المستلقي ينصت بذهول لهذا الوصف الدقيق الرائع، فيغمض عينيه ويبدأ في تصور هذا المنظر البديع للحياة خارج المستشفى. وذات يوم وصف له عرضاً لفرقة عسكرية! ومع أنه لم يسمع عزف الموسيقى إلا أنه كان يراها بعيني عقله من خلال وصف صاحبه البديع لها.

ومرت الأيام والأسابيع وكل منهما قانع سعيد بصاحبه. وجاءت الممرضة يوماً ما صباحاً لخدمتهما كعادتها.. فوجدت المريض الذي بجانب النافذة قد قضى نحبه خلال الليل! ولم يعلم الآخر بوفاته بغير حديث الممرضة على الهاتف وهي تطلب المساعدة لإخراجه من الغرفة. فحزن على صاحبه أشد الحزن.. وبكى كثيراً وهو مستلق على ظهره في سريره. وعندما وجد الفرصة مناسبة طلب من الممرضة أن تنقل سريره إلى جانب النافذة.. ولم يكن هناك مانع فلبت الممرضة طلبه. وحانت ساعة العصر.. وتذكر الحديث الشيق الذي كان يتحفه به صاحبه المتوفي.. وصمم أن يحاول الجلوس ليعوض ما فاته في هذه الساعة. وجاهد.. وتحامل على نفسه وهو يتألم.. ورفع رأسه

رويداً رويداً مستعيناً بذراعيه.. ثم اتكأ على مرفقيه وأدار وجهه بصعوبة وبطء شديد تجاه النافذة لينظر العالم الخارجي. وكانت المفاجأة الكبرى! لم ير أمامه سوى جدار أخرس أصم من جدر المستشفى.. حيث كان البناء الجديد في طور صعوده. ونادى الممرضة وسألها إن كانت هذه هي النافذة عينها التي كان صاحبه ينظر من خلالها. فأجابت أنها هي، والغرفة ليس لها سوى نافذة واحدة. ثم سألته عن سبب هذا السؤال، وسبب تعجبه. فأخبرها بما كان صاحبه يرويه عن المشاهد الجميلة. وكانت دهشة الممرضة أكبر من دهشته!! قالت له: صاحبك المتوفي كان أعمىً! ولم يكن يرى حتى هذا الجدار حد النافذة. فراح يبكي بحرارة وهو يتمتم: أراد أن يسرني ويفرح قلبي لأني لا أستطيع أن أجلس في سريري.. ولم يكن هو مكترثاً لمصيبة عماه!

السبت

ذلك السجين البائس كرمو نزهه محكوم بالسجن مدى الحياة. حكم في البداية خمسة عشر عاماً.. وأراد التمييز فنال بالتمييز المؤبد. ومنذ سنتين وهو يعاني مرض السرطان. ثم فجأةً حدثت اضطرابات في البلاد فحصل عفو عام لكل المساجين.. وخرج الجميع إلى حياة الحرية. بيد أن كرمو نزهه لم يشعر بالحرية أبداً! فقد انتقل من سجن إلى سجن أقسى وأمرّ حتى قضى نحبه بعد أشهر بداء السرطان.

الاثنين

عندما حان دور السيدة الستينية في الكلام، اقتربت بخطوات متثاقلة باتجاه وزير الشؤون الاجتماعية، وجلست على مقعد بلاستيكي مقابله. ثم راحت تضرب بيدها على الطاولة وتقول: «أنا سيدة مصابة بأمراض عديدة.. محكوم

علي بالسجن خمسة أعوام هنا. يأخذونني إلى المستشفى، يطيبون خاطري بحقنة، ويغضون الطرف عن الأدوية».

كان الوزير يحاول تهدئتها.. بيد أنها أصيبت بنوبة غضب شديدة. قالت صائحةً: «إبنتي في دير الصليب.. لم أرها منذ ثلاثة أعوام». وعندما هدأت قليلاً، اعتذرت من مديرة السجن. وكانت هذه الأخيرة ترافق الوزير في جولته التفقدية في السجن النسائي.

وبدأت الجولة من مكتب المديرة.. مروراً بغرف الطبقة الأولى. والسجينات كن ينتظرن لقاء الوزير في الطبقة الثـــالثة، في قاعة مجاورة لباحة التنزه.

75 سجينة في ذلك السجن الذي كان مستوصفاً تابعاً للمستشفى الحكومي الملاصق للسجن سابقاً، بين موقوفات ومحكومات. وقد شيد ليضم 45 سجينة. وثمة 36 سريراً موزعون على غرف السجن الخمس حيث تنام باقي السجينات. مطالب السجينات داخل السجن واضحة: نقص في الأدوية، أوضاع المبنى، واكتظاظ في الغرف، أولادهن تركوهن وتشردوا.. أو اختفوا. وتتوالى، شيئاً فشيئاً قصص السجينات الحزينات: إيفون شابة متهمة بالاشتراك مع زوجها في تنفيذ جريمة قتل، والزوج مسجون في «بريحان»، والأبناء تائهون على الطرقات بلا مدارس أو مأوى. وقالت الشابة إنه مضى على سجنها أكثر من عام.. بلا محاكمة ولا استجواب.. إنها فقط تنتظر.

ويطول الانتظار هنا: سناء امرأة أربعينية ضاعت حقيبتها ذات يوم، ثم عثر عليها في مسرح جريمة قتل. فاتهمت بتنفيذ الجريمة. وانتهى عام على استضافة السجن لها، ولم تر قوس المحكمة بعد. تقول إن أولادها تركوا المدرسة ولا مال لديهم.

روزيت لا تنكر أنها كانت تتعاطى المخدرات، ترفع يدها لجذب الأنظار بعد حدوث جلبة في القاعة. تتنهد وتقول: ثمة رجل أمن قرر أن يتهمني بالاتجار.. ومن دون وجود أي دليل ضدي. أنا سجينة هنا منذ أكثر من ثلاث سنوات. والسبب، بكل بساطة، أنني غير مدعومة من أحد. لماذا لم أحاكم على خطيئتي الحقيقية بعد؟

يسأل الوزير بإلحاح: ماذا عن السجينات الأجنبيات؟ فتقف شابة إثيوبية تحاول مسك ارتباكها.. وتبدأ تتكلم بعربية ركيكة: «أنا بهرب من مدام. بس أنا ما بسرق مدام. أنا شهر بالحبس وما روح محكمي. ما في بيعرف أنا وين وما بحكي معون. أنا بدي روح من هون وإرجع بلدي». وتفتح كلمة «بلدي» جروح السجينات اللبنانيات، فتقول إحداهن إنها ما عادت تؤمن بوجود «دولة» في بلدها، ولا عدالة في القضاء. تحاول زميلتها إسكاتها بلطف، غير أنها لا تعبأ بها. وتصيح إحداهن في آخر الصالة: ما هو هذا القضاء الذي لا يكترث لسنوات عمرنا.. يرمينا هنا من دون استجوابنا ولا محاكمتنا؟

في قصصهن المقتضبة والسريعة قاسم مشترك: الاعتراف بالخطيئة.. وتحميل الخطيئة لمن تركهن حائرات لا يعرفن مصيرهن. شرقت فوزية بدموعها عندما سمعت نبأ تشرد أولادها في الشمال. هي متهمة بتحريض المصري ع.س.ع. على قتل ي.ج. وزوجته وحفيدتهما في «برعسايا» في العام الماضي. فوجئت فوزية بالخبر الذي نقلته أمس مسؤولة في إحدى الجمعيات للوزير. وبعدما ارتمت الأم في حضن إحدى زميلاتها.. تجالدت ووقفت وسألت عن «اللعنة التي تلاحقني».. ما هو الدليل على أنني حرضت ع.ع. على قتل أطفال؟ ومن يهتم بأطفالي الآن؟ يقولون إنهم مشردون على

الطرقات، وثمة من يستغل أعمارهم للعمل في الممنوع! ماذا أفعل؟ ماذا فعلت؟

كان الوزير يعدد المطالب التي ستعمل الوزارة على تلبيتها، مبدياً دهشته بـ «المصائب المخبأة في هذه الغرف، والظلم اللاحق بالسجينات». وقفت شابة عشرينية وقالت بلهجة بقاعية يشوبها المزاح: يا معالي الوزير، لماذا لا تصرّح في مؤتمر صحفي أنك تأثرت بما رأيت.. وتطلب من الوزراء والنواب العمل على إصدار قانون عفو عام؟

ثم قبل مغادرة الوفد المرافق للوزير القاعة.. حاولت أكثر من سجينة الإدلاء بروايتها لوسائل الإعلام المرافقة. غير أن التعليمات كانت حازمة: «يمنع على الصحافيين الحديث مع أي سجينة.. ولو كلمة واحدة». ستبقى هذه الكلمات سجينةً في الغرف إلى جانب صاحباتها.. يتناقلنها في ما بينهن بلا جدوى. كلمات حدودها باب الغرفة.. فيما باب السجن بعيد.. بعيد. هن لا ينكرن أنهن أخفقن.. وأخطأن.. ويردن دفع ثمن الجريمة. هن ينتظرن رؤية قوس المحكمة.. وقاضياً عادلاً.. ومحامياً نزيهاً.. وسماع الحكم.

الثلاثاء

ودعت الحياة واستقبلني النفي. هناك حيث الأيدي المكبلة، والأقدام المسلسلة، ووقع الأحذية الثقيل يتردد بين الجدران، فتحت عيني وظننتهما مغلقتين.. ظلمة حالكة حين فتحتهما وظلمة حين أغمضتهما! حبات النور تتسلــل خلسةً بين القضبان.. جاءت من عالم رحيب إلى عالم ضيق صغير.. ونامت بجواري لترسم لعيني ملامح وطني. جدران نافرة من حجر صلد مرصوف رصفاً لا انتظام فيه ولا هندسة.. والنمل الكبير الأسود ينخر في

الحجر ويحدث صوتاً مريعاً في الظلام. والصمت العميق ملأ الزنزانة.. كأنه وحل غطّى الأرض صمتاً.. لا يتجرأ عليه سوى صوت كرباج أو عود ثقاب يشتعل في الظلمة ليشعل لفافة. وتأوه الرفقاء.

استلقيت على ظهري وعيناي شاخصتان إلى السماء.. فانسلخ سقف الحجرة.. وامتد شعاع بصري فتجاوز السحاب والسموات الأولى ثم الثانية... وهناك في السابعة حيث استراح في كنف الخالق الحنان. صعدت الروح وأغمضت عيني، والعبرات تنساب بطيئةً فوق الوجنتين. ساعات.. واهتزت الأقفال وخشخشت السلاسل. وعادت روحي إلى سجنها اللحمي، وانتبهت العينُ المغمضة إلى كسرة خبز وبقايا طعام. وسمعت صوت المذياع بعيداً ينقل خبر أهل الدنيا وغلاء المعيشة.. والأحداث اليومية والأمنية.. والسجالات السياسية.. والطبابة.. وشكاوى السيدات.. وأغاني كثيرة وأصوات.. يا الله نسيت أني كنت يوماً من هؤلاء.. كنت ممن أخذتهم الدنيا في دوامات الصراع.. وملأت آذانهم أبواق كثيرة وعواء.. وشمت أنوفهم دخاناً كثيراً طيّباً.. ورأت عيونهم معالم كثيرةً وطرقاً ونساء.

الأربعاء

أضع الآن أمامي على الطاولة صورتي زوجتي القديمة والجديدة، وأتأمل.. ويأخذني ضباب ثقيل مخيف من الحيرة والأفكار.. وأسائل الرسالة المشكولة بهما.. ولا شيء غير حقيقة واحدة مسننة ذابحة.. مغلفة بهالة من الريبة والغموض. صفحة بيضاء أمامي والقلم بين أناملي.. وأحشائي تتمخض بكلمات أرسمها على الورق. أجل! أنا أرسم الكلام على الورق. وأصبحت الكتابة بنتاً لي تبحث لها عن زوج تقترن به.. وهو قارئها. وأنا لا أريد أن أزوج

ابنتي لأحد.. فهي فتاة صغيرة غير ناضجة! ولذلك فكتابتي هي مجرد رسم بالكلمات.. ألله يا نزار قباني! الفرق بيني وبين نزار قباني أنه يرسم بأشعاره ما يبهج العقل والقلب معاً، والذي أرسمه أنا هو آهاتي ومأساتي، ولا أريد أن أجرح مسامع أحد بشهقاتي. أخيراً أيها السادة، قرائي المجهولين.. الذين أقحمتم أنوفكم فيما يزعجكم.. زوجتي لا زالت على قيد الحياة! هنيئاً لي.. يا للفرحة العارمة التي رطبت قلبي اليابس. أم تراها المفاجأة الأخيرة / النبأ أجهزت على بقيا الحياة فيه. ما الذي حدث إذاً أيها السادة منذ سنين بعيدة؟ ولماذا أنا أعاني آلام السجن؟ زوجتي التي وهبتها قلبي وشبابي.. إرهابية قتلت حبي بدم بارد وقد خبأت في قمقم حقدها مارداً جباراً ثائراً.. «فرمتت» ذاكرتها أن لها زوجاً سجيناً بريئاً. وتقفز الآن إلى ذاكرتي مشاهد إرهابي أنا أيضاً تجاه فتيات شقاوتي.. الجريمة عينها! ولكني أدركت وبعد كل هذه السنين.. كم كنت مخدوعاً بها! كم كنت أبله! ممثلة بارعة أبدعت في تمثيل دور الزوجة المحبة كما تؤدي أدوارها على خشبة المسرح.. في حيلة ذكية شيطانية لهلاكي. هي تنتقم وتثأر.. ولكن لماذا؟! ما الغاية؟ ولصالح من؟ وكيف أنسى تلك الأيام الحلوة، ربيع الزواج الذي عشته مع شادية زمان، وغيرتي من دبابير كانت تحوم حولها. كانت فاتنةً موهوبة.. لامعة ذكية. إنها من النوع الذي يصلح لإنجاز مهام خطيرة في الحياة! وأدوات هذه المهام: الجمال، الذكاء، الثقافة. وكلما «ناوشها» وجيه أو متنفذ تأكل الغيرة قطعةً من قلبي. وندّي في السياسة سعادته ج.ج. وابنه «خرطوشة فرده» م.ج. وهذا الأخير شاب وسيم ما انفك يلاحق شادية.. يلاطفها ويحاول الاتصال بها. أدركت ما في رأسه منذ المحاولة الأولى. إنه من طينتي وقماشتي هو الآخر

في أيام شقاوتي. أذكر جيداً عندما عنفته على الهاتف أن يكف.. ثم أرسلت إلى والده ج.ج. فلم يرعو. وشادية وأنا نجتاز تلك المرحلة الرمادية المقيتة التي شكلت جسراً نحو السواد الحالك. أذكر جيداً في مرة من المرات «طفح الكيل»، فأرسلت ثلاثة رجال من رجال الحزب.. فاختطفوه وأشبعوه ضرباً ولم أخش شيئاً.. ولكني عرفت من حينها أني بدأت في حفر الهوة الكبيرة بيني وبين أسرة ج. وشادية وأنا في حالة كرّ وفرّ.. والأمور تسير بسرعة غريبة.. وبدأ الشك الرجولي بعد ذلك يجرح فؤادي. لم يكن لهذا الشاب المغامر ابن سعادة النائب أن يستمر في دونكيشوتيته الوقحة لولا (ريق حلو) من شادية تذيقه إياه بين الحين والآخر. تركت البيت غير مرة.. ولملم المصلحون شتات حبنا.. وهكذا دواليك. قلت لها ذات يوم:

- هذا الشاب الأرعن تجاوز كل حد! وأنت تدفعينه إلى هذا. أجابت:

- لا شيء يجمعني بـ م.ج. غير العمل.

- أنا لا أمانع أن تعملي في الفن والكليبات الغنائية والإعلانية. ولكن ألم تجدي غير أعدائنا لتعملي معهم؟!

- م.ج. هو الأقوى في السوق. إنه منتج كبير. ولا شأن لي في صراعاتك السياسية.

كان موقفها عنيداً. قاسياً. لقد أمسكت مثل شمشون بعمودي هيكل الزواج (الحب والتفاهم) وهدتهما. بدا واضحاً أنها غير آبهة لي ولا لعلاقة ولا لزواج.

- أنت تقفين إلى جانب عدوي ضدي. والنتيجة زواج على حافة الانهيار. فكان جوابها المؤلم:

- فني ومواهبي هما الآن في رأس أولوياتي.

أدركت عميقاً أن تصميمها لا رجوع عنه. بيد أني صبرت وراهنت على تغييرها. كانت تعاني من مرض الشهرة والمجد، وباتت ضحيةً لمزاجيتها السريعة التقلب. ثم نشرت بعد ذلك إحدى المجلات الاسبوعية صوراً لشادية ملتبسة.. أثناء المعركة الانتخابية لضربي في الانتخابات. واستعملت أنا الاسلوب ذاته ضد خصومي.. وخسرت الانتخابات. صبرت على شادية حتى تلك الليلة المشؤومة.. ليلة الشيطان. يخطر لي الآن أيضاً أن تكون شادية بدورها أداةً بائسة بيد من هو أكبر! بقي أمامي الآن أن أبلغ عن الرسالة والصورتين. وقد طلبت البارحة محامياً في الجمعية لكي أخبره الحقيقة كلها.

الخميس

يروى أن أحد السجناء في عهد لويس الرابع عشر كان محكوماً عليه بالاعدام، وهو سجين في جناح قلعة عسكرية حصينة، لم يبق على موعد إعدامه سوى ليلة واحدة. وحيث كان معروفاً عن لويس الرابع عشر ابتكاره لحيل وألاعيب غريبة.. فوجئ السجين في تلك الليلة بباب الزنزانة يفتح.. لتظهر قامة الملك المهيبة وحوله الحرس والجنود. قال الملك:

- سأمنحك فرصةً.. إذا نجحت فأنت ناج وحر. هناك مخرج في هذا المكان.. إن تمكـــنت من العثور عليه تخرج وأنت حر.. وإن فشلت فإن الحرس آتون مع شروق الشمس لأخذك إلى المقصلة.

ثم أمر الملك حراسه أن يفكـوا قيده وتركوه وانصرفوا. وبدأ السجين رحلة البحث العصيبة في الجناح الذي سجن فيه، والذي يحتوي على غرف عديدة وردهات وأروقة. بدا هناك أمل عند اكتشافه غطاء فتحة مغطاة بسجادة بالية على الأرض، ففتحها وإذا سلـم يؤدي إلى سرداب سفلي فنزل فيه.. ثم

درج آخر صاعد مقابله فصعد إليه. وظل يصعد إلى أن بدأ يحس بتسلل نسيم الهواء الخارجي.. وابتهجت نفسه بالخلاص.. بيد أنه أحبط في النهاية لأنه وجد نفسه في برج القلعة الشاهق ولا يكاد يرى الأرض من تحته. فعاد أدراجه خائباً منهكاً، ولكنه لم ييأس. وفيما هو يفتش ضرب الحائط قربه بقدمه، فإذا بالحجر الذي يضع عليه قدمه يتزحزح.. راح يختبر الحجر فوجد أنه بالامكان تحريكه. وما إن أزاحه حتى وجد سرداباً آخر ضيقاً يكاد يسمح له بالزحف على بطنه بصعوبة. وبدأ يزحف. وكلما زحف أمتاراً إلى الأمام سمع صوت خرير مياه.. فيبرق الأمل في قلبه.. لأنه يعلم أن القلعة تطل على نهر. ولكنه أحبط ثانيةً عندما اصطدم بنافذة حديدية مقفلة. رأى النهر من خلالها ولم يستطع إزاءها شيئاً. فرجع إلى زنزانته وراح يختبر كل حجر وبقعة في الجناح ليجد حجراً مفتاحاً آخر. لكن محاولاته كلها باءت بالفشل. وأمضى ليله تائهاً في سراديب هذا الحصن.. يخرج من سرداب ويعلق في سواه.. وينتهي مرةً إلى نافذة أو باب حديدي.. أو إلى سرداب طويل يفضي إلى متاهة ضيقة لا نهاية لها. ويقوده السرداب إلى سرداب ولجه أولاً.. أو يعيده إلى زنزانته. وهكذا بقي لاهثاً في محاولات وبوارق أمل كاذبة خادعة، توحي له بالخلاص في أول الأمر، لكنها في نهاية المطاف تؤدي إلى الخيبة واليأس.

مضى الليل.. وشق الفجر.. ودخلت الشعاعات بين القضبان إلى فضاء الغرفة، فاستسلم هذا السجين البائس وخارت عزيمته.. واستعد لملاقاة المصير. وفجأةً رأى وجه الملك، مشرقاً كإشراقة الصباح، يطل عليه من الباب ويقول له:

- أراك لازلت هنا؟! سأنفذ فيك الحكم كما أخبرتك. فأجاب السجين:

- أجل. وافعل ما يحلو لك. لم تعد الحياة عندي بذات قيمة. ولكني حسبتك صادقاً أيها الملك لا كاذباً. وأنت كذبت علي.

فأجابه الملك:

- لا.. أنا لست كاذباً. لقد كنت صادقاً معك في كل كلمة. فسأله السجين:

- لم أترك بقعةً في هذا الجناح لم أبحث فيها.. فأين المخرج الذي حدثتني عنه؟

فقال له لويس الرابع عشر عندئذ:

- لقد كان الخلاص موجوداً طيلة الوقت. بسيطاً.. سهلاً. لقد تركت لك باب مدخل الجناح مغلقاً غير مقفل.. وأمرت الحراس أن ينصرفوا. أرأيت أين كانت نجاتك؟ أنظر هنا.. لقد كنت صادقاً في كلامي. أنا أردت لك خلاصاً بسيطاً.. وأنت أردته صعباً منهكاً. أنا حضّرت لك خلاصاً لكي تأخذه وتدخل فيه.. وأنت تريد أن تصنع خلاصك بعقلك البائس العاجز الذي أوصلك إلى الخيبة والفشل.

كثيرون في هذه الدنيا يقولون: «هذا خلاصنا.. هذا طريق نجاتنا.. هذا طريق سعادتنا.. هذا كنزنا الثمين الضائع وقد وجدناه أخيراً.. تلك هي الحقيقة الضائعة! وغالباً ما يكون هذا الطـريق غير طريق الله! وإنما سراديب العجز هي.. والكبرياء والأنانية.. والوسائل البشرية المخيبة دائماً. سراديب مظلمة لا قبس ضوء فيها.. لا رجاء ولا سعادة ولا خلاص.

تعب الانسان في البحث عن الطريق الذي يوفر له كل هذا. فسلك الدروب الأكثر وعورةً وظلاماً.. ونسي أن باب الله.. وطريقه مفتوح دائماً وسهل الدخول فيه. الله أراد أن يقدم للإنسان السعادة والرجاء.. بوسائل

سهلة مريحة. ولكن الإنسان لبؤسه وكبريائه.. لم تعجبه السعادة البسيطة من راحتي القدير اللطيفتين.. فأرادها في الفلسفة المكابرة وجبروت العلم، والحياة العالية، وجنون الانجازات، والمجد الباطل، وهيبة القوة. وكل هذه سراديب فشل محتم.

دروج الحكمة(1)

الجمعة

حكم في المكسيك على رجل بالسجن لمدة سنتين. كان قد اضطر لسرقة بعض المأكولات لإطعام عائلته الفقيرة. كانت امرأته مع ابنته الصغيرة، تأتيان لزيارته مرةً في الشهر، فتحملان له ما توفر لهما من المأكولات وبعض الثياب، مع أشياء صغيرة مثل علب سكائر وبعض الحلويات.

كانت الطفلة تفكر خلال شهر بكامله ماذا بوسعها أن تجلب لأبيها، الذي تحبه كثيراً، أشياء يحتاج إليها لتزرع الفرح في قلبه. وتذكرت كم كان أبوها يحب الزهور.. وتذكرت أيضاً نزهاتهما معاً إلى الحقل ليجمعا من أنواع الزهور باقةً لتعطيها له أخيراً. وكم كانا يتوقفان عند شجرة غضة ليسمعا زقزقات العصافير والطيور المتنوعة. هذه حتماً يشتاق إليها أبوها. فصممت أن ترسم أجمل عصفور على ورقة وتحمله إلى والدها في السجن.

وفي يوم الزيارة أتت الأم مع ابنتها ووقفتا في الطابور مع أهالي المسجونين بانتظار دور الزيارة. وعندما وصلتا إلى جندي التفتيش.. وفتش الحقيبة.. ورأى صورة العصفور.. سأل ما هذه؟ أجابت الطفلة بحزم وشجاعة: هذا عصفور لوالدي. أخذ المفتش ينظر إلى لائحة ممنوعات كانت في يده، ثم

(1) هذا الكتاب لا وجود له، هو من ابتكار المخيلة.

مزق صورة العصفور قائلاً بقساوة: لا يسمح هنا بإدخال العصافير إلى السجن. فقالت الطفلة والغصة تخنق صوتها: هذه صورة.. هذه صورة! وأذعنت الفتاة حزينةً ودخلت مع أمها لزيارة والدها فارغة اليدين والدمعة تلمع في عينيها.

في الشهر التـالي، ومع حزنها، كانت الطفلة قد رسمت جميع أنواع الزهور، وحاولت أن تدخل والرسم في يدها لتقدمها إلى والدها فخورةً بهديتها. فمنعها المفتش أيضاً ومزق لها الصورة بلا رحمة قائلاً: لا يسمح بإدخال الزهور إلى المساجين هنا.

ومضى شهر أيضاً والطفلة تفكر في كيفية إدخال الفرح إلى قلب والدها بمثل هذه الأشياء الممنوعة والتي يحبها. أخيراً قر فكرها على ورقة بيضاء كبيرة أخذتها ورسمت عليها جميع الألوان، تارةً ممزوجةً متداخلة وطوراً متمايزة منفصلةً، وبجميع الأشكال والاتجاهات. وعندما نظر فيها المفتش لم ير فيها شيئاً من الممنوعات المكتوبة في اللائحة بيده. فحملتها الطفلة بيدها وقلبها يخبط فرحاً وابتهاجاً. ودخلت إلى السجن وقدمت الهدية إلى والدها. فأمسك الوالد الرسم ولم ير فيها شيئاً له معنىً كرسومات السورياليين. فسألها متعجباً: رسمتك رائعة! ولكن ما هذا؟ فأجابت الطفلة: آه يا أبي! لم يسمحوا لي بأن أدخل لك العصافير ولا الزهور ولا الورود.. فرسمت في النهاية شجرةً كبيرةً كثيفة الأوراق مليئة كلها بالزهور والطيور.. وهي تغني وتزقزق وتعشش فيها.. وكل هذا مخبأ في داخل الشجرة. لكن يا أبي لا أحد يدري بهذا السر.. فقط أنا وأنت وأمي. ألا ترى هذا صحيحاً؟ وإن نظرت إليها بصمت وإصغاء يمكنك أن تسمع أيضاً زقزقة العصافير الرائعة. فما كان من الوالد إلا أن ضم طفلته إلى صدره بحنان.. وعانقها طويلاً.. والدمعة الحزينة الخرساء جامدة في مقلتيه.

إستيعابنا لكل ما يجري حولنا من أشياء معاكسة لإراداتنا وأهدافنا هو مقياس سعادتنا وحريتنا ونضجنا الإنساني.

السبت

في يوم من أيام 1908م. كتب شاعر غنائي إيطالي قصيدةً ساخرةً يهجو فيها يسوع المسيح طفل مذود بيت لحم.. الذي تألم وصلب على خشبة الصليب. وكان الغرض من ذلك أن تكون تلك القصيدة أغنية الموسم في عيدي الميلاد ورأس السنة. وفي يوم 24/ 12/ 1908 م. نشرت هذه الأغنية في الجرائد والمجلات في كل نواحي مدينة مسّينا الإيطالية وجزيرة صقلية في جنوب البلاد. ويقول مطلع هذه الترنيمة الساخرة.

آه أيـــهــا الطــفــل الصـغير	لـــم تجد فـــي ولادتــك سرير
أنت تــدعــي أنــك الله القدير	وجئــت تنقذنا مـــن شر المصير
وفـــي صلبك تصنع لنا التحرير	فلكي نؤمن أرسل الزلزال الخطير

وبعد أربعة أيام من النشر.. وغناء هذه الأغنية الهزلية الساخرة التي كانت قد انتشرت وأصبحت في فم السكارى ورواد المرابع الليلية الماجنة.. وفي يوم 28/ 12/ 1908 م. دمر زلزال عظيم مدينة مسّينا وجزءاً كبيراً من جزيرة صقلية! وفي ثوان معدودة فقد أكثر من 90000 إنسان حياتهم دفعةً واحدة. والمؤسف أن كل أفراد عائلة كاتب القصيدة ماتوا جميعاً.. وأما هو فقد نجا بأعجوبة من الزلزال الرهيب. ولكنه في الحال أصيب بصدمة نفسية وعقلية عنيفة.. ففقد أدراكه وأمضى ما بقي من حياته القصيرة مجنوناً في حالة هياج وخلل عقلي.

كان ناجي يقرأ هذه المرة سطور الكراس في حالة اضطراب شديد. عقله موتّر بين حادث اختطاف سحر.. وصفقة سرقة هذا الكراس الذي يقرأه. بالكاد كان يمسك بالكلمات ويثبتها أمام عينيه ليفهمها. وها هو أتى الآن على نهاية النصوص ولا جديد هاماً فيها. كان هناك ورقات قليلة متبقية راح ناجي يتصفحها.. قارئاً كلمةً هنا وكلمة هناك. وكان في آخر الدفتر ثلاث صفحات بيضاء لا كتابة فيها.. نهاية مذيلة بالخيبة. شعر بالعطش.. مد يده وأمسك بالقنينة البلاستيكية وشرب منها «بلعتين.. وتشردق» فيهما.. وسقط قليل من الماء على الكراس أمامه. فأخذ على الفور ورقة كلينكس وراح يجفف الماء الذي بلل الورقتين الأخيرتين من الدفتر. وما إن قلب بأنمليه المرتعشتين الورقتين الأخيرتين حتى ذعر الشاب! وجمد الدم في قلبه.. وصار يندى جبينه من هول ما رأى. حروف وكلمات متناثرة على الصفحة باللون الرصاصي تقفز تباعاً إلى الظهور حيث رطبها الماء.. ليتشكل أمامه وخلال ثوان نص مكتوب بالحبر السري! وبكتابة صحيحة بخط كلاسيكي جيد. إنها رسالة سرية! رمى ناجي المخطوط من يده كأنه أمسك شيئاً نجساً أو ساماً! وراح برهبة يتأمل الكلمات بلونها الرمادي الغامق تأخذ مكانها على الصفحة لتتناسق شكلاً ومضموناً. الحبر السري ليس شيئاً غريباً على ناجي.. كثيراً ما كان السجناء يصنعونه ويستخدمونه لتراسلات يريدونها سريةً.. والخطيرة منها. إنه الحبر الذي يظهر بالماء.. وعندما يجف الماء تختفي الكتابة. تركيبته سهلة.. غرام واحد من حامض الليمون يضاف إليه 25 ملغ ماء، تظهر الكتابة باللون الرمادي الغامق. وهناك طريقة أخرى.. حبتا إسبرين في 15 ملغ سبيرتو وتظهر الكتابة أيضاً بواسطة الماء بلون رصاصي، وعند جفاف الماء تختفي الكتابة. ويعرف

ناجي أنواعاً أخرى من الحبر السريّ أيام السجن: الحبر الحساس على الحرارة، والحبر البخاري الذي يظهر عند تعرضه لأبخرة مادة أخرى، والحبر الحراري الحارق الذي يستخدم في عملية الحرق، والحبر الكيميائي الذي يظهر بتفاعله مع مادة كيميائية أخرى. عاد وشرب «بلعة» ماء أخرى وفمه فقد كل رطوبته. واقترب بحذر يقرأ الكلمات الرصاصية اللون.. ورصاصية الوقع والتأثير أيضاً في نفسه الحائرة.. في مساء قلق عصيب:

«أنا كاتب هذه السطور.. سجين آخر غير وليم عامر. إحسبني فاعل خير يريد العدل والانصاف لوليم عامر. قد أكون سجيناً مظلوماً بريئاً بدوري أنا الآخر! فشلت في إثبات براءتي كما وليم. بيد أن ما أخطه الآن هنا قد يساهم في إظهار الحقيقة.. وإذا كان وليم بريئاً، في هذه القضية بالذات، فإن عدالة السماء تحمل هذه الرسالة كدليل أخير قوي يبرئ المظلوم ويدين الظالم. وليم عامر لم ينتحر! وليم عامر قتل في السجن بواسطة قطع وريد ساعده.. وسرّب الأمر كأنه انتحار. وأحرقت رسالة زوجته إليه مع الصورتين بعيد موته مباشرةً. والمدعو ج.ج. سعادة النائب الوارد اسمه في دفتر وليم مرات عديدة هو وراء هذه المؤامرة البشعة.. وبالتـواطؤ مع شادية مطر زوجة وليم التي ظن أنه قتلها وهو سجين لهذا السبب. لقد اغتال سعادة ج.ج. وليم عامر سياسياً أولاً وجسدياً ثانياً. وتبقى الحلقة المفقودة: لماذا تواطأت زوجة وليم عامر مع النائب ج.ج. لتصفية وليم في السجن؟ فاعل خير».

ذهل ناجي من كلمات هذه الرسالة السرية في الورقة الأخيرة من المخطوط.. وقادته الصدفة.. وربما فعلاً عدالة السماء كما تمنى فاعل الخير. واكتشافه لهذا النص السري تأكيد بأن السماء تريد إعلان الحقيقة. كاد ناجي

ينهار إزاء هذا الاكتشاف الرهيب. إنها مفاجأة قنبلة! وانفجر عاصف من الأفكار والتساؤلات في قلبه: «وليم عامر لم ينتحر إذاً.. وهو ليس قاتلاً.. هو سجين بريء مات مقتولاً في زنزانته.. وزوجته، وبات واضحاً، شريكة أعدائه ضده. إستنتاج أول أن لهذا المخطوط قيمةً عظيمة! فيه إدانة أكيدة لسعادة ج.ج. واستنتاج ثانٍ أن من مصلحته إخفاء دليل إدانته. واستنتاج ثالث أن الطرف الذي يريد إبرام صفقة معي هو سعادة ج.ج. واستنتاج رابع أن من يعرف سر هذا المخطوط أيضاً: فاعل الخير واستنتاج أخير أن فاعل الخير يريد إيصال هذه الرسالة السرية إلى الجمعية لكي تتابع ملف القضية. ولكن وليم مات! التصرف الحكيم هنا أن أعيد المخطوط إلى السيد كميل وأخبره بموضوع الرسالة السرية لتقديمه للقضاء لإظهار الحقيقة. ولكن..! ماذا عن الصفقة بيني وبين طالبي هذا الكراس أي ج.ج.؟ هل أخبر السيد كميل أيضاً بهذا؟ لقد صفوا وليم في السجن.. ويريدون إخفاء الدليل الوحيد الذي يفضح مؤامرتهم الخبيثة ضد وليم عامر.»

كان قد عزم على أن يراوغ ويراهن على المجهول.. ومتغيرات ما لصالحه. ولكن مصيبةً أخرى حلت! اختفاء.. أو اختطاف سحر وزميلها فايز.. في ظروف ليست غريبة.. هذا لم يكن مفاجئاً لناجي قدر مفاجأة المخطوط. كان خائفاً على سحر منذ البداية. شجاعتها وتهورها وتحدياتها تفضي إلى هذه النهاية. وفيما هو في بحر مخاوفه وقلقه مفتشاً عن التصرف الحكيم. عن له فجأةً أن يتصل بأنور محاولاً أن يقصد إليه في زيارة ود ومساعدة. ونقر الرقم على الموبايل:

- أنور مساء الخير. وأجاب الصوت في الخط المقابل باستفهام غارق لاهث وراء حبل نجاة:

- ناجي.. إبن حلال.. كنت أريد الاتصال بك لتوي. طمئني يا رجل هل عندك خبر طيب؟! وأجاب ناجي مهدئاً:

- كنت أريد أن أسألك السؤال عينه. هل أنت في البيت؟ أسمع ضجيجاً.

- أجل.. أصدقاء وإخوة.. وصحافة. تعال إليّ في الحادية عشرة.. عند رحيل الجميع.. ونم عندنا يا ناجي.

- حسناً.. انتظرني بعد ساعتين. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

ما إن جفت الورقة الأخيرة حتى اختفت الكلمات الرصاصية، فعاد ومسحها بإصبعه مبللاً بقليل ماء.. وقرأ الرسالة السرية مرات عديدة. شعر بأنه عاجز عن استجماع شتات فكره على مشكلة واحدة: إكتشاف سر المخطوط.. وليم عامر قتل.. جهات مريبة تريد المخطوط بأي ثمن والصفقة الصعبة التي عرضت عليه.. وأخيراً سحر في قلب دائرة الخطر. كلها نزلت عليه كنزول الأمطار بغزارة في برية قاحلة بعد أشهر طويلة من الجفاف.. ولا يدري سكان الواحة كيف يخزنونه ومن أين يبدأون.

تناول من عشائه القليل، واستلقى قبالة التـلفاز ينظر إليه ولا يرى شيئاً. وبعد ساعة ونصف الساعة استقل سيارة أجرة واتجه إلى منزل أنور سالم. وكانت المشاهد في الشوارع ذات اليمين وذات اليسار أشباحاً ساخرةً تضحك على حيرته وعجزه أمام هجمة المصائب كلها.. كأنها هي التي ألبتها عليه.. والبدر في القبة المظلمة كالأمل الوحيد في زحمة التحديات هذه. حدثه السائق ولم يعِ حديثه. نقده المال، وولج المبنى، ثم أخذ المصعد إلى الطبقة الثالثة.. وهو بعد في المصعد يرن الموبايل.. وينظر إليه فإذا الرقم غريب. فتح الخط:

– آلو نعم. من المتكلم؟

– سيد ناجي.. معك السيدة شهوات على الخط. والصوت صوت رجل.. وبنبرة حازمة.

– مممــماذا.. سيدة شهوات؟! ولكن لم تنته المهلة المحددة لأخذ القرار بعد. ألهذا تتصلون؟! سأل ناجي مرتبكاً وخائفاً، وكانت هواجسه في محلها.

– علمنا يا سيد ناجي بأنك لن تتعاون معنا بسهولة. فعمدنا إلى أسلوب آخر أكثر إقناعاً لعقليتك غير المرنة. نحن الجهة الخاطفة لسحر وفايز. وسيبقيان آمنين طالما أنت ساع للتنفيذ. وأمامك خمسة أيام لإعطائنا الغرض المطلوب. سنتصل بك بطريقتنا. الوداع.

وأقفل الخط.

******

16

تجارب الحياة تجعل أرواحنا ترنم،
مثلما الحصى الصغيرة تجعل الساقية تسقسق.
أنطوان دي سانت إكزوبري

نزل فايز العرب وسحر سالم من التلفريك واتجها إلى الإنفينيتي المركونة في الباركينغ، وقلب سحر يخفق خفقاناً شديداً لوقع المفاجأة التي أعلنتها الحلقة الأخيرة من لغز رسائل بشير الجميل. قالت لفايز:

– سأشتري ماءً، لقد جف حلقي.

– هل أنت على ما يرام؟ سأل فايز باهتمام.

– أشعر أن مفاجأةً كبيرة تنتظرني في الكنيسة. أيعقل أن تكون هذه الرسائل موجودةً في الكنيسة؟

– ما بك؟ لا أراك متشوقة كما في البداية.

– بلى. لا زلت متشوقة. بيد أن هذه النهاية الغريبة في كنيسة (محبة الله) أقلقتني.

– وهل أنت متأكدة أن الكنيسة هي الحلقة الأخيرة؟

- تأكدي من حديثي معك الآن.

- أليس هناك احتمالات أخرى؟

- مثل؟

- محبة الله قد تعني (الصليب) مثلاً. أو (الكتاب المقدس)! أو الكنيسة الجامعة ربما.. لا أدري.

- الصليب أو الكتاب المقدس ليسا مكانين. نحن نبحث عن مكان. إنه حتماً الكنيسة التي نشأت فيها.. فاسمها (كنيسة الله) وهي معروفة. قلبي يزداد خفقاناً يا فايز، أنظر إلى أناملي، أنا في حالة اضطراب شديدة.

- ما رأيك لو نذهب الآن إلى الكنيسة مباشرة.

- أتحتاج هذه إلى سؤال؟ هيا.

وابتاعت سحر الماء وبلت ريقها. ثم راحت تحاول تهدئة نفسها.. كأن جهاز الاستشعار المبكر عندها بدأ ينبئها بمفاجأة سلبية! حياتها مسلسل من المفاجآت.. واعتادت هي الإحساس بهدوء ما قبل العاصفة. وتذكرت الآن ما يقوله لها ناجي دائماً «لم تقل السماء كلمتها بعد» أترى هناك رسالة من السماء لها في كنيسة الطفولة؟ أهناك حقاً رسائل من بشير لبربارة نيومن؟ هل هذه الرسائل باب إلى شيء آخر؟ وعصا الجواب عليها في اللحظات القلقة.. وهي تصعد الإنفينيتي إلى جانب فايز الذي كان يراقب وجهها وانفعالها عند كل تطور. أدار فايز محرك السيارة وانطلقا إلى المدينة. وبعد مئتي متر من الانطلاق وعند المنعطف قرب كاتدرائية القديس بولس هبطت سيارة سوداء من السماء فجأةً أمامهما، وسيارة سوداء أخرى وراءهما.. كتعويذة شيطانية أوجدتهما من العدم. فباتا محاصرين بين السيارتين.. ووثب رجلان من

السيارة الأمامية وآخران من الخلفية بملابس سوداء أيضاً ومسدسات كأنهم غربان التعويذة.. فتحوا بابي الإنفينيتي وأمسكا فايز وسحر. قال أحدهم لفايز:

- هيا انزلا وأيديكما في الهواء. أنت إصعد في السيارة الخلفية وأنت في الأمامية.. وأي حركة سنطلق النار.

وقال آخر بروح الدعابة وقد أمسك سحر:

- أنا إنسان يائس. لا مشكلة عندي أن أفعل أي شيء.

- ماذا هناك؟ من أنتم؟ أنتم مخطئون! نحن صحافيان. قال فايز وهو يصعد السيارة الخلفية.

- لسنا مخطئين. لا تؤتيا أي حركة ولن يمسّكما ضرر. لن نؤذيكما. قال قائدهم. سنعصب أعينكم ونأخذ الموبايلات وأمامنا رحلة طويلة. وكبلوا معصميهما وراء الظهر. وبدل أن تهبط السيارتان إلى الساحل انطلقتا إلى الجبال النائية. وبعد خمس دقائق قال فايز للذي يجلس قربه:

- رفقاً بالفتاة سحر.. أرجوك.. إنها متوترة وليست في حالة طبيعية. وما عملتموه قد يجعلها تنهار.

- ما بال صحافيتنا اللامعة؟ قال الرجل.

- مشاكل شخصية. أجاب فايز.

فأمسك الرجل جهاز اتصاله وقال:

- أعطوا سحر مهدءاً خفيفاً وشيئاً بارداً.

- لماذا ما بها؟ سأل الرجل الذي على الخط.

- هل هي على ما يرام؟

- أجل إنها ساكتة وطبيعية. على كل حال سنعطيها المهدئ.

فقال الرجل إلى جانب فايز:

- فتاتك بحالة جيدة.. لا تخف عليها.

- من أنتم؟ سأل فايز.

- إطمئن.. لا شيء شريراً. الأوامر أن تكونا في وضع مريح وجيد جسدياً وعقلياً. وأما من نحن.. فالتوضيحات ممنوعة.

- والمكان الذي نقصد؟ سأل فايز أيضاً.

- أنت تكثر من الأسئلة يا هذا!

- هل ستطول رحلتنا. سأل فايز أيضاً بعد ثوان وهو معصوب العينين.

فاقترب الرجل الأسود وهمس في أذنه:

- الأجدى لك أن تبقى صامتاً وإلا لجأت إلى قليل من العنف.

كان فايز يشعر بالسيارة تعلو وتهبط وتلف وتدور في المنعرجات والعطفات.. فأدرك أن الاتجاه نحو الجبال. وسمع فايز الرجل إلى جانبه يقول عندما أعطى الجهاز بيده إشارات:

- نعم. اطمئن يا رئيس. العصفوران في القفص.. وهما في حالة جيدة. ونحن نتجه سريعاً إلى العش. إلى اللقاء.

ومرت ساعة من الزمن. شعر فايز أن الوصول بات وشيكاً.. وهدر المحرك يخفت شيئاً فشيئاً. واستقرت السيارتان.

- ها نحن. قال الرجل إلى جانب فايز.

- هل سأبقى معصوب العينين؟ سأل.

- عندما تصل إلى غرفتك.

- هل سأكون وحدي.. أم أنا وسحر معاً.

وأعطى الجهاز إشارات اتصال أخرى. وقال الرجل:

- حسناً سيدي. هه.. لقد جاءك الجواب.

ستكونان معاً أنت والصحافية العظيمة ذات العينين العسليتين.

- حمداً لله.

- عندما نكشف عن عينيك ستراها أمامك.

وخلال دقائق كانت الأنامل الرجولية الصلبة ترفع العصابة عن عيني فايز وسحر في غرفة بنافذة واحدة، لها قضبان حديدية، مشرفة على الوادي العميق. وقال أحد الرجال السود كيوم فايز وسحر:

- ستعيشان هنا في هذه الغرفة لحين انتهاء المهمة. سيأتي الطعام في حينه. فك معصميهما. ثم خرج الرجال، وأقفل الباب الحديدي. وتعانق فايز وسحر.. وأخذت هي تبكي. وتمتمت:

- حمداً لله على سلامتك يا فايز. راح يمسد شعرها الكستنائي بلطف.

- حمداً لله على سلامتك أنت يا سحر. هدئي من روعك. ها نحن الآن سالمان آمنان.

- هل تعرف من هؤلاء؟

- لا.. البتة.

- أتظن أن لهم علاقة برسائل بشير؟

- لا.. لا.. لا أعتقد. قالها بثقة وحزم.

- إحتمالات أخرى؟

- لا احتمالات لدي الآن. أعتقد أنه علينا اكتشاف عالمنا الجديد.. ولنحاول التكيف مع المستجدات. هل أعطوك مهدئاً في السيارة؟

- أجل.

- كيف تشعرين الآن؟

- أحسن حالاً. وجلست على السرير، وكان هناك اثنان متباعدان كل بموازاة جدار من الغرفة. ثم أضافت:

- أمران لا ثالث لهما: إما السجن وإما الرسائل.

- لا أعتقد أن للرسائل علاقة. فهي ليست بهذه القيمة.

- هل تظن أنه سيطول بقاؤنا في هذا المكان؟

- هذا يتعلق بالغاية من احتجازنا كما قال سيد الغربان.

- إحتجازنا! هذه عملية خطف.. نحن يا فايز مخطوفان!

- ونحن أيضاً صحفيان!

- وسيكون لاختطافنا ضجة إعلامية. وشرقت سحر عند هذه الكلمة بدموعها. وراحت تهذي:

- يا مسكين يا أنور! ما أشقاك ساعة تعلم باختطافي؟ أي مرارات تشربها الآن! ماذا ستعمل؟ هاني في دنيا البؤس والشقاء.. ومحبوبتك سحر مخطوفة. يا لتعس حظك وسواد يومك يا أنور.

وبينما سحر تكفكف دموعها بورقة كلينكس من علبة وجدتها على الطاولة البلاستيكية البيضاء.. راح فايز يستكشف المكان. وألقى نظرةً من النافذة الحديدية المشرفة على الوادي:

- المشهد ساحر في هذا الجبل.. والثلج لا يرى من هنا. أعتقد أننا في أعالي المتن أو أعالي كسروان. المبنى مغشىً بالحجر الصخري الطبيعي.. أدير هذا أم قلعة؟ قصر أم فيلا كبيرة؟ لا أدري. ترى أين الحمام؟ أوه.. يبدو

لدينا هنا حمام بدوشين وبانيو.. مغسلة داخلية وواحدة خارجية وكيتشينات. هذا يشبه الفنادق الفاخرة. قد نكون يا سحر في ضيافة أحد رجال السياسة أو الأعمال البارزين في البلد. وفتح الخزانة:

- ما هذا؟! قال بدهشة.

- ماذا هناك؟ سألت سحر.

- يوجد هنا أكسية رجالية وفساتين نسائية.. وأيضاً مناشف. أيعني لك هذا شيئاً؟

- وجهاز أنترفون هنا. بقاؤنا في هذا المنفى طويل! هذه الغرفة خاصة بالضيوف. كم الساعة الآن؟ بدأت أجوع.

- إنها الثالثة بعد الظهر.

- إذا كانت الغرفة فخمة هكذا فلا مشكلة مع الطعام. يوجد CD كاسيت هنا.. وشاشة مبسطة على الجدار، لن نشعر بالوحشة.

- أديري التلفزيون إذن.. ونسمع خبر اختطافنا. قال فايز.

أدارت التلفزيون.. وجلست على الكنبة قرب النافذة الوحيدة.. والمطلة على انحدار عميق لامتناه نحو الوادي البعيد.. تنظر إلى التلفاز حيناً وإلى الوادي أحايين أخرى. وجلس فايز على سريره المغطى بشرشف حرير ناعم وإحرام من الصوف الكثيف، قبالتها، وقال:

- قد نبقى أياماً.. من يدري؟

- أرجو أن نبقى سالمين.

- هذه الضيافة الفاخرة والرياش الثمين لا يوحي بأن خاطفينا يريدون بنا شراً.

- الصحافي يدفع دائماً ثمن قوله الحقيقة.. وغالياً جداً. وتاريخ هذا البلد مليء بالصحافيين الشهداء.

- هذا إذا كان احتجازنا له علاقة بعملنا كصحافيين، لا سمح الله.

وراحا يتناوشان في الكلام لدقائق.. ثم يصمتان دقائق في ذهول وريبة من نية الخاطفين وغايتهم. قال فايز:

- جسدي متعب.. سآخذ دوشاً.. ما رأيك؟

- ما أفضى بالك! ألا تشعر بالقلق؟ ألا ترى الخطر يحيق بنا؟ إذا كنت تعباً نم قليلاً. وعندما تتوضح لنا الأمور نقرر ماذا نعمل.

- حاضر يا ستي كما تشائين. سأنام الآن.

ولم ينه كلمته حتى سمعا صوت جلبة وكلاماً خارج الغرفة.. وخشخشة قفل الباب.. ودفع الباب وبرزت منه امرأة أربعينية تحمل طبق الطعام، ووراءها الرجلان الأسودان.

- ضعي الطعام على الطاولة واذهبي يا هناء. قال الرجل الأصلع حليق الذقن.. والنظارات السوداء تخفيان ملامح وجهه. وأنت فرغ حمولتك في البراد قرب الخزانة هنا. وخرجت هناء من الغرفة. وتابع الكلام بعد أن تأكد أنها غادرت وهو يضع ورقةً على الطاولة قرب صينية الطعام:

- لا أريد أسئلةً. سأوضح كل شيء. لن يلحق بكما أذىً هذا مؤكد. زمن بقائكما هنا غير محدد بعد. أنتما لستما الغاية بل وسيلة. مواعيد الطعام على الورقة هنا. إستخدما الحمام.. في الخزانة ملابس رجالية ونسائية.. في البراد حلاوين ويمكنكما استخدام الكيتشينات للقهوة والشاي والنسكافيه.. إلخ، والجلي عليكما. هنا الإنترفون تضغط على الصفر في حالات الطوارئ فقط.

لا خروج من الغرفة البتة، والباب مقفل بقفل حديدي من الخارج.. وهناك حارسان يحملان السلاح يتناوبان في الردهة.. وحارسان أيضاً عند المدخل الخارجي. وأجهزة الإنذار والكاميرات في المماشي والردهات وفي الباحة والحدائق وملاعب الرياضة وكل مكان، حتى فوق الجلال إلى الوادي. إذاً فالفرار مستحيل، ونحن في الجرود النائية، ولا تستطيعان أن تسبقا الكلاب القوية الشرسة. سيطلق سراحكما حالما تنتهي المهمة. هذا هو كل شيء حتى الآن. في حال كان هناك جديد يجب أن يقال سنقوله في حينه.

– هل نحن في ضيافة رجل سياسة أو رجل أعمال؟

– أنت تكثر من الأسئلة يا هذا. ألست جائعاً؟ قال الرجل بعبسة مخيفة.

– بلى.

– إذاً أغلق فمك بالأكل ووفر الأسئلة لمقابلاتك الصحفية التافهة. كم أنتم ثرثارون أيها الصحافيون! قال هذا وخرجا. وسمع فايز وسحر خشخشة القفل، وعبارة «إبدأ أنت في الحراسة هنا» ثم وقع الأقدام تتلاشى. ووثب فايز إلى طبق الطعام حيث شنفت أنفه رائحة الرز الساخن واللحمة ومعها السلطة واللبن والخبز المقطع شرائح.. مع صحن كبير من الكبيس واثنين من المشروب الغازي.

– هيا.. ما بك.. قومي كلي شيئاً.. ولو قليلاً. المعدة الفارغة تزيد من التوتر.

وقامت سحر وجلست على الطاولة وأكلت اللبن مع الخبز. وراحا يتجاذبان أطراف الحديث:

– لا أستطيع أن آكل الرز واللحم. عقلي وقلبي في مكان آخر. نحن أسرة سيئة الحظ. قلبي يتمزق على أنور.

- آآ..! تذكرت الآن. لقد أخبرتني مرةً عن السجين.. ناجي.. هل اسمه ناجي؟ سأل فايز لكي يشغلها عن التفكير بأبيها.

- لماذا ذهب فكرك إلى ناجي الآن؟

- لقد خطفك موضوع السجن يا سحر حتى صرت سجينةً أنت الأخرى. حدثيني عنه قليلاً.. لن نقضي الوقت صامتين.. فالوقت على حسابنا للكلام. أم أنك ستبقين هكذا «مبوزه»[1] كل الوقت؟

- معك حق. الوقت هنا مناسب للكلام. وسأفجر الآن أمامك قنبلة قد لا تستوعبها للوهلة الأولى.

- قلبي يغلي لمعرفة سر هذا السجين. هيا تابعي. قال هذا وهو يلتهم الرز واللحمه بشهية.

- ناجي العرم سجين حكم ظلماً لعشرين عاماً وهو لم يقتل زوجته. ولكن من هي زوجته؟!

- ومن هي زوجته يا سحر؟ سأل ناجي بإلحاح.

- إنها.. إنها أمي.

- ماذا تقولين يا سحر؟! ولاحظت سحر لون وجه فايز يتغير. بدا له أن سحر في نوبة هلوسة لاضطرابها الشديد.

- قلت لك لن تستوعب ما أقول بسهولة. أنور سالم أبي هو أخوها، وأنا ربيبة خالي الذي تبناني منذ مقتلها.

- سحر.. حبيبتي.. أنت تهذين. أقترح عليك أن تأخذي دوشاً وتنامين الآن. هيا قومي إلى الحمام. بيد أن سحر تابعت الكلام:

(1) أي عابسة حزينة بالمحكية.

- ومنذ أيام عرفت أن والدي الحقيقي مجرم كبير وهو في السجن المركزي الآن. وباختصار يا فايز أمي قتلها مجهول منذ ولادتي ووالدي تخلى عني.. فتبناني خالي وأعطاني اسمها حفاظاً على ذكراها.

- وناجي السجين المظلوم؟ سأل فايز، جاحظ العينين مذهولاً، يتأمل سحر وهي تتمتم الكلمات والشحوب كحّل جفونها.

- ناجي هو زوج أمي الشرعي.. ولكن ليس والدي.

- ولكن.. لماذا لم تخبريني بكل هذه الحقائق؟ لماذا تبوحين بها الآن؟

- لسبب وجود ناجي العرم عن طريق الصدفة في حياتي. لو لم أتعرف إليه في ساحة «بريحان» في إحدى التظاهرات لكنت الآن باقيةً ابنة أنور سالم.. ولا زالت الحياة تسير سيرها الطبيعي.

ثم شرعت تروي له الحكاية من بدايتها... ومر الوقت ولم يشعرا به إلا وقد أعتم المكان حتى بالكاد بات يرى واحدهما الآخر. حملهما الكلام على بساطه في رحلة. تحدثا كثيراً.. وفي كل شيء.. وتعبا من الكلام. ثم كانت فسحة صمت طويلة. ولم تدر سحر بنفسها إلا واستلقت فوق سريرها في غفوة طويلة.. صحت بعدها على فايز يلكزها قائلاً:

- سحر.. سحر.. جاء الطعام.. إنه وقت العشاء.

******

وقف ناجي عند باب السيد أنور سالم في ذلك المساء العصيب.. حيث توالت المفاجآت عليه كما على سحر دفعة واحدة. وراح يفكر بسرعة. هل يقول له إن الخاطفين يريدون كراسة وليم عامر الخطيرة؟! هل يقول له إن اختطاف سحر وفايز للضغط عليه هو لكي يسرق الكراسة مقابل ثلاثين ألف

دولار كاش؟! لا! مستحيل! الرجل يحب سحر حباً عظيماً، وهو يعارض اهتمامها بموضوع السجن، وهو يرى في السجن عدواً لدوداً من نحو سحر. إن هو أخبره بحقيقة الخاطفين سيهدم ربما ما رممته الأقدار حتى الآن من علاقة بين الثلاثة. والرجل يريد الآن مؤنساً معزياً يقف إلى جانبه في محنته هذه ووحشته. مد ناجي يده يقرع الجرس وقد قر رأيه أن يبقى صامتاً. وكان قد لعب منذ أيام رهانه على المجهول.. على متغيرات ما يستفيد منها. وهو الآن باق على رهانه هذا.

– مساء الخير يا سيد أنور. قال ناجي والابتسامة اللطيفة المشرقة تلون وجنتيه.

– أهلاً يا ناجي، تفضل يا ابني، أدخل. أجاب أنور وهو يشد ناجي براحته إلى الداخل بحرارة. وأضاف:

– لا تقل لي إنك تناولت عشاءك. كنت أنتظرك وأنا جائع. هناك طعام كثير في البراد هيا سنتعشى معاً.. ووائل أيضاً.

– الحقيقة لم أتعشَ هذا المساء لأني.. لا أدري.. لم أشعر بالجوع قط. قال ناجي وهو يدخل ويجلس على الكنبة في غرفة الجلوس. وتابع الكلام وهو ينظر في أرجاء المكان.. كما ينظر المهندس إلى ورشة البناء من بعيد يرى تطورها وتغيراتها الهندسية:

– ها أنا أدخل بيتك ثانيةً منذ عشرين سنة. ألله يا زمن! كم هي الدنيا صغيرة! كأنها البارحة. هذه الشقة أجمل من هاتيك في ذلك الحي المكتظ الكئيب. لا زلت أذكر البيت هناك. وأنى لي أن أنسى؟ منذ متى تركت هناك؟ سأل ناجي.

– منذ تلك الأحداث السوداء واللعنة التي حلت فيه. أنت دخلت السجن

من هنا وأنا حزمت حقائبي وتركت الحي الذي كنت أشعر فيه أن كل عين وأذن ترى حركاتي وتسمع أفكاري. شعرت بأني في سجن.. فغادرت لأستريح من ألسنة الناس وفضوليتهم.

ثم دخل وائل وجاء وسلم على ناجي.

– وائل ابنك الثاني.. بلى.. أذكره طفلاً أحمله وألاعبه وأجلب له الشوكولا والبونبون. ما شاء الله! حفظه لك الله يا أنور.

– أتتعشى معنا يا وائل؟ سأل الوالد.

– لا لقد تعشيت باكراً. وقعد يتلهى بالحاسوب قبل أن ذهب إلى النوم.

– وأخيراً أخبرت سحر كل شيء. لقد قالت لي. كانت هذه كلمات أنور الخافتة لناجي.

– وهل كان بالامكان الاختباء بعد؟ السماء لها يد في كل هذا. أعرف.. عندك شكوك حول هوية قاتل سحر أختك.

– السنون غيرتني وغيرت تفكيري يا ناجي.. وما حدث منذ عشرين سنة ذهب مع العشرين سنة. أنا غفرت لك كما غفر لي سيدي.. وأحبك كما أحبني سيدي. لا معنى لأخلاقي المسيحية إذا كنت أحمل لك الضغينة في قلبي.

– ما أطمح إليه يا أنور.. أن أقدم لك الدليل القاطع لبراءتي.. وهذا شيء صعب بعد كل هذا العمر.

– لست مضطراً لتقديم أي دليل. قال هذا كاتماً أمر والد سحر الحقيقي المسجون في السجن المركزي ورسالته. الدليل لا يفيد شيئاً.. لا يقدم ولا يؤخر. الهامّ الآن هو عودة وسلامة سحر وزميلها فايز.

– أنا مقتنع يا أنور أن اختفاء سحر وفايز ليس غايةً بل وسيلة لغاية لا علاقة

لهما بها. حدسي ينبئني بهذا. قال ناجي هذا الكلام مطيباً خاطر أنور.. متجاهلاً الاتصال الذي تلقاه لتوه وهو في المصعد. وأضاف بسؤال:

- ولكنك كنت لجوجاً في موضوع التهديدات.. فما بالك لم تتصل بي بعدها. أم أنك مثلي أصابتك شجاعة بطوليّة؟

- أنا ما عدت أخشى شيئاً يا ناجي. وهل هناك أسوأ من اختفاء سحر؟ الجميع من حولي قدموا المساعدة.. راعي الكنيسة والإخوة، وأصدقاء سحر وزملاؤها. والصحيفة هي التي تتابع القضية مع المرجعيات الأمنية والقضائية. ليس أمامي غير الصلاة.. هي السلاح الوحيد الذي ساندني في شبابي، وها هو عكاز شيبتي وما صدئ يوماً أو نخره السوس ولا ختلني قط.

- وأنا كذلك لم تعد تعني لي التهديدات شيئاً.. لأنها لن تأتي بما هو أسوأ مما أنا فيه. أنت رجل مؤمن يا أنور.. أحسدك على تقواك. الدنيا ذئاب تتناهش.. وأنت لا زلت معتصماً بمبادئ دينية وأخلاقية يعتبرها الذوق الحديث موضةً لا تناسب العصر.

- الأخلاق والأدب والتدين ليست من صنع الإنسان من ذاته.. هي صدى عمل الله ومحبته فينا.. تماماً كمعرفتنا له.. إنها إعلان إلهي في ضمير ووجدان البشر.

- أنا أتفق معك في هذه.

- بكل بساطة.. خذ الكتاب المقدس الذي كتب منذ ألفي عام.. هو الآن يطبع بملايين النسخ وآلاف اللغات ويقرأ ويقدم في حلل جديدة مبتكرة.. وليس موضةً قديمة البتة! لأنه من صنع الله. الكنيسة قامت منذ ألفي عام.. وقامت ضدها ممالك جهنم.. سلاطين وأمبراطوريات وبدع وفلسفة والكنيسة

باقية لأنها من صنع الله. الشيطان يغير أساليبه من عصر لعصر. وأسلوبه في هذا العصر أن الإيمان بات عاجزاً عن مواكبة تحديات الحداثة.. وصار تراثاً.. والأفضل أن نضعه في متحف الأثريات حفاظاً منا على قدسيته..!! والأجدى أن نضعه في متحف قلوبنا حيث نحتفظ بأجمل الأشياء التي نحبها ونهواها.

- جئتك مؤاسياً ومعزياً.. فها أنت تلقي علي المواعظ!

- أنا أعبّر عن قناعاتي ومبادئي.

كان الرجلان جالسين إلى المائدة يتحادثان.. واقترح ناجي بعد انتهاء الطعام على أنور:

- وصل الشتاء إلى آخره، والمشي مقبول. أنا أهوى المشي. نتمشى قليلاً.. نهضّم.. ونشرب الشاي في حانة قريبة؟

- فكرة مقبولة.. فأنا لا أستطيع أن أنام باكراً في هذه الأيام.

وانتهيا من الطعام، وخرجا يتمشيان في الشارع الطويل الذي ينتهي بدوّار يتوسطه تمثال رمزي وسط بركة الماء. سارا على مهل. وكعادته أشعل ناجي سيكارةً وراح ينفث الدخان في الفضاء.. وأنور ينظر إليه بين الفينة والأخرى.. ويأخذ فسحةً من التفكير الصامت.. وعيناه على زاوية الشارع الطويل. وانتبه ناجي لغيبوباته.. فسأل:

- ما بك؟ فيم تفكر؟

- أتصدقني القول إذا سألتك؟

- أنت تعرف إذا كنت صادقاً.. خصوصاً معك.

- ماذا تريد من سحر بالتحديد؟

وصمت ناجي قليلاً.. وأخذ مجةً من سيكارته.. ونفث الدخان وقال:

– سؤالك صعب يا سيد أنور.

وأنا أفهم جيداً عمق محبتك لسحر، وحرصك عليها. وصدقني أني حاولت مراراً الابتعاد.. والظروف عادت وقربت بيننا.

– فارق السن كبير بينكما. قال أنور بجدية.

– قلت لها هذا فجاءتني بقصص الكتاب المقدس.. لتقول لي إنه عندما يجمع الله بين اثنين.. فدائماً طريقته غير متوقعة وغريبة.. وغير منطقية بالنسبة لتفكيرنا. طرق الله غير طرقنا. بهذا كانت تقنعني.

– ما هذا؟! حياة سحر مهددة وها أنت تكاد تطلب يدها مني!

– إهدأ يا أنور. أنت تسألني وأنا أجيب. أنا لست طامعاً في شيء.. ولا أريد الأمور بخلاف إرادتك ورضاك. أنت تعرف أني أحببت أختك حباً عظيماً.. وهي ظلمتني وذبحت شبابي. وخرجت من السجن ألملم شتات حياتي الضائعة في هذه الدنيا.. إذا كانت الدنيا أبقت لي نصيباً بعد. فوضعت السماء أبنة حبيبة زمان أمامي.. وهي تشبهها.. في القلب والقالب.. وفي قوة الشخصية والاندفاع والطموح.. ألا يعني لك هذا شيئاً؟ فأجاب أنور بهدوء وهو ينظر إلى الأرض:

– بلى. هذا يعني الكثير. تعال سنشرب الشاي في هذه الحانة ونتأمل الأنوار تتراقص حول الماء والتمثال.. إنها جميلة.

ونظر ناجي إلى البركة والأنوار التي تنبثق من الماء متراقصةً لتبرز التمثال بطريقة أكثر جمالاً:

– حقاً إن هذا التمثال يشبه وجودنا في هذا العالم. وهذه المياه المعتكرة تشبه آلام الحياة وتحدياتها. بيد أن الآلام تظهر تشكيلات وتلوينات تزيد

شخصياتنا رونقاً وبهاءً. شكراً لك يا أنور.. لقد تعلمت شيئاً في هذه الرحلة القصيرة.

جلسا في المقهى وراحا يشربان الشاي بصمت قلق. فرغت جعبتهما من الكلام. تواتر الأحداث أحياناً يشبه قطاراً بلا سائق يتجه بسرعة ولا أحد يستطيع إيقافه. كان أنور ينقل بصره بين وجه ناجي.. وخارج الزجاج حيث أضواء الشارع الطويل المعتم.. أضواء تشبه آمالاً تخبو في ظلمة نفق الحيرة والقلق. ثم قطع حبل الصمت كلمات لأنور خافتة.. ليست سؤالاً بقدر ما هي ارتباك مصيري عميق. ويبدو أن ما يقوله الآن أنور لم يخطر قط في بال ناجي:

– سيقول الناس أنور زوّج ابنته لقاتل أخته..! وكانت فسحة صمت رهيبة. وأجاب ناجي بحكمة:

– أنت رجل مؤمن يا أنور. وإرادة السماء أسمى حكمةً منا جميعاً. هي جرحت وهي تعصب. أنا لا أقحم نفسي ولا أريد الأشياء عنوةً.. أنا أنتظر شيئاً من فوق. وعندما تقول السماء كلمتها.. لا أنت ولا أنا ولا سحر نستطيع شيئاً. أنا أرى الحواجز الاجتماعية.. وأنا قلق وحذر بل وخائف.. ولا أدري ماذا يخبئ المستقبل.. أنا الآن في حالة انتظار.. وهذه تدربت عليها لعشرين سنة بحالها.

– ما تقوله صحيح يا أخي. أنا خائف أيضاً على مستقبل الفتاة التي أحببتها حباً يفوق الوصف. لا يمكنك أن تدرك ما سحر بالنسبة لي. أنا لدي وسيلة أخرى تساند الانتظار عندك وهي الصلاة. سحر ملتزمة دينياً يا ناجي.. هذه نقطة هامة جداً. ورفيق دربها في هذه الحياة ليس أمامه إلا أن يقف معها على أرض واحدة.

– أيضاً للسماء كلمة في هذه النقطة. أجاب ناجي بكل هدوء وحزم.

- هل تملك خطة ما؟!

- لقد أصبحت حياتي سيراً لا يد لي في توجيهه. لقد سبقتني سنوات عمري راكضةً ولم تسألني إلى أين هي راحلة. دروبي أنا رسمتها أصابع الله. وأشعر أن هناك خطةً ما لم تبح بها السماء بعد.

- مفاهيمك وقناعاتك إيمانية حقاً. هل تقرأ في الإنجيل؟ سأل أنور.

- ألا يكفي إنجيل الطبيعة.. إنجيل الكون؟ أنظر من حولك يا أنور.. كل شيء يؤكد وجود الصانع العظيم الحكيم.. ألله. وحياة الناس جميعاً تسير بحكمة وقدرة منه. لهذا أنا أنتظر صوت الأعالي.

وتسامرا لبعض الوقت.. وخرجا يسيران جنباً لجنب صامتين قلقين.. ولكنهما مؤمنين! كل على طريقته. أنور يريد السماء أن تقف إلى جانبه.. وكذلك ناجي يريد من السماء أن تؤيد انتظاراته ووحدته. كلاهما بات صفر اليدين حول إمكانية فعل أي شيء لإنقاذ سحر الغائبة.. وكلاهما يشعر بالخيبة والعجز.. وربما كلاهما أناني في محبته لها، ويريد من قوة السماء أن تنصفه هو.. ناسيين معاناة سحر الحقيقية. بيد أنهما تقاربا بسرعة بعد سنوات الفراق الطويلة. ويكادان يتفقان في كل شيء ما خلا نقطة واحدة.. سحر.. تماماً عندما يتبارى شاعرا زجل[1] فوق منبر واحد.. هما صديقان حميمان.. ولكنهما عدوان لدودان أثناء المبارزة. ووصلا إلى مدخل البناية.. عاد ناجي إلى منزله وصعد أنور. دخل أنور إلى البيت قلقاً مضطرباً.. وأوى إلى فراشه.. وجافاه النوم.. ترك فراشه وأتى ليشرب قليلاً من العصير.. وفجأةً يرن الموبايل.. فأتى لينظر في الرقم فإذا هو غير مألوف.. فتح الخط.. وسمع صوتاً أجشّ خافتاً عميقاً:

---

(1) المبارزة الشعرية بالمحكية اللبنانية.

- مساء الخير سيد أنور سالم.

- مساء الخير.. من المتكلم؟! سأل أنور بدهشة وارتباك.

- عدني أولاً ألّا تنفعل وتقفل الخط في وجهي. قال المتكلم.

- ليس من عاداتي التصرفات الرعناء.. تكلم.. من أنت؟

- أنا خالد إبراهيم والد سحر الحقيقي.. وأنا الآن نزيل في إحدى زنزانات «بريحان».

- أنت صاحب الرسالة إذاً. كيف عرفت رقمي؟ وتستطيع التواصل مع العالم خارج السجن بسهولة؟! إسمع يا هذا.. أنا بصدد أن أوكل محامياً لمواجهة نفاقك وادعائك الخبيث هذا.

- إذا كنت تريد أن تلجأ للقضاء فهذا خير ما أريد. فهكذا تنجلي الحقيقة كلها.

- أية حقيقة؟! أنت مخادع.. ماذا تخطط؟

- أن توكل محامياً كما قلت لي. أنت تعلم وناجي العرم يعلم وأنا أيضاً أن سحر الصغيرة هي ابنتي.. فلماذا التنكر للحقيقة. أنا سجين مدى الحياة هنا.. ولا أطالب بشيء.

- وما سر اتصالك المؤرق في نصف الليل هذا؟

- أنا أعرف كل شيء عن سحر وناجي منذ مدة. أريد أن أفعل شيئاً واحداً صالحاً في حياتي. الشاب بريء نظيف.. والفتاة عاشت كيتيمة.. فلا تقف حائلاً بينهما. أنا أعرف بماذا تفكر. أنا مستعد لأي شيء من خلال القضاء لتبييض صفحة ناجي.. تصريح.. إعلان.. وثيقة.. إعادة محاكمة.. تمييز.. أي شيء يراه القضاء مفيداً.

- أنت مدّع يا خالد. ها أنت تظهر بعد العشرين سنة.. وتدعي أنك والد الفتاة.. هذا جنون! هذا يحتاج لدليل قوي.

- عندي الدليل.. وإعادة المحاكمة كفيلة بجلاء الغموض كله في هذه القضية التي مطها الزمن عشرين عاماً.. وها هو الآن لن يرخيها من يده قبل الفراغ منها، وإراحة ضميره.

- أنت تتحدث عن الضمير؟!

- مم أنت خائف؟ قلت لك لا أريد شيئاً. سوى جلاء الحقيقة فقط.

- وما هو دليلك؟

- رسالة من سحر الوالدة إلي من بين رسائل كثيرة مزقت بعضاً منها. وهذه احتفظت بها للأيام.. وآن أوانها.

- وما أهمية الرسالة؟

- في الرسالة تحثني على أن نتزوج بسرعة لأنها حامل بمولود. وفي الرسالة تهديد أنها ستقتل الجنين إن أنا رفضت.

- أيها الشيطان.. لقد قتلت الأم والله أنقذ المولودة. كم أنت شرير! أين تهرب من عدالة الله؟! قالها بصوت عال غاضب.

- لن أرد على إهاناتك. ولكن يظهر أنك لم تقرأ الرسالة جيداً. فأنا أشرت إلى القاتل.

- وما هو الدليل أيضاً على أنك لست أنت القاتل؟

- القاتل مات في أحد السجون الأوروبية. ولديه معارف وأصدقاء. وهناك وثائق هامة. إعادة المحاكمة تظهر القاتل والوالد وتُرجع حياة ناجي بيضاء نظيفة.. ويصبح صهراً لائقاً بالمقام! قالها بنغمة تحمل معنىً.

– ولم أنت حريص عليه هذا الحرص كله؟

– صدقني يا سيد أنور. نصف أعمالنا الشاذة سببه نظرتكم السلبية إلينا. فإذا أتينا عملاً جيداً لا تصدقون.. وهذا يدفعنا لمزيد من الانحراف والجنون.

– أنت تطلب المحاكمة ثانيةً إذاً؟

– صدقني في إعادة المحاكمة مصلحة لجميعنا. ولدينا الدلائل لإقناع المحامين والقضاة.

– ما تقوله منطقي.. معقول.. ولكنه يحتاج لكثير من التأني والتفكير.

– رقمي أصبح على هاتفك.. أتمنى أن نتواصل. لخير الجميع. إستشر محاميك ولا تضيع الوقت. طاب مساؤك يا سيد أنور، وإلى اللقاء.

– إلى اللقاء.

وأقفل أنور الخط.. وخطفته أجنحة الفكر. «ماذا يحدث بعد هذه الأعوام الصامتة كسنوات يوسف السبع العجاف[1] وحسبتها تحللت هي ومصائبها في قبور النسيان؟ ما بها الأيام الآن كالقابلة تتسابق لإخراج حقيقة راحت تتغذى كالجنين في رحم الغيب حتى بات وشيكاً خروجها إلى الحياة؟ ها زوج سحر أختي الشرعي.. وعشيقها والد سحر جونيور.. وقاتل أختي.. يطلعون لي من مكمنهم كقطاع الطرق ليسرقوا مني الكنز الذي ذخرته قطعةً قطعةً لسنين طويلة.. والفتاة التي غذيتها من خمير محبتي وسهري ودموعي؟ يا إلهي.. ماذا أفعل؟ ساعدني لأسمع صوتك.. وأرى ما رتبت حكمتك الكاملة لمستقبل الفتاة». وهكذا انقضى ليل أنور بين صاح وغاف.. حتى دخلت أسراب خيوط الشمس إلى غرفته «عازمةً» نفسها على صبحية فنجان قهوة.

(1) سفر التكوين إصحاح 41.

وأما بالنسبة لناجي، فقد ذهب في اليوم التالي إلى عمله في السجن.. وفوجئ بالحشود المخيفة عند البوابة ترفع الشعارات والتنديدات المؤيدة لسحر، والرافضة لكم أفواه الحقيقة المنادية بالعدالة والتسامح والرحمة. كان الحشد صاخباً غاضباً ثائراً. وقد أعلن عن الاعتصامات والتظاهرات المفتوحة حتى إطلاق سراح الصحافيين سحر سالم وفايز العرب. وكانت دهشة ناجي عظيمةً! عندما صعد إلى المبنى الثالث في الجمعية ليكتشف على الشاشة أن تظاهرات شبيهةً زاحفة إلى أبواب ومداخل سجون البلاد كلها! وكلها احتجاجاً على اختفاء سحر.

وعاد مساءً إلى البيت متفكراً في كل التطورات الأخيرة.. وقد بلغ القلق والاضطراب كل مبلغ. شعر بالخوف الشديد على حياة سحر.. وخشي أن تصبح وقوداً لكل هذه النار المشبوبة في كل مكان. ولكنه يعرف يقيناً في قلبه أن سحر في أيدي عصابة الكراسة.. وليست في أيدي غاضبين حاقدين على أدائها الإعلامي. واستلقى ناجي على الكنبة وراح يفرك عينيه التعبتين ومسّد شعره إلى الوراء.. ثم قرع جرس الباب فجأةً! قام وفتح الباب.. فإذا رجل ذو شارب ونظارتي «رايبن».. ومض كالشبح إلى داخل الباب وشد الباب وراءه ساحباً إياه من يد ناجي.

– من أنت يا هذا كيف تجرؤ؟ سأل ناجي بغضب. وشعر بارتخاء في أعصابه، وبرودة في رؤوس أنامله. فأجابه الرجل وهو ينزع شاربه المستعار والنظارتين السوداوين:

– أنا هاني سالم.. أخو سحر سالم الصحافية المخطوفة.

******

17

في هذا هي المحبة، ليس أننا نحن أحببنا الله، بل أنه هو أحبنا،
وأرسل ابنه كفارةً لخطايانا.
رسالة يوحنا الأولى 10:4

لقد جافى النوم مقلتي سحر في تلك الليلة. إنها الليلة العاشرة والأخيرة. فايز وهي عصفوران أسيرا قفص ذي رياش فاخر ثمين.. في بقعة مجهولة من بقاع الدنيا النائية. كان المطر الربيعي اللطيف ينقر على زجاج النافذة الوحيدة للغرفة.. نقراً رتيباً متناغماً مع إيقاع دقات قلبها، فكأن الأمطار أنامل تعزف لحناً قلقاً على أوتار مشاعرها المضطربة. وزائرها الدائم الممل قلق ثقيل.. يأتي مع بزوغ الشمس ليلوّن الصباح الجميل بلون الغروب.. والغروب يزيده شحوباً ووحشة. الأفكار تقفز.. والتساؤلات تحلّق.. ولكن الإجابات سلحفاة بطيئة الخطى. كانت في هذه الأيام العشرة تراقب على التلفاز في الغرفة الزلزال الذي أحدثه اختفاؤها هي وفايز في البلد.. إنها ثورة إعلامية جماهيرية بامتياز! التحليلات والسجالات غربان فضولية تنعب على شاشات التلفزة. والاعتصامات حول السجون كأنها جيوش تحاصر القلاع المنيعة.

والشعارات نشابات تصوب إلى طريدة واحدة هي إطلاق سراح ملاك السجناء (سحر سالم). «إين نحن؟ من هو خاطفنا؟ ما هي غاياته؟ ما هي نهاية هذا النفق؟ وإلى متى باقيان رهينتي المجهول؟ وها هو المجهول الذي صات بنفيره من بعيد.. تجرأ ونفذ تهديداته». ولكن سحر صاحبة قضية.. لا تخشى جبروت المجهول.. في قلبها شجاعة داود أمام جُليات الجبّار[1] وصاحب القضية عنده من قوة العزيمة ليمسك بطينة المجهول هذا ويصنع منها الإناء الذي يشاء. لم تفقد سحر القوة.. ولو كانت طيراً في أسراب النساء تظهرهن الدموع ضعيفات.. «من الناحية التشريحية»، بيد أن بعضهن أوتين قوةً لصنع الرجال والتاريخ على حد سواء. راحت عدسة ذاكرتها تضيء «فلاش باك» على مشاهد وأحداث قريبة وبعيدة.. والصورة هي هي.. تتكرر في كل فصل. النوعية ذاتها وإنما الكثافة تختلف. حتى أن الذاكرة تعجز عن وضع تماس بين فقرة وأخرى، كالرواية التي لا عناوين ولا أرقام لها عند بداية كل فصل، أو كسجين أمضى زهاء عشرين عاماً في السجن يحاول أن يقسمها إلى مراحل فيعجز.. هي طابور.. طويل.. مخيف.. من الرتابة المتواصلة. وإذا كان موسم الطيب صالح[2] هجرةً إلى الشمال.. فموسم سحر هجرةً ورحيلًا دائماً من دمعة إلى كآبة ومن استفزاز إلى تحدّ ومن أنة إلى صراخ.. بيد أنه وثبة من ضعف إلى قوة أيضاً ومن عزم إلى انتصار. راحت الأشخاص تأتيها لتؤنس وحشتها في ذلك الصباح الرمادي.. وصوت نقرات المطر أقوى من صوت زقزقات العصافير: أصدقاء الطفولة.. صداقات مدرسة الأحد.. صداقات الجامعة.. الزملاء في العمل.. الراعي فوزي هليط.. ناجي العرم.. الوزير..

(1) سفر صموئيل الأول إصحاح 17 .
(2) روائي سوداني صاحب رواية (موسم الهجرة إلى الشمال).

أنور سالم والمأساة القلقة التي هو فيها الآن.. رسالة والدها الحقيقي من السجن.. رسائل بشير الغرامية لبربارة نيومن.. جماهير المتظاهرين.. أرواح طلعت إليها من عمق الوادي لتسكن وجدانها المرهق. وراحت تفكر في لغز الرسائل، والنهاية الغريبة التي ستنتهي إليها حكايتها. «ترى لماذا اختار هذا الصحافي الأميركي الغريب توماس شارف كنيسة الطفولة مخبأً لرسائله؟! ما علاقته بالكنيسة؟ هل هو صحافي؟ هل هذا الإنسان موجود أصلاً؟! ما هذه الدوامة يا إلهي؟!» الغرفة بدأت تضاء بلون الصباح في هذا الجبل البعيد. شعرت برغبة ملحة لأن تصلي وترفع صوتها أعلى من صوت المطر، بيد أن فايز لا زال نائماً، وشكرت الله أنه ليس من النوع الذي يشخر عالياً، وتستطيع أن ترفع صوت عواطفها وهدير أمانيها وعصف طموحاتها المتعبة إلى الله.. وفايز لا يشعر بشيء. كانت كل ليلة من هذه الليالي العشر تركع على ركبتيها.. مرفقاها فوق السرير وجبينها مسنود بقبضتيها البضتين والعينان مغمضتان.. بيد أن عيني إيمانها وعيني اليقظة الروحية المضطربة تجولان في كل مكان.. في الماضي والحاضر.. في الأرض والسماء.. في الأعداء والاصدقاء.. في السجناء والأحرار.. في الله وعلاقتها المتقطعة المشوشة به. إنها في ساعة ضعف.. الضعف الروحي. ومتى لم يكن الانسان في لحظة ضعف؟! شكرت الله أنها ضعيفة.. حتى لا تثق بالقوة الزمنية الناقصة.. وقوة الله كاملة لا يشوبها نقصان. راحت تصلي:

«سيدي وإلهي.. لم أحبك في حياتي كما يجب.. أو كما يليق بمحبتك لي. حبك لا خيانة فيه ولا هجران. أنا في قلبك وفي عقلك دائماً.. منذ الأزل وإلى الأبد.. كما كل ما صنعت يداك السخيتان. في الضيقِ والفرجِ.. في

بكائي وفي ضحكي.. في اليوم القاتم وفي اليوم المشرق.. أنت أنت معي.. والآن أنت حتماً ضيف هذه الغرفة تسمع ضجة دواخلي.. وتقدم لي التشجيع والعزاء.. وما تعطيه حقيقي لا زيف فيه. ودائماً لا نستحق البتة ما تعمل لنا. أنت لا تستطيع أن تكون غير منسجم مع ذاتك.. مع المحبة. إني أراك في آخر النفق تنتظرني.. فاتحاً ذراعيك ترشقني بزهور تهنئاتك. أصلي إليك يا رب لأجل والدي أن تبعد غراب القلق عن شباكه.. لتحط مكانه يمامة الصبر ونعمة الاحتمال. أصلي إليك لأجل ناجي لتمنحه الحكمة، وتقوي رجاءه، وتقوده إلى السلام الداخلي. أصلي إليك أيضاً لأجل أخي وائل ومستقبله، وأخي هاني الحبيب لتليّن حديد كبريائه.. وتغرس في عقله جرأة الرجوع إلى نفسه، وتنتهر العاصف العاتي المشبوب في ذاته، وتطيل أناتك عليه لفرصة ثانية لحياة أفضل.. هاني يا ربي أمانة خبأتُها في راحتيك.. ونقش نقشته فيهما. ومرةً ثانيةً أصلي إليك أن تبارك هذا الصباح.. وهذا اليوم المقبل إلينا.. هو رسول منك يا إلهي.. فحمّله من جودك زاداً لنا.. ومن الفرَج والخلاص.. وطمأنينة الروح.. وشكراً لك يا أرحم الراحمين.. آمين».

ثم جلست إلى الطاولة وشربت قليلاً من الماء.. وراحت تنظر إلى وجه فايز غارقاً في نوم عميق.. بدا مرتاح البال غير قلق لما هما فيه. غريب فايز! وجهه لطيف.. أطبق جفنيه كأنه يخبئ حلماً جميلاً. حقاً هناك جزء من البشر خصّهم الله بأنصبة من الألم أكثر من سواهم.. ليس دينونةً لهم.. بل ربما حباً بهم! وكما دواء الشفاء مر كذلك النقاوة ثمنها مرارة الصليب! وكانت لحظات هدوء وسكينة.. ما خلا نقرات المطر على زجاج النافذة. إقتربت سحر من الشباك لتتأمل في رقصات الأمطار على أوراق الشجرة القريبة.. ثم رفعت

بصرها إلى المطر الشفاف المتلاشي فوق الوادي البعيد.. وقد أخفى الجانب الثاني من الوادي. وأرادت أن تنظر إلى أسفل النافذة من الخارج ومدت رأسها.. ثم وضعت يدها على صدرها وهمست لنفسها: « أين تراك أنت الآن يا هاني؟ أين أنت أيها البطل الشجاع؟ في أي برية تسعى؟ في أي بقعة تكافح؟ في أي جبل تبني جبلاً من المغامرات والتحديات؟ كيف تأكل.. كيف تنام.. ماذا تراك تخطط ليومك هذا؟ وفجأةً! وبسرعة محترف خبير! وكما في الحلم.. هبط رجل من السماء في بركة خيالاتها الساكنة.. ومد يده ودفع النافذة عنوةً من الخارج.. وبأداة نارية في يده راح يقطع القضبان الحديدية برشاقة خرساء.. كالفيلم الصامت.. كأنه روح يخترق المادة. صرخت سحر: «فايز» ورجعت إلى الوراء واحتمت بفايز النائم.. وصارت تهز جسده كجرة اللبن ليستفيق. وسمعت جلبةً سريعةً خارج الباب.. واندفع الباب إلى الجدار.. ووثب منه كالنمر إلى وسط الغرفة رجل آخر مقنع يحمل مسدساً.. نزع قناعه وقال بنبرة رجولية واثقة، وصوت يرتجف من التعب:

– لا تخافي يا سحر. لا تصرخي. أنا أخوك هاني جئت لأنقاذك.

وبرز هاني في ملامح نارية.. حاد النظرات حليق الرأس.. ذقنه لم يمرّ عليها الموسى منذ أسبوع. بدا في لباسه العسكري جندياً في عملية «كومندوس». السكين على خصره وكذلك الجُعَب، والحبل على صدره، وساعة عسكرية من الحجم الكبير في معصمه. لم ترَه سحر منذ زمن بعيد.. منذ زياراتها إلى السجن حيث كان لا زال طفلاً في الجريمة. وأما الآن فهو رجل قائد مقدام.. يشبه أبطال الملاحم والأساطير.. لا يصنع الجريمة لضيق ذات اليد.. بل تحدياً للدولة، وعبثية أدائها الإداري. وذعرت الفتاة ذعراً شديداً.. وتكومت

على نفسها فوق سرير فايز.. وراحت تفرك عينيها ثانية وظنت نفسها تحلم.. وراحت تطوف ببصرها في كل شيء حولها لتتحقق من عالم الحقيقة:

– لا زلت نائمة يا سحر! هذا حلم مزعج. هيا استفيقي. إنهض يا فايز. قالت سحر.

– أنت في عالم الواقع يا سحر. أنا حقيقة.. والآن أكثر من حقيقة. لأني أنقذ أختي سحر من يد العدو. هيا سننطلق بسرعة. دقيقة تأخير تكلفنا غالياً. قال هاني واقترب منها وأمسك ذراعها.. وفايز يتثاءب وينظر من حوله، ويسأل:

– ماذا يجري يا سحر؟ من هذا؟

– هذا أخي هاني يا فايز.. جاء لإنقاذنا.

– ماذا؟؟!! هاني!! كيف اقتحمت هذا المكان المحصن؟! سأل فايز بدهشة.

– لا وقت الآن للأسئلة.. هيا.. لا تضيعا الوقت. سيجرّكما وديع بالحبل إلى التيرّاس من فوق. النافذة ليست عالية.. أمتار قليلة وتصبحان على سطح التيراس.

– ولماذا لا نخرج من حيث أتيت أنت؟ سألت سحر وقد أذعنت لما يجري.

– لا.. لا زال هناك حراس لم يكتشفوا هذا الاقتحام بعد. عملية سطو هذه نقوم بها، وحملتُنا عصفوران بحجر واحد. هيا يا وديع إسحب سحر أولاً. إقتربي عندي لك مفاجأة خارج هذا المكان. ولم يترك لها مجالاً لتفكير أو سؤال.

ثم ربط وديع السيور حول جذع سحر، وأخرجها من القضبان المقطوعة،

وشد الحبل إلى أسفل فسحبها الحبل إلى أعلى بخفة ورشاقة. ثم اقترب وديع من فايز. فسأله فايز:

- أنخرج هكذا بلباس النوم؟

- هيا بسرعة لا تضيع الوقت... خذ هذا لباسك ولباس سحر تلبسان في السيارة. ورُبط فايز بالسيور وسُحب إلى السطح. وألفى كل من سحر وفايز نفسيهما في حالة حرجة ليست مريحة على التيرّاس.. فوق المكان الذي كانا فيه.. بلباس النوم مع رجلين وديع وكابي.. تحت المطر، فالتيراس غير مسقوف.. والتحفا بسترتيهما. سأل فايز:

- إلى أين الآن؟ هل سيطول الأمر؟

- هيا اتبعانا. أنتما بحمايتنا حتى نصل إلى السيارة التي تنتظرنا عند المنعطف في أول البلدة. سنركض في الجلال وبين الأشجار.. الطريق ليس صعباً. فامتثل فايز وسحر لإرادة وديع، وراح الأربعة يقفزون كالأرانب من جَلّ إلى آخر.. ويستريحون تحت الشجيرات بين الفينة والفينة.

- القصر مجهز بالكاميرات وأجهزة الإنذار.. كيف أقتحمتم المكان بلا ضجيج؟! سأل فايز عندما وصلا تحت شجرة.

- هذا أبسط شيء في مهنتنا. قطعنا «الإمّاية» التي تغذي القصر بالكهرباء. أجاب وديع.

- ولكن هناك بلا شك مولد الكهرباء في حال انقطاعها. اعترضت سحر.

- أيضاً تمت عملية تعطيل المولد أولاً.

- إذاً دخلتم وحراس المبنى عميان لا يرون شيئاً.

- ليس كلهم. فانقطاع الكهرباء يحدث جلبةً. كفى أسئلة. هيا بسرعة.

وعاد الأربعة يركضون في المروج والجلال حتى وصلوا إلى شجرة أخرى واستراحوا تحتها قليلاً.

- ولكن أين نحن بالضبط؟ سأل فايز وهو حاني الرأس إلى أسفل يلهث من التعب.

- في جرود جبيل. أجاب وديع.

- وهذا القصر الذي كنا في ضيافته.. لمن؟ سألت سحر.

- قصر!! هذا مملكة بحالها. إنه لسعادة النائب ج.ج. أجاب أيضاً وديع. ويبقى كابي صامتاً. قلت لكما وفرا الكلام الآن. إذا ارتحتما سنتابع الركض. هيا. وانطلقوا في «سحبة» ركض أخرى حتى وصلوا إلى طريق ترابية ملساء سهلة ولكنها قليلة الوحول.

- ولكن كيف عرفتم بنا هنا؟! سألت سحر وهي تركض وكأنها تذكرت شيئاً هاماً فاتها. وأجاب أيضاً وديع:

- إصبري يا آنستي قليلاً بعد وتحصلين على كل الأجوبة التي تدور في رأسك.

وركضوا أيضاً حتى وصلوا إلى نهاية الدرب الترابي.. إلى الطريق الاسفلتي حيث سيارة الشفروليه كامارو المركونة نصفها فوق التراب والنصف الآخر فوق الطريق المعبد.

- إلى هذه السيارة أيها السادة ونستريح. قال وديع. واجلسي أنت يا سحر قرب السائق ونحن الثلاثة في المقعد الخلفي.

- ولكن أين أخي هاني؟! سألت سحر بخوف واضطراب.

- لا تخافي سيلحق بنا بعد الانتهاء من العملية.

وفتحت سحر باب السيارة لتجلس قرب السائق.. وشد ما كانت المفاجأة عظيمة! لم تصدق الفتاة ما رأت:

- ناجي؟! صرخت سحر. واقترب ناجي منها يأخذها بذراعيه وهو يقول:

- سحر.. حمداً لله على السلامة.. أنت وفايز. لقد خفت وقلقت عليك كثيراً يا سحر. وتعانقا بحرارة.. وراح ينظر واحدهما في عيني الآخر ولا يصدق ما يرى.

- هيا يا رجل.. إنطلق بسرعة بحسب الخطة.. ليس وقت الغراميات.. لا زلنا في خطر. وانطلق ناجي بالسيارة بسرعة.

- هذا ناجي السجين السابق الذي حدثتك عنه يا فايز. قالت سحر وهي تنظر إلى فايز.

- أهلاً سيد ناجي.. تشرفنا. ألا يوضح لنا أحد منكم ما يحدث هنا؟! سأل فايز.

- لا أستطيع أن أشرح بالتفصيل القصة كلها الآن. ولكن المستهدف من احتجازكما في قصر سعادة النائب ج.ج. هو العبد الحقير الذي يقود السيارة.. أنا.

- أنت؟!! صرخ فايز وسحر معاً.

- أجل.. أنا بكل تواضع. حاول بخطفكما أن يضغط علي لكي أسلم له وثيقةً هامةً تدينه أمام القضاء. حكاية طويلة.

- ولكن منذ متى تعرف أخي هاني؟ سألت سحر.

- منذ أيام. والسبب أنت طبعاً. جاءني في الليل متنكراً.. ليسألني عنك وعن الجهة الخاطفة. ورسم هاني هذه الخطة. وقال لي إن سعادته من جملة

الأسماء على لائحته المستقبلية. الشباب سيتركوننا في مكان آمن ويرحلون.

- وأخي هاني؟

- سيقول لك هو ذلك في المكان الذي نحن نقصد إليه. ورن الموبايل مع وديع الذي كان جالساً بجانب فايز:

- إيه.. ماذا هناك يا هاني؟ هنا كل شيء على ما يرام.

- أعطني أختي لأكلمها. قال هاني على الخط.

- سحر طرأ تعديل على الخطة ولن أراك اليوم. حمداً لله على سلامتك. ناجي كان مفاجأة أليس كذلك؟ والمفاجأة الثانية سأخبرك إياها بعد أيام إنتظري اتصالاً مني. إلى اللقاء. أعطيني وديع.

وتحادث وديع مع هاني على الموبايل للحظات.. ثم أقفل الخط وقال وديع للجميع:

- عذراً أيها السادة.. حدث تعديل في الخطة. سننزلكم على أي طريق قريب من الساحل.. ونحن نعود بالسيارة من حيث أتينا. هذه أوامر القيادة. هيا يا ناجي أوقف السيارة في أقرب نقطة من الساحل، حيث بالامكان أخذ سيارة أجرة بسهولة. وهكذا كان. وركن ناجي السيارة الى جانب طريق مشرف على السهول الساحلية والبحر. ولبسا لباسهما بسرعة.. وترجلوا منها.. وانطلق بها وديع وكابي صعوداً عائدين نحو الجبال. والسماء باتت صافيةً مشرقة. فألفى الثلاثة فايز وسحر وناجي أنفسهم في قالب واحد مشدودين إلى قلب واحد.

- قد ننتظر ربع ساعة قبل أن تمر سيارة في هذا المكان. قال فايز.

- لا بأس.. ننتظر. الهامّ نحن في أمان. أجابت سحر.

- إلى أين تريدون الذهاب الآن؟ سأل ناجي.

- مكان واحد يفرض نفسه في عقلي. ونظرت إلى فايز نظرةً تحمل معنىً.

- أعتقد أني أعرف ما يجول في رأسك. «محبة الله»!

- سنذهب حالاً إلى الكنيسة. قالت سحر.

- الكنيسة؟! سأل ناجي مستهجناً الفكرة.

- أجل.. وستأتي أنت معنا أيضاً. لترى ما حكايتنا.

- هل تعلمين أن «الدنيي قايمي قاعدي» على اختفائكما» يا سحر؟ سأل ناجي. البلد ثائر بكامله.. الجماهير المعتصمة أمام السجون منذ عشرة أيام أربكت الحكومة. ألم تسمعي الأخبار؟! البلد يصبح ويُمسي على اسم الصحافيين المخطوفين.

- بلى سمعت كل شيء. وأتوقع أن تكون هذه الأيام العشرة خيراً للسجناء.

- الصحافة تنتظرك الآن في مكان ما، ولن تدعك ترتاحين البتة. الأفضل أن تذهبي إلى البيت ليرتاح بال أنور.. إن حياته منهارة خوفاً عليك.

- لن أذهب إلى البيت قبل أن أذهب إلى الكنيسة أولاً. أشعر برغبة ملحة قوية في الذهاب إلى الكنيسة الآن.. لم أطأ عتبة كنيستي منذ سنوات بعيدة. واليوم فرصة مناسبة جداً.. وسنعرف ما حكاية هذا الصحافي الأميركي الغريب توماس شارف ورسائل بشير وبربارة نيومن.

- عم تتحدثين يا سحر؟ سأل ناجي منزعجاً.

- إنه تحقيق صحفي هو الآخر. لن يطول الأمر وستأتي معنا. وبعدها تعود معي إلى البيت.

- هه! حظنا جيد. سيارة أجرة. قال فايز. حمداً لله. أعطني هاتفك يا ناجي

أريد أن أجري اتصالاً لو سمحت. هاتفي وهاتف سحر لا زالا في ضيافة سعادته. وأعطاه ناجي الهاتف دون أن يسأله شيئاً عن جهة الاتصال.

وقفت السيارة قربهم، وسأل ناجي:

- نريد تاكسي إلى المدينة مباشرةً.

- تكرم عيناك. هيا تفضلوا.. أهلاً وسهلاً.

ودخل الجميع إلى السيارة.. وانطلقت تدرج بهم على الطريق الساحلي باتجاه العاصمة. كان ناجي إلى جانب السائق.. وسحر وفايز في المقعد الخلفي. وراح السائق الأربعيني الشاب ينظر في المرآة أمامه إلى وجه سحر ثم يسبح في تفكير عميق. بيد أنه لم يجرؤ أن يسأل شيئاً. كان راديو السيارة يصدح بالأغاني الشعبية.. فأداره إلى إذاعة تبث الأخبار.. وإذا المذيع يقول كلاماً حبس أنفاس جميع ركاب السيارة: «نعم أعزائي المستمعين نعود ونتلو عليكم البيان الذي ألقاه الوزير منذ عشر دقائق في مؤتمره الصحفي، وهو رزمة من المقررات تختص بالسجون في البلد. وأهم ما جاء في هذا البيان: قرار وزاري بإنشاء وزارة خاصة للسجون. إنشاء وحدات وألوية خاصة لأمن السجون مدربة تدريبات خاصة.. وإعفاء الجيش وقوى الأمن الداخلي من مهمة أمن السجن. تسليم الصيانة في السجون إلى شركات القطاع الخاص. إنشاء المصالح الحرة داخل السجون حتى يعمل أو يتعلم السجين مهنةً في السجن. إلغاء العقوبات التالية: الإعدام والمؤبد والعشرين عاماً.. وأقصى عقوبة لا تتعدى العشر سنوات مع العمل على الجانب النفسي والاجتماعي عند السجين. إيقاف كل أشكال التعذيب والعنف الجسدي في الاستنطاق...» وسحر في السيارة تسمع وأنفاسها تتقطع.. والشهقات تتقطع.. والدموع

تنساب كالنهر فوق خديها.. وقلبها يكاد أن يتوقف عن الخفقان.. وينفجر من هول المفاجأة! بدأت تشك ثانيةً في كل ما يحدث معها وما تسمعه الآن على الراديو. هذه السلة من القرارات حلم طالما جاهدت وكافحت لأجله. وأنهى المذيع مضمون البيان الوزاري.. وشدت فايز بذراعيها.. وهي تبكي:

– فايز.. لقد نجحت يا فايز.. أم لا زلنا نائمين؟! هل تسمع ما أنا أسمع يا ناجي؟! هللويا.. شكراً لك يا رب.. ما أعظمك يا رب.. كم أنت كريم يا حبيبي.. وأخيراً استجيبت صلاتي.. إلهي عظّم العمل كثيراً. لقد أصبحت المستحيلات حقيقة! لقد طالبت بكل هذا في كل مكان.. في التلفزيون والمظاهرات والمقالات.. والحلم صار بياناً وزارياً!! قالت هذا وشرقت بدموعها.. صارت تهذي كالأطفال.. وتحدث نفسها بتمتمات حتى خاف فايز عليها من انهيار عصبي. فأعطاها «محرمة» وشد رأسها إلى كتفه وطيب خاطرها. وكان السائق ينظر إليها في المرآة مندهشاً من انفعالها الغريب.. وحده ناجي يدرك عمق الفرحة في قلبها. وقال السائق:

– عفواً يا آنسة.. هل أنت سحر سالم الإعلامية أم أنا مخطئ؟

– لا.. لست مخطئاً. أجابه ناجي.

– هذا يوم تاريخي يا فايز ألا ترى.. سأحتفل به في الجريدة والتلفزيون كأنه عرس من أعراس الوطن التاريخية. قالت سحر هذا وهي تكفكف دموعها بالمحرمة. وفايز ينظر في عينيها العسليتين الساحرتين.. رآهما في الدموع.. ورآهما في الابتهاج.. فإذا الحزن والكآبة لونان من مساحيق التبرج جعلا وجهها يشع سحراً وجاذبية. أدرك عميقاً في قلبه أن الفتاة تحصد الآن ثمرة كفاح سنوات.. وصحيح ما قاله أبو تمام أن الفرحة الكبرى لا تنال إلا فوق جسر من التعب والجهد والمثابرة.

- ألف مبروك يا سحر. أنت تستحقين أكثر من هذا بكثير. أتعابك لم تذهب أدراج الرياح. هذه ضغوط الاعتصامات اليومية العظيمة أمام سجون البلد كلها. مبروك لك وللسجناء ولنا جميعاً. قال ناجي.

- هنيئاً لك يا سحر. أضاف فايز.

وعاد السائق وسأل:

- أنت الإعلامية سحر سالم؟! يا للصدفة! البلد كله يضج لاختفائك. متى أطلق سراحك؟ من الذي خطفك؟

- منذ ساعة أطلق سراحي. وأما الجهة الخاطفة فهذه حكاية طويلة. دعك منها.

وغاصت السيارة في اكتظاظ المدينة. وكانت السماء مشرقةً منذ ربع ساعة.. وأما في العاصمة فعادت وتلبدت الغيوم فجأةً.. وراحت تمطر.

- هو الربيع.. مزيج من الشتاء والصيف.. لا هو الشتاء ولا هو الصيف. كما المزاج أحياناً لا ندري أنحن فرحون أم حزانى.. لا نقدر أن نحدد. ولكن هذه المرحلة الملتبسة هي بلا شك نقلة إما إلى الصيف أو إلى الشتاء. كان السائق يقول هذا الكلام.

- ماذا تقول أيها السائق؟ سألت سحر بدهشة. أهذا الكلام لك أم لسواك؟ إنه رائع.

- أنا أتكلم بما أفكر يا آنسة سحر. أم أن التفكير هو فقط لأصحاب الشهادات والمثقفين. نحن تعلمنا على يدي الحياة.. وليس في الكتب والمدارس. أنا سائق يا سيدتي العزيزة، والسائق يسمع كل يوم من أخبار الناس زبائنه العجب العجاب. لكل حكاية.. لكل مأساة.. ولكل نهاية سعيدة.

وقصص الناس علمتني الكثير الكثير. وها أنت اليوم قصة جديدة تضاف إلى دفتر يومياتي.

- وماذا تعلمت من قصتي؟ أنت لا تدري ما هي.

- بل أعرفها كلها. أنا رأيتك مراراً على التلفزيون. وشاهدت اندفاعك.. وجهادك.. وآمالك.. ووقوف الناس إلى جانبك. وكل هذا ألّف إكسير هذا البيان الذي سمعناه الآن. والدرس هو المثابرة والتصميم والعزيمة في الحياة. لأن الحياة تفسح في المجال دائماً للذين يعرفون ماذا يريدون. وهل هناك أعظم من هذا الدرس.

- كلامك حلو. من فضلك نريد أن نصل إلى كنيسة (محبة الله) في (البروجيّة).

- تكرم عيناك العسليتين الحلوتين. أنت تأمرين. هذا يوم سعدك، وكلنا مبتهجون معك.

وراحت السيارة تقترب من الكنيسة. تدخل في شارع وتخرج من زقاق.. والمطر الخفيف مروض لطيف لدقات قلب سحر في رقصه القلق الموقع.. شوقاً لما ينتظرها في الكنيسة. أمسكت يد فايز قربها ووضعتها على قلبها:

- هل تدري كم خفقةً يخفق قلبي في الدقيقة؟

- أشعر أن هذا اليوم هو أجمل أيام حياتك يا سحر. يبدو أن الأقدار جمعت الأشياء التي تحبينها.. وغلفتها بالمفاجآت.. وأهدتك إياها دفعةً واحدة في يوم واحد.

- أتظن أن هناك فعلاً رسائل بين بشير وبربارة نيومن؟

- أنا حائر مثلك يا سحر. وأنتظر بشوق لاكتشاف هذه الحلقة الأخيرة من هذا اللغز.

- أي بشير هذا الذي تتحدثان عنه؟ سأل ناجي.

- بشير الجميل الرئيس الراحل. أجابت سحر.

- بشير الجميل؟! سأل ناجي بدهشة. لم تخبريني بهذا الموضوع من قبل.

- كان هذا في الأساس موضوع فايز. وفجأةً تخلى عنه فايز ورمى الكرة في ملعبي. لقد تحمست للموضوع أكثر منه. بالمناسبة لدينا زيارة هامة جداً إلى السجن، سنقوم بها أنا وأنت وأنور قريباً.. هذا موضوع آخر لم أخبرك به أيضاً.

- وما علاقة الكنيسة ببشير الجميل؟ سأل ناجي ثانيةً.

- هذا ما سنعرفه الآن. قالت سحر. أجل هذا هو الشارع.. في آخره ونصعد لجهة اليمين.

ومرق الوقت.. بصمت. تعب الجميع من الكلام.. الترقب والحيرة والقلق أشباح ثلاثة ترافق سحر وناجي وفايز. واقتربت السيارة في هذا الزقاق شبه الجبلي.. المساكن قليلة متناثرة.. وكذلك الأشجار.. وتوقفت قرب بناء بسيط الهندسة من ثلاث طبقات. تشرف حديقته الخلفية إلى الجنوب على الوادي المنفتح على البحر، بناء كبير عن اليمين وآخر صغير لجهة الشمال.. وشجرتان تفصلان بين الأبنية الثلاثة. ولجهة الطريق الفرعي يطالعك الدرج العريض من خمس درجات.. ثم عمودان جانبيان مدوران يحملان المظلة الرخامية المقوسة فوق باب خشبي كبير مزخرف. واللافتة فوق المظلة (كنيسة محبة الله) سوداء بالخط الكوفي الحديث. ولونان فقط: الرمادي الغامق والرمادي الفاتح يزينان جدر واجهة المدخل. ترجل الثلاثة ووثبوا إلى تحت المظلة ليحتموا من المطر. وانطلقت السيارة.

- الله يا زمن! لا زلت كما أنت يا كنيستي. قالت سحر. منذ أكثر من سبع

سنوات لم آت إلى هذا المكان. هذه كنيسة الطفولة والمراهقة. هه.. نصف الباب مفتوح! أترى هناك من ينتظرنا؟

دخل الثلاثة ووقفوا عند باب المدخل ذاهلين.. صامتين! تطير أجنحة فكر كل واحد في اتجاه. فايز يراقب جيداً ملامح سحر، وسحر باتت شبه متأكدة أن موضوع الرسائل ما هو إلا ديباجة.. وقناع لشيء آخر، وناجي يثب بخواطره إلى نهاية علاقته بسحر، والقرار عصفورة حائرة بين عقله وعقل أنور. داخل الكنيسة الفسيح شبه مظلم.. والصمت متلصّص فضولي في زوايا القاعة.. نور قليل يحاول أن يتسلل من باب المدخل الرئيسي.. أو من نافذة عالية مفتوحة مع السقف.. والموسيقى الدراماتيكية المرافقة للمشهد إيقاعات المطر الهادئ في الخارج. لم يستطع أحد من الثلاثة أن ينبس ببنت شفة. نظر كل منهم في وجه رفيقه ينتظر أن يقوم هو أولاً بحركة. رأت سحر تحت المنبر الكبير فوق المنصة المنبر الصغير مغطىً بغطاء قماشي أبيض مذهب الأطراف، وأندفعت نحو المنبر الصغير بهدوء.. وتبعها فايز وناجي.. وصوت وقع الأقدام يزيد من رهبة الأجواء داخل القاعة. واقترب الثلاثة وتوقفوا على بعد خطوات من المنبر. تقدمت سحر وحدها حتى أصبحت فوق المنبر، وقرأت تطريزاً ذهبياً على الغطاء (رسائل محبة).. ثم نظرت إلى فايز وناجي وقالت بهدوء:

- مكتوب على الغطاء (رسائل محبة). ولم يجبها الرجلان بشيء.. وبقيا يراقبانها من بعيد صامتين. ثم مدت يدها وأزالت الغطاء.. فإذا الكتاب المقدس وعلى غلافه صليب ذهبي أيضاً.

- إنه الكتاب المقدس إذن. هذه هي رسائل المحبة. أما قلت لك يا فايز؟ قلبي أنبأني بهذا.. أجل عرفت هذا. كانت تتكلم ببطء كأنها تناجي نفسها.. لوحدها في صحن القاعة. ثم رفعت صوتها فجأةً ونادت:

– هيه.. ألا يوجد أحد هنا؟ وسكتت. فيما راح فايز وناجي يجيلان البصر في زوايا القاعة الفسيحة. ومرت دقيقة صمت. وفجأةً! وبكل هدوء خرج أنور سالم من باب جانبي وراء المنبر الكبير.. كأنه روح ملائكية اخترقت الجدر كما فعل المسيح عندما دخل إلى علـية التلاميذ والأبواب مغلقة[1]. شعر أبيض مسرح إلى الوراء.. والحلة بسيطة ذات لون فاتح.. والنور الضئيل طبع ظلالاً فوق تضاريس الوجه التعب. وقف مقابل سحر ينظر في عينيها ملياً، ثم قال ورنة الصوت الدافئة زادته هيبةً ووقاراً:

– أشكر الله من كل قلبي على سلامتك يا ابنتي. لقد أشقاني اختفاؤك يا سحر.. وسرق مني حياتي. واستطاعت سحر أن تقرأ في وجهه شوقاً وحناناً يثبان إليها ويعانقانها.

– أبي. أنت وراء كل هذا؟! صرخت سحر بدهشة وارتباك عظيمين.

– أنا و.. وفايز. لقد طلبت منه المساعدة. ونظرت هي إلى فايز بسرعة وانفعال نظرات اللوم والعتاب.. وأجاب هو بنظرة المنفذ المتنصل من المسؤولية.

– ليس هناك رسائل من بشير الجميل إلى بربارة نيومن إذن.. كما أحسست؟ قالت سحر.

– ليس هناك يا سحر رسائل حب من بشير إلى بربارة نيومن البتة[2].. هناك رسائل محبة عظيمة من الله إلى ابنته سحر سالم! تكلم أنور بهدوء.. نبرة صوته وسطوة الأفكار جذبتا حتى فايز وناجي.. لقد هزّهما هذا الحب

(1) إنجيل يوحنا 20.

(2) هذه الرسائل من ابتكار مخيلة الكاتب، ولا وجود لها البتة في الواقع. إنها عنصر من عناصر الحبكة القصصية لا أكثر.

الكبير في قلب أنور نحو هذه الفتاة المتقدة الذكاء. وشعرت هي أيضاً بالرغبة الآسرة لاحتضان أنور وتقبيله. وبدأت عيناها تترقرقان ثانيةً تحت وطأة الحيرة والذهول.. حقاً إن الحزن والفرح يتدفقان من نبعة واحدة! كم بكت في الماضي لأنها حزينة! وها هي اليوم تبكي كثيراً من الفرح الكثير. كان أنور يتحدث وتموجات صوته الدافئ تضفي على الكلام وقعاً مؤثراً:

«هل سمعت يا سحر يوماً بحكاية الأسقف مجد؟ مجد هو الحرف الأول من كلمة محبة: **الميم**. يحكى عن لص كبير معروف في أنحاء المدينة كلها.. جاء يوماً إلى المطرانية وطلب مقابلة الأسقف مجد. وقد أعلم الأسقف بأن من يريد مقابلته هو لص كبير. فحضر تواً إلى صالون الدير ورحب باللص قائلاً: «أهلاً وسهلاً بك يا صديقي». وأفصح اللص عن سبب الزيارة.. وهو أن لا مأوىً له ولا مأكل وقد قصد الأسقف لضيق ذات يده، وانسداد الأبواب في وجهه. وقبل الأسقف وقال له: «تصرف هنا كأنك في بيتك». وكان الأسقف معروفاً بحسن ضيافته ومحبته للغرباء. ومضى أسبوع على استقبال هذا اللص.. تعرف فيه أثناءها على الأواني الفضية والذهبية للكنيسة.. وما يُحفظ من تحف قيّمة نادرة. وذات ليلة وفيما الجميع نيام.. قام اللص وأتى على الأواني والتحف الثمينة ودسها في كيس كبير ولاذ بالفرار. ولم يطلع الصباح حتى ألقى الحراس القبض عليه. وبعد التفتيش والتدقيق عرف أن المسروقات تخص كنيسة المطرانية. فجاؤوا باللص والأواني إلى الأسقف، وسألوه: «هل هذه الأواني تخص كنيستك يا صاحب السيادة؟ » فأجاب الأسقف الحكيم: «طبعاً.. طبعاً.. ولكن هذا الرجل بريء! لأني عندما استقبلته في دار المطرانية قلت له تصرف كأنك في بيتك.. وهكذا أصبحت جميع الأواني وكل ما في

دار المطرانية له. فإذا كان قد أخذ هذه الأغراض القليلة فإنه قد ترك لنا أكثر من هذا بكثير». وذهل اللص من كلام الأسقف أيما ذهول.. وسجد أمامه يطلب المسامحة واضعاً نفسه في خدمته كل أيام حياته. **الميم** تعني المسامحة يا سحر.. هكذا الله سامحنا عن كل شرورنا نحوه.. مسامحة مجانية. والحكاية الثانية يا سحر هي حبيب إنه الحرف الثاني من كلمة محبة: **الحاء**. حبيب تاجر من زمن بيع العبيد في الأسواق بالمزاد العلني. وكان هناك مزايدة شديدة على فتاة في ريعان شبابها. وكان سعرها يرتفع باطراد. وأخيراً لم يبق سوى رجلين يتنافسان على امتلاكها، وهما مختلفان تماماً في كل شيء. هذا فظ سيئ الطباع عالي الصوت يصرخ ويتكبر، والآخر واسمه حبيب رجل وديع هادئ الملامح رقيق العاطفة. كان الأمر سباقاً بينهما. وبدا للجمهور أن كلا منهما مصر على امتلاك هذه الفتاة. وفي النهاية انتصر حبيب الوديع الهادئ فأعطوها له، ومنحوه الأوراق التي تثبت ملكيته لها. أما هي فلم تكن تملك سوى تعابير وجهها التي أظهرت كراهيتها وحقدها لمالكها الجديد. لكن فجأةً! تغيرت ملامح الفتاة ونظراتها.. وفي ثوان قليلة طبعت علامات الشك والعجب آثارها في عينيها. ماذا حدث؟! لقد فوجئت الفتاة بمالكها الجديد يمزق صك ملكيتها ناظراً إليها مبتسماً ابتسامته المشرقة العذبة قائلاً لها: «أنت منذ اللحظة حرّة وليس لأحد سلطان عليك بعد اليوم.. عزمت في قلبي أن أدفع الثمن لكي أمنحك الحرية». أذهلتها الصدمة. فراحت بابتهاج تنظر تارةً إليه وطوراً إلى الصك الممزق أمامها على الطاولة. وأخيراً جمعت شتات قواها وألقت بنفسها عند قدميه والدموع تنهمر من عينيها قائلة: «سيدي.. أتبعك حيثما تمضي.. وأريد أن أخدمك طوال عمري لأني أحبك». ومحبة الله يا سحر دفعت ثمن

خطايانا في الصليب وأعتقتنا من سلطان الخطية والموت والظلمة. **الحاء** تعني الحرية. تلك هي الحرية الحقيقية يا سحر.. قد يكون الإنسان في السجن وهو حر الفكر والإيمان والرجاء.. وقد يكون خارج السجن وهو أسير ذاته وكبريائه.. والعقيدة المظلمة.. وشهوة الانتقام والمال والنجاسة والعنصرية والمجد الباطل وأوثان الدنيا كلها.. وعداوة الله. الناس في كل مكان مقيدون أسرى وعبيد.. مسبيون لإرادة الشيطان.. وهل هناك سجن أعظم من هذا؟ ثم الحكاية الثالثة هي بدر إنه الحرف الثالث من كلمة محبة: **الباء**. كان بدر...»

كان لكلمات أنور وقع مهيب على الثلاثة.. صوته وصوت المطر في الخارج والنور الضئيل في وسط القاعة لمسات ريشة فنان جملت لوحة الكلام.. الهيبة والوقار جعلا سحر تقبل الكلام كصوت لها من السماء. كان يعظ أنور في الكنيسة.. بيد أنه الآن يتحدث بروح.. ضابط إيقاع كلماته روحٌ من فوق، وبمحبة عانت الشقاء لسنوات طويلة من كونها محبة! قدّر للحب أن يحمل صليبه دائماً على درب الجلجلة. أما حمل رب المجد صليبه وسار الجلجلة.. فقط.. لأنه صورة وذات وجوهر المحبة؟ كان أنور يقدم عواطف صادقة في ما يقول. الكلام هنا غير كلام الخطباء والوعاظ الذين يرفعون الصوت وتهاويل الأيدي تهديداً ووعيداً.. ترهيباً وترغيباً.. لا! إن الكلمة المقولة بمحبة تفعل ما يفعله مقص المزارع بهدوء ولطف في تشذيب الغصون وورق الشجر. كان يتكلم مع فسحة زمنية بين الكلمة والكلمة ليعطي السامع فرصةً للتفكير عميقاً. ونظرت سحر في وجه ناجي وبادلها هو النظرات.. كأنهما على موعد سماوي.. هي تنتظر إعلاناً من السماء وهو كذلك! ومضمون رسالة النظرات هذه بينهما «أترى هذه هي الكلمة المنتظرة لكلينا؟!» وهل هناك كلمة من

السماء غير الكلمة المستوحاة من الكتاب المقدس؟ وتابع أنور الكلام:

«كان بدر رجلاً ثرياً من أثرياء الشرق القديم.. يملك المال والذهب والقصور والقرى والعقارات الكثيرة.. بيد أنه كان إنساناً صالحاً محبوباً محباً للناس، ويصنع خيراً إلى من هم في حاجة. وكان لبدر ابن وحيد هو هبة السماء إليه. ولكن بدراً تبنى ولداً آخر من أحد المياتم في بلاده ذهب هو واختاره بنفسه.. وأحبه محبة نفسه ووحيده. وأعطاه اسمه وعطفه وحنانه ورباه كما ربى وحيده بالمساواة ذاتها. وكبر الولدان كأخوين. ولعب الشيطان في قلب الابن المتبنى وجنح نحو الرذيلة، وحاول الرجل بدر إصلاحه ففشل. وذات يوم.. جاء الولد المتبنى ليلاً إلى الخزينة الكبيرة في القصر.. وراح يعالجها حتى فتحها يريد أن يسرقها ويرحل ليعيش في الترف والمجون. وفيما هو يمد يده الى المال اكتشف صدفةً أوراقاً هامة لأبيه في ملف كتب على غلافه «سري للغاية»! وفتش في الأوراق.. فإذا هو قد حضر وصيته وقسم ثروته بالمناصفة بينه وبين أخيه.. وفي الأوراق أيضاً وثيقة تفيد أنه ابن متبنى. خجل من نفسه وعاد إلى رشده.. وأعاد كل شيء إلى مكانه. وفي اليوم التالي.. جاء واعترف بعملته هذه أمام أبيه واعتذر، ووعده بأن يعيش حياةً صالحة شريفة في خدمة أبيه. وهكذا نحن البشر كنا أولاد الغضب الإلهي والخطيئة والدينونة العتيدة.. حتى جاءت محبة الله وتبنتنا.. ودفعت ثمن وثيقة التبني دماءً زكيةً على صليب الفداء.. فصرنا أولاد المجد العتيد أولاد السماء أولاد الله بعمل الروح في قلوبنا. **الباء** تعني البنوة. نحن أبناء المحبة السماوية يا سحر. وتأتي الحكاية الرابعة والأخيرة وهي توفيق إنه الحرف الرابع من كلمة محبة: **التاء**. توفيق.. أسطورة عن أمير عظيم من أمراء الزمان الذين صنعوا التاريخ ونهضوا

بشعوبهم، وأمنوا لهم سعة العيش والأمان وطيب الجوار مع الممالك القريبة. كان محبوباً جداً من جماهير شعبه. بيد أن ضعفاً جسدياً فيه بارز للجميع.. كان حاني الظهر لا يقوى على الانتصاب والوقوف مستقيماً كالإنسان الطبيعي.. إنها عاهة منذ ولادته. ولكن الشعب الذي كان يحبه كثيراً، لكي يعبر له عن محبته، عمل له تمثالاً رائعاً يظهر فيه بلا عاهته واقفاً منتصباً كما يقف القادة الأبطال بعنفوان وشموخ وبيده سيف عظيم. كان التمثال ساحراً صنعه أحد أشهر النحاتين في البلاد كلها. ووضعوا التمثال في الساحة مقابل شرفة قصر الأمير مباشرةً، حتى يراها كل يوم، صباحاً ومساءً. وتقول الاسطورة إن الأمير أحب هذا التمثال جداً.. وبات ينظر إليه كثيراً ويتمنى لو كان مثل هذا القوام المنتصب الجذاب. ولكثرة تمنياته وأحلامه وتأملاته الطويلة بهذا التمثال.. شفي فجأةً من عاهته وأصبح يستطيع الوقوف منتصباً. يبدو أنه لكثرة النظر والتأمل في هذا النموذج الكامل صار هو نفسه كاملاً أيضاً. التاء هي التلمذة والتقديس.. والتلميذ يتشبه بمعلمه. أتذكرين الكلام (...فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه...)[1] صورة الرب يسوع المسيح هي المثال الذي يجب التأمل فيه كثيراً والتشبه به.. لكي نصير تلاميذ مقدسين أصحاء كاملين...» نشبه هذا المثال الكامل. (والثابت فيه.. ينبغي أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضاً)[2].

توقف أنور عن الكلام. ومرت دقيقة صمت. كانت أثناءها سحر تنظر إلى وجه أنور وتمد يدها إلى خدها ماسحةً دمعتها بين الفينة والأخرى. أما فايز وناجي فقد جلس كل منهما على يمين الممر الوسطي وشماله وهما

(1) رسالة بولس الرسول إلى رومية 8: 29.

(2) رسالة يوحنا الأولى 2: 6.

ينظران إلى أسفل، يفكران في هذا الرجل الممتلئ من الإيمان.. يحب ربيبته بطريقة تختلف عن محبة الناس لأولادهم. فالناس يأتون لأولادهم بالمسرات والمبهجات الزمنية، ويذخرون الأموال ويعملون المستحيل لإيصالهم إلى الحياة العالية المرفهة. وهذا الإنسان أنور يعمل المستحيل لإيصال ابنته إلى التي لا ترى وليس التي ترى.. إلى الروحي وليس الزمني.. العتيد وليس الحاضر.. الباقي وليس الزائل.. إلى الأبدي وليس الفاني! لأن أنور يدرك عميقاً أن مباهج الدنيا تشبه لعبة الطفل الذي لم ينم وينضج بعد كفاية ليفهم حقيقة الحياة. نوع من المحبة الأبوية لم يره فايز ولا ناجي من ذي قبل.

- أنت رتبت كل هذه الحكاية يا أبي؟ سألت سحر بنغمة المعاتب المنكسر.

- أردت أن أقول لك إن الله يحبك يا سحر.. بطريقة جديدة تنسجم مع عملك وأهوائك. وأردت أن أقول لك إن أباك الأرضي يحبك هو أيضاً بدوره. إني أذكرك بما تعرفينه من زمان وبات تأثيره باهتاً في قلبك اليوم. محبة الله هي المسامحة يا سحر (...أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا)[1] ومحبة الله هي الحرية (فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً)[2] ومحبة الله هي البنوة (وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه)[3] ثم أخيراً محبة الله هي التقديس أي النمو في حياة القداسة (لأن هذه هي إرادة الله قداستكم...)[4] أرأيت كم هي عظيمة محبة الله؟ لقد غفر لنا خطايانا وحررنا من سلطان الظلام ووهبنا أبوته المجانية.. وهو يعمل

---

(1) رسالة كولوسي 2: 13.
(2) إنجيل يوحنا 8: 36.
(3) إنجيل يوحنا 1: 12.
(4) رسالة 1 تسالونيكي 4: 3.

ليل نهار بروح قدسه لأجل قداستنا ونضوجنا الروحي، ألا يستحق منا حياةً تمجده.. وتشكر له جميله العظيم هذا؟» وألقت سحر بنفسها عند هذه الكلمة فوق صدر أبيها.. ولفت ذراعيها حول عنقه وراحت تقبله بحرارة وهي شبه هاذية:

– بلى.. بلى يا أبي.. يستحق منا الطاعة والقداسة والولاء والحياة التي تمجده وكل شيء.. يا أعظم وأجمل آباء الدنيا.

– إشتقت إليك كثيراً يا ابنتي. عشرة أيام كأنها عشر سنوات! لقد بكيت كثيراً.. وقلقت عليك.. وصليت.. وها صلاتي اليوم مستجابة.

– وأنا أيضاً اشتقت إليك كثيراً يا أبي. أدركت عميقاً كم هو عظيم وجودك في حياتي. أنت كنزي.. وأنت هدية السماء إلي في هذا العالم.. لولاك لكانت حياتي ربما في بقعة شقاء وبؤس مخيف. أنت أخذتني من الظلمة وأعطيتني اسمك وقدمت تضحياتك وأوصلتني إلى ما أنا عليه الآن. أعدك ألا يبعّد بيننا غير الموت. يا حبيب قلب سحر ونور عيني سحر.. يا شيخ الشباب أنت يا أنور.

– يا حبيبتي يا ابنتي. دعيني أشبع من عناقك.. ومن رائحة شعرك الكستنائي الجميل.. فهو دواء وحشتي وقلقي.. وأنت واحة جميلة في صحراء غربتي.. وشيخوختي.. ووادي الدموع هذا.

– ولكن كيف عرفت بإطلاق سراحنا في هذا اليوم؟ سألت سحر ورأسها على صدره.

– لقد أرسل لي فايز رسالةً منذ نصف ساعة من هاتف ناجي.

– هكذا إذاً. طبختك أنت وفايز من البداية إلى النهاية.

– بلى. أليست طبخةً طيبةً؟ إنتظري لم أضع فوقها الملح والبهار بعد.

- أهناك مفاجآت أيضاً؟

ودام عناقهما دقائق. ونظر كل من فايز وناجي واحدهما إلى الآخر. وسارا إلى مدخل الكنيسة الخلفي، وما إن وصلا إلى الباب سمعا صوت أنور:

- ناجي.. من فضلك عد قليلاً. كل ما قلته الآن ليس فقط لسحر بل هو موجه أيضاً لك ولفايز. أنتما معنيان ومسؤولان أمام كل ما قلته الآن.

وعاد ناجي إلى صحن القاعة.. واقترب من سحر وأنور المتعانقين. فأخذ أنور يد ناجي ويد سحر وضمهما بين راحتيه واحدةً من فوق والأخرى من تحت. وقال:

- ها أنا الآن آخذ وظيفة خادم هذه الكنيسة. لن يسامحني الراعي فوزي هليط إلى الأبد. ولكنها فرصة مناسبة جداً لكي أمنح بركتي وموافقتي هديةً لكما إذا كانت السماء تريد أن تجمعكما.. وقد قالت كلمتها وأقنعتني. هل عندك مانع يا أخي؟ وها هو فايز شاهد على هذا.

- وكلام الناس.. الناس لا يعرفون فاصلة واحدة عن هذه الحكاية الطويلة؟ سأل ناجي بدهشة.

- لدينا زيارة قريبة جداً إلى السجن أنا وأنت وسحر. وبعدها لكل حادث حديث.

- زيارة من في السجن؟ ألح ناجي أيضاً.

- زيارة والد سحر الحقيقي. أجاب أنور بلطف وهو ينظر في وجه ناجي تترقرق الدموع في عينيه من المفاجأة.

- بلى يا ناجي.. لقد قالت السماء كلمتها أخيراً.

وحضن الثلاثة واحدهم الآخر بقوة. وتمتم أنور كلمات بركته الواثقة.

- ليباركما الله يا ولدي الحبيبين.. ويهد قلب ولدي التائه أيضاً.

وبلع فايز غصته وأذعن لما تراه عيناه. فهو قد اطلع على فصول هذه القصة الغرامية الغريبة من فم سحر نفسها.. وها هو الآن يشاهد خاتمتها.

- هاني هو الذي أنقذنا اليوم يا أبي. قالت سحر ونظرت في عيني أنور تقرأ تأثير كلامها فيهما.

- أيضاً عرفت ذلك من رسالة فايز.

- وقال إن عنده لي مفاجأةً هامة. قالت سحر.

وبعد خمسة أيام.. وبينما كان ناجي منهمكاً في عمله في الجمعية.. دخل عليه السيد كميل قائلاً بابتسامة مشرقة:

- عندي لك خبر رائع. ألم تسمع الأخبار البارحة؟

- لا. ماذا هناك؟

- لقد أوقف سعادة النائب ج.ج. وهو الآن في التحقيق. لقد فعلت حسناً عندما أعطيتك الكراسة لتقرأها. وأنت كنت خير أمين وكاتم سر. أنا فخور بك يا ناجي. هذا إنجاز عظيم.

- نحن لم نفعل شيئاً صدقني. كله ترتيب من فوق. ألله يريد أن يظهر الحقيقة أخيراً.

وفيما هما يتحادثان رن هاتف ناجي وإذا سحر على الخط تتكلم والبهجة تجعل أنفاسها متقطعة:

- لقد سلم أخي هاني نفسه يا ناجي!

- حقاً! هذا رائع. سنوكل له أفضل المحامين.

– أنا أخذت وعداً من الوزير بالاهتمام بالقضية. تعال وتعشّ عندنا هذا المساء، نحن بانتظارك.

– حسناً.. سآتي.

******

قضية ناجي العرم مع والد سحر خالد إبراهيم ما عتمت أن انتهت بسرعة. أعيدت المحاكمة ونشر الإعلام جزءاً من التفاصيل. قدم خالد إبراهيم أدلته وبيناته أنه الوالد الحقيقي لسحر.. وأثبتت الوثائق أن قاتل سحر الكبيرة مات في أحد سجون ألمانيا منذ سنوات. فخرجت براءة ناجي إلى العلن كخروج جسد نصف حي من تحت الأنقاض! أعيدت إليه كرامته وبيض سجله القضائي. ثم تزوج من الصحافية سحر التي دفعته لفتح مكتب هندسة في العاصمة، فانطلقت حياته من جديد بعد اجتيازه في الاختبار الروحي الجديد بتشجيع قوي منها. وأما القضية الثانية قضية وليم عامر وغريمه سعادة النائب ج.ج. فاستمرت لأشهر طويلة.. وكان ناجي يتابع تفاصيل سير الجلسات.. وكاد سعادته ولسبب نفوذه القوي، أن يخرج من الجريمة سالماً معافى.. ويلبسها لشاديه وحدها التي كانت موقوفةً أيضاً وتحضر الجلسات. وأدرك ناجي الحقيقة كلها.. وبوضوح تام.. أن شاديه هذه التي أحبها وليم عامر حباً عظيماً ما أحبته هي يوماً.. وإنما تزوجته لكي تنفذ المؤامرة مع سعادة النائب ج.ج. لكي تثأر لأختها نورما من أمها وليس من أبيها.. وما عرف وليم عامر يوماً أن شاديه مطر هي أخت نورما الحاج من أم واحدة وأبوين مختلفين. نورما الفتاة الناعمة التي وعدها بالزواج وأخلّ بوعده، فأصيبت الفتاة بصدمة نفسية كبيرة وأدخلت المستشفى، ولم تشفَ قط من حالتها البائسة هذه منذ

تلك الأعوام البعيدة.

وأغلقت يد الحياة كتاباً آخر من كتب سِيَر البشر في هذا الوجود. كل إنسان كتاب.. وأحياناً سفر واحد يضم بين دفتيه عدداً من الشخصيات والأدوار. هذا الكتاب نهايته حزينة.. وذاك نهايته سعيدة.. بيد أن الحياة لا تقرأ الفصول كما يقرأها الناس! ليس هناك نهاية حزينة أو نهاية سعيدة.. فالنهاية بداية جديدة.. والحزن بداية سعادة والسعادة بداية حزن.. القمة بداية واد والوادي بداية قمة.. الصيف بداية شتاء والشتاء بداية صيف.. هكذا الحياة شباب لا ينتهي. الشباب دائرة عظيمة في قلبها الطفولة والشيخوخة أبداً يتساجلان. الشباب إله يحمل الشيخوخة بيد والطفولة بيده الأخرى. وعندما تتحد الأشياء والعناصر في الهياكل السرمدية.. تذوب الفواصل والتخوم والمتناقضات في وحدة منسجمة كاملة.

تمت

رقصات التيه